تراثنا

صبح الأعشى

فى

صناعة الإنشا

تأليف

أبى العباس أحمد بن على القلقشندى

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الحادى عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

ومذيلة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية

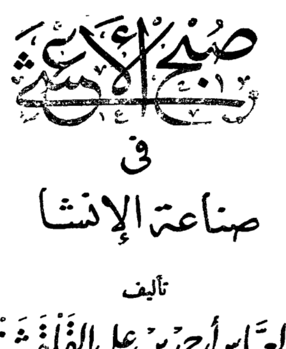
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا



٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الحادى عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية
ومذيلة
بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٩ شارع زوقف الخربوطلي بالظاهر ت ٩٠٠١١٨
القاهرة

فهـــرست

الجـــزء الحادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى



صفحة

صفحة

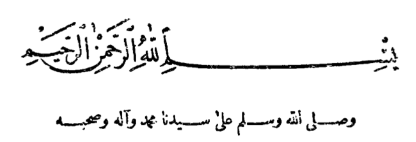
(تم فهرس الجـزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)





الجزء الحادى عشر





وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى[1]

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكتَب من الوِلَايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى مصطلَح كُتَّاب الشرق)

قد تقدّم فى الكلام على ما كان يُكتَب عن الخلفاء أنّ الوِلَايات فى الخلافة العبّاسيّة ببَغْداد كانت تَصْدُر عن الخُلَفاء دُونَ الملوك المُساهِمين لهم فى الأمر ، لا يُشارِكونَهم فى شىء من الوِلَايات أصلا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الوِلَايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكتَب عن ملوك بنى جَنْكِزخان من البيت الهُولاكوهى فمَنْ بعدَهم . ولم أقِفْ على شىء من مصطَلَحهم فى ذلك فأُورِدَه هنا .

---

(١) وقع سهوا فى آخر الجزء العاشر أن أوّل الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثانى" .

الطـــرف الثـانى

(فى مصطلح كُتّاب الغرب والأندلس فيما يكتب من الولايات عن الملوك)

وآعلم أنهم يعبّرون عما يُكتَب فى جميع ولاياتهم بالظّهائر: جمع ظَهِير[(١)]، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدّم بيانُه فى الكلام على ما كان يكتب عن خُلَفاء المَغرِب .

ثم هى على ثلاثة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السّيوف)

وهـذه نسخةُ ظَهِيرٍ بنيابة السـلطنة بالحضرة من إنشاء أبى عبـد الله بن الخطيب، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ ، منْزِلتُه فى الظهائر منزِلةُ المعتَمدِ به من الظُّهَراء ، ومحـلُّه من الصُّكوك ، الصادرة عن أعاظم المُلُوك، محلّ أُولِى الرايات، الخافقة العَذَبات، والآراء . فتح على الإسـلام، من بعد الإبهام، أبوابَ السَّرّاء، وراق طِرازًا مُذْهَبا على عاتِق الدَّولة الغَرّاء ؛ وأعملَ عواملَ الجهاد فى طاعة ربّ العباد، شارعة لأهل الكفر والعِناد، من باب الإعمال والإغراء .

أمر به فلان لصَدْر صدُور أوِدّائه ، وحُسَامه المشهورِ على أعدائه ، ووليِّه الذى خَبَر صِدْقَ وفائه ، وجلّى فى مِضْمار الخُلُوص له مُعتَبِرًا فى وجوه أكفائه . شيخ شُيوخ المجاهدين ، وقائدِ كتائبه المنصورة لغَزْو الكافرين والمعتدين ؛ وعُدّته التى يُدافع بهـا عن الدّين، وسابِق ورْدِه المبرّز فى الميادين، الشيخ الأجلّ الأعزّ الأسنى ، الأمجد،

---

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع" . وقد جمعه القراء على ظهراء . وفى شرح الأشمونى عن بعض النحويين أنه يشترط فى جمع فعيل على فعلاء أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأسْعد ، الأصْعد ، الأغنى ، الأحْمى ، الأحَب ، الأوصل ، الأفضل ، المجاهد ، الأقضَى ، الأرضى ، الأمضى ، الشهيد ، المقدّس ، المرحومِ أبى عبد الله بدرِ الدين آبن شيخ الشُّيوخ وعلَمِ الأعلام ، المدافِعِ عن حَوْزة الإسلام ، البعيد الغارة فى تُخُوم عَبَدة الأصنام ، الشيخ الكبير ، الجليل الخطير ، الرفيع ، الصَّدْر ، المعَظَّم ، الموقَّر ، صاحب الجهاد الأرضى ، والعزْم الأمضى ، المقدّس ، المرحومِ أبى عِمْران (موسى) آبن أبى زيد رحو بن يحيى بن عبدالحق بن محيو ، وصلَ الله سعدَه ، وحَرَس مجدَه ، وبلَّغه من مظاهَرة دولتِه وموازَرة خلافته قصْدَه . رَفَع قُبَّة العناية والآختيار علىٰ عِمَاد ، وأشادَ بدَعْوة التعظيم [مُسْمِعًا[1]] كلَّ حىّ وجَماد ، وقابل السعْىَ الكريمَ بإحْماد ، وأورد من البِرِّ غيرَ ثِماد ، وآستظهَرَ بالوفاء الذى لم تستتِرْ نارُه برَماد ، ولا قصَّرت جِيادُه عن بُلوغ آماد ؛ وقلَّد سيفَ الجهاد عاتِقَ الحَسَب اللُّبَاب ، وأعْلَق يدَىْ الآستظهار بأوْثَق الأسباب ، وآستغلَظَ على الأعداء بأحبِّ الأحباب . لَمَّا قامتْ له البراهينُ الصادقةُ علىٰ كَرَم شِيَمه ، ورُسُوخ قَدَمه ، وجَنَىٰ منه عند الشِّدّة وآلتمحيص ثمرَةَ ماأوْلاه من نِعَمه ، قابل بالرَّعْى كرائمَ ذِمَمه ، وعظائمَ خِدَمه ؛ وشدّ اليَدَ علىٰ عهده الذى عرفه حِينَ آنتكثت العُقَد وأخْلَق المعتَقَد ، وآستأسد النَّقَد[2] ، وتنكَّر الصديق ، وفرِق الفَرِيق ، وسُدّت علىٰ النَّظرة الطَّريق ، وتميز المغرق والغَرِيق ؛ فأثقَلَ له ميزانَ المُكافات ، وسجَّل له رسْمَ المُصافات ؛ وجعله يمينَ المُلْك الذى به يُناضِل ، ويُقاطِع ويُواصِل ؛ وسيفَ الجهاد ، الذى يحمى بمَضَائه حَوْزةَ البِلاد ، ومرْآةَ النُّصْح التى تتجلَّى بها وجوهُ الرَّشاد . فقدّمه ــ أعلىٰ الله قدَمَه ، وشكَر

---

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتّاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفل من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذلّ من النقد . أنظر اللسان .

نعمَه، وأسعده فيا يمّمه، ونَشَر بالنصر علَمه ـ شيخَ الغُزاة بحضرته العليّه، وسائر بلاده النصريه : ترجعُ القبائلُ والأشياخ إلىٰ نظره فى السَّكَنات، وتَستدرّ علىٰ يده من مقامه الكريم غُيومَ البركات؛ وتُقرّر وسائلَها بوَساطة حُظْوته، وتقصَّر خُطاها اعترافا بحقّه الواجب عن خُطْوته. فعليه تدورُ أفلاكُ جماعاتهم كُلّما اجتمَعُوا وأْتَلفُوا، وبحجة فضله يزولُ إشكالُهم مهما اختلَفُوا؛ وبلسانِه المُبِينِ يقرّرلهم ما أسلَفُوا، وفى كَنَف رَعْيِه ينشأ من أعقبوا من النَّشأة وخلَّفُوا؛ وبإقدامه تنهَضُ أقدامهم مهما توقّفُوا. فهو يَعْسُوبُ كتائبهم الملتفّه، وفِرْزانُ قِطَعهم المصْطَفّه؛ وشَهْمُ جوارِحهم الفارِهه، وعَيْنُ عيونهم النَّابهه، وتأويلُ أمورِهم المتشابهه؛ عَنْ نظره يَرِدُون ويَصدرون، وبإشارته يَرِيشُون ويَبْرُون وآثارَه يقتفُون، وبتَلْعة دوّاره المَرِينِيّ فى خدمة مقامه النصريّ يَقِفُون. فهو الذى لا تأنَفُ أشرافُ القبائل من اقتفاء آثاره، ولا تجهل رِفعةَ مِقداره؛ فلبيته المَزِيّةُ بالحق، المستوجبةُ للفخر بسابقة السعادة لعبد الحَقّ؛ ولذاته قَصَبُ السبق، ولوَفَائه الشُّهرة فى الغرب والشَّرْق.

فليتولَّ ذلك ـ تولّاه الله ـ منْشرِحا بالعز صدْرُه، مستمدّا[1] من شمس سعادته بدْرُه، معروفا حقُّه معظَّما قدرُه؛ فهى خُطّة قومه، وفريسةُ حَوْمه، وطِيَّة أمسِه ويومِه؛ وكُفْءُ خِطْبته، ومَرْمىٰ رُتْبته؛ وحَلْيُ جِيده، ومَظْهَرُ توفيقه وتسديده. مُطْلِقا من عِنان الثناء، علىٰ أهل الغَناء، معاملا بصادق الإطراء، لذوى الآراء؛ متغَمّدا بالإغضاء، هَفَواتِ أهل المَضَاء؛ معرِّفا بالقبائل، والعشائر والفصائل؛ كُلّما وفدُوا من الآفاق للاستلحاق؛ منبّها علىٰ مَظَانّ الاستحقاق، مُطبِّقا للطباق، مميِّزا لجيادها يومَ السِّباق؛ حريصا علىٰ إنماء الأعداد، مطبّقا مَفاصِلَ السَّداد؛ محتاطا علىٰ الأموال التى تمترى

(١) فى ريحانة الكتاب «مشرقا» .

بهـا أكُفُّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعًا مالَ الله حيثُ وضـعه الحق من الوَرَع والاستـداد، [لا] سيَّما فى هذه البِلاد؛ حتَّىٰ تعظُم المَزَايا والمَزَاين، وتتوفّرَ الكتائبُ والخَزائن ويبتهجَ السامعُ ويُسرَّ المُعاين؛ ويظهر الفضلُ علىٰ من تقدّم، وأنَّ الظُّهَراء كَمْ غادَرت من متردَّم، ويتحسَّرَ من قَصَّر ويتندّم، وعند الله يَجِدُ كلٌّ ماقدّم . فهى قلادةُ الله التى يُضيع مَنْ أضاعها، ويَرْضىٰ عمن أعمل فيها أوامِرَه وأطاعها . وهو، ـ وصلَ الله سعادتَه! وحرس مَجادَتَه! ـ أَوْلىٰ مَن لاحظَ ضرائرها، واستطلع من ثَنـايَا التوكل علىٰ الله بَشائرها : نَسـبًا وحسَبا ، وجدًّا وأبا؛ وحَدَا وشَـبَا ؛ ونَجْدة وضَحتْ مَذْهَبا .

وعلىٰ الغُزاة ـ وفَّر الله جموعَهم! وأنجدَ تابعهم ومتبوعَهم! ـ أن يعرفوا قدْرَ هذا التعظيم الذى خفَقتْ أعلامُه، ووَضَحتْ أحكامُه؛ والاختصاص الذى لَطُف محلُّه، والاعتناءِ الكريم الذى ضَـفَا ظِلُّه ؛ فيكونوا من إيجـاب حقِّه حيثُ حَدّ ورَسَم ، وميَّز ووَسَم؛ لايتخلّف أحد منهم [فى خدمتـه][2] أيده الله عن إشـارته الموفَّقه، ولا يَشِذُّ عن رياسته المطلقه؛ بحول الله تعالىٰ وقوّته .

⁂

وهذه نسخة ظَهير بنِيابة السلطنة ببعض الأعمال، وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ، مضمَّنُه استجلاءٌ لأمور الرَّعايا واستِطْلاع، ورعايةٌ كَرُمت منها أجناسٌ وأنواع؛ وعدْلٌ بَهَرمنه شُعَاع، ووصَايَا يجب لها إهْطاع .

أصدَرْناه للفقيه أبى فلان. لمَّـا تقرّر لدَيْنا دِينُـه وعدلُه وفضـله رأينا أنّه أحقُّ مَن قَلّده المُهمَّ الأكيد، ونرمِى [به][2] من أغراض البِرِّ الغرَضَ البعيد؛ ونَستكْشف به

(١) فى "ريحانة الكتّاب" التى لايضيع من أضاعها ، ويوفى ضاعها .

(٢) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

أحوالَ الرَّعايا حتىٰ لايغيب عنا شيءٌ من أحوالها، ولايتطرّقَ إليها طارقٌ من إهمالها، ويُنهِى إلينا الحوادثَ التى تنشأُ فيها إنهاءً يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها . وأمرناه أن يتوجه إلىٰ جهة كذا ــ حاطها الله ــ فيجمعَ الناس فى مساجدهم، ويندُبُهم من مَشَاهدهم . ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم، وإحساب[(١)] آمالِهم، ومكابدتنا المشــقّةَ فى مُدَاراة عدوّهم الذى يعلم من أحوالهم ماغاب عنهم ــ دفعه الله بقدرته، ووَقَىٰ نفوسَهم وحريمهم من مَعَرّته ــ وبمـا رأينا من أنْبتات الأسباب التى فيك تُؤمَّل، وعَجْزِ الحِيَل التى كانتْ تُعْمَل . ويستدْعِى إنجادَهم بالدعاء، وإخلاصَهم فيه إلىٰ ربِّ السماء . ويسأل عن سيرة القُوّاد، وولاة الأحكام بالبلاد : فمن نالَتْه مَظْلِمة فليرفَعْها إليه، ويقُصَّها عليه: ليبلِّغها إلينا، ويُوفِدَها مقرَّرةَ المُوجَبات علينا . ويختبِرُ ماافتُرِض صَدقةً للجبـل، وما فَضَـل عن كريم ذٰلك العمَل : ليعيِّن لبنـاء الحصن بجبـل قارة يَسَّر الله لهم فى إتمـامه، وجعل صـدَقتَهم تلك مِسْكَ ختامه، وغيْرَه ممـا افتُرِض إعانةً للسافرين، وإنجـادًا لجهاد الكافرين؛ فيعْـلَمَ مقـدارَه، ويتولّى اختبـارَه؛ حتىٰ لايُجْعـلَ منـه شيءٌ علىٰ ضعيف، ولا يُعدلَ به لمشروف عن شريف، ولا تقَع فيه مضايقةُ ذى الجـاه، ولا مخادعةُ غير المراقب لله. ومتىٰ تحقّق أن غنيًّا قُصِّر به فيه عن حقه، أو ضعيفا كُلِّف منه فوق طَوْقه، فيُجبِر الفقيرَ من الغنيّ، ويَجْرِى من العَـدْل علىٰ السَّنَنِ السوىّ ــ ويُعلِم الناس أن هـذه المَعُونةَ وإن كانت بالنسبة إلىٰ محـلّ ضرُورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافا كثيره؛ ليست ممـا يَلْزم، ولا من المَعَاون التى بتكريرها يُجْزَم ــ وينظر فى عهود المتوفين فيصرفُها فى مَصَارفها المتعينه، وطُرُقها الواضحة البيِّنه ــ ويتفقّد المساجد تفقُّدا يكسُو

(١) فى القاموس «أحسبه أرضاه» .

عادِيَها ، ويُتَمِّم منها المآربَ [تمَّما] يُرضى بارِيَها ـ ويندُبُ الناس إلىٰ تعليم القرءان لصبْيانهم ، فذٰلك أصلُ أديانهم . ويحذِّرهم المغيب عن كل شيء من أعشارهم فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام، وقد آخترنا لهم بأقصىٰ الجدّ والاعتزام، ورفعْنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الاهتمام؛ وقدّمنا الثّقات لهذه الأحكام، وجعلنا الخَرْص شرعيّاً فى هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله من الأعوام .

ومن أهمِّ ما أسندناه إليه ، وعوّلْنا فيه عليه ، البحثُ بتلك الأحْواز عن أهل البِدَع والأهواء ، والسائرينَ من السبيل علىٰ غير السَّواء ، ومَنْ يُنْبَزُ بفساد العَقْد ، وتحريف القصْد ، والتلبُّس بالصوفيّة وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبينَ إلىٰ الإباحة وتأويل المَعَاد ، والمؤلِّفين بين النساء والرجال ، والمتتبِّعين لمذاهب الضَّلال . فمهما عثَر علىٰ مُطَوّق بالتهمه ، منبَّز بشيء من ذٰلك من هذه الأُمَّه ، فليشُدّ وَثاقَه شدّا ، وليسُدّ عليه سبيلَ الخَلَاص سدّا ، ويستْرعِ فى شأنه المُوجَبات ، ويستَوعِب الشهادات ، حتىٰ ننظر فى حَسْم دائه ، ونُعالِجَ المرَضَ بدوائه ؛

فليتولَّ ماذكرنا نائبا بأحسن المَنَاب ، ويقصِدْ وجهَ الله راجيا منه جزيلَ الثواب ، ويعمَلْ عملَ مَنْ لا يخاف فى الله لومة لائم ليجدَ ذٰلك فى مواقف الحساب ؛

وعلىٰ من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحُكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة علىٰ ماقرّرناه فى هذه الفصول : من العمل المقبول والعدْل المبذول . ومن قصَّر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتَضَياته ، فعقابُه عقابُ من عصىٰ أمر الله وأمرنا فلا يلومَنَّ إلا نفسه التى غرّته ، وإلىٰ مَصْرَع النكير جرّته ، والله المستعان .

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ بلغ فيه الاختيار، الذى عضّده الاختبـار[(١)]، الى أقصى الغايه؛ وجمع له الوفاقُ، الذى خدَمه البختُ والاتفاق، والأهليّةُ التى شهدت بها الآفاق، بين نُجْح الرأى ونَصْر الرايه ؛ وأنتجتْ به مقدّماتُ الولَاء نتيجةَ هـذه الرتبة السامية العَلَاء والولايه . وآستظهر من المعتمد به، على قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبِه، بلَيْث من لُيُوث أوليائه شديد الوطْأة على أعدائه والنّكايه؛ وفرع من فروع المُلْك الأصيل معروفِ الأُبُوّة والإبايه ؛ لتتضح حجةُ النصر العزيز والفتح المبيـن ذى القوة المتين محكمةَ الآيه، وتدل بدايةُ هـذه الدولة الرافعة لمَعَالم الدين، المؤيَّدة فى الأقوال والأفعال بمَدَد الرُّوح الأمين ، على شرَف النّهـايه .

أصـدرحكمَه وأبرز حُكْمَه ، وقرّر حدّه المـاضىَ ورسْمَه ، عبـدُ الله ، الغنىُّ بالله [محمدُ ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر][(٢)] ــ عَضَّد الله كتائبه وشدّ عَضُده، ويَسّر فى الظهور على أعداء الله قَصْده ــ لوليِّه المستولِى على مَيادين حُظوته وإيثاره، الفـائز بالقِدْح المُعلّى من إجلاله وإكباره؛ ظهيرِ آستنصاره، وسيفِ جهاده المُعَـدّ لصدق ضريبته ويوم آفتخاره، ويَعْسُوبِ قبائل الغُزاة بأصقاعه الجهاديّة وأقطاره، الأميرِ أبى عبد الرحمن، آبن الأمير أبى علىّ، آبن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسفَ يعقوبَ بن عبدالحق ــ وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمسـلمين بمظاهَرته إيّاه على الكافرين سابِقَ وعده، لمّـا وفد على بابه الكريم

(١) فى ريحانة الكتاب « بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى » الخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة"

مؤثرا[1] على ما كان بسبيله عن جِوَاره، ملقيا بمحلّة الجهاد عصا تَسْياره، مفضّلا ماعند الله علىٰ رحْب أوطانه وأقطاره؛ شيمةُ من أسرع إلىٰ خير الآخرة بِبِدَاره، قبل ٱكتمال هلالِه وإبْداره، وعلىٰ ٱنبعاث أمله وترامى همه وٱستقامة مَدَاره ـ قابل أيده الله وقادته بالقَبُول الممدوح، والصَّدْر المشروح، والعناية العاليـة ٱنظاهر والصُّروح؛ وجعل له الشِّرْب المُهَنَّى فى مَنَاهل الصنائع التى صنَع الله لُمْلكه والفُتُوح؛ ولم يَدَّخر عنه تقريبًا يَقف الأولياءُ دُون مَدَاه، وترفيعًا تشهد به محافلُ المُلْك ومتدَاه؛ إلىٰ أن ظَفِرت بحقيقة الموالاة الكريمة يَدَاه، ثم ٱستظهر به على أعداء الله وعِدَاه، فوفَّى النُّصح لله وأدّاه، وأَعْمَره وأبْداه، وتحلَّى بالبسالة والجَلَالة والطَّهارة، اللائقـة بمنْصب الإمارة، فى رَوَاحه ومَغْداه؛ حتَّىٰ ٱتفقت الأهواءُ علىٰ فضله وعَفَافه، وكمال أوصافه وظهرتْ عليه مَخايِلُ أسلافه. ثم رأىٰ الآن ـ سدّد الله رأيه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ـ أن يُوفِد ركائبَ الٱعتقاد الجميل علىٰ جَنَابه، ويُفَسِّح مَيْدانَ الٱستظهار بحُسْن مَنَابه، ويصِلَ أسبابَه بأسبابه؛ ويُضاعِف بَولائه الصادق ٱهتمامه، ويُقيمَه فى قَوْد عساكر الجهاد البَرّ مقامه؛ فأضفَىٰ ملابس وُدّه عليه، وجعله فاتح أبوابِ الجنـة بفضل الله بينَ يَدَيْه؛ وأجراه مُجْرىٰ عضُده الذى يَصْدُق عنـه الضربةُ فى المَجَال، وسيفه الذى يُفرِّج به مضايقَ الأهوال؛ ونَصَبه للقبائل الجهادية قِبْلة فى مناصحة الله ومناصحة مَشْروعه؛ ورايةً سـعيدةً فى مظاهرة مَتْبوعه؛ وعقد له الولايةَ الجهاديَّة التى لا تَعْدَل بولايه، ولا تُوازَنُ عنايةَ المعتمَد بها بعنايه؛ يشهد بصَراحة نسبها الدين، وتحلَّى بحِلَى غُرَّتها المَيَادين. فالجهاد فى سبيل الله نِحْلةُ نبيّ الأُمّه، ومَنْ بعده من الأئمه؛ لاسيَّمَا فى هـذا القطر المتأكّد فيه ذٰلك لأُولِى الدِّين والهِمّه.

(١) لعله "مؤثرا له علىٰ ما كان يشغله عن جواره" تأمل.

فليتولَّ ذلك تولِّىَ مثله وإن قلَّ وجودُ مثله، جاريًا علىٰ سَنَن مَجْده وفضله، سائرا من رضا الله علىٰ أوضح سبُله، معتمدا عليه فى الأمر كلّه.

ولْيَعلَم أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هيّأ له من أمره رشدًا، وسلك به طريقًا سَدَدًا(١)، واستعمله اليومَ فيما يُحْظيه غدا، وجعل حظّه الذى عوّضه نُورًا وهُدى، وأبعد له فى الصالحات مَدى — ولينظرْ فيما لديه من القبائل الموفُوره، والجموع المؤيّدة المنصوره، نظرًا يُزيح العِلل، ويبلِّغ الأمل، ويَرعىٰ الهَمَل(٢)، ويُحْسن القول ويُنْجح العمل؛ منبِّها علىٰ أهل الغَنَاء والاستحقاق، مستدِرًّا للعوائد والأرزاق، معرِّفا بالغرباء الواردين من الآفاق، مُطبِقًا منهم للطباق، متَغَمِّدًا للهفَوات بحسن الأخلاق؛ مستجيدًا للأسلحة والكُرَاع(٣)، مبادرًا هَيْعات الصَّريخ بالإسراع؛ مسترعيا للشُّورة التى يقع الحكمُ فيها عن حصول الإجماع، رفيقا بمن ضَعُف عن طُول الباع؛ محتاطًا علىٰ الإسلام فى مواقف الدِّفاع، مُقْدما عند اتِّجاه الأطماع؛ صابرًا فى المَضَايق علىٰ القِرَاع، متقدِّما للأبطال بالاصطناع، مقابلا نصائحَ أُولى الخِبْرة بحُسْن الاستماع، مستعملا فى الحروب ماأجازه الشرعُ من وُجوه الخِداع؛ حتىٰ يكون عملُه وَفْق شُهْرته البعيدةِ المَطَار، وسيرتُه فيما أُسند إليه مثَلًا فى الأقطار، واستقامةُ التدبير علىٰ يديه ذريعةً إلىٰ إرغام أُنوف الكُفّار؛ بقوّة الله وحوله وعزّته وطَوْله.

وعلىٰ الغُزاة بالحضرة العليه، وسائر البلاد النَّصْريه؛ من بنى مَرِين، وسائر القبائل المجاهدين، أن يعرفوا قدْرَه، ويمتثلُوا فى مرضاتنا أمْرَه؛ ويكونُوا معه رُوحا ويَدًا

---

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل اسم جمع لهامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره رائح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو . انظر القاموس .

وجَسَدا، وساعدا وعضُدا؛ فبذلك يشملُه من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبُول، والعزُّ الموصـول؛ ويُمضِى فى عدُوّ الله النُّصُول، ويتأتّى علىٰ خير الدنيا والآخرةِ الحُصُول، إن شاء الله . ومَنْ وقف عليه، فليعرفْ مالديه؛ بحول اللهِ تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة ظهير بالتّقدمة علىٰ الطبقة الأولىٰ من المجاهدين، لولد السلطان، وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ، فاتَحَ بنشر الألوية والبُنُود، وقَوْد العساكر والجنود؛ وأجالَ فى مَيْدان الوجود، جِيادَ البأس والجُود ؛ وأضْفىٰ سِتْر الحِمَاية والوقاية بالتّهائم والنُّجود، علىٰ الطائفين والعاكفين والرُّكّع السُّجود ــ عقَد للعتَمد به عَقْد التشريف والقـدر المُنِيف زاكِىَ الشُّهود ؛ وأوجب المنافَسةَ بين مجالِس السُّروج ومَضَاجِع المُهُود ، وبَشَّر السـيوف فى الغُمُود ، وأنشأ رِيحَ النصر آمنـةً من الخُمُود ــ أمضىٰ أحكامه، وأنهد العزَّ أمامَه، وفَتَّح عن زهرِ السُّرور والحبور أكمامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجـاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد فرج بن نصر ــ أيد الله أمره، وخلّد ذكره ــ لكبير ولده، وسابق أمده ، ورَيْحانة خَلَده ، وياقوتة الملك علىٰ يده؛ الأميرِ الكبيرِ، الطاهرِ الظاهرِ، الأعلىٰ، واسِطةِ السلك، وهِلال سمـاء المُلْك، ومِصْباح الظُّلَمَ الحُلْك، ومَظِنَّة العناية الإلهيّة من مدَبِّر الفَلَك ومُجْرِى الفُلْك ؛ عُنْوانِ سـعده ، وحُسامِ نصره وعَضْـده ؛ وسَمِىِّ جدّه ، وسلالةِ فضله ومجده ؛ السعيد، المظفَّر، الهُمَام، الأعلىٰ، الأمضىٰ، العالِم، العادِل، العامل ، الأرضىٰ، المجاهد، المؤمَّل، المعظم، أبى الحجاج يوسف ــ ألبسه الله من رضاه عنـه حُلَلا لا تُخْلِق جِدّتَهـا الأيام ، ولا تبلغُ كُنْهَها الأفهام ؛ وبلغه فى خدمه المبـالغَ التى يُسَرُّ بها الإسلام ، وتسبح فى بِحَار صفاتها الأقلام ، ويحرس

معاليه الباهرة بيمينه التى لا تسام، وكنفه بركنه الذى لا يضام ـ فهو الفرع الذى جرىٰ بخصله علىٰ أصله، وارتسم نصره فى نصله، واشتمل جده علىٰ فضله، وشهدت ألسن خلاله، برفعة جلاله؛ وظهرت دلائل سعادته، فى بدء كل أمر وإعادته .

ولما صرف وجهه إلىٰ ترشيحه لافتراع هضاب المجد البعيد المدىٰ، وتوشيحه بالصبر والحلم والبأس والندىٰ، وأرهف منه سيفا من سيوف الله لضرب هام العدا، وأطلعه فى سماء الملك بدر هدىٰ، لمن راح وغدا؛ وأخذه بالآداب التى تقيم من النفوس أودا، وتبذر فى اليوم فتجنى غدا، ورقاه فى رتب المعالى طورا فطورا، ترقى النبات ورقا ونورا؛ ليجده بحول الله يدا باطشة علىٰ أعدائه، ولسانا مجيبا عند ندائه، وطرازا علىٰ حلة عليائه، وغماما من غمائم آلائه، وكوكبا وهاجا بسمائه . وعقد له لواء الجهاد علىٰ الكتيبة الأندلسية من جنده، قبل أن ينتقل من مهده؛ وظلله بجناح رايته، وهو علىٰ كتد[1] دايته، واستركب جيش الإسلام ترحيبا بوفادته، وتنويها بمجادته، وأثبت فى غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ـ رأىٰ أن يزيده من عنايته ضروبا واجناسا، ويتبع أثره ناسا فناسا؛ قد اختلفوا لسانا ولباسا، واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماسا؛ ممن كرم آباؤه، وازينت بالحسب الغر[2] سماؤه، وعرف غناؤه، وتأسس علىٰ المجادة بناؤه؛ حتى لا يدع من العناية فنا إلا جلبه إليه، ولا مقادة فخر إلا جعلها فى يديه، ولا حلة عز إلا أضفىٰ ملابسها عليه .

وكان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية ـ أمن الله خلالها، وسكن زلزالها، وصدق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالها ـ كلف همته، ومرعىٰ

(١) الكتد بفتح التاء وكسرها أعلى الكتف والداية الظئر؛ أنظر اللسان .

(٢) لعله الاغر وفى ريحانة الكتاب «الخالص» .

أذمته ؛ وميدان جياده ، ومتعلق أمد جهاده ، ومعراج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ؛ وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ؛ فلم يدع له علة إلا أزاحها ، ولا طلبة إلا أجال قداحها ، ولا عزيمة إلا أورى اقتداحها ، ولا رغبة إلا فسح ساحها ؛ آخذا مروءته بالتهذيب ، ومصافه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، وتأنيس المريب ، مستنجزا له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ؛ ورفع عنه لهذا العهد نظر من حكم الأغراض فى حماته ، واستشعر عروق الحسائف لشريف كماته ؛ واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجلب جباته ، وتثمير ماله وتوفير أقواته ، ذاهبا أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ؛ فانفرج الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضى الفريق .

رأى ــ والله الكفيل بنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ــ أن يحمد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ؛ ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعتزازه ، من يجرى مجرى نفسه النفيسة فى كل معنى ، ومن يكون له لفظ الولاية وله ــ أيده الله ــ المعنى ؛ فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ، ومقاد الجنائب ، وأجمة الأبطال ، ومزنة الودق الهطال ؛ المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ؛ وسائر قبائل بنى مرين ، ليوث العرين ؛ وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولى الوسائل ؛ ليحوط جماعتهم ، ويرفع بتفقده إضاعتهم ، ويستخلص لله ولأبيه ــ أيده الله ــ طاعتهم ؛ ويشرف بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار ، على فلك سعادة الأقدار ، كواكبهم ؛ تقديما أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، وأحس باقتراب ما أمل ؛ فللخيل اختيال ومراح ، وللأسل السمر اهتزاز وارتياح ، وللصدور انشراح ، وللامل مغدى فى فضل الله ومراح .

فليتولّ ذلك ـ أسعده الله ـ تولّىَ مثله ممن أُسرّة الملك أسرتُه، وأُسْرة النّبى صلى الله عليه وسلم أُسرته ، والمَلِكُ الكريم أصلٌ لفرعه، والنسبُ العربىُّ مَفْخر[1] لطيب طبعه ، آخذًا أشرافَهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارِهم ، مقرّبًا حُسْن اللقاء بإيثارِهم ، شاكرا غَناءهم ، مستديما ثناءهم ، مستدرًّا لأرزاقهم ، موجبا للزيّة بحسب استحقاقهم ، شافعا لديه فى رَغَباتهم المؤمَّله ، ووسائلهم المتحمَّله ، مسهلا الإذنَ لوُفودهم المتلاحقه ، مُنَفِّقا لبضائعهم النافقه ، مُؤْنسا لغُرَبائهم ، مستجليًا أحوالَ أهليهم وآبائهم، مميزا بينَ أغفالهم ونُبهائهم .

وعلىٰ جماعتهم ـ رعىٰ الله جِهادهم ، ووَفّر أعدادهم ـ أن يطيعُوه فى طاعة الله وطاعةِ أبيه، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ دِفاع أعادى الله وأعاديه ، ويَشُدّوا فى المواقف الكريهة أَزْرَه، ويمتثلوا نَهْيَه وأمره ؛ حتّى يعظُمَ الانتفاع، ويُثْمِر الدِّفاع، ويَخلُص القَصْدُ لله والمُطَاع ؛ فلو وجد ـ أيده الله ـ غايةً فى تشريفهم لبَلَّغها ، أو مَوْهبةً لسوَّغها ؛ لكن مابعدَ ولده العزيز عليه مَذْهَب، ولاوراء مباشرتهم بنفسه مَرْغَب ؛ والله منْجِح الأعمال، ومبلِّغ الآمال، والكفيل بسعادة المآل .

فمَن وقَف علىٰ هذا الظَّهير الكريم فليعلَمْ مقدارَ ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع ، ونخرٍ مستنِد إلىٰ إجماع ، ووجوبِ اتّباع ، وليكن خيرَ مَرْعيٍّ لخير راع ، بحول الله .

وأقطعه ـ أيده الله ـ ليكونَ بعضَ المَدَد لأزواد سَفَره، وسِمَاط قَفْره ؛ فى جملة ما أَوْلاه من نعمه ، وسوّغَه من مَوادّ كرمه ـ جميعَ القرية المنسوبة إلىٰ عَرَب غَسّان : وهى المَحَلة الأثيره ، والمنزلةُ الشهيره ؛ تنطلق عليها أيدى خُدّامه ورجاله ،

---

(١) فى الريحانة «منجد لطيب» الخ .

جارية مجرى صالح ماله ، محترزة من كل وظيف لاستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعان سبحانه ، وكتب فى كذا .

وهذه نسخة ظهير لمشيخة الغزاة بمدينة مالقة ، وهو :

هـذا ظهير كريم أطلع الرضا والقبول صباحا ، وأنشأ للعناية فى جو الوجود ، من بعد الركود ، رياحا ، وأوسع العيون قرة [وإبصارا](١) والصدور انشراحا ، وهيأ للعتمد به مغدى فى السعادة ومراحا ، وهز منه سيفا عتيقا يفوق اختيارا ويروق التماحا ، وولاه رياسة الجهاد فى القطر الذى تقدمت الولاية فيه لسلفه فنال عزا شهيرا وازداد فخرا صراحا ، وكان [له](١) ذلك إلى أبواب السعادة مفتاحا .

أمر به وأمضاه ، وأوجب العمل بحسبه ومقتضاه ، الأمير عبدالله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى الحجاج [يوسف](١) ابن مولانا أمير المسلمين ، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر ـ أيد الله أمره وأعز نصره ، وأسعد زمانه وعصره ـ لوليه فى الله الذى كساه مولاه من جميل اعتقاده حللا ، وأورده من عذب رضاه منهلا ، وعرفه عوارف قبوله مفصلا خطابها ومجملا ؛ الشيخ أبى العلا ، إدريس ، ابن الشيخ أبى سعيد عثمان ، بن أبى العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس على(٢) مجادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه على [أحمد عادة سلفه](١) وعادته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) فى ريحانة الكتاب «أكناف»

ولمّا كان له القدْر الجليل، والمجدُ الأثيل، والذكرُ الجميل. والفضائلُ التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل، وأحرزَ قصبَ السَّبْق بذاته وسلَفِه إذا ذُكِر المجدُ العريض الطويل، وكان قد أعملَ الرِّحْلة إليه يَحْدوه إلىٰ خدمته التأميل، ويَهْوِى به الحُبُّ الذى وَضَح منه السبيل، وعاق عنه الواقعُ الذى تبيَّن فيه عُذْرُه الجميل، ثم خلَّصه الله من مَلَكة الكفر الخلاصَ الذى قام به علىٰ عنايته الدليل ـ قابله بالقَبُول والإقبال، وفَسَح له مَيدانَ الرضا رَحْبَ المَجال، وصرَف إليه وجهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمـال، سافرًا عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلىٰ رَبْوة متَّسعة الأرجاء وارفة الظِّلال، وقطَع عنه الأطماعَ بمقتضىٰ همته البعيدةِ المَنَـال. ثم رأى ـ والله يُنْجِح رأيه، ويشـكر فى سبيل الله عن الجهاد سعْيَه ـ أن يستظهرَ بمَضَائه، ويرسل عليه عَوَارفَ آلائه، ويعَمِّر به رُتَبَ آبائه. فقدَّمه ـ أعلى الله قدَمه، وشـكر [آلاءه] (١) ونِعَمه ـ شـيخَ الغُزاة والمجاهدين، وكبيرَ أُولى الدِّفاع عن الدين؛ بمدينـة (مالَقَةَ) حَرَسها الله أختِ حضرة [دار] (١) ملكه، وثانيةِ الدُّرّة الثمينة من سِلْكه؛ ودارِ سلَفه وقَرَارة مجْده، والأفقِ الذى تألَّق منه نُور سـعده؛ راجعًا إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدةَ وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد، والعزّ الفسيح المَجال البعيدِ الآماد، يقودُ جميعَها إلىٰ الجهـاد، عاملًا علىٰ شاكلة مجْده فى الإصـدار والإيراد، حتَّى يظهر علىٰ تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحماية والبَسَاله، ويعودَ لهـا عهدُ المَجادَة والجَلاله، وتتزيَّنَ مَلابسَ الإياله. وهو يعمل فى ذٰلك الأعمـالَ التى تليق بالمَجْـد الكريم، والحَسَب الصـميم، حتّى يتوَعدُ الحُـماه، ويكُفَّ البأسَ أكُفَّ الغُزاة ويعظُم أثرُ الأبطال الكُماة، وتظهر ثمرة الاختيار، ويشـمل الأمنُ جميعَ الأقطار، وتحسِمَ عنه أطماعُ الكفَّار.

(١) الزيادة من "الريحانة".

وعلى من يقف عليه من الفُرسان ـ وفر الله أعدادهم، وأعز جهادهم ـ أن يكونوا ممتثلين فى الجهاد لأمره، عارفين بقَدْره، مُمضين فيما ذُكر لحكمه، واقفين عند حدّه ورسمه . وعلى مَنْ سواهم من الرعايا والخُدّام، والوُلاة والحُكّام، أن يعرفوا قدرَ هذا الاعتناء الواضح الأحكام، والبِرّ المشرق القَسّام، فيُعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام . على هذا يُعتَمد، وبحَسَبه يعمل، بحول الله وقوته .

الضرب الثانى

(من ظهائر بلاد المغرب ما يُكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام)

وهذه نسخةُ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو :

هذا ظهيرٌ كريم أنتج مطلوبَ الاختيار قياسُه، ودلّ على ما يُرضى الله عز وجل التماسُه، وأطلع نورَ العناية يجلو الظلامَ نبراسُه، واعتمد بمثابة العدل من عُرِف بافتراع هَضْبتها باسُه، وألقى بيد المعتمد به زِمامَ الاعتقاد الجميل تَروق أنواعُه وأجناسُه، وشيّد مَبْنى العز الرفيع فى قُنّة الحَسَب المنيع وكيف لا، والله بانيه والمجدُ أساسُه .

أمر به، وأمضى العملَ بمقتضاه وحَسَبه، أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلد فخره ـ لقاضى حضرته العليه، وخطيب حَمْرائه السنيّه، المخصوص لديه بترفيع المزيّه، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النّصريه، قاضى الجماعه، ومصرّف الأحكام الشرعية المُطَاعه، الشيخ أبى الحسن ابن الشيخ أبى محمد بن الحسن وصل الله سعادتَه،

وحرس مجادته، وسنّى من فضله إرادته . عصّب منه جبينَ المجد بتاج الولايه، وأجال قداحَ الاختيار حتّى بلغ الغايةَ وتجاوزَ النهايه، فألقى منه بيمين عَرابةَ الرايه، وأحلّه منه محلّ اللفظ من المعنى والإعجاز من الآيه، وحشر إلى مراعاة ترفيعه وجوهَ البرّ وأعيانَ العنايه، وأنطق بتبجيله، ألسُنَ أهل جيله، بينَ الإفصاح والكنايه .

ولمّا كان له الحَسَب الذى شهدتْ به ورقات الدواوين، والأصالةُ التى قامتْ عليها صحاحُ البراهين، والآباءُ الذين أعتزّ بمضاء قُضاتهم الدّين، وطبّق[1] مفاصلَ الحكم بسيوفهم الحقّ المبين، وآزدان بمجالسة وُزرائهم السلاطين : فمن فارس حُكم أو حكيم تدبير، أو قاض فى الأمور الشرعية ووزير، أو جامع بينهما جمعَ سلامة لاجمعَ تكسير، تعدّدَ ذلك وآطّرد، ووجد مَشْرَع المجد عذْبا فَورد، وقصّرت النظراءُ عن مَدَاه فآنفرد، وفَرىَ الفرى فى يد الشّرع فأشبه السيفَ الفرنْد، وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لما دَرَس، بما حقّق ودرّس، جانيًا لما بَذَر السلفُ المباركُ وآغترس، طاهرَ النّشأة وفَوْرَها، محمودَ السّجيّة مشكورَها، متحلّيا بالسكينه، حالًّا من النّزاهة بالمكانة المكينه، ساحبًا أذيالَ الصّون، بعيدًا عن الاتّصاف بالفساد من لَدُن الكَوْن، فخطبته الخُطَط العليّه، وآغتبطتْ به الجِهادةُ الأوليّه، وآستعملته دولتُه التى ترتاد أهلَ الفضائل للرّتب، وتستظهر على المناصب بأبناء التّقى والحسَب، والفضلِ والمجدِ والأدب، ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسَب، فكان معدودا من عُدُول قُضاتها وصدُور نُبَهائها، وأعيان وُزرائها، وأولى آرائها .

فلمّا زان الله خلافته بالتمحيص، المتجلّى عن التخصيص، وخلّص مُلْكه الأصيل كالذهب الإبريز من بعد التخليص، كان ممن صَحِب ركابه الطالبَ لحق

(١) يقال طبّق السيف اذا أصاب المَفصِل فأبان العضو . انظر اللسان .

بسَيف الحق ، وسلك فى مظاهرته أوضح الطُّرق ، وجادل مَنْ حادّه بأمضى من الجِداد الذُّلق ، وآشتهر خبرُ وَقَائه بالغرب والشَّرق ، وصلَّى به صلاة السفَر والحضَر ، والأَمْن والحـذَر ، وخطب به فى الأماكن التى بَعُـد بذكر الله عهـدُها ، وخاطب عنه ـ أيده الله ـ المخاطَبَات التى حُمِد قصدُها ، حتى آسـتقلّ مُلْكُه فوق سريره ، وآبتهج منه الإسـلام بأميره وآبن أميره ، ونزل السّـتر على العباد والبلاد ببركة إيالته ويُمْن تدبيره ، وكان ألجليسَ المقرَّبَ المحـل ، والحَظِىَّ المشاوَرَ فى العَقْد والحَـل ، والرسولَ المؤتَمَن على الأسرار ، والأمينَ على الوظـائف الكِبار ، مزيِّنَ المجلس السلطانىّ بالوَقَار ، ومتحفَ المَلِك بغريب الأخبار ، وخطيبَ منبره العالى فى الجُمُعَات ، وقارئَ الحديث لديه فى المجتمَعَات .

ثم رأى ـ أيده الله ـ أن يُشْرِك رعيتَـه فى نَفْعه ، ويَصرِف عواملَ الحُظْوة إلى مزيد رفعه ، ويُجْلِسه مجلسَ الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه لإيضاح شرْعه ، وأصله الوثيق وفرعه ، وقدّمه ـ أعلى الله قدمه ، وشكر آلاءه ونعمه ـ قاضياً فى الأمور الشرعيه ، وفاصـلاً فى القضايا الدينيه ، بحضرة غَرناطة [العلية] حرسها الله تقـديمَ الآختيار والآنتقاء ، وأبقى له فخرَ السَّلَف على الخَلَف والله يمتِّعه بطول البقاء .

فليتولَّ ذلك عادلا فى الحَكْم ، مُهتَدِياً بنور العِـلم ، مسوِّياً بين الخصوم حتى فى لحظه وآلتفاته ، متصفًا من الحلم بأفضل صِفاته ، مهيباً بالدِّين ، رءوفاً بالمؤمنين ، مسـجِّلا للحقوق ، غيرَ مُبـالٍ فى رضا الخالق بسُخْط المخلوق ، جَزْلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصْـل بأمضىٰ حُسَام ، مراقبـا لله عزّ وجلّ فى النَّقْض والإبرام ، بارًّا بمَشْيخة أهل التوثيق ، عادلًا إلى سَعَة الأقوال عنـد المَضِـيق ، سائرًا من مشهور المذهب على أهـدَى طريق ـ وأوصاه بالمَشُورة التى تقـدَح زِنادَ التوفيق ، والتثبت

حتى ينبلج قياس التحقيق؛ وصيةً أصدرها له مَصْدَرَ الذِّكرىٰ التى تنفع، ويُعلى اللهُ بهـا الدرجاتِ ويرفع، وإلا فهو عن الوَصاة غنِيّ، وقصدُه قصدٌ سَنِيّ؛ والله عز وجل ولىُّ إعانته، والكفيلُ بحفظه من الشُّبُهات وصِيَانته .

[وأمره ـ أيده الله ـ أن ينظُر فى الأحباس علىٰ آختلافها، والأوقاف علىٰ شتّىٰ أصنافها] (١) واليتامىٰ التى آنسدلتْ كَفالةُ القُضاة علىٰ ضِعافها . فيذُودُ عنهـا طوارقَ الخَلَل، ويُجْرى أمورَها بمـا يتكفّل لها بالأمَل .

ولْيعلَمْ أن الله عز وجل يَراه، وأن فَلَتاتِ الحكم تُعاودُه المراجعةَ فى أُخْراه، فيدَّرِع جُنَّة تقواه، فسبحان من يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ .

فعلىٰ مَنْ يقِف عليه أن يعرف حقَّ هذا الإجلال، صائنًا منصبَه عن الإخلال، مبادرًا أمرَه الواجبَ بالأمتثال؛ بحول الله .

وكتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم فاتِح عامِ أربعةٍ وستين وسبعمائة، عَرَّف الله فيه هذا المَقامَ العلىَّ عوارفَ النصر المبين والفتح القريب، بمَنّه وكرمه، فهو المستعان لارب غيره .

✤

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا، وهو :

هذا ظهيرٌ كريمٌ أعلىٰ رتبةَ الأحتفاء [والأحتفال] (١) آختيارا وآختبارا، وأظهرَ معانِىَ الكرامة والتخصيص انتقاءً وآصطفاءً وإيثارا، ورفع لواءَ الجَلالة علىٰ مَنْ آشتمل عليها حقيقةً وآعتبارا، ورقَّىٰ فى درجات العز من طاوَلَها علاءً بهَرَ أنوارا، ودِيناً كَرُم فى الصالحاتِ آثارَا وزَكَا فى الأصالة نِجَارا، وخُلُوصا إلىٰ هـذا المَقام العلىِّ السعيد

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب، ونفح الطيب ص ٧٣ ج ٣ .

راق إظهارًا وإضمارا . أمَر به وأمْضاه ، وأنفذ العمل بحكمه ومقْتضاه ، فلان للشيخ القاضى ، العَدْل ، الأرْضَى ، قاضى الجماعة وخطيبِ الحضرة العليه ، المخصوص لدىٰ المقـام العلىّ بالحُظْوة السنيّة والمكانة الحَفِيّـه ، الفاضلِ ، الحافلِ ، الكاملِ ، الموَقّر ، المبُرور أبى الحسن ابن الشيخ الفقيه ، الوزير ، الأجل ، الأعزّ ، المـاجِد ، الأسنىٰ ، المرَفّع ، الأحْفَل ، الأصلَح ، المبارَك ، الأكمل ، الموَقّر ، المبرور ، المرحوم أبى محمد بن الحسن ـ وصـلَ الله عزّته ، ووالىٰ رفعتَه ومبرّته ، ووهب له من صلة العناية الربّانية أملَه وبُغْيته ـ لمّـا أصبح فى صُدور القُضاة العلماء مُشارا إلىٰ جَلَاله ، مستَنَدا إلىٰ معارفه المخصوصة بكماله ، مطرّزا علىٰ الإفادة العلمية والأدبيّة بمحاسـنه البديعـة وخصاله ، محفوفًا مقعدُ الحكم النبوىّ ببركة عَدَالتِه وفضلِ جَلَاله ؛ وحلّ فى هذه الحضرة العلية المحلّ الذى لا يرقاه إلّا عينُ الأعيان ، ولا يتبوّء مهادَه إلا مثلُه من أبناء المَجْد الثابتِ الأركان ، ومَوَالىٰ العلم الواضح البرهان ، والمبرّزين بالمآثر العليّة فى الحُسْن والإحسان . وتصـدّرَ لقضاء الجمـاعة فصدَرت منـه الأحكام الراجحةُ الميزان ، والأنظارُ الحسَنَةُ الأثَرِ والعِيَان ، والمقاصدُ التى وفَتْ بالغاية التى لا تُستطاعُ فى هذا المَيْدان ، فكم من قضيّة جلَا بمعـارفه مشكِلَها ، ونازلةٍ مبهْمة فتح بإدراكه مُقْفَلها ، ومسألة مُهمَلة عرّف نَـكِرَتَها وقرّر مهمَلَها ؛ حتّى قرّتْ بعدالتـه وجَزَالته العُيون ، وصدَقت فيه الآمال النـاجحةُ والظُّنون ، وكان فى تصـديره لهذه الولايةِ العُظمىٰ من الخَـيْر والخِيرة ماعسىٰ أن يكون ـ كان أحقّ بالتشفيع لولاياته وأَوْلىٰ ، وأجدرَ بمضاعفة النِّعم التى لا تزال تترادَفُ علىٰ قَدْره الأعلىٰ .

فلذلك أصدر له ـ أيده الله ـ هذا الظهيرَ الكريمَ مشيرًا بالترفيع والتنويه ، ومؤكّدا للاحتفاء الوجيه ؛ وقدّمه ـ أعلىٰ الله قَدَمه ، وشكر نِعَمه ـ خطيبًـا بالجامع الأعظم

[من حضرته] (١) - عَمَرَه الله بذكره - من عِلْية الخطباء، وكبار العلماء، ونخيار الفقهاء الصُّلحاء ؛ فليتولَّ ذلك فى جُمُعَاته، مظهرا فى الخُطْبة أثَرَ بركته وحسناته، عاملًا علىٰ مايقرّبه عند الله من مرضاته، ويُظفِره بجزيل مَثُوباته ؛ بحول الله وقوته .

الضــــرب الثـالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلىٰ المعبَّر عنه فى بلادنا بكتابة السر ؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للعتَمد به الإنافة الكبرىٰ ببابه (٢) فرَفَعه ، وأفردَ له متلُوَّ العز جمعَه ووتْره وشفعَه ، وقرّبه فى بِساط المُلْك تقريبا [أرْغَمَ به أنف عِداه ووضعه] (٣) ، وفتح له بابَ السعادة وشَرَعه ، وأعطاه لواءَ القلم الأعلىٰ فوجب علىٰ مَنْ دونَ رتبته ، من أُولى صنعتِه ، أن يتّبعه ؛ ورَعىٰ له وسيلتَه السابقة عند استخلاص المُلْك لـمّا ابتزّه الله من يدِ الغاصب وانتزعه ، وحَسْبُكَ من ذِمَام لايحتاج إلىٰ شىء معه .

أمر به الأميرُ فلان لفلان - وصلَ الله سعادتَه ، وحرَس مجادتَه - أطلع له وجهَ العناية أبهىٰ من الصبح الوَسِيم ، وأقطعه جَنَاب الإنعام الجَمِيم ، وأنْشَقه أرجَ الحُظْوة عاطرَ النَّسيم ، ونَقَـله من كُرْسىّ التـدريس والتعليم ، إلىٰ مَرْقَىٰ التَّنويه والتكريم ، والرتبـة الّتى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظّ عظيم ؛ وجعل أقلامه جِيادًا لإجالة أمره العلىّ ، وخطابه السنىّ ، فى مَيَادين الأقاليم ؛ ووضع فى يده أمانَةَ القلَم الأعْلىٰ ، جاريًا من

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) فى الريحانة «نصب المتهم به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من "ريحانة الكتاب" .

الطريقة المُثلى، على النّهج القويم، واختصه بمزيّة الشُّفوف على كُتّاب بابه الكريم . لمّا كان ناهضَ الوكْر فى طلبة حضرتِهِ من البِدايه ، ولم يزل تظهر عليه لأولى التمييز مَخايلُ هذه العِنايه : فإن حضر حِلَق العلم جَلّى فى حَلْبة الحُفّاظ إلى الغايه، وإن نَظَم أو نثر أتى بالقصائد المصقوله ، والمخاطَبات المنقُوله ؛ فاشتهر فى بلده وغير بلده ، وصارت أزِمّة العناية طَوْعَ يده ، بما أوجب له المزيّةَ فى يومه وغَده .

وحين ردّ اللهُ عليه مُلْكَه الذى جَبَر به جَناحَ الإسلام ، وزيّن وُجُوهَ الليالى والأيّام ، وأدال الضّياءَ من الظلام ؛ وكان ممّن وَسَمه الوفاءُ وشَهَره ، وعَجَم الملكُ عُودَ خُلُوصه وخَبَره ، فحمِد أثَرَه ، وشكر ظاهرَه ومضمَرَه ؛ واستصحب على رِكابه الذى صحِبَ اليمنُ سَفَره ، وأخلصت الحقيقةُ نَفَره ، وكَفَل الله وِرْدَه وصَدَره ؛ ميمونَ النَّقيبه ، حَسَنَ الضَّريبه ؛ خالصًا فى الأحوال المُرِيبه ، ناطقًا عن مقامه بالمخاطَبات العجيبه ؛ واصلًا إلى المَعانى البعيدة بالعبارات القريبه ، مبرِّزا بالخِدَم الغريبه ، حتّى استقام العِماد ، ونطق بصِدْق الطاعة الحىُّ والجَماد ، ودخلتْ فى دين الله أفواجا العِبادُ والبِلاد ، لله الحمدُ على نِعَمه الثَّرّة العِهاد ، وآلائه المتواليةِ التَّرداد ــ رعى له ــ أيّده الله ــ هذه الوسائل وهو أحقُّ مَنْ يَرْعاها ، وشكر له الخِدَمَ المشكورَ مَسْعاها ؛ فقصر عليه الرُّتبةَ الشّمّاء التى خَطَبها بوَفائه ، وألبسه أثوابَ اعتنائه ، وفَسّح له مَجالَ آلائه ؛ وقدّمه ــ أعلى الله قدَمَه ، وشكر نعمَه ، ــ كاتبَ السِّرّ ، وأميرَ النهى والأمر ؛ تقديمَ الاختيار ، والاغتباط بخدمته الحسنة الآثار ، والتيمّن باستخدامه قبلَ الحُلول بدار المُلك والاستقرار ، وغير ذلك من مُوجِبات الإيثار .

فليتولّ ذلك عارفًا بمقداره ، مقتفِيًا لآثاره ، مستعينًا بالكَتْم لأسراره ، والاضْطِلاع بعظام أُموره وكِباره ، متّصفا بما يَجْمُل من أمانته وعَفافه ووَقاره ، معطياً هذا الرسم

حقّه من الرّياسه، عارفًا بأنه أكبرُ أركانِ السّياسه؛ حتّى يتأكّدَ الاغتباطُ بتقريبه وإدنائه، ونتوفّرَ أسبابُ الزّيادة فى إعلائه؛ وهو — إن شاء الله — غنىٌّ عن الوَصاة فَهمًا ثاقِبا، وأدبًا لعيُون الكمال مُراقِبا؛ فهو يعمَلُ فى ذلك أقصى العمَل، المتكفّل ببلوغ الأمَل .

وعلىٰ مَنْ يقِف عليه : من حَمَلة الأقلام، والكُتّاب الأعلام، وغيرِهم من الكافّة والخُدّام، أن يعرفُوا قدرَ هـذه العناية الواضحة الأحكام؛ والتقديم الراسخ الأقدام، ويوجبُوا ما أوجب من البِرّ والإكرام، والإجلال والإعظام؛ بحول الله وقوّته، وكتب فى كذا .

الطـــــرف الثـالث

(فى مصطلَح كُتّاب الديار المصرية فيما قَبْل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم إلىٰ زماننا)

وفيه أربعُ حالات :

الحـالة الأولىٰ — ماكان عليه أمر نُوّاب الخُلَفاء بهـذه المملكة إلىٰ ابتـداء الدولة الطُّولونيّة .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المُدّة صَرْف عناية، تقاصُرًا عَن التشبُّه بديوان الخلافة، إذ كانت الخلافةُ يومئـذ فى غاية العِزّ ورِفْعة السلطان؛ ونيابةُ مصرَ بلْ سائرُ النيابات مضمَحلّة فى جانبها، والولاياتُ الصادرةُ عن النوّاب فى نياباتهم متصاغِرةٌ متضائلةٌ بالنسبة إلىٰ مايصْدُر منأبواب الخلافة من الولايات، فلذٰلك لم يقَعْ ممـا كتب منها ماتتوفّر الدواعى علىٰ نقـله ولاتنصرف الهِمَم لتدوينـه مع تطاوُل الأيام وتوالِى اللّيالى .

الحالة الثانية — ما كان عليه أمرُ الدولة الطُّولونيَّة من حين قيام دولتهم إلىٰ انقراض الدولة الأخْشِيديَّة .

وقد تقدّم أن أحمدَ بنَ طُولون أوّلُ من أخذ فى ترتيب المُلك وإقامة شِعَار السلطنة بالديار المِصْرية . ولما شَمَخ سلطانُه، وارتفع بها شانُه، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لمـا يَحتاج إليـه فى المكاتَبَات والولايات، فاستكتبَ ابنَ عبدِ كان، فأقامَ مَنَار ديوان الإنشاء ورَفَعَ مِقْداره ؛ وكان يفتتح ما يكتُبه عنـه فى الولايات بلفظ « إنَّ أَوْلىٰ كذا » أو « إن أحقَّ كذا » وما أشبه ذلك .

وهـذه نسخة عهد كَتَب به ابنُ عبدكان عن أحمدَ بنِ طُولون بقضاء بَرْقة تُرشِد إلىٰ ما عداها من ذلك وهى :

إنَّ أحقَّ مَنْ آثَرَ الحقَّ وعمِـل به ، وراقبَ اللهَ فى سرِّ أمره وجَهْره، واحترس من الزَّيغ والزَّلَل فى قوله وفعله ، وعمِـل لمَعَاده ورجْعتِـه ، إلىٰ دار فاقتِـه وفقْره ومسكنته، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكما، وفى أمورهم ناظرا: [فأراق][(١)] الدماءَ وحقَنها، وأحلَّ الفروجَ وحرَّمها ، وأعطى الحقُوقَ وأخذَها ؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعالىٰ سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله، وأنه إنما يتقلَّب فى قَبْضته، أيام مُدّته، ثم يَخرج من دُنياه كخروجه من بطن أمِّه ، إما سعيدًا بعَمَله وإما شقيًّا بسعْيِه .

وإنّا لمـا وَقَفْنا عليه من سَديد مذْهبك وقويم طَريقتك، وجميل هَدْيك وحُسْن سيرتك، ورجَّوْناه فيك، وقرّرناه عندك: من سُلُوك الطريقة المُثْلىٰ، واقتفاء آثار أئمة الهُدىٰ، والعملِ بالحق لا بالهَوىٰ ـ رأينا تقليدَك القضاءَ بينَ أهل ثَغْر بَرْقَة، وأمرناك بتقْوىٰ الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب، ولا يفُوته من هَرَب ـ وبطاعته التى مَنْ آثَرها

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من المقام

سعد، ومن عمل بها حُمِد، ومن لزمها نجا، ومن فارقها هَوىٰ ـ وأن تُواصل الجلوسَ لمن بحضرتك من الخُصوم : صابرا بنفسك علىٰ تنازُعهم فى الحقوق، وتدافُعِهم فى الأمور، غيرَ بَرِمٍ بالمراجَعات ، ولا ضَجِرٍ بالمحاكات : فإنّ من حاوَلَ إصابةَ فصلِ القضاء ، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادّة من حِلْم ، ولا معونةٍ من صبر، ولا سُهْمة من كَظْم ، لم يكُن خليقًا بالظّفَر بهما ، ولا حقيقًا بالدَّرْك لها ـ وأن تَقْسِم بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك، وجلَسا بين يديْك، فى لَحْظك ولَفْظك، وتُوَفّيَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك؛ حتّى ييْأس القوىُّ من مَيْلك ، ويأمَنَ الضعيفُ من حَيْفك : فإنّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلىٰ أحد الخصمين دُونَ صاحبِه ما أضلَّ الآخرعن حُجّته، وأدخل الحَيرةَ علىٰ فكره ورَوِيّته ـ وأن تُحضِر مجلسَ قضائك من يُستظْهَر برأيه ، ومَنْ يَرْجِع إلىٰ دينٍ وحِجًا وتُقًى : فإن أصبْتَ أيّدك ، وإن نَسيت ذَكّرك ـ وأن تقتدىَ فى كلّ ما تُعمل فيه رَوِيّتك ، وتُمضى عليه حكْمَك وقضيّتك، بكتاب الله الذى جعله صِراطا مستقيما ، ونُورا مستبِينا ؛ فشرعَ فيه أحكامَه ، وبيّن حلالَه وحرامَه ، وأوضح بِه مشكلاتِ الأمور، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور . وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصُّه فإنّ فيما يُؤْثَر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حُكْمه ؛ وما لم يكن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتفيْتَ فيه سبيلَ السَّلَف الصالح من أئمة الهُدىٰ رضى الله عنهم الذين لم يألُوا الناس اختيارا ، ولا ادّخروهم نصيحةً واجتهادا ؛ عالما أنك أسعَدُ بالعدل ممن تَعْدل عليه، وأحظَىٰ بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجّلُه من جميل أُحدوثته وذِكْره ، ويُذْخَرلك من عظيم ثوابِه وأجره، ويُصْرَف عنك من حُوْب ما تتقلّده ووزْره ـ وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهلِ الثّقة فى أديانهم، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتهم ، والموسُومين بالصدق فى مَقالاتهم، والمشهورين

بالتقدّم فى عدالاتهم : فإنك جاعلُهم بين الله و بينك فى [كل] كلام تُصْدره، وحكم تُبرمه؛ وحقيقٌ بأن لا ترضىٰ لنفسك منهم إلا بما يُرضىٰ منك، وتعلم أن ذلك هو الصدقُ، وأنك قد أبليتَ عُذرَك فى تخيّرهم، فإنه بعلم أن ذلك هو الصّدقُ من نيّتك، والصّحة من يقينك ، تحسُن عليه معونتُك، ويحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ــ وأن يكون من تستعين به علىٰ المسألة عن أحوال هؤلاء لشهودِ ومذاهبِهـم ، وما يُعرَفون به و ينسُبون إليه فى رحالهم ومَساكنهم أهلَ الورَع والأمانه، والصّدق والصيانه ــ وأن تجدّد المسألة عنهم فى كل مرّة، وتفحَص عن خبرَهم فى كل قضيه؛ ثم لا يمنعُك وُقوفُك علىٰ سُقُوط عَدالةِ من تقـدّمْتَ بتعديله من آستقبال الواجبِ فى مثله ، وآستعمال الحقِّ فى أمْرِه ــ وأن تُشرف علىٰ أعوانك وأصحابك، ومن تجرى أمورُك علىٰ يدَيْه من خلفائك وأسبابك؛ إشرافا يمنعُهم من الظلم للرعِيّـه، ويقبضُ أيديَهم عن المآكل الرَّديّه ؛ ويدعُوهُم إلىٰ تقويم أوَدِهم، وإصلاح فاسدهم، ويزيدُ فى بصـيرة ذوِى الثّقة والأمانة منهم ؛ فمن وقفتَ منـه علىٰ آمتثالٍ لمذهبك، وقبولٍ لأدَبك، وآقتصارٍ فيما يتقلّده لك، أقررتَه وأحسنْت مكافأتَه ومَثُوبته ، ومن شَممت منه حَيْفا فى حكمه ، وتعـدّيا فى سِـيرته، وبَسْطا ليده إلىٰ ما لا يجب له، تقدّمت فى صَرْفه ، وألزمته فى ذٰلك ما يلزَمه ــ وأن تختار لكتابتك من تَعرِف سَدَاد مذهَبِه، وآستقلاله بما يتقلّده، و إيثارا لبرس (١) (؟) من صحته ، ومَنْ تقـدّر عنده تقديما (٢) فى نصيحتك فيما يجرى علىٰ يديْه، وتوخّيا لصدقك فيما يحضُره وتَغيب عن مشاهدته؛ فإنك تأمَنُه مَن أمر حكمك علىٰ ما لا يؤتمن علىٰ مثـله إلا الأمين ، وتُفوّض إليـه مَن حُجَج الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوَّض إلا لذى العَفاف والدِّين ــ وأن تتفقد

(١) لعله «و إيثاره للتأكد من صحته» . تأمل .

(٢) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره، وتتصفّح عمله؛ وتُشرِف على ماتحتَ يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه وضبطه، ويُؤمّنك من وقوع خلل فيه - وأن تختار لحجابتك من لا يتجهّم الخصوم، ولا يختصّ بعضها دونَ بعض بالوصول؛ وتُوعِز إليه فى بَسْط الوجه، ولين الكَنَف، وحُسْن اللفظ، ورفع المئونة، وكفّ الأذى.

فتقلّدْ ماقلّدناك من ذلك عاملا بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره، ومستعيناً به فى أمرك كلّه: فإنّا قلّدناك جسيما، وحمّلناك عظيما، وتبرّأنا إليك من وِزْره وإصْره، واعتمدْنا عليك فى توخّى الحقّ وإصابته، وبسْط العدل وإفاضته؛ واَقبِضْ لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجُبك ولثمن قراطيسك وسائر مُؤَنك فى كل شهر أربعين دينارا؛ فقد كتبْنا إلى عامل الخَرَاج بإزاحة ذلك، أوقات استحقاقك إيّاه ووجوبه لك، وإلى عامل المدينة بالشّدّ على يدك، والتقوية لأمرك؛ وضَمّ العِدّة التى كانت تُضَم إلى القضاة من الأولياء إليك، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالى.

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيُّوب.

وكانوا يسمّون ما يكتَب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام «تقاليدَ» و «تواقيعَ» و «مراسيمَ» وربّما عبّروا عن بعضها با«لمَناشير»

وهى فى الافتتاحات على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى — أن تفتتح الولايةُ بخطبة مبتدأة بالحمدُ لله تعالى ثم يؤتى بالبعديّة، ويذكَرُ ما سنَحَ من حال الولاية والمولّى، ويُوصَى المولّى بما يليق بولايته، ثم يقال: «وسبيل كلّ واقف عليه من النوّاب العملُ به» أو نحو ذلك.

وهى على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحية و إقطاع بلادها لمتوليها ، وهي :

الحمدُ لله على عوائده الجميلة وعَواطِفه، وفوائده الجزيلة وعَوارِفه ؛ ناصبِ الحقِّ وناصره ، وقاصِم البـاطِل وقاصِره ؛ ومُنيرِ الدين ومُديله ، ومُبِيرِ الكُفْر ومُذِيله ؛ وشادِّ أَزْر أوليـائه وسادِّ ثغرهم ، وناصر مُعزِّهم ومُعِزِّ نصْرِهم ؛ الذى أضفَى علينـا مَدَارِعَ نِعَمه ، وأصـفَى لدينا مَشارِع كَرَمه ؛ وأعلَق أيدينا من العـدل بأوكـد الأسباب والأمراس، وصَرَف بنا صَرْفَ العَسْف وكفَّ بكفايتنا كَفَّ البُؤْس عن الرعيَّة والبَاس؛ وجَلَب إلى آستجلاب الشكر من الناس هِمَّتنا، وطَوى على حُبِّ البِرِّ و إبرار المُحِب طويَّتنا؛ وحَسَم بمـا أولاناه من أيْدٍ مادَّةَ كلِّ يدٍ تمتـدّ إلى محظور ، ويسَّرنا بِبساط العـدل المطوىِّ لِمـا طَوى بعدلنا بِسـاطَ الظُّلم المنشور ؛ وأبى لنـا أن نَكفُر نِعْمَة أو نَهَبهـا لكافر ، أو نَدَعَ شُكْرَ مِنَّة أو نُودِعَها عند غير شاكر .

ولَمَّـا كان الأمير فلان ممَّن سبقَتْ لجدّه ولأبيه — تعاهـد الله بالعِهاد مَثْواهمـا، وخص بتَرْأرِ الرحمة ثَرَاهما — الحُرَم الأكيده، والخِدَمُ الطريفةُ والتَّليـده؛ ولم يزالا مجتهدَيْن فى تعمير هـذا البيتِ وتَشييدِ أُسِّـه ، ملازِمَي الإدآب فى إنمـائه وتَشْديد غَرسه ، مُفْضِيَيْن بالموالاة إلى مُواليـه ، مفصِحين بالمعاداة لمُعاديه ؛ رأينا — لا زال الإقبال لآرائنا مقابِلا ومُرافقا، والبعدُ مساعدًا والتوفيقُ موافقا — أن نُلحقَه بدرَجة أوليه ، ونُورِدَه من كرمنا مَوْرِدَ جدّه وأبيه ؛ ونَثْنِىَ إليه عِنان عِنايتِنا ، ونَرْعاه بعين رعايتنا ؛ ونُلحِقَه جَنـاحَ لُطْفنا ، ونبوِّئه مَقْعَد شرف تحتَ ظِلِّنـا ؛ ونحرُس حَدّه من الفُلول ، وجَدّه من الخُمُول ؛ وعُودَه من الخَوَر ، ووِرْدَه من الكَدَر ؛ وأن تقرِّره

علىٰ ما بوّأنا فيه والدَه من الهبات والإنعام والإفضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت اسمه من المَعاقل والبُلْدان، وسيُوضِّح ذلك بقلم الدِّيوان .

فليقابِل هذا الإنعامَ من الشكر بمثله، ويُوازِ هذا الإفضالَ من حُسْن القَبُول بعدله، وليرتبِطْ نِعمَ الله عنده بالشُّكر الوافي الوافر، فالسعيدُ مَن اطَّرح خَلَّة الشاكى وادَّرع حُلَّة الشاكر، وليُدْمِن التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنِّعَم من الشكر، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البر، ويجعَل التقوىٰ شِعاره ودِثارَه، ويُخْلِص الطاعةَ لله إيرادَه وإصدارَه .

وليكُن العدل رَبيئتَه ورائدَه، والأمرُ بالمعروف دليلَه وقائدَه، وليَقُم فيما نِيطَ به حقَّ القيام، ويشمّرْ فى حِفْظ ما استرعَيْناه عن ساقِ الاهتمام، ويعلَمْ أن منزلتَه عندنا أسنىٰ المَنازِل وأعلاها، ومرتبتَه لدينا أبهجُ المراتب وأبهاها، ومحلَّه عندنا السامى الذى لا يُضاهيه سامى، ومكانَه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفترِع علمَه سامى، فسبيلُه علمُ ذلك وتحقيقُه، وتيقّنُه وتصديقُه، وسبيل كلِّ واقفٍ علىٰ هذا المثال، [أن] يقابله بالامتثال، من سائر العُمّال، وأرباب الولايات والأعمال، والاعتمادُ علىٰ العَلامة الشريفة فى أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسةٍ والنظرِ عليها، والتحدّثِ علىٰ أوقافها وسائر تعلّقاتها، وهى :

الحمدُ لله الظاهرِ إحسانُه، الباهرِ بُرهانُه، القاهرِ سلطانُه، المتظاهرِ امتنانُه؛ نحمدُه علىٰ إنعامه حمدًا يدوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازديادُه وازديانُه،

ونسأله أن يصلّي علىٰ سيدنا محمد نبيّه الشارع الشارح بيانُه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أعضاد شَرْعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نَرَاه من تشييد بُيُوت ذَوِى البُيوتات ، وإمضاء حُكْم المُرُوءة فى أهل المُرُوءات ، وإرعاء مَوَاتّ ذَوى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء المَوَات ، وموالاةِ النِّعم الشامل عمومُها لأُولى الخُصوص والخُلُوص فى الموالات ، ما نزال نُلْحِق درَجاتِ الأخلاف منهم فى الآختصاص بالآستخلاص بالأسلاف ، فنُورِدُهم من مَشارع دولتنا ومَشَارب نعمتنا فى الآصطفاء والآصطناع أعذبَ النِّطاف ، ونُجْنِيهم من مَغَارس الرجاء ، ومَجَارى النَّماء ، فى الإدناء والآجتباء ، ثمراتِ النِّعم الدانيةَ القِطاف ، ونُفيض عليهم من مَدَارع البَهْجة والبَهاء ، وحُلَل الثّناء والسَّناء ، فى الاكرام ، بالآحترام ، ما يضفُو علىٰ الأعْطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحِّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجَلِيّ الجليل ، والمَحْتِد الأكيد الأصيل ؛ والفضل المَوْرُوث والمكتَسَب ، والزَّكاء فى المنتَمىٰ والمنتَسَب ؛ والذَّكاء الذى أنارتْ فى أُفُق التوفيق ذُكَاؤه ؛ والولاء الذى بان فى شِرْعة الإخلاص صَفاؤُه ؛ والدِّين الذى علا سَنَاسنُه ، فى مَنَار التحميد ، والخُلوص الذى حَلا جَنَىٰ جنّته ، فى مَذَاق التوحيد ؛ والرِّياسة التى تَضَوَّع رَيّا رياضها المُونِقه ، والسماحة التى تَنَوَّح حَيَا حِيَاضها المُغْدِقه ؛ والأمانة التى نهضَتْ بها فضائلُه ، والموالاة التى نَجَحتْ بها عندنا وسائلُه — رأينا إجراءَه علىٰ عادة والده فى تولِّى المدرسة المعمُورة التى أنشأها جدُّه للشافعيـة بحَلَب ، وأوقافها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وآستنابةِ مَنْ يراه ويَختارُه فى ذلك كله ، والنظرِ فى جميع ما يتعلّق بهـا كُثْره وقُلّه ؛ وترتيب الفقهاء فيها ، وتقرير مشاهَرَاتهم علىٰ ما يراه من تفضيل وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفظ الوقوف بالاحتياط في مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط محبسيها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالابتداء بالعمارات ، التى تؤذن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المغلات ، وتنمية الثمرات ، مستشعرا تقوى الله التى هى حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والجنة الواقية عند النائبات . وفوضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من إخوته ، تشييدًا لبيتهم الكريم ، وتجديدًا لمجدهم القديم ؛ ورفعا لمكانتهم المكينه ، وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ، وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنوائب والشوائب ، والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤن والسخر ، والتبن والحطب ، والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنفال ؛ وإعفاء فلاحيها ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كل ما يصل من مغلات الأوقاف والأملاك المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من البضاعات والبياعات والتجارات معفاة مطلقة لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تمد إلى شيء منها يد ذى يد . وليتول ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ؛ بنظر كاف شاف ، وكرم وافر واف ؛ وورع من الشوائب صاف ، وعزوف عن الدنيات بالدينيات متجاف ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى مواد المناجح رائد ؛ ورأى فى ذمة الصواب راجح ، وسعى برتبة الرشاد ناجح ؛ وهمة عالية فى نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛ ومروءة تامة فى الاشتمال على إخوته ومخلفى أبيه بما يصل به الرحم ، ويظهر به الكرم ، ويحيى من مفاخر آبائه الرمم ، ويقوى لهم من معاقد مكارمه العصم . وسبيل الولاة والنواب وكل واقف على هذا المثال إمضاء ذلك كله على سبيل الاستمرار ،

وتصرّم الأعمـار ، وتصرّف الأعصار ، وتقلّب الأحوال والأدوار ؛ وحفظه فيهم وفى أعقابهم على العصور والأحقاب ، ووصل أسـبابه عند انقطاع الأسـباب ، من فَسْخ ينقُض مُبرَم معاقِده ، أو نَسْخ يقوّض مُحكَم مقاعده ؛ أو تبديل يكدّر صافِى موارده ومَشَارعه ، أو تحويل يقلّص ضافِىَ ملابسه ومدارعه . وليبذُلْ لهم المساعَدةَ فى كلّ ما يعود له ولجماعته بصَلَاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه فى جميع الأحوال . والعملُ بالأمر العالى و بمقتضاه ، والاعتمادُ على التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى .

الصنف الثـالث — أربابُ الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة ، من إنشاء بعض بنى الأثير ، وهى :

الحمدُ لله الذى فضّـلنا على كثير من عبـاده ، وأغنانا بمزيد عطائه عن ازدياده ، وجعَلَنا ممن استخلَفه فى الأرض فشكر عواقبَ إصداره ومبادئَ إيراده .

نحمدُه وليسان أنعُمه أفصحُ مقالًا وأفسح مجالا ، وإذا اختلفتْ خَواطرُ الحامدين رَوِيّةً كاثَرَها ارتجالا ؛ ونسأله أن يوفّقنا لتلقّى أوامره ونَواهيه بالاتّباع ، وأن يُصْغِىَ بقلوبنا إلى إجابة داعى العَـدْل الذى هو خيرُ داع ، ويُنقِذنا من تَبِعات ما استرعاناه يوم يُسأل عن رعيّته كلُّ راع .

أما بعدُ ، فإن الله قَرَن استخارتَه برَشَده ، وجعلها نُورا يُهتدَى به فى سُلُوك جَدَده ، ويُستمدّ من يُمْن صَوابه ما يُغْنِى عن الرأى ومَدَده . ومن شأننا أن نتأدّبَ بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دلّ التوفيق امرءًا على عمـله دلّ عملُنا على توفيقه ؛ فمن عُنْوان ذلك أنّا اصطفينا لوزارتنا مَنْ تحمَـدُنا الأيام من أجْله ، وتحسُدُنا الملوكُ على مثله ، ويعلَمُ من أتى فى عصره أنه فات السابقين من قبله ، وهو الوزيرُ الأجل

السيدُ الصدرُ الكبير، جلالُ الدين، شرفُ الإسلام، مجتبىٰ الإمام فخرُ الأنام ؛ وليست هذه النعوت مما تزيد مكانَه عُرْفا ، ولا تستوفى من أوصافه وَصْفا ؛ وإن عدّها قومٌ جُلّ ما يدّخرونَه من الأحساب ، ومُعْظَمَ ما يخلّفونه من التُّراث للأعقاب ؛ ولا يَفْخَر بذٰلك إلا مَنْ أَعدَم من ثَرْوة شرفه ، ورضىَ من الجوهر بصَدَفه ؛ وأنتَ فغير فاخرٍ به ولا بما وَرِثْتَه من مجْد أبيك الذى أضحتِ الأيّام به شُهودا ، والجُدُود له جُدُوداً ، وغَدا وكأنّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن الصَّباح عمودا ؛ وقد علمتَ أنه كان إليه نَسَبُ المكارم وسيِمها ، وكان مابلغه منها أعظَمَ ما بلغه من دنياه علىٰ عِظَمِها ؛ لكنّك خلّفت لنفسك مجْدا منك ميلادُه ، وعنك إيجادُه ؛ وإذا اقترن سَعْىُ الفتىٰ بسَعْى أبيه فذٰلك هو الحسَبُ الذى تقابل شَرَفاه ، وتلاقىٰ طَرَفاه ، وغَضّ الزمان عنه طَرْفَه كما فتح بمَدْحه فاه ؛ وإذا استطرفَتْ سادةُ قوم بنيتَ بالسُّؤدَد الطريفِ التّليد ، ولقد صدَق اللهُ لهجةَ المُثْنى عليك إذ يقول : إنّك الرجلُ الذى تُضرَب به الأمثال ، والمهذَّب الذى لا يقال معه : أىُّ الرجال ؛ وإذا وازَرْتَ مملكةً فقد حظِيَتْ منك بشَدّ أزرها ، وسَدّ ثغرها ، وأصبحتْ وأنتَ صدرٌ لقلْبها وقَلْب لصَدْرها ؛ فهى مزدانةٌ منك بالفضل المُبين ، معانةٌ بالقوىّ الأمين ؛ فلا تبيتُ إلا مستخدمًا ضميرَك فى وَلَائها ، ولا تغدُو إلا مستجديًا كفايتَك فى تمهيدها وإعلائها .

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عَدَم النظير ، والمعدُود بألف فى صوابِ التدبير ، والمؤازرُ عند ذُكْر الخيْر علىٰ الإعانة وعند نِسيانه علىٰ التذكير ؛ ولم ترقَ إلىٰ هذه الدرجة حتّى نَكحتَ عَقَبات المَعَالى فقضيْتَ أجلَها ، وآنسْتَ من طُور السعادة نارًا فهُديتَ لها ؛ ولم تبلُغْ من العُمْر أَشُدّه ، ولا نزعَ عنك الشبابُ بُرْدَه ؛ بل أنت فى رَيْعان عُمْرك المتجملُ برَيْعان سُؤْدَده ، المتقمّصُ من سيما الخلال ما أبرزَ وَقَارَ

المَشيب فى أسْوده . وهذا المنصبُ الذى أُهِّلت له و إن كان ثانِىَ المَلِك مَحَلًا، وتِلْوَه عَقْدا وحَلّا ؛ فقد علَا بك قَدْرُه ، وتأبَّل بك أمره ؛ وأصبَحَ وشخصُك فى أرجائه مَنَار، ورأيُك وفضلُك من حوله سُورٌ وسِوَار ؛ وله من قلَمك خطيبٌ يجادل عن أحساب الدولة فينفَحُها فخرا، وسيفٌ يُجالد عن حَوْزتها فيمنَحُها نَصْرا ؛ ولقد كان من قَبْلك وقبل أبيك مُكرَها على إجابة خاطبه، والنزولِ إليه عن مَراتبه ؛ فلَمّا جئتماه آستقرّ فى مكانه، ورضِىَ بعُلُو شأنكما لعلو شانه ؛ وقد علِم الآنَ بأنكَ نزلْته نُزولَ الليث فى أَجَمه، وآستقلْتَ به آستقلالَ الرُّمح باحدمه (؟) ؛ وما زالتِ المعالى تَسْفِر بينك و بينه وأنت مشتغِل بالسعى للسيادة وآدابها ، عن السعى للسَّعادة وطِلَابها . فخُذْ ما وصلت إليه بآستحقاق فضلك ومَناقبه ، لا بآتفاق طالعك وكواكِبه .

وآعلم أنّ هــذه النعمةَ و إن جاءتْك فى حَفْلها ، وأناخَتْ بك بصاحبها وأهلِها ؛ فلا يُؤْنِسُها بك إلا الشكرُ الذى يجعل دارَها لك دارا، ووُدَّها مستمْلَكا لك لا مُعارا؛ وقد قيل : إنَّ الشكر والنعمةَ توءَمان ، و إنه لا يتم إلا بآجتماع سِرِّ القلب وحديث اللسان؛ فاجعَلْه معروفَها الذى تُمْسكها بإحسانه ، وتقَيِّدها بأشْطانه .

وقد أفردْنا لك من بيت المــال ما تستعينُ به على فرائض خِدَمك(١) ونوافله ، وتَرُدّ فضلَه على آبتناء مجــدك وفضائله ؛ وذلك شىءٌ عائدٌ على الدولة طِيبُ سُمْعته ، فلهــا محمودُ ذِكره ومنك مَوارِدُ شِرْعته ؛ و إذا حُمِدت مَنَاهــل الغُدُر كان الفضــل للسحاب الذى أغْدَرها . والمفرَد باسمك من بيت المـال كذا وكذا .

وكلُّ ما تضمّنه تقليدُ غيرك من الوصايا التى قُرِعتْ له عصاها ، ونُبِّـذَتْ له حَصَاها ، فأنت مستغْنٍ عن آستمـاعها ، مكتفٍ بآطّلاع فِكرك عن آطّلاعها ؛ غير أنا نسألُك كما سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعاذا ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَ لك

(١) لعله «منصبك» . تأمل .

من أمرك يُسْرا ومن عَزْمِك نَفَاذا ؛ وقد أجابنا لسانُ حالك بأنك تأخذ بتقوَى الله التى ضَمِنَ لها العاقبه ، وجعل شِيعتَها الغالبه ؛ وأنك تجعلُها بينك و بينه سببا ممدودا ، و بينك و بين الناس خُلُقا معْهودا ؛ حتّى تُصْبح وقد أَمِنْتَ من دهرك عِثَارا ، ومن أبنائه أسمــاعا وأبصارا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذى ســلم الناسُ من يَده ولسانه ، وفى هذين كفاية عن غيرهما من الشِّيَم ، التى تُحفَظ بهــا سياساتُ الأمم : فإنَّ العدل هو الميزان الذى جعــله الله تالِىَ الكتاب ، والإحسان الذى هو الطينةُ التى شاركَتْها القلوبُ فى جِبِلَّتها مشاركةَ الأحباب .

وأمّا ماسوىٰ ذلك من ســياسة الملك فى تقرير أُصُوله ، وتدبير محصُوله ؛ كالبلاد وآســتعمارها ، والأموالِ وآستِثْمارها ؛ وولاةِ الأعمــال وآختبارِها ، وتجنيــدِ الجنود وآختيارها ؛ فكلُّ ذلك لا يصــدر تدبيرُه إلا عن نَظَرك ، ولا يُمْشَى فيــه إلا علىٰ أثرك ؛ وأنت فيــه الفقيهُ آبنُ الفقيه الذى سرىٰ إليــك عِلْمُه نفسا ودَرْسا ، وثمرةً وغرسا ؛ فهذا كتابُ عهدنا إليك : فخذه بقوةِ الأمانةِ التى أبتِ السموٰات والأرض حملَها ، وما أطاقَتْ ثِقْلَها ؛ والله يسلُك بك سَدَدا ، و يتحرّى بك رَشَدا ، و يلزمك التوفيقَ قلْبا ولسانًا ويَدا ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومن ذلك نســخةُ توقيع باعادة النظر بثَغر الإسكندرية لآبن بصَّاصــةَ فى شهور سنة ثمــان وسبعين وستمائة ، وهى :

الحمــدُ لله الذى أضحكَ الثُّغور بعــد عُبُوسها ، وردَّ لهــا جَمَالَها وأنار أُفُقَها بطُلُوع شُموسها ، وأحيا مَعَالم الخــير فيهــا وقد كادتْ أن تُشرِف علىٰ دُرُوسها ؛ وأقامَ لمَصالحِ الأمة من يُشْرق وجْهُ الحق ببَيَاض آرائه ، وتلــذُّ الأسمــاعُ بتلاوةِ أوصافه

الجميلة وأنبائه ؛ حمد من أسبغت عليه النعماء ، وتهادت إليه الآلاء ، وخطبته لنفسها العلياء .

وبعد ، فأحق من ... من فى أندية الرياسة عطفا ، وآستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالا ولطفا ، وآصطفته الدولة القاهرة لمهماتها لما أنه خير كافل ، وتنقل فى مراتبها السنية تنقل النيرات فى المنازل (١) .

ولما كان المجلس السامى القاضى ، الأجل ، الصدر ، الكبير ، الرئيس ، الأوحد ، الكامل ، المجتبى ، المرتضى ، الفاضل ، الرشيد ، جمال الدين ، فخر الأنام ، شرف الأكابر ، جمال الصدور ، قدوة الأمناء ، ذخر الدولة ، رضى الملوك والسلاطين ، الحسين آبن القاضى زكى الدين أبى القاسم ــ أدام الله رفعته ــ ممن أشارت إليه المناقب الجليله ، وصارت له إلى كل سؤل نعم الوسيله ــ رسم بالأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، العادلى ، البدرى ، ــ ضاعف الله علاءه ونفاذه ــ أن يفوض إليه نظر ثغر الإسكندرية المحروس ونظر متاجره ، ونظر زكواته ونظر صادره ، ونظر قوة والمزاحمتين ، فيقدم خيرة الله تعالى ويباشر هذا المنصب المبارك ، بعزماته الماضيه ، وهممه العاليه ؛ برأى لا يساهم فيه ولا يشارك ، ليصبح هذا الثغر بمباشرته باسما حاليا ، وتعود بهجته له بجميل نظره ثانيا . وينتصب لتدبير أحواله على عادته ، ويقرر قواعده بعالى همته ؛ ويجتهد فى تحصيل أمواله وتحصين ذخائره ، وآستخراج زكاته وتنمية متاجره ؛ ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ؛ فإنهم هدايا البحور ، ودوالية

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ وأصله « من اشتهر بمحاسن الخلال ، ومحامد الخصال وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بهديه الناجح ، فلما » الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثغور، ومن ألسِنتهم يُطّلَع علىٰ ما تُجِنّه الصُّدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نَشَرُوا له أجنحةَ مراكبهم وحامُوا عليه كالطُّيور. وليعتمِدْ معهم ما تضمّنته المراسيمُ الكريمةُ المستقِرّة الحكم إلىٰ آخر وَقت، ولا يسلُكْ بهم حالةً تُوجب لهم القَلَق والتظلُّم والمَقْت، ولْيُواصِل بالحُمُول إلىٰ بيت المال المعمُور، وتُملأ الخزائنَ السلطانيّة من مستعْمَلات الثغر وأمتِعته وأصنافه بكل ما يُستغنىٰ به عن الواصل فى البُرور والبُحور؛ وليصرِف همّته العاليةَ إلىٰ تدبير أحوال المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفع رُءوس أموالها وتَنْمى، وتجودُ سحائبُ فوائدها وتَهْمى؛ ولْيراعِ أحوال المستخْدَمين فى مباشَرَاتهم، ويكْشف عن باطن سِيَرِهم فى جهاتهم؛ ليتحقّقُوا أنّه مهَيْمنٌ عليهم، وناظرٌ بعين الرأفة إليهم؛ فتنكَفّ يدُ الخائنِ منهم عن الخِيانه، وتَحْلُ أناملُ الأمين بمَحاسن الصِّيانه؛ وليتفق فيما يأتيه ويذَره، ويقدّمه من المُهمّات ويؤخّره، مع المجلس السامى، الأمير، الأجلّ، الكبير، المجاهد، المقدّم، الأوحد، النصير، شمس الدين، متولّى الثغر المحروس ــ أدام الله نعمتَه ــ فإنه نِعم المُعين علىٰ تدبير المهمّات، ونعمت الشمسُ المشرقةُ فى ظُلَم المشكلات. ولْيطالِعْ بالمتجدّدات فى الثغر المحروس، ليَرِدَ الجوابُ عليه عنها بما يشْرَح الصدور ويُطَيِّب النفوس؛ وليتناولْ من الجامكية والجراية عن ذلك فى غرّة كلّ شهر من آستقبال مباشرته ما يشْهَد به الديوان المعمورُ لمن تقدّمه من النُّظّار بهذه الجهات، وهى نظرُ الثغر وما أضيف إليه علىٰ ما شرح أعلاه.

المرتبـــــة الثـانية

(أن تفتتح الولاية بلفظ « أما بعد حمد الله » أو « أما بعد فإن كذا »
ويؤتى بما يناسب من ذكر الولاية والمولّى، ثم يذكر ما سنح
من الوصايا، ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة ما كان يُكتب لبعض الوُلاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

أما بعدُ، فإنّا لمّا منحنا الله إيّاه من معجزات النصر المستنطق الألسنةَ بالتسبيح، وآتاناه من نَظَر حمى ناضر عَيش الأمّة من التّصويح ، وألبسناه من ثياب العَظَمة المخصوصة بأحسن التوشيع والتوشيح ، ووفّقنا له من آصطفاء من نُقْبِل عليه بوجه التأهيل للمهمّات والترشيح، وقوّاه من عزائمنا التى تُرَجُّ بها أرضُ الكفر وتُدَوَّخ ، ووسّعه لنا من الفُتُوح التى أنباؤُها خيرُ ما تُصدَّر به السِّيَر وتؤرَّخ ـ لا نزال نبالغ فيما صان الحَوْزة وحاطها ، ومدّ رُواقَ الأمنة ومهّد بِساطَها ، وقرب نوازحَ المصالح وجمعَ أشتاتها، وأوجبَ آنصرامَ حِبال آختلالِ الأمور وآقتضى آنبتاتها .

ولما كانت الأعمالُ الشرقيةُ جديرةً بمتابعة الآعتناء وموالاته ، وإعراق كَرَم التعهّد فيما يحفَظ نِظامها بمُغالاته ، وأحقّها بأن تُصرف إلى صَوْنها وجوهُ الهِمَم الطّوامح ، ويُوقَف عليها حُسْن الآحتفال الجامع دواعِيَ تَذْليل الجامح ، إذ كانت أجدرَ الأعمال بكلاءة الفُروع من أوضاعها والأُصول ، والبابَ الذى لا يجب أن يدخُلَه إلّا من أُذن له فى القدوم إليها والوُصول ، ويتعيّنُ التحرزُ على الطُّرقات التى منها إليها الإفضاء ، ويُوكّل بما دونها من المياه عُيونٌ حفظةٌ لا يلزمُها النومُ والإغضاء ،

ـ وكنتَ أيُّها الأميرُ أشــدَّ الأمراء باسا، وأوْفاهم لحسن الذكر الجميل لِباسا؛ وأكثرَهم لمُهَج الأعداء آخْتِلاسا ، وأجمَعَهم للمحاسن المختلِفة ضُرُوبا وأجناسا؛ وقد تناصَرتْ علىٰ قُصُودِك الحسنة واضحاتُ الدلائل، وتحلّت أجيادُ خلالك من جواهر المَفَاخر بقلائدَ غيرِ قلائل؛ وآستطارَ لك أجملُ سُمْعه، وقطَعتْ سيوفُك أبناءَ الكُفْر عن آرتضاعها من الملّة الإسلامية ثَدْىَ طَمْعه ؛ ولا آستبهمتْ طُرُق السياسة إلا هُدِيت إلىٰ مَجَاهلها، ولا حَلَأَ التقصيرُ سواك عن شَرائع النِّعم إلا غَدَوتَ بكفايتك وارِدَ مَناهِلها؛ وكَمْ شهِدْتَ مَقامَ جِلَاد، وموْقِفَ جِهاد؛ فمزَّقْت ثوبَ مارقه نَسْجا، وأدلتَ فى لَيل قَسْطَله عَوادِىَ صَوارِمك سُرُجا، وقُمْت فيما وُكل إليـك من أمور الفاقُوسيَّة وقلعَتَىْ صَــدَرٍ وأَيْلةَ حرسهما الله تعــالىٰ قياماً أحظاك بالثناء والثواب ، وآستنبْت فى كلّ منها من أجرىٰ أمورَها علىٰ الصواب ـ خرجَ أمرُ الملك الناصر بكَتْب هذا السجلّ بتقليدك ولايةَ الأعمال الشرقية المقدّم ذكرُها .

فاعتمِدْ مباشرتَها عاملًا بتقوَى الله التى مَغْنَمُها خيرُ ما آقتاده مستشْعِروها لأنفسهم، وآستاقُوه . قال الله تعالى : ﴿ وقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وآتَّقُوا آللهَ وآعلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوه ﴾، وآبسُط العدلَ علىٰ أهل هـذه الوِلَايه ، وآخصُصْ أهلَ السَّلامة بمـا يُسْبِل عليهم سِتْرَ الحِياطة والحِمَايه ؛ وتطَلَّب المفسدين أتمَّ تطَلُّب ، وآحظُرْ عليهم التنقُّلَ فى هذه البـلاد والتقلُّب ؛ ومَنْ ظَفِرت به منهم نقابِلْه بمـا يُوجِبه حكم جَرِيرته ، ويقتضيه مَوْقعُ جريمته، ويَجعله مُزْدَجرا لسالِكى طريقته . وشُدّ من المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز شــدّا ينْصُر جانبَ الشرع ويُعِزُّه ، ويَكُرّ به علىٰ الباطل تَرويعُ الحق وأَزُّه؛ وأَعِنِ المستخْدَمين فى المـال علىٰ آستيفائه من وُجُوهه عند وُجُوبه ، وبَلِّغ كلًّا منهم من الإعانة علىٰ تحصيله أقصىٰ مطْلُوبه ؛ وقوِّ أيديَهم فى تحضـير البِلاد وتعميرها ،

وابعث المُزارعين علىٰ مباشَرة أحوال الزِّراعة وتقرير أمورها، وفيما يُستَرْعَوْنه من مَصالح الأعمال، ويعود عليهم فى موجبات الرجاء بمَناجح الآمال. وراعِ أمرَ السُّبُل والطُّرُقات، واجعل احتراسك عليها الآنَ مُوفيا علىٰ المتقدم من سالف الأوقات؛ ولا تَنِ فى إنفاذ المتخَيَّرين إلىٰ بلاد العدو، وتحذيهم فى الرَّواح والغُدُوّ، عما يمنعهم من الهُدو، وكَشْف أخبارهم، وتَتَبُّع آثارهم، وتسْيير الجواسيس إلىٰ ديارهم، حتّى لا تخفىٰ عنك من شئونهم خافيه، ولا يجدُوا سبيلَ عزةٍ يحتَلُونها - والعياذ بالله - بالحُملة الكافيه. وطالع بما يتجدّدُ لك وما يَرِد من الأنباء عليك، وغير ذلك مما يُحتاج إلىٰ علمه من جهتك، وما تجرى عليه أحكام خدمتك، فاعلم هذا واعملْ به إن شاء الله تعالىٰ



وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المَرْتبة، وهى :

أما بعدُ، فإنّا لمـا آتانا اللهُ من سَعادةٍ لطُرق الإرادات فيها تَعْبيد، وأسبَغه سا من نِعَم لا يَعُدّها التحديد، ولا يحُدّها التعديد، وأبْهَجنا به من اكتناف المَطالب بنجاحٍ لا يُعقِبُه تعسير ولا يَمَسُّه نقض، وأمضاه من عزائمنا التى ما فَتِكت قطُّ بالأعداء فقيدَ منهم فقيد، ولقّاه الأمنة نظَرنا من نَضْرة عيشٍ جانَبَ الجفافُ دوْحه المُخضلّ، وأهداه تبصيرنا من أنوار الهدَى المتقدمة كلَّ ذى جهل ظَلَّ ممن ضَلَّ - لا نزال نستوضِحُ أمورَ أمراءِ دولتنا متصفّحين، ونبلو أخبارَ المؤهّلين منهم لسياسة الرعيّة المرشّحين، ونكشف شئونهم غير متجوّزين ولا متسمّحين؛ ونُظهر فى أحوالهم آثارَ الإيثار لرفع درَجاتهم، وأمارات الرفع منهم مقابلةً علىٰ حياطة أموالِ مَنْ نكونُ عليه وصون منحاتهم، ونبوّئهم مُبَوَّأ صدق من تصديق آمالهم وتحقيقها؛ ونزُفّ إليهم

عقائلَ المِنَح المانعَ شُكْرُهم من تسيُّب سَيْبِها وتطرُّق تَطليقِها ، ويحمل لكلٍّ منهم ما يؤمِّله من اجتهاده ويُؤْثِره ، ولا نُلْغِي الاهتمامَ بما يُوطِّئ لهم مِهادَ الطَّوْل الجزيل ويُوَثِّره ، عملًا بآداب الله سبحانه فى إجزال حُظُوظ المحسنين من إحسان الجازاه ، وإيلائهم المزيدَ الحاكمَ بنقص اعتدادهم عن المُوازَنة له والمُوازاه ، كما قال سبحانه وقوله هدًى ونورٌ وشفاءٌ لما فى الصدور : ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

ولما كان الأمير (والنعوت والدعاء) من أنجحهم فالا ، وأرجحهم مَصالا ، وأصلحهم أعمالا ، وأوضحهم كمالا ؛ ومازالت أغصانُ نُهاه متتابعةً فى بُسُوقها ، وضرائبُه نافقةً أعلاقُ المحامد بسُوقها ؛ وعزائمُه فى إذلال الفِرَق المبالغة فى فُسُوقها ، مشمِّرةً عن سُوقها ؛ وما بَرِح فى شَوْط الفَخْر راكضا ، ولعُقُود مكروهِ الأمُور التى تُريغُ الأمانةَ رافضا ، وبأعباء القيام بفرائض الآلاءِ ناهضا ؛ وما انفكَّتْ مناقبُه تُعْيِى بيانَ الواصف وبَنان العادّ ، ومساعيه مُدرِكةٌ وهى وادعةٌ مايَعْجِز عن أقلّه جِدُّ الجادّ ؛ ورأيُه [يرتق] كلَّ متفتِّق ومنبثق من الأمور المهمَّة بِسَداد الراتق الساد ، وجميلُ ذِكْره يَفُوح بما يفوق المِسْكَ فيثُوب إليه من الثَّوَاب بالنائى النادّ ؛ وما فَتِئ دأبُ شيمته الإعراض ، عن المُوبِق من الأغراض ؛ واختيارَ الرِّفق ، والإغراقَ فيما يُديمه إلى فَكِّ أعناقِ أسرى المسلمين من سرى العتق ـ خرج أمرُ الملِك الناصر بكَتْب هذا السجلِّ له بتقليده ولايةَ الأعمال الغربية .

فليتقلَّدْ ما قُلِّده معتمدًا على تقوى الله التى صَرَف عن معتمدها شِربَ التكدير ، ومَنَحه من المكارم عنده مايُوفى على التقدير ؛ وليَجْرِ على عادته فى بَسْط ظل المَعْدَلة ومدّ رُواقها ، وصون مَساحى الرَّعايا عن إملاقها منها وإخفاقها ؛ والمساواة بها بين

الأقوىٰ والأضعف، والأدنىٰ والأشرف، والبادى والحُضّار، والمُناوئين والأنصار، والخاصّ والعام، والأجنبيّ وربّ الحُرْمة والذّمام : لينام المستُورون علىٰ مِهَاد الأمن، ويسلم جانبُ سلامة أموالهم وأرواحِهم من الوَهْن . ولْيعامل المستخلَف علىٰ الحكم العزيز بمـا يستوجبه مثلُه من نُصْرة الأحكام « ووكل إليـه أمر الأمراء لمن آثرها[1] والإحكام» والإكرام الشامل لقَدْره، والاهتمام الشارِح لصَدْره. ولْيتوخَّ المستخدَمين فى الأموال بمـا يكون لعِلَلِهم مُرِيحا، ليصـل إليهم ما يرومونه نجيحا . ويُلْزِم من جرَتْ عادتُه بلزوم الحدود وآجتناب تعدّيها ، والتوفُّر علىٰ حِفْظ مسالكها والمتردّدين فيها ؛ وليطالع بما يتجدّد قِبَله من الأحوال الطاريه ، وما لم تزل الرُّسومُ بإنهاء مثلِها جاريه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـــة الثـالثة

(أن تفتَتح الولايةُ بلفظ «رُسِم» ثم يذكرأمرُ الولاية والمولّى ويوصى ، ثم يقال «وسبيل كلّ واقفٍ عليه»)

فمن المكتَتَب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحيةٍ ، وهى :

رُسم ـ أعلىٰ الله المراسيمَ وأدام نَفَاذها ـ بالإنعام علىٰ الأمير فلان بمـا يُفيض عليه مَلابِسَ الاصطفاء ويُضْفيها ، ويُسْمِى لقدمه فى الثبات مَدَارج الارتقاء ويُسْنِيها ؛ ويُعْرِب عن آختصاصه بالمنزلة التى يفْضُل بها علىٰ مُبَاريه ، وآستخلاصه للرتبة التى يفوتُ بها شأوَ مُجَاريه ؛ ويؤهِّله لثغرِ حارِمٍ المحروس وشَدِّه، وتوليِّه أمورَه بكفايته ونَهْضته وحَزَامته وجِدّه ؛ وقد أمرْنا بتسـليم قلعةِ حارِم وأعمالهـا وسائرِ مايختص بها ويُضافُ إليها من ضِيَاعها ومواضِعها إليه، والتعويلِ فى وِلَايتها وتعميرِها وتثْميرِها

---

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه ، بموجَب ما يُفَصَّل من الديوان علىٰ ما كان جاريًا فى الإقطاع المحروس للحال ،
وسبيلُ أهلِ الديوان ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ
التوقيع الأشرف به ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومن ذلك نسخة مرسوم بشَدِّ وقف ، وهى :

رُسِم ـ أعلى اللهُ المراسيمَ وأدام نَفَاذَها ـ بالتعويل على الأمير فلان فى تولية الوقوف بالجامع المعمور بحَلَب المحروسة ، والبِيمارَسْتَان ، والمساجد ، والمشاهد ، بالأماكن والمواضع ، وظاهرِها وباطنِها وأعمالها ، وتفويضِها إليه ، والاعتماد فى جميعها عليه ، سُكونًا إلىٰ نَهْضته وكِفَايته ، ووُثُوقًا بخِبْرته ومعرفته وعلمًا بنزاهته وسَدَاده وأمانته ، وذلك لاستقبال سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

فليتولَّ ذلك بكفاية كافيه ، ونهضةٍ وافيه ، وهِمَّة لأدواء الأحوالِ شافِيَه ، ونظرٍ تامّ ، لشَمْل المصالح ضامّ ، وتدبيرٍ جميل فى كل خاصٍّ من أسباب عمله وعامّ ، وتقوًى لله عزَّ وجل تَقْوىٰ بها يَدُه ، ويَضِحُ بالاستقامة علىٰ سَنَنِها جَدَدُه ، ناظرا فى الوُقُوف ومصارِفها ، وتتبُّع شُروط واقفِها ، بكل ما يعُود بتعمير أعمالها ، وتثمير أموالها ، وتدبيرِ أحوالِها ، مطالبًا بحساب مَنْ تقدّمه وتحقيق مبالغه تكميلًا وإضافة ، واحتسابًا وسياقه ، ولْيطلُب شواهده ، ولْيَبْنِ علىٰ الصحة قواعدَه ، وليلتمس ما يَصِح من بواقيه من جهاتها ، وليكْشِفْ بما يوضِّحه من سُبُل الأمانة وجوهَ شُبُهاتها ، وقد أذن له فى استخدام من يراه من النُّوّاب والمتصرفين والمشارفين ، والوكلاء والمستخْدَمين ، علىٰ ما جرتْ به العاده ، من غير زياده . وسبيل النواب ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ العلامة الشريفة ، إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الرابعـــــة

(أن يفتتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت صـــفته كذا» وما أشـــبه ذلك)

فن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف، وهى :

مَنْ كانتْ أوصافُه شائعةً بين الأنام ، وعُرِف فضائله منشورةً لدى الخاصّ والعام ، مع شرف نَسَبٍ شامخ الأعلام، وتُقىً فخر به على الأنام، وعلمٍ يُجْلَى به صَدَأُ الأفهام ، وعفّةٍ مرائرُها محكمةُ الإبرام ـ كان جديرا بإفاضة سِجَال النِّعم عليــه ، وقمينا بإرسال سَيْل المَوَاهب إليه .

ولما كان الشيخ فلان متصِفًا بهذه الصفات الجميله ، ومتخَصِّصا عزاياها الجليله ، وضاربًا فيها بالسَّهم المُعَلّى ، ونازلًا منها فى الشَّرَف الأعلى ، ومتقَمِّصا ثوبَ الإخلاص والصَّـفاء ، ومتَّشِحا بوِشَاح العِفّة والوَلاء ـ آختصصناه بزيادة التقـديم والآجتباء ، وحَبَوْناه بوُفُور الكرامة والآصطفاء ، وأجريناه على مستَمِرّ رَسْمه بالرِّعاية على ذُرِّيّة أهل العَبـاء ، حسَبَ عادته المستقرّة إلى آخر عهدِ مَنْ كانت الإيالةُ إليــه وإلى رحمة الله مضى : ليَسِيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنّة رسوله ، ويسلُكَ جَدَدَ الحق الذى يُوصِّله من الزُّلْفَى إلى أقصى مُنَاه وسُوله ؛ ويحُضَّهم على تلاوة القُرءان ، ومعرفة مايصْـلُح للأديان . وليسوِّ فى الحكم بين الضعيف فيهم والقَوِىّ ، ويَعُمّ بالإنصاف الفقيرَ والغنىّ . وليُحْسِنْ إلى مُحسِنهم ، وليَجْرِ على فضله لمُسيئهم ، بعد أن يقدّم إليه زَجْرا ووَعِيـدا ، ويُوسِعَه إنذارا وتهـديدا ؛ فإن وَعَى وآرْعَوَى وإلا سلَّط عليه أسـبابَ الأذى ، وتَولّاه بمـا يسـتحِقُّه من الجَزَا ؛ ويعيـدُه إلى حالة الآستقامة والآستوا ، ويكُفُّه عن دواعى الهوى . ومَنْ وجبَ عليه حدّ أقامه فيه ، وبادَرَ إلى عمارة توخّيه ، حسَبَ مايوجبُهُ حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رَءُوفًا بهم ما ٱستقاموا، ومنتقمًا منهم ما ٱعْوَجُّوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حَقٌّ لِمَلِيٍّ أو دنِيٍّ، ٱستخلصه منه ولم يمنعه تعلقُه بنسبٍ شريف علىٍّ؛ وإن ٱفترىٰ منهم مفتَرٍ علىٰ أحد من المِلَل، قابله عليه بما يزجُره عن قَبيح العمَل: فإنّ النـاسَ فى دار الإسلام ومَنْ هو تحتَ الذِّمام سَواسِيَة وأقربُهم إلىٰ الله تعالىٰ من كانتْ سيرتُه فى الإسلام رضيَّة، وطويَّتُه فى الإيمـان خالصةً نقيَّة؛ ومَنْ حَكَمَ عليه حاكِمٌ من الحُكّام، بحقٍّ ثبَت عنـده بالبيِّنة العادلة أو الإعلام، ٱنتزَعه منه أو سجنه عليه، إلىٰ أن يُرْضِى خصمَه أو يردَّ أمرَه إلىٰ الحـاكم ويفَوِّضَه إليه .

ولْيحْرُس أنسابهم بإثبات أُصُولها، وتحقيق فُروعِها؛ ومَن رام دُخولا فيه بدَعْوىٰ يُبْطِل فيها نَقَّب عن كَشْف حاله، وإظهار مِحَاله؛ وجازاه بما يستحقُّه أمثالُه، ويرتدِعُ فيما بعْدُ مِثالُه : ليخلُصَ هذا النسبُ الكريم، من دَعْوىٰ المجهول، وٱندماجه فى أُسْرة الرسول؛ عليه أفضلُ الصلاة والتسليم . ويمنَعُ من ٱتصال أَيِّم من الأُسْرة إلىٰ عامىٍّ، ولا يُفَسِّح أن يُعْقَد عليها عَقْد إلا لِكُفْء مَلِيٍّ : ليبرأ هذا المجدُ الشريفُ من التكدير، ولا تُزَيِّفَه شوائبُ التغيير .

ولينظُرْ فى الوقوف علىٰ المَشَاهد والذُّرِّيَّة، نظرا يحمَدُه عليه مَنْ يعلَمُه من البريَّة، ويُحْظيه بالثواب عند مالكِ المَشِيَّة . ويبتدئُ بعمارة أُصُولها وٱستكمال فرُوعها، وقسمة مَغَلِّها علىٰ ما تضمنه شرط الواقفين لها . ولْيحتَطْ علىٰ النُّذور، وينفقْها علىٰ عادتها فى المصالح والجُمْهور؛ عالمـا أنّ الله تعالىٰ سائلُه عمَّا توخَّاه فى جميع الأمور، وأنه لايخفىٰ عليه كلُّ خفيٍّ مستور . قال الله سبحانه : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

وأذنّا له أن يستنيب عنه فى حال حيَاته، وبعد وفَاته ـ فَسّح الله له فى المُهَل، وخَوّله صالح العَمَل ـ الأرشدَ من بَنيه، ومَنْ يختاره لهذا الأمر وله يرتَضيه . وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مستمرا إلىٰ الآن، وأضفْنا إليه ما يُعينه على النظر فى مصالح الأسرة أدام الله له علُوّ الشان؛ من تمليك وإدْرار وتيسير، وجعلناه له مستَمرّا، وعليه مستقرّا؛ ولمن بعده من نَسْله والأعقاب، علىٰ توالى الأزمان والأحقاب، وحظَرْنا تغييره وفسْخَه، وتبديله ونَسْخه : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو معيّن من ديوان الاستيفاء المعمور، بهذا المنشور المسْطُور، بالأمر العالى أعلاه الله وأمضاه، عمّا كان قديما، وما أنعِم عليه به آخرا، وهو القديمُ الذى كان له وشهد به الديوان المعمُور، وهو الإقطاع من ناحية كذا، ويُجرىٰ علىٰ عادته فى إطلاق ما قُرّر له من ناحية كذا بشهادة الديوان الفلانى، والمجدّد الذى أُنْعِم به عليه لاستقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها. وسبيلُ كافّة الأُسْرة الطالبيّين بمدينة كذا الانقيادُ إلىٰ تباعته، والامتثال لإشارَته، والتوفّر على إجلاله وكرامته؛ فإنه زعيمُهم، ومقدّمُهم ورئيسُهم؛ ومن خالفه منهم قابلناه، وبأليم العِقاب جازَيْناه. والاعتمادُ فى ذلك أجمعَ علىٰ التوقيع الأشرف العالى أعلاه الله، والعَلائم الديوانيّة فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

لَمّا كانت الأعمالُ الشرقيّةُ أجدَرَ البلادِ بأكيد الاهتمام وأخْلَق، وأوْلاها بإضْفاء سِرْبال الاهتبال الذى لا يُخْلِقُ إذا رَثَّ سِواه وأخْلَقْ، وأقْمَنَها بحُسن نظرٍ يُرسَل لرسولٍ علىٰ الرسم الأعنّةَ فى إدامة نَضْرة العمارة عليها ويُطْلق، وأحَقّها بأن يُبرَم لها

سبَبُ تفقّدٍ لا يلتصق به رَهْن ولا يَغْلَق ؛ وأحْواها باعتناءٍ يقضى لأمرها بالاطّراد ، وأوْلاها بتعهّد يجمل مصالح الشُّئُون آلفةً للثَّواء بها والمُقَام عائفةً للنشوز عنها والشّراد ، : لأنها بابُ الشام ، و إليها تردُ القوافلُ المتردّدةُ منه علىٰ مَرّ الأيّام ؛ ومنها يستكْشف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبّرين ، و بمواصلة التفقّد تعلَم الأحوالُ الطارئة فى كل وقت وحين ؛ فتجب المبالغةُ فى حفظ طُرُقاتها ومياهها ، وأن تصرف الهممُ إلىٰ ضبط أحوالها ، وعامة أنقابها وآتّجاهها ، ويوضع بناء الحزم فى صون أطرافها علىٰ أثبت قاعدة ويُؤسّس ، ويبالَغ فى إذكاء العيون علىٰ كل طارق يتخبّر للعدوّ الملعون ويتجسّس ؛ وكنت أيها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام ، وذوى الكفاية المُوفى تراؤُهم فيها [علىٰ] عارض الإعدام ، وما زلتَ معدودًا من خاص الأتراك الأعيان سبهم(؟) ، المقصر مجاروهم إلىٰ غاية البسالة عن اللّحاق بهم والإدراك وقد تقدّمت ولايتُك هذه الأعمالَ فقصَدْت منها قصدًا سَديدا ، وألحفْت الرعايا ظِلًّا من الأَمَنة مديدا — خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أُنعم به عليك من إعادتك إلىٰ ولَايتها ، فبالغ فى آستيضاح الأنباء وكشْفها ، ورفع الْوَنْيَة فى ذلك وصَرْفها ؛ ووكّل به عَزْمة لا تُلِمُّ سِنَةٌ بطَرْفها ، وآنته فيه إلىٰ غاية تَضيق سَعةُ القول بوَصْفها ؛ وتابع فى تسيير الطلائع وندْبها ، وعوّل من كلّ قبيلة من العُرْبان المستنهَضين علىٰ شَهْمها وندْبها ؛ وآجتهد فى حفظ الطُّرُقات والمَناهل ، وآستنهض للتحرُّز عليها من هو عالمٌ بها غيرُ جاهل ؛ وتحفَّظ من خَلَل يتطرّق — والعياذ بالله — علىٰ البلاد وخَلَل يتخلّلها ، وآنتض لهذه المهمات بصارم حدٍّ تَسْلم مَضاربُه من عَجْز يفلّلها ؛ ولا تُبْقِ ممكنا فى إنفاذ المتخبّرين ، و إرسال من يُغير علىٰ بلاد العدُو من الخَيِرين ، بما [أنّ] هذه سبيلُ المتدرّبين ، وألزِم أربابَ الحدود من جميع الأقطار حِراسةَ حُدُودهم ، وخُذْهم باستنفاد وُسْعهم فى الآحتياط وآستفراغ مجهُودهم ؛ وطالِعْ

بمـا يُورَد قبلك، وأنّه مايُزيح بسُرعة إجابتك عنـه فى الخدمة علّك؛ فاعلم هـذا واْعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة بولاية المُرتاحية، وهى :

خرج الأمر بكَتْب هذا المنشور وتضمينه : إن مَنْ أظهر خُلاصة جَوْهره السَّبْك، واْرتفع فى إشكائه بالإنصاف عن كل شائك الشّكّ، وحصل عنده [من] الخلال الزكيّة نظْمٌ لا يَنحلّ وعقد لا ينفكّ، وأوفىٰ علىٰ التقدير والظنّ فى التدبير المفرّج به عن الرعيّة الضَّنْك ـ اْستوجب أن تُسنَد اليه حمايتهم، وتجعلَ إليه كلاءتهم .

ولمّا كنتَ أيها الأميرُ ممن أُحمد عند سَبر عزْمه، وتجريب نصـل حزْمه؛ واْعتبار فَصْل مَقاله، واْختبار أصلِ أصالته؛ وشُكر اْستمرارُه علىٰ الاتصاف بمحض الولاء، واْستدراره أخلافَ غُرَرِ الآلاء، واْستثماره أصنافَ جَنَى الثّناء، واْستقراره أكناف وهْيِ الأعتناء؛ ولم تزل فى رِفعتك وَجيها، وما برِح جميلُ الرأى يُديم بَعثًا لتحف الإحسان نحوك وتوجيهـا؛ وما اْنفكّت مجاهَدتُك مجاهـدةً فى مهامّ إقدام تنويها، وشجاعتُك مثنيـةً علىٰ الكفّار كُلَّ كِفاح يلْقَوْن منه كَلًّا ثقيلا ويومًا كريها؛ ـ أُودع هذا المنشور ما رُسِم من اْستخدامك فى ولاية الأعمال المُرتاحيّة .

فباشرْها معتمدا علىٰ تقوىٰ الله سبحانَه التى تَقوىٰ بهـا أسبابُ توفيقك وتناله، وتَسْـلَمُ أمورُ مباشرتك من خَلَل يكدّر اْستبشارَك وينكّد . واْعتمِد العـدلَ علىٰ من تشتمل عليه هذه الولايةُ وتَحْويه، وبالِـغْ فيما يزيل عنهم الحَيْف ويَزْويه؛ واْقصِدْ ما يَقْضى لِسرْبهم بالتأمين، ويبلّغهم من تحصينِ أوطانهـم غايةَ التأميل . واْجعلْ أيدى المفسـدين مكفوفةً عن كافّتهم، ووجُوهَ المعتدين مصروفةً عن إخافتهم؛

وتطلّب الأشرار، وتتبّع الدعّار. ومَنْ ظفرت به منهم فلا تكن عن التنكيل به ناكلا، ولا تقصّر فى الحَوْطة عليه والمطالعة به عاجلا. وعامل الناشئ فى الحُكْم العزيز بإنهاضه، وصَوْن مَديد باعه فى تنفيذ الأحكام عن انقباضه، وأَنْهِضْه فى إنفاذ قضاياه، واختصاصه بإكرام يُقبِل عليه مُطلَق مُحيّاه. وشُدّ من الضامن فى استيداء حقوق الديوان واستنطافها على أحسن حال من غير خروج عن الضرائب المستقرّه، وعوائد العَدْل المستمرّه. وتحرّز أن يكون لمناهضة العدوّ طُروقٌ إلى ناحيتك أو انتياب، وشمّر للتحفّظ من مكايدهم تشميرًا يزول عن حقيقته عارضُ الارتياب، ولا تُبْقِ شيئا يمكّن لأدل ولايتك قواعدَ الأمَنة منهم، وتبتّل لوقايتهم أذاهم تبتّلَ من لا ينامُ عنهم. وطالِعْ بما يُحتاجُ إلى علمه من جهتك إن شاء الله تعالى.

❖

وهذه نسخة بولاية السَّمَنُّوديّة، وهى:

إنّ أولى من وَلِىَ الأعمال، وتعلّقت بكفايته الآمال، وعُدِقت به المُهِمّات، وأُسندت إليه الوِلايات، مَنْ نطقت بمَعْدَلته الألسنه، وانتفت عن عين خبرته السِّنَه، وكان حسَنَ السياسة لرعيّته، كثيرَ العِمارة مدّة توليته، شهْما فى استخراج الحقوق من جهاتها، صارمًا فى رَدْع المجرمين عن زَلّات النفس وهَفَواتها، حَسَنةَ سيرتُه، خالصةً مناصحتُه وسَريرتُه.

ولمّا كنتَ أيها الأمير فلان — أدام الله تأييدَك وتسديدَك، وحراستَك وتمهيدَك — أنتَ المتوشّحَ بهذه الصّفات الحِسان، المتّصفَ بما تقدّم من الشَّرح والبيان، الذى نطقَتْ شمائلُك بشهامتِك، وشهِدَت مخايلُك بنَباهتك — خرج الأمر الفلانى بأن تتولّى مدينةَ سَمَنُّود وضواحيها، وما هو معروفٌ بها ومنسوبٌ إليها، بشرط بَسْط

العدْل ونَشره، وإعباق عَرْف الحق ونَشْره، وأن تُخَفِّف الوطأة عنهم وتفعلَ ما هو أَوْلىٰ، وتعلمَ أنك تُسْأل من الله تعالىٰ فى الأخرىٰ ومنّا فى الأُولىٰ؛ وأن تَصونَ الرعايا وتجتَلِبَ لنا أدعيتَهم، وتعامِلَهم بما يُطيِّب نفوسَهم ويبلِّغهم بُغْيتَهم؛ حتّى يتساوىٰ فى الحق ضعيفُهم وقويُّهم، ورشيدُهم وغَوِيُّهم، ومَلِيُّهم ودَنِيُّهم؛ وأن لا تُقيم الحدود علىٰ مَنْ وجبتْ عليه إلا بمقتضىٰ الشرع الشريف، والعدْلِ المُنيف؛ وأن تَشُدّ من نُوّاب الحكم العزيز، وتفعلَ فى ذٰلك فعلَ المهذَّب ذى التمييز؛ وأن تحسُر عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بينَ استخراج جميع الحقوق الديوانية والعمَاره، وتجعلَ تقوى الله هى البِطانةُ لك والظِّهاره؛ وأن تبذُل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيلِ الغلال علىٰ التّمام والكمال؛ بحيثُ لايتأخّر منها الدّرْهم الفَرْد ولا القَدَح الواحد، وتفعلَ فى ذٰلك فعلَ المُشْفِق المشمِّر الجاهد؛ وأن تُديم مباشَرتك للأقصاب فى حال بَرْشِها وزراعتها وتربيتها وحملها، واعتصارها وطَبْخها، وتزكيةِ أثمارها؛ بحيث لاتكل الأمرَ فى شىءٍ من ذٰلك إلىٰ غير ذى ذِمّة بمُفْرده، ولا إلىٰ من ليس بذى خِبْرة لايعلم مُشْقِىَ التصرُّف من مُسْعِده . وقد جعلنا لك النظرَ علىٰ جميع النَّواحى الجاريَة فى ديواننا بالوجه البحرىّ خاصةً لتنظُر فى أمرها، وتزجُر أهلَ الجنايات بها؛ وتفعل فيها كلّ مايحمَدُ به الأثَر، ويطيب بسَماعه الخبَر .

فتقلَّدْ ماقُلِّدت، وقُمْ حقَّ القيام بما إليه نُدبت، واْعملْ فيه بتقوَى الله فى سِرِّك وجَهْرك، وقدِّم الخوف من الله علىٰ جميع ما تأتيه أو تَذَره من أمرك؛ وتَسلَّمه شاكرا لما أسدَيْناه إليك، متمسِّكا بما أوجَبْناه عليك؛ فإنّ الشكر يُوجب مزيدك، ويُكَثِّر عديدَك .

وهذه نسخة بولاية النَّسْتراويَّة، وهى :

مِن عادتنا فى التدبير وشيمتنا، وسُنَّتِنا فى السياسة وسيرتنا، إسباغُ المَوَاهب والنِّعم، وتنقيلُ عبيدنا فى مَراتب الخَدَم، آستِرْشادا بأسلافنا المُلُوك وآقتداء، وآستضاءةً بأنوارهم المشرِقَة وآهتِدَاء .

ولَمّا كنتَ أيها الأمير ممن عُرِفَتْ بسالتُه ، وآشتهرت شجاعتُه وصرامتُه ، وآستحقّ أن يُلْحَظ بعين الرِّعايه، وأن يشرُف بالآرتضاء للتعويل عليه فى وِلاَيه، — رأينا — وبالله توفيقُنا — آستخدامَك فى ولاية الأعمال النَّسْتراويَّة ، وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السِّجلّ بتقليدك ذٰلك، وتضمينه ماتعتَمد عليه ، وتنتهى إلىٰ المثَّل لك فيه .

فتقلَّدْ ماقُلِّدتَه عاملا بتقوىٰ الله فيا تُسِرُّه وتُعْلِنُه ، معتمدًا فيها غايةَ مايستطيعُه المكلَّف ونهايةَ ما يمكنُه، فالله تعالىٰ يقول إرشادًا للمؤمنين وتفهيما : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساوِ بيْن القوىّ من هذه الولاية والضعيف، وَلَا تجْعَلْ فى الحقّ فرقًا بين المشروف والشريف، وآمدُدْ علىٰ كافَّتهم رُواقَ السُّكون والأَمَنه ، وأجْرهم فى المَعدَلة علىٰ العادة الجميلة الحَسَنه ، وآفعلْ فى إقامة الحُدود علىٰ من تجب عليه ما يُوجبه كتابُ الله الكريم ، وتقضى به سنَّةُ نبيه محمد عليه أفضلُ الصلاة والتسليم ، وآدأَب فى حفْظ السُّبُل والمَسالك ، وآجتهدْ فى ذٰلك الآجتهادَ الذى يجب علىٰ أنظارك وأمثالك ، ومتىٰ ظفِرْت بمن يُؤذى مسافرا ، أو يخيف واردًا أو صادرا ، فطالِع بحاله ليُمثَّل لك فى التمثيل بما تعتمده ، وتُؤمَر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقصده . وراع المستخدمين على الحكم والدعوة فيما يتوليان ما بإعزازه يقوم منار الإسلام ، وتجرى أمور الشريعة على أجمل وضع وأحسن نظام . وخذ المستخدمين فى الأموال الديوانية بالاجتهاد فى العماره ، وحمل المعاملين على ما توجبه المعدلة والحرص على ماوفر الارتفاع ، وحماه من أسباب التفريط والضياع ؛ واستنهض الرجال المستخدمين معك فيما ترى تدبهم إليه ، واستنهاضهم فيه ؛ فاعلم هذا واعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهى :

اهتمامنا بما حاط ثغر الإسكندرية ــ حماه الله تعالى وحصنه ، ومنحه أتم حظ التفقد وأكمله وأجمل وضع التعهد وأحسنه ؛ وقوى سبب استقامة شئونه واتساق أموره ومكنه ، ومد ظل الدعة والسكون على كافة من تديره وسكنه ؛ وحفظ عليه نظام النضاره ، وأماط عنه مكروه الأحوال الضاره ؛ وأنام أهله على مضجع الأمن ومهاده ، وحكم بإحلالهم نجود الاتحاد على المصالح وإجلالهم عن وهاده ؛ وحمى سوام أموالهم من مشروب ورد أجاج ومرعى نبت وخيم ، وجناهم من رسوم الإحسان وعوائده مالا ينطق لسان على زوائده بترجيم ؛ وملا آمال الأعداء عن التطرق إليه إخفاقا ، ورد نصول سهام مكايدهم عنه على ما عهد من فضل الله سبحانه أفواقا ــ إذ كان من أجل الثغور الإسلامية أوزارا ، وأسبقها إلى غاية التفضيل ابتدارا ، وأكثرها بمن حواه من صدور الدين وأئمة المسلمين افتخارا ، وأفضلها محلا ولم يزل مفزع السفار من كل جهة رسلا وتجارا ــ أوجب أن نسند ولايته ، ونرد كلاءته ، إلى من يجرى فى التدبير على حكم سياسته المعلوم ؛ الحسنى

الأخذ بيد المظلوم ، ويقوم بحسن التفويض والائتمان ، ويعطى بذل السلامة من حقوق انتقامه عهدة الأمان ؛ ويسلك فيما يعدق به طريق السداد ويلزم نهجه ، ولا يمكن أن يكون له على غير الصواب معاج ولا عرجه ؛ ويأخذ فى كل أحواله بوثائق الحزم ، وتحل له أعماله الصالحة من مثوى المنازل الرفيعة ما هو على غيره من الحرام الجزم .

ولما كان الأمير المعنى بهذا الوصف الواضح البيان ، المتكافئة فى ذكر مناقبه شهادة السماع والعيان ، الكالئ ما يناط به بقلب ألمعى وطرف يقظان ، الحال من الورع فى أسمى مكان وأعلى مظان ، الجامع فى إقامة شرع الإخلاص بين الفرائض والسنن ، الموفية عزائمه على مضارب المهندة التى لا تقى منها ما نعات الجنن ؛ الفائح من نبئه ما تؤثر صحاح الأنباء عن عليل نسيمه ، الجدير بما يزف إليه من عقائل جزيل الإنعام وجسيمه ؛ وقد أبان فى ولايته بمطابقته بين شدته ولينه ، وإقامة منار الإنصاف المعرب عن امتداد باعه فى الحرب وانقباض يمينه ؛ وإروائه كافة أهلها من نمير العون على استتباب الأمور ومعينه - خرج أمر الملك العادل بتقليده ولاية ثغر الإسكندرية حماه الله تعالى والبحيرة .

فليتقلد ما قلده إياه ، ويباشره منشرحا صدره متهللا محياه ؛ وليعتمد على تقوى الله التى هى خير عتاد ، وأفضل ما اعتمد عليه فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ؛ وهى نجاة أهل اليقين ، وفوز المتقين ، قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ .

وليبالغ فى نشر راية العدل ومد جناحه ، وتعفية أذى الجور واجتياحه ؛ وليشمل الصغير والكبير من أهل هذه الولاية برداء النصفه ، ويعاملهم بالجميل الموفى على

الصفه ، ويقيم الحدود على مستوجبيها ، وينته إلى الغاية فى تجنب إضاعتها وتوقيها ، وليدل على المفسدين عين من يتتبع وقوعهم فى قبضته ويتطلب ، ويقابل كلا منهم بما يرى متعقبا بإيماض برق المعاقبة غير خلب ، ولا يبق ممكنا فى التنقيب على مرتكبي الآثام ، والمرتكنين على سفك الدم الحرام ؛ ومن ظفر به منهم فليحكم فيه شبا ظفر الانتقام ونابه ، ويقابله من الردع بما يؤمن من معاودة عادات التعدى على كل حميرونابه . وليجر على عادته فيا يسير عنه أحسن السمعه ، ويشهد له بالتنزه عن خبيث الطعمة وقبيح الطمعه . ويشد من القاضى متولى الحكم فيا يصدره ويورده ، ويحله ويعقده ، ويمضيه من الأحكام الشرعيه ، ويعتمده فى القضايا بما لديه من الألمعيه . ويعاضد المستخدمين فى الأموال معاضدة تثمره ، وتنمى الارتفاع وتوفره ، وتعود على الديوان بالحظ الوافى ، وتعرب عن كونه بمثل هذه الولاية نعم الكفء الكافى . ويعامل التجار على تباين بلدانهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم ، معاملة يجمل أثرها ويحسن ، ويتلقهم ببشر وطلاقة تنطق بشكر استبشارهم بها الألسن ، ويحفظهم فى أنفسهم وبضائعهم ، ويستنفد الوسع فى دفع مضارهم وروائعهم . ويعتمد بعث رجاله على الاستعداد للجهاد ، والتأهب لقراع الأضداد . وينته إلى الغاية فيا يزيل منهم اعتذارا ويزيح اعتلالا ، ويوجب لهم الاقتدار على مكافحة عدو إن طرق الثغر والعياذ بالله تعالى .



وهذه نسخة بولاية برقة ، وهى :

من حق الأطراف المتناهية فى بعد أقطارها ، والبلاد الشاسعة عن ثواء المملكة ومحل استقرارها ، التى انتظمت فى سلك أعمال المملكة الناصرية وانخرطت ،

وٱستدركتْ مُعِدّاتُها لمن حوته فوائتَ الفوائد التى سلفتْ وفرَطتْ ـ أن يُديم أكيدُ الأهتمام لها التحصينَ والتحسين، ولا يُغِبَّ أهلَها مايغشاهم من الملاحَظات مصْبِحين ومُمْسين ؛ وتُزجِىَ لها سحائبُ كَرَم التعهّد عِهادَه غَدَقا ، و يُعمِلَ الأولياءُ فى حياطتها من الغُمود ألسنةً ويُذْكُون دونها من القَنا حَدَقا ؛ ويفوّض أمورَهم إلىٰ مَنْ تخِفّ علىٰ يده كُلفَتهم، وتجتمعُ بحُسْن سيرته أُلْفَتُهم؛ ويشتمل من عنايته عليهم آشتمالَ الصدَفة علىٰ القلوب، وتنيلُهم مهابتُه من كَفّ عَدْوىٰ العِدا كلَّ مؤْثَر مطلوب .

ولما كنتَ أيها الأمير من أميز سالِكى هذه الطرائق ، وأمثلِ فُرْسان الحُروب وحُماة الحقائق ؛ وأشجعِ المجاهدين فى الله حَقَّ جِهاده ، وأجْسَرِهم علىٰ إصلاء الشِّرك ضِرامَ فتكٍ لايُخشىٰ إصلادُ زِناده ؛ ولك السياسةُ التى تُرتِّب بين الأُسُود والظِّباء آصطحابا ، والخالصةُ التى لاتُناجىٰ إذا وُصفتَ بالتغالى فيها ولا تُحابىٰ ـ خرج أمر الملك العادل بكَتْب هذا المنشور لك بما أنعَمَ عليك بولايته و إقطاعه : وهو بَرْقةُ بجميع أعمالها وحُقُوقها : من العقبة الصُّغرىٰ و إلىٰ آخر حدُودها؛ و بما أَمَر به كافّةَ العُرْبان المقيمين بهذه البلاد، وجميعَ أهلها من حاضرٍ وباد : من الإعلان لك بشعار الطاعه، وصَوْنِ ما يلزَمُهم أداؤه إليك من فروض النُّصْح عن الإضاعه ؛ وأن يبذُلوا فى موافقتك غايةَ الأجتهاد، و يعتمِدُوا من آمتثال مراسيمك أحسنَ آعتماد؛ ويحذَرُوا من العدول عن أمرك، و يجتنبوا مخالفة نَهْيك وزَجْرك .

فاستمسِكْ بحبل التقوىٰ الفائزِ من يعتصِمُ به و يتعلّق، وٱستشعِرْ من خيفة الله ما يُشرِق لأجله عليك نُورُ الرِّضوان و يتألّق؛ قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ . وعامِلْ أهلَ هذه الولاية بالإنصاف، و إيّاك ومكْروهَ العُدُول عن مَحَجّة العدل والأنحراف؛ وتوَقَّ العَسْف بهم والحَيف

عليهم ، وآجتنب الترخيصَ لأصحابك فى مدِّ يدِ أحدٍ منهم بعُدْوانٍ إليهمْ ؛ وسِرْ فيهم سِيْرَةَ ترؤُف بهم وترفُق ، وجانبْ سبيلَ من تقوم عنده أسواقُ آختلاق المتخرِّصين وتَنْفُق ؛ ولا تخْرُجْ فى تدبير الأمور عن قانون الشَّريعه ، ولا تجعلْ لك إلىٰ فَوْز الآخرةِ عن تقديم العمَل الصالح من ذَرِيعه . وغُلَّ عنهم أيدىَ حاضرى المفسدين و باديهم ، وأَبْنِهم بالمهابةِ عن إصرارهم علىٰ المنكرات وتماديهم ؛ وكِلْ بهم عَزْما رادعًا لهم وازِعا ، ونَكِّل بمن ظَفِرت بهِ منهم تنكيلا يَزْجُر مَنْ يظَلُّ بحر الضَّلال نازِعا . وشُدّ من خُلَفاء الحكم العزيز فى تنفيذ قضاياه ، وخُصَّهم من الكرامة بما تقتضيه إقامةُ مَنَاره و إنارةُ مَزَاياه . وآعتمدْ مايُعِيد الحقائقَ بوجُوه ناضِره ، ويرُدّ الأباطيلَ بصَفْقةٍ خاسره . وراعِ أمورَ التُّجَّار والحُجَّاج مراعاةً تشمَلُهم فى السفَر والإقامه ، وتحميهم من تطرُّقِ آستهانةٍ إلىٰ أحد منهم وآستِضامَه ؛ وطالِع بما يتجدّدُ من أحوال خدمتك ، وما يُحتاج إلىٰ علمه من جهتك ؛ إن شاء الله عز وجلّ .



وهذه نسخة بولاية الفَرَما ، وهى

نحنُ لمَّا ضاعفَهُ الله لدينا من إحسانه وأجْزَلَه ، وعدَقه بنا من تدبير أمور الخلق وأسنده إلينا ووَكَلَه ، نعتمد عبيدَنا بتوفير الرِّعاية لهم والإكرام ، ونُحافظ علىٰ مايعمُرهم من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فنقدِّم للخِدَم من خَطَبها بخلوص طاعته ، ونؤهِّل للرُّتَب من أبانت شِيَمُه عن خبرته ومناصحته .

ولمَّا كنتَ أيُّها الأمير ممن ظهرَتْ مشايعتُه ومُوالاته ، وحسُنت فى مكافحة الاعداء مشاهِدُه ومَقَاماتُه ، ووضحتْ فى أفعاله دلائلُ النُّصح وبانتْ عليه سِمَاتُه ؛ ولك مَسَاعٍ مشكُوره ، ومواقفُ مشهوره ، ومقاصدُ هى من مآثرك معدودة

وفى فضائلك مذكوره، رأينا ـ وبالله توفيقنا ـ استخدامك فى ولاية الفرما والجفار(١): سكونا إلى رضا مذهبك، وثقة بانتظام الحال فيما يرد إليك وينـاط بك؛ وخرج أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هـذا السجل بتقليـدك الولاية المذكورة وتضمينه ما نأمر به ونرسمه، مما يهديك إلى الصواب فتتمسك به وتعكف عليه وتلزمه .

فتقلد ما قلدته شاكرا على هذه النعمى، عاملا بطاعة الله تعالى ومراقبته فى السر والنجوى، واعتـدها زادا إلى الآخرة تطمئن به القـلوب، وتقوى، قال الله عز من قائل فى كتابه : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ . واعتمد فى أهل هـذه الولاية نصفة تعمهم ومعـدله، وسسهم سياسة تكون لسـنة الخير مؤكدة ولسـنة الجور مبـدله . ومائل فى الحـق بين قويهـم وضـعيفهم، ولا تجعـل مزية فى الواجب لشريفهم على مشروفهم ؛ وانتصف للظلوم من المتعدى الظالم، واعمـل بالكتاب والسـنة فى الحـدود التى تقيمهـا على ذوى الجـرائر والجرائم ؛ وانتصب لحفظ الطرقات، وصون الصادرين والواردين فى جميع الأوقات ؛ ونكل بمن تظفر به من المفسـدين، واجعله عظة لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضد النائب فى الحكم العزيز معاضدة تقضى بإعزاز الجانب، وساعده مساعدة تنفذ بها أحكامه على قضية الواجب؛ وكذلك متولى الدعوة الهادية فهى مصباح الزمان، وبإشادة ذكره تقوى دعائم الإيمـان؛ فاجتهـد فى تمييز متوليها وإكرامـه، وبلغـه فى ذلك غاية مطلوبه ومرامه . وتوفر على الشد من المستخدمين فى الأموال، وراع [ما يحسن] لدينا فيما تنظر فيه من الأعمال؛ واحرص على ماعاد بوفور ارتفاعها، وأجر أحوالها على أفضل رسومها وأوضاعها؛ بحيث يكون العدل منبسطا منبثا، والحيف منحسما مستأصلا مجتثا؛ وأجمل صحبة الرجال المستخدمين معك، وأحسن معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدة قرى ومن مدنها العريش والورادة ورفح وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه، وآستنهاضهم فى الأمور الشاقّة المهمّه ؛ فاعلَمْ هذا وآعمل به، وطالِع بما تحتاج إلىٰ المطالعة به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✦

وهذه نسخة بولاية عَسْقلان، وهى :

من شِيَمِنا التى غدَتْ للصالح ضَوامن ، وعلَتْ فكُلُّ متطاولٍ عنـدها مُتطامِن ؛ وهِمَمِنا الكافلة [للرَّعيّة] بما يُقِرُّ عُيونَها، والقاضية للخاصّة والعامّة بما يوجب طُمَأْنينتَها وسُكُونَها ؛ أنعَمْنا النظرَ فيما نَزَعاها به ونسُوسُها، وأعملنا الفكرَ فيما يسـتقيم به أمرُها ويزولُ معه بُوسُها؛ فيقف [بنا] الآجتهادُ فى ذٰلك علىٰ مَحَجّة الصواب التى لاضَلالَ فى سُلُوكها، ويُفْضِى منا الحرصُ إلىٰ غايةٍ لم يبلُغْها أحدٌ من مدبِّرى الدول ومُلُوكها؛ فننتخب لخطير الخدَم من كان قَيُّوما بهـا مستقِلًّا بآصارها، ونَنْتجب لجليل الرُّتَب الأعيانَ من أمراء دولتنا وأنصارِها؛ حِفْظا لمـا آستُحفِظْناه من أمور العِباد والبِلاد، ورَفْعا لعِماد الصَّلاح وحَسْما لموادِّ الفساد .

ولمّـا كنتَ أيها الأميرُ من الأولياء الذين صفَتْ فى المخالصة ضَمائرُهم ، وحسُنَتْ فى الطاعة عقائدُهم وسرائرُهم؛ ونالُوا من نَبِيه الحظِّ ماأطبَ الواصفَ فيما يذكره منه ويَرْوِيه ؛ وأحمَدُوا المناصحةَ فيما رَقَوْا فيه من دَرَج التنويه؛ وقد آستُكْفِيت مهمّاتِ من الخـدَم فكفَيْت هَمَّها وخفَّفت ثِقْلَها ؛ وأُهِّلت لولايات سـنِيَّة فحمَلْت كَلَّها ، وكنت مستحِقًّا لها وأهلَها ؛ فلك مَواتُّ حميدةٌ من حَسَن المقاصد ومشكور المَساعى، وحُرُماتٌ أكيدةٌ ظلَّتْ علىٰ آصطفائك من أوْفَى البواعث وأقوىٰ الدّواعى ؛ وكانت مدينــةُ عَسْقلانَ ــ حماها الله تعالىٰ ــ ثغرَ الإسلام الذى لا ثَغرَ له فى الشام سوَاه، والرِّباطَ الذى مَنْ كان به فقـد نال الثوابَ الجزيلَ وأحرَزَه وحَوَاه؛ وهو فى عُيون الكفار ــ خذَلهم الله ــ نُكْته ، وأسبابُ طَمَعهم فيه منقطعةٌ بحماته منبَتّة ؛ ونحن

تُوفِّر اهتمامًا عليه رعايةً لمكانه المكين ، وننتضى الكُفاةَ لتولّيه[1] توصُّلا إلىٰ النّكاية في المشركين ، وهو معْقِلٌ للسلمين المجاهدين وردّ ، ويجاوره قوم لُدّ ، وأمرُهم أمرٌ إدّ ، فيجب أن يُرتادَ لضبطه النَّدْبُ الذى لا تُهتَبَل غِرّتُه ، ويُسامَ لحفظه العضْبُ الذى لا تُتَّقَى ضَرْبتُه ، ويُختار لصونه الشهمُ الذى تقف علىٰ المصالح همّته ، وتنفُذ فيها عَزْمتُه ؛

وحين كانتْ هذه الصفاتُ فيك موجوده ، وظلّت محسوبةً من خلالك معدوده ، رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ ماخرج به أمرُنا إلىٰ ديوان الانشاء من كَتْب هذا السجلّ بتقليدك ولايةَ هذا الثغر وضواحيه ، وعمله ونواحيه ، ثقةً بمشهور مَضَائك ، وعلمًا بإبرارك علىٰ نُظَرائك .

فتقلّد هذه الخدمةَ عارفًا قدْرَ ماخُوّلت منها ، وعاملا بتقوىٰ الله وخيفَتِه فى جميع ماتأمُر به وتَنْهىٰ ، فإن تقواه الجُنّة الواقيه ، وإن خيفَته الذّخيرةُ الباقيه ، وقد وعد اللهُ المتقين بتيسير الأمور ، وتكفير السيآت وإعظام الأُجور ، قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ . واستعمِل العدلَ فى جميع من يشتملُ عليه عَمَلُك ، ويجرى عليه تولّيك ونظرُك ، وساوِ فى الحق بين الضعيف والقوىّ ، وماثِل فى الحكم بين القريب والقَصِىّ ، وإذا ثبت علىٰ شريف حقّ فلا تُحابِه لِرُتْبته ، وإذا ثبت لوضيع فخذه ممّن لزِمه واستقرّ فى جِهَته .

واعتمد من الأمر بالمعروف والنّهيِ عن المنكر ما يَستَنْطِق بالثناء عليك ألسنةَ المادحين ، وينظمُك فيمن عَناهم الله تعالىٰ بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

(١) فى القاموس وغيره «انتصيت» أى بالصاد المهملة «الرجل اخترته» فتنبه .

ويأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ويُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وأولَئِكَ من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِمِ الحُدُود علىٰ مَنْ لزِمتْه بما أمر الله به إقامةً [تجرى بها] مَجْرَاها ، وتوقَّ الزيادة فيها والنقص توقِّيَ من يتمثَّلُ المُجَازاةَ كأنه يَرَاها . وهذا الثغر لمَحَلِّه وسُمُوّ مقداره ، وقُرْب العَدُوّ منه ودُنُوّ داره ؛ لا يُقْنَع له بمركَزِيَّته ، ولا يُكتفىٰ في حقّه بمرابِطِيَّته وقَرَارِيَّته ؛ فنحن نُسَيِّر إليه العساكر المظفَّرةَ دفعتين في كل سنة علىٰ حُكْم البَدَل : فيَرِدُه عسكر جديدٌ مُزاحُ العلة ، كثيف العُدّه ، وافر العِدّه ، يؤثر أن يَظْهر أثَرُه ، ويحافظ علىٰ ما يطيب به ذكره وخَبَرُه ؛ فَبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات ، وضيِّق علىٰ العدوّ فسيحَ النَّواحي والجهات ؛ وجهِّزْ إليه من يُخيفه في مَآمِنِه ، وابعث د . . . من يَطْرُقه في أحْرز أماكِنه ، واندُبْ من طالِعُك بخفيِّ أخباره ، ويظهرُ لك باطنَ أموره ومستورَ أسراره : لتنتهزَ فيه الفُرصةَ إذا لاحَتْ مَخايِلُها ، وتبادِرَ الغفلةَ منه إذا ظهرَتْ دلائلُها . واجعل للتطوعين من الكِنَانيِّين نصيبا من ثواب الجهاد ، واحملهم علىٰ استفراغ الوُسْع بغاية الحِرْص والاجتهاد ؛ وافعَلْ في هذا الباب ما تتضاعفُ به مَوادُّ الأجْر ، وتنسخ به الأوزارُ كما ينسخُ الظلامُ بضياء الفَجْر ؛ واعضُدْ متولِّيَ الحكم العزيز عَضْدا يُعْلِي أمرَه ، ويشُدّ أزْرَه ؛ ويحرُس نظامَه ، وينفِّذ قضاياه وأحكامَه ؛ وكذلك متولِّي الدعوة الهادية ــ ثبتها الله تعالىٰ ــ فاعتمِدْه بما يشرح صدرَه فيما يوضِّحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتديِّنين ؛ ووَفِّر موفَّرَ اهتمامك علىٰ مرافدة من يتولَّىٰ أمرَ المال وما يجرى في الخاصِّ لتَدِرّ أخلافُه ، ويزكو ارتفاعُه ، وتغزُرَ مادّته ، ويتوفَّرَ مستخرَجه ؛ ويحتَمِيَ من خيانةٍ وتحيُّف ، ويسلَم استيداؤُه من تريُّث وتوقُّف . واستنهِض الرجالَ المستخدَمين في الأمور السَّوانح ، وصرِّفهم فيما ترىٰ تصريفَهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ؛ واستَعْطِي

الإحسانَ لمن أحمدتَ طريقتَه ، وقوِّم بالتأديب من ذممت فعله وكرهت سيئته ؛ فاعلم هذا وآعمل به ، وطالع بما يُحتاج إلى المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله عز وجل .

***

ومن المكتتب بالوظائف الديوانية من هذه المَرتبة نسخةُ توقيع بنظر الدَّواوين ، وهى :

أحقّ الأعمال بأن يُنْعَم فيها النظرُ الشافى ، ويُندَب لحمل عِبْئها الأمينُ الكافى ، ويُجالَ النظرُ فى تقليدها للقيم بأمرها ، ويُعمَل الرأىُ لآرتيادِ القوىّ على ضبطها وحَصْرها ، ما كان منها جامعًا لمَصالح الدولة ، حائزًا لمَهامّ المملكة : وهى أعمال الدِّيوان ، والنظرُ فى حفظ وُجُوه الأموال وما يُعين على آستنمائها ، ويعودُ بالزيادة فى أصول أبوابها ؛ إذ كان ذلك مِلاكَ الأمور ، وزمامَ التدبير فى حفظ الجمهور ، والمَعُونةَ العُظمى على الآستكثار من الرجال الذين بهم يتمّ حفظُ البلاد وحمايةُ الثُّغور .

ولمّا سَلَّطْنا البحثَ على آستصلاح من نؤهِّله لهذه المنزلة ، وآستخلاص من نُحِلّه بهذه المرتبة ، أدّانا الآختبارُ والآنتقاد ، وآنتهى بنا الآعتيامُ والارتياد ، إلى آختيار الشيخ فلان : حين سَفَرتْ له النَّباهةُ فى الكفاية ، والوَجاهةُ فى الخبرة والدِّراية ؛ وَجب ... ... (1) على آختصاصه بالفضل الذى تحلّى بأدبه ، والعَفاف الذى آشتهر من مذهبه ، من الخصال الحميده ، والخلال الرَّشيده ، والفضائل الموروثة والمكتسبه ، والخلائق المُنتقاة المهذّبه ؛ ورأيناه أهلا لإحلال هذه المَكانه ، وعَدْلا قيِّمًا باحتمال هذه الأمانه ؛ وعلمنا أن الصنيعةَ عنده زاكيةُ المَغارس ، والنعمةَ المُفاضةَ عليه ضافيةُ المَلابس ؛ فقلَّدناه أمر الديوان بحلَب وما معها من البلاد المضافة إليها

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلة فى حكمها : قاصى ذلك ودانيه، وأواسطه وحواشيه ؛ مقدمين الاستخارة فيما نبديه من قول ، ونعزم عليه من فعل .

وأمرناه أن يستشعر تقوى الله سبحانه فإنها الجنة الواقيه ، والذخيرة النافعة الباقيه ؛ ويعتلق أسبابها فإنها المنجية من المهالك ، الهادية إلى السبل الواضحة إذا اشتبهت المسالك ؛ محققا ماتوسمناه فيه من مخايل الأصاله ، ودلائل الجزاله ؛ مصدقا ما استنجحناه من كفايته وغنائه ، واستوضحناه من استقلاله واستقصائه .

وأن يبدأ فيرتب فى كل معاملة أمينا من الثقات الكفاه ، مشهودا له بالنهضة والأمانة المستوفاه . وأن يزم الأعمال القاصية والدانيه ، والبلاد القريبة والنائيه ؛ بالضبط المستقصى ، والحفظ المستوفى ؛ وبمن يرتبه عليها من الكتاب الأمناء ، ويستصلحه لها من الحفظة النصحاء . ويتتبع حال من بها من النواب : فمن شهدت له التجربة بالكفاية ، ودل الاختبار منه على العفة والأمانة ، استدامه فى خدمه المنوطة به ، وطالع من حاله بما يقضى له حسن النظر بحسبه ؛ ومن ألفاه متنكبا سبيل الأمانه ، مقارفا طريق العجز والخيانه ، بادر إلى الاستبدال به ، وعجل قطع مابينه من الخدمة وبين سببه . وأن يسترفع البواقى من الأموال ، فى سائر الجهات والأعمال ، إلى آخر التاريخ الذى تليه مباشرته ، ويتصل بآخره مبدأ نظره وفاتحته ؛ موشحة أوراق ذلك بخطوط الأمناء ، مفصلة جهاته بأسماء المعاملين والضمناء ؛ حتى إذا حملت إليه ، وصارت حجة على رافعها فى يديه ؛ طالبه بمواقفة من هو فى ذمته ، وتقدم بعد تصديقه على ذلك بمضايقته بعد المطالعة بجلى الحال وحقيقته . ثم يسترفع من مستوفى الديوان وعماله شروط الضمان ورسومهم ، وقواعدهم فى الضمان وعوائدهم : ليكون علم ذلك عنده مبينا ، ووقت مساس(1) الحاجة إليه حاضرا . ويطالب بجرائد الضياع خاصها ومقطعها المشتملة على ذكر رسومها وحقوقها ، وعدد قدنها

(1) الأولى بل الصواب مسيس الحاجة .

ومقاسمها . وجرائد الخراج اللازم لأرباب الأملاك على أملاكهم، وتحقيق المصفوح عنه والمسامح به والباقى على الأداء فى جهته . وجرائد الجزية مفصلة فى نواحيها، وأسماء أربابها إلى حين رفعها ـ وأن يطالب نوابَ الجزية فى كل شهر بختمة تتضمن ذكر مصارف مايحول إليهم، و إقامة وجوه المال الذى جمع عليهم؛ مفصلة مميزة الابتياعات عن الإطلاقات، والضيافات عن السفرات والإ طبلات؛ وكذلك نوابُ الأهراء يسترفع منهم مايدلّ على مثل ذلك، وسائر المتولين فى سائر الخدم يطالبهم بهذه المطالبه، ويضيق عليهم فى مثل ذلك سبيل المغالطة والموارَبه؛ ويجعل مؤاخذتهم بذلك من الأمور الراتبه، والوظائف اللازمة الواجبه؛ حتى يتبين له الكافى من العاجز، والأمين من الخائن .

وليتأمل وجوه الإخراجات ، ومبلغ الإطلاقات والإدرارات ؛ ويسترفعه من مظانه مفصلا بجهاته ، منسوبًا إلى أربابه ؛ ويتقدم بكتب مؤامرة جامعة لذلك التفصيل ، دالة على المقدار المطلق فى كل سنة محكِّم النظر الدقيق دون الجليل؛ وليعتمد فى إطلاق ما يُطلَق منها على سبيل ما يوقع به عند ذلك ، وليكن هذا من الأمور الجارية على العادة والرسم ، ويلزمه كلٌّ من نُوّاب الديوان .

***

ومن المكتتب منها بالوظائف الدينية نسخةُ تقليد بولاية الحِسْبة، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير، وهى :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمرٌ يشتمِلُ علىٰ معنىٰ الخصوص دونَ العُمُومِ ، ولا يختصّ به إلا ذَوُو الأوامرِ المُطاعة أو ذوُو العُلُوم؛ وقد منَحنا الله هذين الوصفين كلَيهما، وجعلَنا من المستخْلَفين عليهما :

فلْنبدأْ أوّلا بحمده الذى هو سبب للَمزيد، ثم لنأخُذْ فى القيام بأمره الذى هو علىٰ كلّ نفس منه رقيبٌ عتيد؛ ولا ريب أن إصلاحَ العبـاد يسْرى إلىٰ الأرض حتّى تزكُوَ بطُونُها، وتنْمُوَ عيونُها، ويَشترِكَ فى بركات السماء ساكنُها ومسكونُها ؛ والأمرُ بذلك حِمْـل إن لم تتوزّعه الأكُفُّ ثقُل علىٰ الرقاب ، وإذا آنتشرتْ أطرافُ البـلاد فإنها تفتقِرُ إلىٰ مساعَدةٍ من مستنيب ومستَنَاب ؛ وقد آخترنا لمدينة كذا رجلا لم نأل فى آختياره جُهْدا ، وقدّمنـا فيه خِيرةَ الله التى إذا صدقتْ نِيّتُها صادفتْ رُشْـدا ؛ وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسُـطْ يدَكَ [بقوّة][1] إلىٰ أخذ هذا الكتاب ، وكُنْ حسنةً من حسَناتنا التى ثَمَّ يرجَح بهـا ميزانُ الثواب ، وحقّق نظرَنا فيـك فإنه من نُور الله الذى ليس دُونَه من حجاب .

وآعلَمْ أنّ أمر الشريعة مبنىٌّ علىٰ التيسير لا علىٰ التعسير، ولا يقَعُ اللسانَ موضعَ السوطِ إلا من أُوتِى زيادةً فى التفسير ؛ وفى سـنة رسول لله صلى الله عليه وسـلم منْـدُوحةٌ لمن لزِمها ، وهى هدًى لمن عمِل بها ونورٌ لمن علِمها ؛ ويكفى من ذلك قصـةُ الأعرابىّ الذى أتىٰ حاجتَه فى المسجد فسارع الناسُ إليه، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : «إنّمـا بُعِثتُم ميسِّرين ولم تُبعثُوا مُعسِّرين»، ثم دعا بذَنُوب من ماء فصبّه عليه وقال : «يا أخَا العرب إنّ المساجدَ لم توضَعْ لشىء من هذَا وإنمـا وُضِعَتْ للصّلاة وقراءة القُرءان» .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظرْ إلىٰ هذا الرِّفق النبوىّ الذى شَفىٰ وكَفىٰ، وعَفَّىٰ علىٰ أثر المعصية لَمَّا عَفا، ولو عاد ذٰلك الأعرابىّ لمثلها لنُقِل عن لين التهذيب، إلىٰ شدّة التأديب؛ وكذٰلك فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْتَ عنه، ومَنْ عادَ فينتقمُ اللهُ منه.

ونحن نأمُرك أن تحتسب أوّلًا بلين القول لا بالأَنَف [و] النكير، وأن تترفّق فى الموعظة التى هى طريق إلىٰ الخشية والتذكير؛ وأن لا تكون باحْتِسابك مُدِلًّا بأنّك علىٰ الصراط المستقيم، وأن الناس بيْنَ يديك علىٰ سَنَن التثقيف والتقويم؛ فإنّ من أكبر الذنوب ذنبَ الإعجاب، والأَوْلىٰ لك حينئذٍ أن تعودَ علىٰ نفسك بالاحتساب[1]؛ ومن أَدّبك وأدّب أمثالك أن يقف فى أمْرِه بالمعروف مع التقوىٰ لا مع هَوَاه، وأن لا يُفَرِّق فى إزالة المعصية أن تكونَ بيده أو بيد أحدٍ سواه؛ وإذا كنت كذٰلك قَرَنك الله بمَنْ أنزل السكينةَ علىٰ لسانه ويده، وقوّم له أَوَدَ الناس لتقويم أَوَده، والله ينظُر إلىٰ قَلْب ٱبنِ آدم لا إلىٰ عَمَلِه ولا إلىٰ جَسَده. وعليكَ بالمجاهدين الذين سُلِب عنهم ثوبُ العافيه، ومَن ٱختفىٰ منك بالاَستِتار فلا تَكْشِفْ عن حاله الخافيَه. وأما ذَوُو الهيئات فإنّ عثَراتِهم تُقال، وأعراضَهم لا تُذال، ولرُبَّما كان التجاوُزُ عنهم داعيا إلىٰ الاَنتقال؛ وفى قصة أبى مِحْجَنٍ وسعْد ماينبّئُك أنّ الحياء أغنىٰ فى الاَزْدِجار؛ وفى الناس أذنابٌ لا قَدْر لها تَذُبُّ عنه ورُءوسٌ تَذُبُّ عمّا لها من الأقدار. وهاهنا من ضَروريّات الوصايا مايُؤْتىٰ فى مثله بتوكيد الأقوال، وأكثرُ ذٰلك يدُور فى المعاملات التى ألِفَها قومٌ دون قوم، وٱستمرّوا عليها يومًا دُونَ يوم؛ وقد أتىٰ منها ما ٱتّفق علىٰ العمل به كلُّ فريق، وأيسرُ ذٰلك إزالةُ النُّخامة من المسجد وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق.

(١) فى القاموس ٱحتسب عليه أنكر ومنه المحتسب.

وهذه الوصايا كلُّها لا تفتقر فيها إلىٰ التوقيف، وأنت عالمٌ بوضع كَلِمها في مواضعه وغيرُك الذى يتعدّى إلىٰ التحريف ؛ فامض علىٰ السَّنَن ، وأْتِ بالحسَن ؛ وسوِّ بين حالتيْك في السِّرّ والعلَن ، وكنْ مِن خوف الله ورجائه بين رِحْلة سفَر وقَرارة وطَن . وهذا عهدُنا إليك تتقمَّص اليومَ منه رِداء جميلا ، وستَحْمِل غدًا منه عِبْئًا ثقيلا ؛ وقد فرَضْنا لك عن حقّ سعيك فريضةً تجدُ بها كَفَافا ، وتمنعُك أن تمدّ عينيْك إلىٰ غيرها ٱستِشْرافا ، فإنَّ العملَ الذى تولّيتَه يستغرق أوقاتَكَ أن تكون للدنيا كاسبَه ، وتشغَل نفْسَك بالعمل والنَّصَب لا أن تكون عاملةً ناصبه . وإذا نظرت إلىٰ ما نيط بك وجدْتَه قد ٱستحصىٰ الزَّمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة البانى وقواعده :. « وكلُّ بِنَاء علىٰ قدْر بانيه وما شاد » . ونحن نأمرُ وُلاتَنا علىٰ ٱختلاف مراتبهم أن يرفعوا من قَدْرك ، ويسدُّوا من أمرك ، وإذا ٱستوْعَرَ عليك أمرٌ من الجوانب سهَّلوا من وَعْرك ؛ والله قد أمر أهلَ طاعته بأن يكون بعضُهم لبعض من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعــــة

(ممـا يُكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ماعليه مصطلح كُتّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يُكتَب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتّفاويض والتواقيع ، علىٰ ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة][1] مقاصــد)

المقصـــد الأول

(فى مقدّمات هذه الولايات ، وفيــه مَهْيَعان)

المهيــــع الأول

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلىٰ الطريق الشرعى)

قد تقــدّم فى أوّل الكلام علىٰ العُهود أنّ السلطنة فى زماننا دائرةٌ بينَ إمارة الاستيلاء : وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ علىٰ بلاد ويُفوّض إليه تدبيرَها فيستوْلى عليهـا بالقوّة ، وبينَ وِزَارة التفويض : وهى أن يستوْزِر الخليفةُ من يُفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وفصْلَها علىٰ اجتهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشـبه ، علىٰ ماتقدّم بيانُه هناك . وقد صرح الماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كَمَل فى المستولى علىٰ الأمر بالقوّة بعـد تولية الخليفة له مع اشتمـاله علىٰ الصفات المعتبَرة فى الموَلّى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسـلامُ ، والحرّيّة ، والأمانةُ ، وصِـدْق اللّهجة ، وقِـلّة الطمع ، والسلامةُ من الميـل مع الهوىٰ ، والبراءةُ من الشّحْناء ، والذّكاءُ ، والفِطْنة ــ جاز له ما يجوزُ لخليفة من توليةِ وزارةِ التفويض وغيرها من سائر النّيابات ، وجرىٰ علىٰ من استوزره أو استنابه أحكامُ من استوزره الخليفةَ

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو آستنابه ، وإن لم يستكمل الصِّفَاتِ المعتبرةَ في الولاية الصادرة عن آختيار الخليفة ، آستنابَ له الخليفةُ لكل ولاية من تتكاملُ فيه شروطُها .

قلت : وقد كانت ملوكُ بني بُوَيْه وبني سَلْجُوق مع غَلَبتهم علىٰ أمر الخلفاء ببغداد وآستيلائهم يقتصرون في تصرُّفهم علىٰ متعلِّقات المُلْك في الجهاد والتصرّف في الأموال ، ويكِلُون أمر الولايات إلىٰ الخليفة يُباشِرها بنفسه ، وتكتَبُ عنه العهودُ والتقاليدُ علىٰ ما تشهد به نُسَخُها الموجودةُ من إنشاء الصابي وغيره ـ وكذٰلك الخلفاء الفاطميُّون بمصر عند غَلَبة وُزَرائهم علىٰ الأمر من لَدُنْ خلافة المستنصر وإلىٰ آنقراض خلافتهم من الديار المصرية ، كالصالح طَلائِع بن رُزِّيك[1] في وزارته للفائز والعاضد ، ونحو ذٰلك : فإنّ الخليفة هو الذى كانت الولاياتُ تصدُر عنه تارةً بإشارة الوزير ، وتارةً بغير إشارته ، علىٰ ما تشهد به نسخُ السِّجِلّات المكتتبة في دَوْلتهم ، علىٰ ما تقدّم بيانه في الفصل الأوّل من هذا الباب . علىٰ أنّ أصحابنا الشافعيةَ وغيرَهم من أئمة الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قد صحَّحوا الإمامةَ بغلبة الشوكة والآستيلاءِ علىٰ الأمر بالقهر دُونَ آستكمال شروط الإمامة ، تصحيحًا للأحكام الشرعية الصادرة عن المستَولِي بالشوكة : من العُقود والفُسوخ وإقامة الحُدود وغيرها ، علىٰ ماهو مذكور في باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميعُ الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعا وإن لم يستَنِبْه عنه الخليفةُ ؛ وكذٰلك ما يترتَّب عليها ، علىٰ ما الأمر جارٍ عليه الآنَ .

---

(١) ضبطه المجد في قاموسه فقال «كقبيط» . ونُقِل عن الحافظ آبن حجر ضبطه بكسر الزاى وصوبه شارح القاموس وبه ضبطه آبن خلكان في تاريخه .

المهيع الثانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وآعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاةُ أمور .

الأمر الأوّل — براعةُ الاستهلال بذكر آسم المولى أو نعته أو لقبه أو الوظيفة، أو حالِ الولاية ، مع آستصحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخُطْبة ونحوها من الافتتاحات، كما أشار إليه الشيخُ شهابُ الدين محمودٌ الحلبيُّ رحمه الله فى كتابه "حُسْن التوسل" كما تقدّم ذكره فى الكلام على البَيْعات والعُهود .

الأمر الثانى — مراعاة قَطْع الوَرق فى الجملة لكلّ ما يُكتَب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها . والذى يختص بهذا المكان ذكرُ مقاديرِ قَطْع الورق فيما يتعلّق بهذه الولايات خاصّة، وهى خمسة مَقاديرَ : — أحدُها قَطْع الثلثين، ويختصُّ فى الولايات بكبّار التقاليد دُونَ غيرها — وثانيها قَطْع النّصف، وفيه تُكتَب صغارُ التقاليد، والمَراسيمُ المُكبَّرة، والتفاويضُ ، وكِبارُ التواقيع — وثالثها قَطْع الثلُث، وفيه تُكتَب صغارُ المراسيم المكبَّرة، والتواقيعُ المتوسطةُ — ورابعها قَطْع العادة المنصوريّ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمَراسيمُ التى لأصحابها بعضُ مِيزةٍ لا تنتهى بهم إلى رُتْبة قَطْع الثُلُث — وخامسها قَطْع العادة الصغيرُ ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى هى فى الرّتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفةُ ما يناسب كلَّ قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدّم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" ما لكلّ مِقْدار من الأقلام . والمتعلّق بهذا الموضع من ذلك أنّ لقطع الثلُثين قَلَمَ الثلث الثقيل، ولقطع النصف قَلَمَ الثلث الخفيف، ولقَطْع الثلث قَلَم التوقيعات، ولقطع العادة مُطْلقا قَلَمَ الرِّقاع .

الأمر الرابع — معرفةُ اللّقب المطابِق لرتبة كلّ ولاية وصاحبها من الألقاب الأصول المتقدّم ذكرُها فى الكلام على الألقاب من المقالة الثالثة . وهى المَقرّ، والجَناب، والمجلسُ، ومجلِسُ كذا على الإضافة؛ وما يُناسب كلّ لقب من هذه الألقاب من الفروع المرتّبة عليها، كوصف المَقرّ بالكريم العالى، ووصفِ الجناب تارةً بالكريم العالى، وتارة بالعالى مجرّدا عن الكريم، ووصفِ المجلس تارةً بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حقّ أرباب الأقلام من العُلَماء وأصحاب الدواوين إلى القاضى فيقال : مجلِس القاضى ، وفى حقّ الصُّلَحاء إلى الشيخ فيقال مجلِسُ الشيخ؛ وانّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصَّدْر ويُوصَف بالأجل فيقال الصَّدْر الأجلُّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتّى تترتّب عليه . وتقدّم أيضا فى المقالة الرابعة فى الكلام على المكاتباتِ الصادرة عن الأبواب السلطانية بالدّيار المصرية فى زماننا إلى أهل المملكة مكاتبةُ كل واحدٍ ممّن جرتِ العادةُ بالمكاتبة إليه، وما يختصّ به من الألقاب الأُصولِ والفُروع .

واعلم أنّ الولاياتِ أعمّ من المكاتَبات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مُكاتَبة، إذ المكاتَبات إنما تكون لقومٍ مخصوصِين من أرباب الولايات . إذا عُلِم ذلك فكلّ من له مكاتَبة عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المكاتَبات إذا كُتِبتْ له ولايةٌ نُعِت بألقابه ونُعوتِه التى بها يُكاتَب عن الأبواب السلطانية، إلا أنّ الدعاء المصدّر به المكاتبةُ يجعل فى الآخِر دُونَ الأوّل : فاذا كانت المكاتبةُ إلى أحدٍ «أعزّ اللهُ تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم» قيل فى ألقابه فى الولاية «المَقرّ الكريم» إلى آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعزّ الله تعالى أنصاره؛ وكذلك فى البواقى . أمّا من لم تجر

العادة بمكاتبة إليه عن الأبواب السلطانية ممن يولى عنها فإن لكل طبقة ألقابا تخصهم . ونحن نذكر الألقاب الأصول وما يتفرع عليها لكل طبقة من كل طائفة على الوضع الذى تقتضيه الولايات دون المكاتبات، ليجرى كل من أرباب الولايات على ما يناسبه من الألقاب

وقد علمت فيما تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة(١) أنواع :

النوع الأول — ألقاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تسع مراتب :

المرتبة الأولى — المقر الكريم مع الدعاء بعز الأنصار، وهى : المقر الكريم، العالى، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الزعيمى ، العونى ، الغياثى ، المثاغرى ، المرابطى ، الممهدى ، المشيدى ، الظهيرى ، العابدى ، الناسكى ، الأتابكى ، الكفيلى ، الفلانى ، معز الإسلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، ممهد الدول ، مشيد الممالك ، عماد الملة ، عون الأمة ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعز الله تعالى أنصاره .

المرتبة الثانية — الجناب الكريم مع الدعاء بعز النصرة، وهى : الجناب الكريم، العالى، الأميرى الكبيرى العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الزعيمى ، العونى ، الغياثى ، المثاغرى ، المرابطى ، الممهدى ، المشيدى ، الظهيرى ، الكافلى ، الفلانى ، عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش

(١) المعدود ستة فتنبه .

الموحِّدين ، مقدَّم العساكر ، ممهِّد الدُّول ، مشيِّدُ الممالك ، عمادُ الملَّة ، عونُ الأمة ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزَّ الله تعالى نُصْرتَه .

المرتبة الثالثة — الجنابُ العالى مع الدعاء بمُضاعفة النِّعمة ، وهى : الجنابُ العالى ، الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَونىّ ، الزعيمىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ، عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عمادُ الملَّة ، عون الأُمَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى السلطان) ضاعَفَ الله تعالى نعمتَه .

المرتبة الرابعة — الجنابُ العالى مع الدعاء بدَوام النعمة ، وهى : الجنابُ العالى الأميرىّ ، الكَبيرىُّ ، العالمىُّ ، المؤيِّدىّ ، الأَوْحَدىّ ، النَّصيرىُّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ الملَّة ، ذُخْر الدَّوْلة ، عمادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نِعمَتَه .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى والدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : المجلس العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الأَوْحدىّ ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، عزُّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كهفُ الملَّة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسَام امير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نعمتَه .

المرتبة السادسةُ — المجلس السامىّ بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى : المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النّصيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيّدىّ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام، شرَفُ الأمراء ، ذُخر المجاهدين ، عضُدُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانى، أدام الله تأييدَه .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء، والدعاءُ أدام اللهُ رِفعته ونحو ذٰلك، وهى : المجلس السامى ، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبيرُ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيّدُ ، الأوحدُ ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلسُ الأمير ، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه، وهى : مجلس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى، المجاهد ، المؤيّد، الأوحَد ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عُدّةُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى، أدام الله سعْدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجرّدا عن المضاف إليه، وهى : الأميرُ، الأجلُّ ، وربّما زيد فيه فقيل الكبير، المحتَرم، ونحو ذٰلك .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية ، وهى علىٰ ستّ مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — الجناب العالى مع الدعاء بمضاعَفَة النّعمة . وفيها أسلوبان :

الأُسلوب الأوّل — ألقـاب الوزير وهى : الجناب العـالى ، الصاحبىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، الأوحَدىّ ، الأكملىّ ، القوَامىّ ، النّظامىّ ، الأثيرىّ ،

البليغى، المنفذى ، المسددى، المتصرفى، المهدى، العونى، المدبرى، المشيرى، الوزيرى ، الفلانى ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الوزراء فى العالمين ، رئيس الكبراء، كبيرُ الرؤساء، أوحدُ الأصحاب، مَلاذُ الكُتّاب، قِوام الدول، نظامُ المُلك، مُفيد المَناجح ، معتَمَد المصالح ، مُرَتِّب الجيوش ، عِمادُ الملة ، عونُ الأمة، مُشير الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمته .

الأسلوب الثانى — ألقاب كاتب السرّ، عند ما آستقرّ ما يكتب له تقليداً فى قَطْع الثلثين ، وهى : الجنابُ العالى، القاضوى، الكبيرى، العالمى ، العادلى، العَلّامى، الأفضلى، الأكملى، البليغى، المسددى، المنفذى، المشيدى، العونى، المُشيرى ، اليَمينى ، السَّفيرى ، الأَصيلى ، العَريقى، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قدوةُ العلماء العاملين ، جمالُ البُلَغاء ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْف الكُتّاب ، يمين المملكة، لسانُ السَّلْطنة، سفيرُ الأُمّة، سَليلُ الأكابر، مُشير الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمته .

قلت : وقد كان رتبتُه : المجلس العالى عند ما كان يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النِّصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالى مع الدُّعاء بدَوَام النعمة، وفيها أربعة أساليبَ .

الأسلوب الأوّل — ألقابُ كاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى كتابة توقيع فى قَطْع النصف ، ويُدْعىٰ له : أدام الله نعمتَه، وهى : المجلسُ، العالى، بالألقاب المتقدِّمة له مع الجناب العالى، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ .

الأسلوب الثانى — ألقاب ناظر الخاص، وهى: المجلس العالى القاضوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدىّ، الأكملى، الرّئيسىّ، البليغىّ، البارعى، القوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المنفّذىّ، المسدّدىّ، المتصرّفى، الفلانىّ، جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالمَين، قوامُ المصالح، نظام المناجح، جَلَال الأكابر، قُدوةُ الكُتّاب، رئيسُ الأصحاب، عمادُ الملة، صَفْوة الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالى نعمتــه .

الأسلوب الثالث — ألقاب وزيردِمَشْق إذا صُرِّح له بالوِزارة، وهى: المجلس العالى، الصاحبىّ، الوزيرىّ، الأَجَلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، الأوحدىّ، القوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المُشيرىّ، الفلانىّ، صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الوزراء فى العالمين، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، بقية الأصحاب، مَلَاذُ الكُتّاب، عمادُ الملة، خالِصة الدولة، مشير الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالى نعمتَه .

الأسلوب الرابع — ألقاب ناظر النُّظّار بالشام، إذا لم يكن وزيرا، وهى: المجلس العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، الأوحدىّ، الرّئيسىّ، الأثيرىّ، القوامىّ، النّظامىّ، المنفّذىّ، المتصرّفىّ، الفلانىّ: مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفُضَلاء، جلالُ الكُبَراء، حُجّة الكُتّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالى نعمتَه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى باليا، مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ، وهى : المجلس السامىُّ ، القضائىّ ، الأجلّ ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الرئيسى ، الأوحدى ، الأصيلى ، الأثيرى ، البليغى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، شرف الرؤساء فى الأنام ؛ زين البلغاء ، جمال الفضلاء ؛ أوحد الكُتّاب ، فخر الحُسّاب ؛ صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى رفعته

فإن كان من كتاب الإنشاء ، أسقط منه « فخر الحُسّاب » .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء ، مع الدعاء بدوام الرفعة ونحوه أيضا ، وهى : المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الصَّدْر ، الرئيسُ ، الأوْحَد ، البارعُ ، الكاملُ ، الأصيلُ ، الفاضلُ ، فلان الدين ؛ جمالُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الأكابر ، زَيْن الرؤساء ، أوحدُ الفُضلاء ؛ زَيْنُ الكُتّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى رفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلسُ القاضى ، وهى : مجلس القاضى ، الأجَلّ ، الكبير ، الفاضل ، الأوْحد ، الأثير ، الرئيس ، البليغ ، العريق ، الأصيل ، فلان الدين ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، زَيْن الكتّاب ، مُرْتضى الملوك والسلاطين ، أدام الله رفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضى الأجلّ . ورُبّما زيد فى التعظيم الصَّدْر ، الرئيسُ ، الكبيرُ ، ونحوُ ذلك .

النـــــــوع الثـالث

(ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية ــ وهى أيضا على ستّ مراتبَ)

المرتبةُ الأولى ــ الجنابُ العالى ــ وهى لمَن آستقرّ له كتابةُ تقليدٍ فى قَطْع الثلثين من قُضاة القُضاة بالدِّيار المِصْرية وهو الشافعىّ؛ وهى : الجنابُ العالى، القاضَوىّ، الشَّيْخىّ، الكبِيرى، العالِمىّ، العامِلىّ، الأفضَلِىّ، الأكملىّ، الأَوْحدىّ، البَلِيغىّ، الفَرِيدىّ، المُفِيدىّ، النَّجِيدىّ، القُـدْوِىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الورَعىّ، الخاشعىّ، الناسكِىّ، الإمامِىّ، العَلَّامىّ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ، الحاكِمىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلمـاء العاملين، أوحَدُ الفضلاء المُفِيدين، قُدْوة البلغاء، حُجّة الأمّة، عمدةُ المحقِّقين، فخرُ المدرّسين، مفتى المسلمين، جلالُ الحُكَّام بركةُ الدولة، صَدْر مصرَ والشام، مُعِزُّ السنّة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعـة، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين، حَكَم الملوك والسـلاطين، ولىُّ أمير المؤمنـين، فلان (بنسبه) أعز اللهُ تعالى أحكامَه .

وكذلك قاضى القُضاة الحنفىُّ بالديار المصرية عند ما آستقرّ المكتوبُ له تقليدًا .

المرتبةُ الثـانية ــ المجلس العالى، وبهـا كان يُكتب لقاضى القُضاة الشافعىّ قبل أن يستقرّ ما يكتَبُ له تقليدا، بالألقاب والنُّعوت السابقةِ له مع الجناب؛ وكذلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقـاب والنُّعوت؛ وهى : المجلس العـالى، القاضَوىّ، الكبِيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، الأفضَلِىّ، الأكملىّ، الأَوْحدى، البليغىّ، الفَريدىّ، المُفِيدىّ، النَّجِيدى، القُدْوىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الإمامىّ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ، الحـاكِمىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سـيِّدُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفيدين، قُدْوة البُلَغاء، حجةُ الأمّة، عمدَةُ المحدِّثين، فخرُ المدرّسين،

مفتي المسلمين؛ جلالُ الحُكّام، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى (بنَسَبه) أعزّ الله تعالىٰ أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء ، وهى : المجلس السامىّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الأوْحَدىّ ، الرئيسىّ ، المُفيدىّ ، البَليغىّ ، القُدْوىّ ، الأثيرىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، جمالُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء ، صَدْر المدرّسين ، عُمـدةُ المفْتين ، خالصةُ المـلوك والسلاطين ، فلان الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ تأييدَه .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء ، وهى : المجلسُ السامى ، القاضى ، الأجَلُّ ، الكبيرُ ، الصَّدْرُ ، الرئيسُ ، العالم ، الفاضلُ ، الكاملُ ، فلان الدين ، مجدُ الصُّدور ، زَيْنُ الأعيان ، مرتَضىٰ المُلوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبةُ مجلس القاضى ؛ وهى : مجلس القاضى ، الأجلّ ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الأوحد ، الصدر ، الرئيس ؛ مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، زين الأعيان ، فخر الصُّدور ، مرتَضى الملوك والسلاطين ، فلان : أعزّه الله تعالىٰ .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى ؛ وهى : القاضى ، الأجَلُّ . وربما زيد فى التعظيم نحو الكبير ، الصدر ، الرئيس ، ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع

(ألقابُ مشايخ الصُّوفية — وهى علىٰ خمس مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — المجلسُ العالى . وبها يُكتَب لشيخ الشُّيوخ بالديار المِصْرية ، وهى : المجلس العالى ، الشيخىُّ ، الكبيرىُّ العالمىّ ، العامِلىّ ، السالِكىّ ، الأوحَدىّ ،

الزاهدى، العابدى، الخاشعى، الناسكى، المُفيدى، القُدْوى، الإمامى، النِّظامى، المَلاذى؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، شرَفُ الصُّلَحاء فى العالَمِين، شيخُ شُيوخ الإسلام، أوحدُ العلماء فى الأنام، قدوةُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين، فلان، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، الشيخى، الكبيرىُّ، الأوْحَدى، الأكملى، العابدى، الخاشعى، الناسكى؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصُّلَحاء، فخرُ العُبَّاد، بركةُ الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالىٰ من بركته .

المرتبة الثالثة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامِى، الشيخُ، الصالحُ، الزاهدُ، العابدُ، الوَرِع، الخاشِعُ، الناسكُ، السالكُ، فلان الدِّين؛ مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين : نَفَع الله تعالىٰ ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلسُ الشَّيخ، وهى مجلسُ الشيخ، الصالح، الزاهد، العابد، الناسك، السالك، فلان الدين؛ مجد الصُّلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك والسلاطين : أدام الله تعالىٰ بركَته .

المرتبةُ الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهد، ونحو ذلك : نفع الله تعالىٰ به .

النـــوع الخـامس

(ألقابُ مَنْ قد يُكتب له بولاية من رؤساء العامّة من التُّجّار وغيرهم)

وفيها أربع مراتب :

المرتبة الأولىٰ — المجلس السامىُّ بالياء ، وهى : المجلس السامىّ ، الصدرىُّ ، الأجلىُّ ، الكبيرىُّ ، الرئيسىّ ، الفلانىّ .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغير ياء ، وهى : المجلس السامى ، الصدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترَم .

المرتبـة الثالثة — مجلسُ الصَّدْر ، وهى : مجلسُ الصـدر ، الأجلّ ، الكبير ، المحترَم ، المؤتَمن ، فلان الدين . ويقال فى ألقاب المِهتاريَّة ونحوِهم : الحاجُّ فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصَّدْر ، وهى : الصَّدْر ، الأجلُّ . فإنْ زِيد فى تكريمه قيل بعد ذلك : الكبير ، المحترَم .

النـــوع السـادس

(ألقابُ زعمـاء أهل الذِّمّة ، وهم ثلاثة)

الأوّل — بَطْرَك النصارىٰ اليَعاقِبة ، وهى : الحضرةُ الساميـة ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجَّل ، المكرَّم ، الكافى ، المعزَّز ، المُفخَّر ، القِدِّيس ، شمس الرياسـة ، عمـاد بنى المَعمودِية ، كنزُ الطائفة الصليبيَّة .

الثـانى — بَطْرَك المَلكانيَّة ، وتُختصَر ألقابُه عمّا يُكتب به لبَطْرك اليَعاقِبة بعض الاختصـار .

الثالث - رئيسُ اليهود، وهى : الرئيسُ الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكبيرُ ، شرفُ الداوُديِّين ، فلان أبو فلان : سدّده الله فى أقواله ، وثبّته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبُّه له أن ما تقدّم من الألقاب والنُّعوت المفرّعة على الألقاب الأُصُول ليستْ مما يُوقَف عند حدّ، بل محتملةٌ للزيادة والنقص بحسبِ ما تقتضيه الحال، ويحتمله المَقَال . بل ربّما وُلِّى بعضَ المناصب مَنْ فيه صِفاتٌ تستحق ألقابا ونعوتا خاصّةً، فيكتُب له بذلك مراعاةً لما يقتضيه حالُه، ويستوجبُه مقامه، ثم يلى ذلك المنصبَ بعده مَنْ لايستحق الوصفَ بالألقاب والنُّعوت التى تخُصُّ المتقدّم، فيؤتَى بها للثانى : كما اتّفق فيما كُتِب به فى نِيَابة الشام حينَ وَلِيَها الأمير بيدَمُر الخُوارَزْمِىّ رحمه الله، وكان من الدِّيانة على ما لا يُوجَد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العابِدِىّ، الناسكىُّ، الخاشِعِىّ . فلزمتْ فيمن بعده وصارت مما يكتَبُ به إلى الآنَ ، سواء اتّصف نائبُها بدينٍ أم لا - وكما اتّفق فى الصاحب علَم الدِّين بن زُنْبور حين اجتمع له الوِزارةُ ونظرُ الخاصّ والجيش ، فكُتِب له بألقابٍ ونُعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونُعوتِها، فاستمرّ ذلك فيما يُكتَب به لكلّ مَنْ وَلِىَ الوزارة بعدَه إلى الآنَ ؛ حتّى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرتِّب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصّة بناظر الجيش استطرادًا لما كُتِب به لابن زُنْبور : لانضمام نظر الجيش إليه على ما تقدّم - وكما اتّفق فيما كُتِب به للشيخ تقىّ الدين السُّبْكى من الألقاب الجليلةِ المقدار، الرفيعةِ المكانةِ ، فى قضاء الشام لرِفْعة مقامه ، واتّساع باعِه فى العلم ، وعُلُوّ مكانته فى الخاصّة والعامّة فلزِم كتابة ذلك لقاضى قُضاة الشافعية بالديار المصرية ، من حيثُ إنه لا يليق بالحال -

أن يكون قاضى الشام أعلىٰ رتبةً من قاضى الدِّيار المصرية . ثم سَرىٰ ذلك فى كل من وَلِى المنصِبَ بعد ذلك ، وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

ومما يلتحق بذلك أنه قد جرت العادةُ فى الزمن المتقدم وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا أنه كان يكتب فى الطرَّة لأرباب السيوف بعد الأميرى « الكبيرىّ الفلانى » بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان كالناصرىّ ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تجْرِ العادةُ بأن يكتب لهم ذلك فى شىء من طرَّة تقاليدهم ولا تَواقِيعهم، إلىٰ أن لبِس القاضى سعدُ الدين بنُ غُرَابٍ الكَلُوتة ، وآستقر إستادارا فى الدولة الناصرية فرج آبن برقوق، ثم آستقرَّ مشيرا وكتب له تقليدٌ بالإشارة كتب له فى طرَّة تقليده بعد الكبيرى « الناصرى » لجمعه بين السيف والقَلَم . ثم جرىٰ بعض الكُتَّاب علىٰ مثل ذلك فى غيره من أرباب الأقلام الأكابر : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ومن فى معناهم من أرباب الوَظَائف الديوانية . والحجةُ فيه ظاهرةٌ من حيثُ إن كُلًّا من المذكورين إذا كُتِب عنه كتاب ، كُتِب فى أعلاه تحت البسملة « المَلَكىّ الناصرىّ » وإذا كتب عنه قِصَّة ، كتب فيها تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ » . ومقتضىٰ ذلك أن يكتب لقب الإضافة إلىٰ لقب السلطنة فى تقليده أو توقيعه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه من فعل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته معرفةُ الوصف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاةُ ما يناسبه من الأوصاف التى يقع بها تقريظه ومَدْحُه :

فإن كان نائبَ سلطنة وصَفَه بالشجاعة، والنَّجْدة، وقُوّة العَزْم، والشَّهامة، وشِدّة الشَّكيمة، ونُصْرة الدِّين، وكَفِّ [الأيدى] العاديَة، وإرهاب العدوّ، وقَمْع المفسدين، وإرغامِ أهْل العُدْوان، وحِمايةِ الثُّغور ـ إن كان فى ثغر ـ ووُفُور الهَيْبة، وبُعْدِ الصِّيت، وطَيرانِ السُّمعة، مع بَسْط المَعْدَلة والرِّفق بالرعيَّة، والرأفة بخلق الله تعالىٰ، والشَّفقة عليهم، والإحسانِ إلىٰ الكافَّة، والأخْذ بقلوبهم، والوقوف مع أحكام الشريعة، وبَذْل الطاعة، والمناصَحة، والمخالَصة، وقِدَم هِجرته فى الدولة ـ إن كان قديم هِجرة ـ ومُرورِ الدُّوَل عليه ـ إن كان قد مَرَّت عليه دول ـ، وأنه نَشْءُ الدولة ـ إن كان ابتداء أمره فيها ـ، ونحو ذٰلك.

وإن كان نائبَ قلعة وصفه بالحِذْق، واليَقَظة، وقوّة الحَزْم، وشِدّة التحرُّز، والمعرفةِ بأحوال الحِصَار وضُروب القِتال وطُرُق التحصين والمُدافَعة، ونحو ذٰلك.

وإن كان وزيرا وصفه بحُسْنِ التدبير، وجَزَالة الرأى، والاحتياط فى الأمور، والقِيام بمَصالح الإسلام، وعِمارةِ البِلاد، والنُّهوض فى المهمَّات، وكَفِّ الأيدى العاديَة، والأخْذِ علىٰ يد المتعَدِّى، وتنمِيَة الأموال وتثْميرها، وتسهيل مايجرى من الأرزاق علىٰ يَده، وبَذْل المجهود فى معاضَدة الشريعة، وشِبْه ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ.

وإن كان كاتبَ سِرٍّ وصفَه بالفَصاحة والبلاغة، وقِيامِ أقلامه فى التأثير فى العدُوّ مَقامَ السُّيوف والرِّماح، وكُتُبه فى تفريق الكتائب مَقامَ الجيوش والعساكر، وسَدادِ الرأى، وكَتْم الأسرار، وحمايةِ الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذٰلك.

وإن كان ناظرَ جيش وصفه بالمعْرِفة بأمور الجيوش وترتيبها ، وأصناف الأمراء، والجُنْد، والمستخْدَمين، وترتيب مَقَاماتهم، وما ينخَرط فى هذا السِّلْك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحِسَاب، والنهضة فى المهمَّات، والمعرفة بأحوال ديوان الخاصّ وجِهَاته ، والقُدرة على تحصيل الأموال وزيادتها، ومعرفة ما يُحتَاجُ إليه من أصناف الأقْمِشة والطُّرُز وغيرها ، مع الأمانة والعِفَّة ، وما يجرى مَجْرَى ذٰلك .

وإن كان مستوفِىَ الصُّحْبة وصفه بالمعرفة بفُنُون الكتابة ، ونَظْم الحُسْبانات ، والاحتياط فى ٱسْتِيفَاعها ، مع الضبط والاحتراز والأمانة والعِفّة وما هو من هذا القَبِيل .

وإن كان ناظرَ خِزَانة الخاصّ وصفه بالأمانة، والعِفَّة ، والمعرفة بأصناف الخِزَانة : من الأقْمِشة، والتَّشارِيف، والطُّرُز، ومعرفة مراتب أربابها،وما يُناسب كلَّ واحدٍ منهم من أنواع التشاريف من عاليها وهابطها، وما يطابق ذٰلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغَزَارة العِلم، وسَعَة الفضل ، ونُصْرة السُّنَّة، وقَمْع البِدْعَة، والعَدْل فى الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم، والأخْذ للضعيف من القوىّ، والنزاهة عن المَطَاعم الوَخِيمة، والمطامع الرديّة، والبُعْد عن الأهواء فى الحكم، وما ينخَرط فى هذا السِّلك .

وإن كان محتَسِبا وصفه بعد وصْفه بالفضل بالعِفَّة، والأمانة، وعُلُوّ الهِمَّة، وقُوّة العزم، والصَّرامة، ووُفُور الهيبة، والنُّهوض بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنظَرِ فى مصالح المسلمين ، وعدمِ مُحاباة أهلِ الدُّنيا وأربابِ الجاه ، وأنه لا يفرِّق فى الحق بين الجليل والحقير، وما فى معنى ذٰلك .

وإن كان وكيلَ بيتِ المال وصفه بعد العِلْم والديانة بالوقوف مع الحق، والتثبّت فيه، ومراعاته المصلحة العامّة فى كل مايتعلّق به، والمعرفة بشروط الاعتذار ومواقع ابداء الدافع ونفيه. وأنه يقدّم مصالحَ المسلمين علىٰ مصالح نفسه، وما يقارب ذٰلك.

وإن كان مدرّسا وصفه بسَعَة العلم، والتضَلُّع بالفُنون، والأخْذ من كلٍّ منها بحظٍّ وافر، وطُول الباع فى البحث والمناظَرة، والوقوف مع الحقّ فيها، وعدمِ الجدال فى الباطل، وتربيَة الطلبة، وتأديبهم، والتقريب علىٰ من عَسُر علىٰ فهمه شىء من المسائل، وعدمِ الترفُّع عليهم، وتنزيلهم منازِلَهم فى الفضل، وتقديم مَنْ يَبرَع منهم.

وإن كان خطيبًا وصفه بالفَصَاحة، والبَلاغة، وقُوّة اللَّسَن، وشدّة الشَّكيمة فى الكلام، وتأثير وَعْظه فى القلوب، وانسكابِ الدموع من وَقْع عِظَاته، وما أشبه ذٰلك.

وإن كان شيخَ خانقاه وصفه بالورَع، والزُّهد، والنُّسُك، وقطْع العلائق من الدنيا، وتربيَة المريدين وتسليكهم، والوقوف مع طريق السَّلَف الصالح.

وإن كان رئيسَ الأطبَّاء وصفه بالحِذْق فى الطِّبّ، والمَهَارة فيه، وتقدُّمه علىٰ غيره فى الفَنّ، والمعرفةِ بالعقاقير وما فيها من نَفْع وضُرّ، والمعرفةِ بالأمراض والعِلل وطُرُق العِلاج، وما يجرى مجرىٰ ذٰلك.

وإن كان رئيس الكحّالين وصفه بالمعرفة فى صَنْعة الكُحْل، والتقدّم علىٰ أبناء صَنْعته فيه، والمعرفةِ بحال العين وأمراضها، وأصناف الأكحال، وما يوافق كلّ علّة من ذٰلك، وما يخرط فى هذا السِّلك.

وإن كان رئيسَ اليهود او بَطْركا من بَطَاركة النصارىٰ، وصفه بالمعرفة بأمور مِلّته، والوقوف مع قوانين شِرْعته، ومعاطاةِ العدل فى جماعته، والتزام شُروط الذمة، والوقوف عند حدِّها، والدخولِ تحت الطاعة، والوقوف عند ما حُدّ له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته وصيةُ ربِّ كل ولاية من الولايات المعتبَرة بما يناسبُها .

وٱعلم أن كل ما حَسُن وصيةُ المُوَلَّىٰ به، حَسُن وصفُه به . والوَصَايا مختلفة باختلاف موضُوعاتها، إلا أنَّ الجميع يشترك فى الوصيَّة بتقوى الله، فهى الأُسُّ الذى يبنىٰ عليه، والركنُ الذى يُستَنَد إليه . وهذا البابُ هو الذى يطولُ فيه سَبْح الكاتب، ويحتاج فيه إلىٰ سَعَة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتبُ حاذقًا بما يلزم ربَّ كل وِلاية ليُوَفِّيها فى الوصية حقَّها، وإلا ضلَّ عن الطريق، وحادَ عن جادّة الصَّنْعة . ولذلك يقال للكاتب : « القلَمَ الأكبر » : لأنه بصَدَد أن يُعلِّم كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمُه فى وِلَايته .

وحينئذ فإن كان المتولِّى « نائبَ سلطنة » وُصِّى بتفقُّد العساكر، وعَرْض الجيوش، وإنهاضها للخدمة .. . . .(١) للوظائف مَنْ يليق بها، وتنفيذ الأحكام الشرعيَّة، ومعاضَدة حُكَّام الشرع الشريف، وإجراء الأوقافِ علىٰ شُروط واقِفيها، وملاحظةِ البلاد وعِمَارتها، وإطابةِ قلوب أهلها، والشّدّ من مباشِرى الأموال، وتقويةِ أيديهم، ومُلازمةِ العَدْل، وعدَمِ الانفكاك عنه؛ وتحصينِ ما لديه من القِلاع، وٱستطلاعِ الأخبار والمطالعةِ بها، والعملِ بما يرِدُ عليه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله «وٱنتقائه» للوظائف الخ .

السلطانية، وأنّ ما أشكل عليه يستضيء فيه بالآراء الشريفة، والإحسان إلى الجُند، وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا ، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصّى بحفظ تلك القلعة ، وعمارة ما دعت الحاجةُ إلى عمارته منها، والأخذ بقلوب من فيها ، وجمعهم على الطاعة ، وأخذ قلوبهم بالإحسان إليهم ، وتحصينها بآلات الحصار ، وادّخار آلات الحرب : من المجانيق والقسىّ وسائر الآلات : من السهام ، واللّبوس ، والستائر ، وغير ذلك . وكذلك آلاتُ أرباب الصنائع ، كآلات الحدّادين ، وصُنّاع القسىّ ومَنْ فى معناهم مما يُحتاج إلى عمله فى آلات القلعة ، والاعتناء بغَلْق(1) أبواب القلعة وفتحها ، وتفقّد متجدّدات أحوالها فى كل مَسَاء وصَبَاح ، وإقامة الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، وتعرُّف أخبار المجاورين لها من الأعداء ، وإقامة نُوَب الحَمَام بها ، والمطالعة بكل ما يتجدّد لديْه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصّى بالعدل وزيادة الأموال وتثميرها، والإقبال على تحصيلها من جهات الحلّ، واختيار الكُفَاة الأمناء، وتجنُّب الخَوَنة، وتطهير بابه، وتسهيل حجابه، والنظر فى المصالح، وأنه لا يستبْدل إلا بمَنْ ظهر لديه عجزُه أو خيانتُه ، والنظر فى أمر الرواتب وإجرائها على أربابها .

وإن كان «كاتبَ سِرّ» وُصّى بالاهتمام بتلقى أخبار الممالك وعَرْضها على المواقف الشريفة، والإجابة عنها بما تبرُزُ به المراسيمُ الشريفةُ، وتعريف النوّاب فى الوَصَايا التى تُكتَب فى تقاليدهم عن المَواقف الشريفة ماأُبْهِمَ عليهم ، ويبيّنُ لهم ما يقفُون

(1) جرى على اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنبه .

عند حدّه ، والنظرِ فى تجهيز البَريد والنَّجابة[1] ، وما يُبعَث فيه من المصالح وينفّذ فيه من المهمّات والقُصّاد ، ومعرفةِ حقوق ذوى الخدمة والنَّصيحة ، وإجرائهم فى رُسُوم الرواتب وعوائد البر والإحسان على أتمّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذ بخواطرهم ؛ والنظرِ فى أمر الكَشّافة والدَّيادِب والنظّارة والمَناور والمُحرقات وأبراج الحَمام ؛ وصرف نظره إلى رسل المُلوك الواردة ، ومعاملتهم بالإكرام ، والأخذ فى صَوْن سرّ المَلِك وكتمانه حتى عن نفْسه ، وضبط ألواح البريد ، والاحتراز فيما تؤخَذ عليه العلامةُ الشريفة ؛ ومراعاة كُتَّاب ديوان الإنشاء ، والإحسان إليهم ، وأن لا يَستكتبَ فى ديوانه إلا مَنْ علم صلاحَه لذلك وكفايتَه ، ووثِق منه بكتمان السرّ كما يثق به من نفْسه .

وإن كان « ناظر جيش » وُصِّىَ بالاحتياط فى أمر ديوانه ، والوقوف على مَعالم هذه المباشَرة ، وجرائد الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشُوف والمحاسَبات ، واستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدَّمين والنُّقَباء ، والاحتراز فى أمر المربَّعات وجهاتِ الإقطاعات وما يترتَّب عليها من المناشير ، والنظرِ فى أمر المُقْطَعين : من الجُند ، والعَرَب ، والتُّركمان ، والأكراد ، ومن عليه تقدمةٌ أو دَرَك بلاد أو غير ذلك .

وإن كان « ناظر خاص » وُصِّى بالاحتياط لديوانه ، والأخذ فى تحصيل أموال جهاته وتنميتها وتثميرها ، وزيادتها وتوفيرها ؛ والتحرّز فيما يُرفَع من حُسْباناتها ، والاهتمام بأمر التشاريف والخِلَع ، وما يختصّ بكل ولاية وغيرها من التشاريف ،

(1) جارى العامة فى هذا الاستعمال .

وما جرتْ به العادةُ من الهدايا المُحضَّرة إلىٰ ملوك الأقطار، والأخذ فى ذلك كلّه بالحظّ الأوفىٰ للديوان السلطانىّ، وما يجرى مَجرىٰ ذلك .

وإن كان «مستوفِىَ صُحْبة» وُصِّى بإلزام الكُتَّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلَّفات وتقدير المِساحات، وتمييز ما بينَ تسجيل القُدُن فى كل بلدٍ بحسب ما يصلُح لها من الزِّراعة، وتمييز قِيَم بعضها علىٰ بعض، ومستجِدّ الجرائد، وما يقابَلُ عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وُصِّى بتحصيل ما يُحتاج إليه لتفصيل الخاصّ وتشاريف أربابِ السيوف والأقلام : العَرَب، والتُّركُمان، والأكراد، وغيرهم؛ وهدايا المُلوك وما يجرى مَجرىٰ ذلك : من العَتّابىّ والأطلس، والمُشربَش، والمُقندَس والمتمَّر، والطِّرازات علىٰ اختلافها : من الزَّركش، والباهى، وأنواع المستعملات؛ وما يحمَل من دار الطِّراز، وما يُبتاع للخزانة العالية، وما هو مُرْصَد لها من الجهات التى يحمَل إليها متحصَّلُها : ليُنفَق فى أثمان المَبيعات ومصروف المستعملات، والاحترازِ فيما يُنفق من الأثمان وقيمة المُبْتاع، وشهادات الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرَّجعات، وأن يحصِّل كلّ شىء هو بصدد الحاجة إليه قبلَ الاحتياج .

وإن كان «قاضيا» وُصِّى بالتروِّى فى أحكامه قبل إمضائها، وأن يراجعَ الأمر مرّةً بعد أُخرىٰ، واستشارةِ أهل العلم، والرُّجوع إليهم فيما أشكل عليه، واستخارة الله تعالىٰ قبل الإقدام علىٰ الحكم، والقضاءِ بحقّ الخصم بعد وُضوحه، والتسجيل له به، والإشهادِ علىٰ نَفْسه بذلك، والتسويةِ بين الخُصوم حتّى فى تقسيم النظر إلىٰ الخصمين، والتحرِّى فى استيداء الشهادات، وأن لا يقبل من الشهود إلا من عُرِف

بالعَدَالة : من رِبِّ قلم أو سيف، والتنقيب عما يصدر من العُقُود، ولا يعوّل من شهود القيمة إلا على كل عارف بالقيَم خبيرٍ بها، والنظرِ فى أمر الرُّسُل والوُكَلاء، والنظرِ فى أمور أهل مَذْهَبه، والاعتناءِ بشأنهم .

ويزاد «الشافعىّ» التوصيةَ بالنظر فى دعاوى بيتِ المال ومُحاكماته، والاحتراز فى قضاياها ولا يُقبلُ فيها بينةٌ لوكيل بيت المال فيها مَدْفَع، ولا يُعمَل فيها بمسألة ضعيفة، والنظرِ فى أمر أموال الأيتام وأمر المتحدِّثين فيها بالإحسان إليهم، وكذلك أموالُ الصدَقات الجارية تحتَ نظره، والتيقُّظ لإجرائها على السَّداد فى صَرْفها فى وجوه استحقاقها، وأن لا يَعمل فى مسألة تفرَّد بها مذهَبُه إلا بما نَصّ عليه إمامُه أو كان عليه أكثرُ أصحابه، ولا يَعْتَمِد فى ذلك مرجُوحا ولا ما تفرّد به قائلُه، وأن لا يولى فى البرّ نائبا الا مَنْ عُرِف استحقاقه وأهليته لما يتولّاه .

ويُزاد «الحنفىّ» الوصيةَ بالعمل بما اقتضاه مذهَبُه من الأمور التى فيها صَلَاح لكثير من الناس: كتَزْويج للمُعصِرات، وشُفْعة الجِوَار، ونَفَقة المعتدّة البائن، وعدَم سَماع بيّنة الإعسار الّا بعد مُضِىّ المدّة المعتبرة فى مَذْهَبه، والإحسانِ إلى مَنْ ضمّه نطاق ولايته ممن نَزَح إليه من أهل الشَّرْق وأقاصى الشَّمال .

ويُزاد «المالكىّ» الوصيةَ بالتحرى فى بيِّنات الدِّماء، والإعذار إلى الخَصْم ليُبدىَ مالَدَيْه من دافع، والعملِ بما تفرّد به مذْهَبُه مما فيه فُسْحة للناس : كالثُّبوت بالشهادة على الخط، وولايةِ الأوصياء، وإسقاط الرَّيْع بالوقف المستَرَدّ بعد البيع، والإحسانِ إلى مَنْ لديْه من غُرَباء أهل مَذْهَبه، لاسيَّما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد «الحنبلىّ» الوَصيةَ بالاحتياط فى بيع ما دَثَر من الأوقاف والاستبدال بها، ورعايةِ المصلحة فى ذلك لأهل الوقف بما أمكن، والفَسْخ على من غاب عن زوجته

الفئة المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقف الإنسان على نفسه ، وأمر الجوائح التى يحصل بها التخفيف عن ضعفاء الناس ، والمعامل على الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، والوصية بأهل مذهبه الذين هم أقل المذاهب عدة وأنزرهم وظائف وأوقافا ، ومعاملتهم بالإحسان .

وإن كان « قاضى عسكر » وصى بنحو ما يوصى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتبا يكتب للناس ، وأن يقبل من الجند من كان ظاهره العدالة ، فإن الشهود المعدين لتحمل الشهادة يعز وجودهم فى العسكر ، وأن يكون له منزل معروف يقصد فيه إذا نصبت الخيام ، وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأعلام السلطانية ؛ وأن يكون مستعدا للأحكام التى يكثر فصلها فى العسكر : كالغنائم ، والشركة ، والقسمة ، والمبيعات ، والرد بالعيب ؛ وأن يسرع فى فصل القضاء بين الخصوم : لئلا يكون فى ذلك تشاغل عن مواقع الحروب ومقدماته ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وإن كان « محتسبا » وصى بالنظر فى أمر المكاييل والموازين وسائر المقادير ، والتحذير من الغش فى الطعام والشراب ؛ وأن يتعرف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غير علم أهله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المعايش من ينوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأمناء المأمونين ؛ وأن لا يمكن أحدا من العطارين من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب به بخط متطبب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل : من الطرقية (١) وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى بنى ساسان من تعاطى ما يتعاطونه من ذلك ، ويقمعهم ويحسم مادتهم ، والتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمنع من الغش

(١) أى المنجمين الذين يدعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشترِى بأزيدَ ممـا آشترىٰ به ؛ والنظر فى أمر فُقَهاء المكاتب والعالمـات من النساء، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذٰلك إلا من عُرِفت أمانتُه، وأُثِرت صيانتُـه ، وأن لا يستنيبَ إلا أهـلَ العِفّة والأمانة والنَّزاهة ممن بعُد عن الطمَع، ونأىٰ عن مَطاعِم السُّوء .

وإن كان «وكِيلَ بيتِ المال» وُصِّى بالعمل بالشرع الشريف فى جميع أحكامه، وأنَّ مَن مات وله ورثة تَستوعبُ ميراثَه لا يكلِّفُهم ثُبُوتا فيه تعنتٌ ومدافعةٌ عن حقهم؛ والتَّشديد فى أمر من كانت قِصَّته منْكَرة ؛ والتحرُّز من شهود الزُّور فى مثل ذٰلك، وأن يرجعَ فى كل ما يُبَـاع ويؤَجر إلىٰ العوائد ، وأن يَتحرز فى شهادة شُهود القِيمة، ولا يَرجِعَ فيها إلا لمن يُوثَقُ به ممن يكون عنده معرفةٌ بقِيَم الأشياء ، وينَبَّه علىٰ أنَّ له أن يدَّعِىَ بحق المسلمين حيث شاءَ عند من يشاء من أصحاب المَذَاهب ، وأنَّ الدعوىٰ عليــه لا تكون إلا فى مجلس الحكم العزيز الشـافِعِىّ ، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القــديمة ، والآحتياطِ فى حقِّ بيت المـال، ولْيَختَرْ للآستنابة فى الأعمـال من يصلُح لذٰلك .

وإن كان «مدرّسا» وُصِّىَ بأن يُقْبِل علىٰ جماعة درسه بطَلَاقة وجْه، وأن يستميلَهم إليه جُهْدَ آستطاعته، ويُربِّيَهم كما يربِّى الوالدُ ولدَه، ويستحسنَ نتائجَ أفكارهم التى يأتونَ بها فى درسه، ويقدّمَ منهم من يجب تقديمُه، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم منزلَتَه، ليهُزَّهم ذٰلك إلىٰ الإكباب علىٰ الآشتغال والآزدياد فى التحصيل . ثم يأتى [فى] كل مدرّس بمـا يناسبه من أمور العلم الذى يدرّس فيه إن كانَ يدرّس فى علمٍ خاصّ .

وإن كان « خطيبا » وُصِّىَ برعاية حقِّ رُتبــة الخَطَابة والقيـام بحق ازدواجها ، وأن يأتى من المواعظ بمـا يَقْرَع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويُلِينُ القلوبَ القاسية ،

وأن يُعِدّ لكل مَقامٍ يقومه مقالاً يقوله، وأن يخفّف الخُطبة، ويأتيَ بها بليغةً مفهومة، إلىٰ غير ذٰلك من متعلّقات الخَطابة .

وإن كان «شيخَ خانقاه» وُصّى بالاجتهاد فى العبادة، والمشىِ علىٰ طريق السَّلَف: من الزُّهد، والورَع، والعَفاف ؛ وأن يأخذ جماعتَه بمآخذه فى الأمور ؛ وأن يعرِفَ لجماعة مكانِه حقُوقَهم الواجبةَ لهم ويُنزِلهم منازِلَهم خصوصًا أُولى السابقةِ منهم، ويأخُذَ فى الرفق بهم ومُداراتهم، مع ترتيب من آستجَدّ منهم، وإجرائهم علىٰ طرائق الصُّوفيّة ، وتعريفِهم الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ ، وتدريج المُريدين علىٰ قَدْر ما تحتمله أفهامُهم، دونَ أن يهْجُم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عُقُولهم . و[اتباع] سبيل الكتاب والسُّنّة اللّذيْن من حاد عنهما ضَلّ، ومن خرج عن جادّتهما زَلّ ، وكَفّهم عن آرتكاب البِدَع والجَرْى علىٰ مِنهاجها ؛ ومن أتىٰ ذنبا نحُذه بالتوبة والآستغفار ؛ والإنكار علىٰ من أخَذ فى الشَّطَحات ، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة ، ومَنْع من نحا هذا النحوَ أو جرىٰ علىٰ هذه الجادّة ، والإحسان إلىٰ من يَقْدَم عليه من الآفاق ، وحُسْن التلَقّى له ، وإكرام نُزُله بعد أن يعَجّل له بالإذن ، والأمر بأخذ عُكّازة، وفَرْش سَجّادة، وما ينخرِط فى سِلك ذٰلك .

وإن كان « رئيسَ الأطباء» وُصّى بالنظر فى أمر طائفتِه، ومعرفةِ أحوالهم، ويأمُر المعالِج أن يعرف أوّلا حقيقةَ المرض وأسبابَه وعلاماته ، ثم ينظر إلىٰ السّن والفَصْل والبلد، وحينئذ يشْرَع فى تخفيف الحاصل ، وقَطْع الواصل ، مع حِفْظ القوّة؛ وأن لايُهاجِم الداء، ولايستغرب الدواء، ولا يُقْدِم علىٰ الأبدان إلا ما يُلائمها؛ ولا يخْرُج عن عادة الأطباء ولو غلب علىٰ ظَنّه الإصابةُ حتّى يتبصّر فيه برأى أمثاله ؛ ويجتنبُ الدّواء، ما أمكنَته المعالجة بالغـذاء، والمركّبَ ما أمكنته المعالجةُ بالمفرد ؛

ويتجنب القياس إلا ماصَحّ بتجريب غيره فى مثل من أخَذ فى علاجه، وما عرض له، وسنّه، وفصله، وبلده، ودَرجة الدواء، وأن يحذر التجربةَ فإنها خَطَر، مع الاحتراز فى المقادير والكيفيات، وفى الاستعال والأوقات، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخّر عنه؛ ولا يأمر باستعال دواء ولا مايُستغرب من غذاء حتّى يحقِّق حقيقته، ويعرف جديدَه من عتيقه، ليَعرف مقدار قُوّته فى الفعل .

وإن كان «رئيس الكَحّالين» وُصّى بالنظر فى حال جماعته أيضا، ومعرفة أحوالهم، وأن لا يُصَرِّف منهم إلا من عُرِف بحُسْن المُداراة والملازمة فى العِلاج، ويأمر كلّا منهم أنْ لا يُقْـدِم علىٰ مداواة عينٍ حتّى يعرِف حقيقـةَ المرض، وأن يُلاطفَها بمـا يناسِبُها من الغِذاء، وأن يتخـيَّر من الكُحْل ما فيه شـفاءُ العين وجلاءُ البصر، وأن يستشيرَ الأطباءَ الطبائعيَّة فيما أهَمّ، ممـا لايُستغنىٰ عن رأى مثلِهم فيه، من تخفيف المـادّة بالاستفراغ أو نَقْص دمٍ أو غير ذٰلك .

وإن كان «رئيس اليهود» وُصّى بضَمّ جماعته، ولَمّ شَملهم، والحكمِ فيهم بقواعد مِلّته، والنظرِ فى أمور الأنكحة عندهم، وما يعتَبَر عندهم فيها علىٰ الإطلاق، وما يَفْتقِر إلىٰ الرضا من الجـانبين فى العَقْـد والطّلاق، والنظر فيمن أوجبَ حكمُ دِينه عليـه التحريم، والتوجُّه فى صلاتهم تِلقاءَ بيت المَقدِس إلىٰ جهـة قِبلتهم، وإقامةِ حدود التوراة علىٰ ما أنزل اللهُ تعـالىٰ من غير تحريف ولا تبديلٍ للكلمة بتأويلٍ ولا غيره، واتباع ماأَعطَوْا عليه العهدَ مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أُقِرُّوا فى دار الإسلام علىٰ الصَّغَار والإذعان لأهل الإسلام، وعدَمِ مضايَقتهم للسلمين فى الطُّرُق، وتميزهم بشِعارهم فى الحَمّام، كى لايحصُل اللّبْس بالمسلمين، وحمل شعار الذمة علىٰ رُءُوسهم: وهى العمائم الصُّفر، ويأخذهم بتجديد صَبْغه فى كل حين، وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة: من ذكر الله تعالىٰ أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسوء، أو إظهار الخمر أو معتقدهم فى العُزَيْر عليه السلام . وله أن يرتّب طبقاتهم على ماتقتضيه مراتبهم عنده، وكذلك له التحدّث فى كنائس اليهود المستمرّة إلى الآن بأيديهم، من حين عَقْد الذمّة، من غير تجديد متخرّب، ولا فعل مالم تُعقد عليه الذمّة ويقرّهم عليه السلف الأوّل .

وإن كان « بَطْرَك النصارى المَلِكانيّة » وُصّى بما عليه بناء شرعته من المسامحة والاحتمال والصّبْر على الأذى، وعدم الاكتراث به ، وأخْذ نفسه بهذه الآداب ؛ وأنه يُقَدّم المصالحة بين المتحاكمين إليه قبل فَصْلها على البَتّ فإنه قاعدةُ دينه المَسيحىّ، ولم تُخالف فيه الملةُ الإسلاميّة ، وأنه ينَقّى صدورَ إخوانه من الغلّ، ويتخلّق بكل خُلُق جميل،ولا يستكثِرُ من الدنيا،ويتنزّه عن أموال جماعته والتوسّل إلى أخذها، وأنّ إليه أمْرَ الكنائس والبِيَع، وعليه أن يتفقّدها فى كلّ وقت، ويرفع مافيها من الشُّبُهات، ويحذّر رُهْبان الدّيارات من جعلها مَصْيدةً للمال؛ وأن يتجنّبوا فيها الخَلْوَةَ بالنساء ، ولا يُؤوى إليه أحدا من الغُرَباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ ، ولا يكْتُمُ ما اطّلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يُخْفى كتابا يَرِد عليه من أحدٍ من الملوك، أو يكْتُب له جوابا؛ ويتجنّبُ البحر وما يَرِد منه من مَظانّ الرِّيَب .

وإن كان «بَطْرَك اليَعاقبة» قيل فى وصيته نحوماتقدّم فى وصيّة بطرك المَلِكانيّين، إلا أنه لا يقال : واعلَمْ أنّك فى المَدْخل إلى شريعتك طريقُ الباب ، بل يقال : واعلم أنك فى المَدْخَل إلى شريعتك قَسِيمُ الباب، ومساوله فى الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقال بدل قوله « وليتجنّب البحر » : « وليتوقّ ما يأتيه سرًّا من تلقاء الحبَشة» .

قلت : وهذه الوصايا مَدْخَل إلىٰ ما يرضىٰ به أصحابُ الولايات ممّن تقدّم ذكره والأمر فى الزيادة والنقص فى ذلك بحسَب المناسبة راجعٌ إلىٰ نظر الكاتب . علىٰ أن المقرّ الشهابىّ ابنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" عِدّة وَصايا ليست مما يُكتَب الآنَ، فأضربنا عن ذكرِ مَقاصدها هنا : لتُورِدَ برُمّتها فى الكلام علىٰ ما يكتب فى متن التقالد والتواقيع ونحوها، مع النسخ التى تُورَد هناك علىٰ صورة ما أوردها، ليُنسَج علىٰ مِنوالها إن أُمِر بكتابة شىء منها .

المقصد الثانى

(فى بيان مَقاصِد ما يُكتب فى الولايات، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيان الرُّسوم فى ذلك، ومقادير قَطْع الورَق لكلّ صِنف منها علىٰ سبيل الإجمال)

وهى علىٰ أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(التَّقاليد)

جمع تَقْليد . يقال : قلّدته أمرَ كذا إذا ولّيته إيّاه . قال الجوهرى : وهو مأخوذ من القلادة فى العُنُق ، يقال قلّدتُ المرأة فتقلدت ، قال : ومنه التقْليد فى الدِّين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل علىٰ طُرّة ومتْن ، فأما الطرّة فقد أشار اليها فى " التعريف " بقوله : وعُنْوانُها «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» . وأوضح ذلك فى "التثقيف" فقال :

وصورتُه : ان يكتَب : تقليد شريفٌ بأن يفوَّض إلى المَقرّ الكريم، أو إلى الجناب الكريم ، أو إلى الجنـاب العالى الأميرىّ الكبيرىّ، الكافلىّ، الفـلانىّ، أعزّ الله تعـالى أنصاره ، أو نُصرتَه ، أو ضاعفَ الله تعـالى نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أو بحلَبَ المحروسة، أو بطرابُلُس المحروسة، أو نحوها، على أجمل العوائد فى ذلك وأكمل القواعد على ما شُرِح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوبُ له التقليدُ هو النائبَ الكافلَ، كُتِب فى طرّة تقليده : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المَقرّ الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكَفيلىّ، الفلانىّ، فلان الفلانىّ، بلقب الإضافة إلى لَقَب السلطان، كالناصرىّ مثلا ، كَفالةُ السـلطنة الشريفة بالممالك الإسلاميّة ، أعلاها الله تعالى على أجمَل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، على ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليدُ بكفالة السّلْطنة بالشام ، كُتِب : تقليـدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المَقرّ الكريم العـالى ، الأمـيرىّ، الكبيرىّ ، الكَفيلىّ ، فلانِ النـاصرىّ ، مثلا كَفَالةُ السـلطنة بالشام المحروس على أتمّ العوائد فى ذلك وأجمل القواعد، على ما شُرح فيـــه .

وإن كان التقليد بنيابة السـلطنة بحلَبَ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى الجَناب الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ ، فلانِ الناصرىّ، أعز الله تعالى نُصْرتَه ، نيابةُ السلطنة الشريفـة بحلَبَ المحروسة، على أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، على ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة طَرَابُلُس، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى الجناب العالى، الأميرىّ ، الكبيرى ، الكافلىّ، الفـلانىّ، فلانِ الناصرىّ : ضاعفَ الله

تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بطرَابُلُس المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد و ذلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

و إن كان التقليد بنيابة السلطنة بحَماة، أُبْدل لفظ طرَابُلُس بحماةَ .

و إن كان بنيابة السلطنة بصَفَدَ ، أُبْدل لفظ طَرابُلُس وحَماةَ بصَفَدَ، والباقى علىٰ ما ذُكر فى طرابلس .

و إن كان التقليد بنيابة السلطنة بغزَّةَ ــ حيثُ جُعلت نيابةً ــ كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرى، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بغزَّةَ المحروسةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ماشُرح فيه .

فإن كان مُقدّم العَسْكر كما هو الآنَ ، أبدل لفظُ نيابة السلطنة الشريفة بلفظ « تَقْدِمة العسكر المنصُور » والباقى علىٰ ما ذُكر .

و إن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك ، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه ،نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس،علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

و إن كان التقليد بالوزَارة، كتب : تقليدٌ شريف بأن يفوَّض إلىٰ الجناب العالى الصاحِبِىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمورُ ، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السرّ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى الجناب العالى، القاضَوِىّ، الكبيرى، اليمينىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعف الله تعالى نعمتَه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية ، أعلاها الله تعالى ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الدّيوان المعمور ، على ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصريّة ، كُتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلى الجناب العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامَه ، قَضاءُ قُضاة الشافعيـة بالديار المصرية ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور ، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الحنفيّة ، كتب كذلك ، إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بلفظ الحنَفيّة .

وإن كان التقليد لأمير مكّة ، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الشريفىّ ، فلانٍ الفلانىّ : أدام الله تعالى نعمتَه إمْرةُ مكّة المشرّفة ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، على ما شُرح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، كتب كذلك إلا أنه يُبْدَل لفظُ مكّة المشرّفة بلفظ المدينة الشّريفة .

وإن كان بإمرة آل فَضْل ، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ : أدام الله تعالى نعمته إمرةُ آل فَضْل ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، على ما شُرح فيه .

هــذه جملة ما عُهدت كتابتُــه من التقاليد المكتَتَبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفــة، فإن حَدَث كتابةُ ما يستحقُّ أن يكتَب له تقليــدٌ، كالأتابكيّة ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراءَ ذلك أمران : أحدهما ــ أنه قد تقدم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب فى العُنوان الذى هو الطرّة : «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» فإن كتب تقليدٌ بكَفَالة السلطنة مثلا، كتب : «تقليدٌ شريفٌ للمقرّ الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، بكَفَالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرح فيه» .

الثانى ــ أنه اقتَصَر فى "التثقيف" علىٰ قوله فى آخر الطرّة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، وليس الأمر منحصرًا فى ذلك، بل لو عُكس بأن قيــل : تقليــد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ فلان كذا ، أو تقليدٌ شريف لفلان بكذا علىٰ أكمل القواعد وأجمل العوائد على ماشُرح فيه، لكان سائغًا .

فإن كان صاحبُ التقليــد علِيَّ الرتبة : كالنائب الكافل ، ونائب الشام، ونائب حلَب، والوزير، وكاتب السرّ، ونحوهم، كُتب علىٰ أجمــل العوائد وأتمّها، وأكمل القَواعد وأعمّها، أو بالعكس : بأن يكتب علىٰ أجمل العوائد وأعمّها، وأكمل القَواعد وأتمّها، على ما شُرح فيه .

وأما مَتْن التقليد، فقد قال فى "التعريف" إن التّقاليدَ كلّها لا تُفتتح إلا بالحمدُ لله وليس إلا، ثم يقال بعدها: أما بعدُ، ثم يذكر ماسَنح من حال الولاية وحال المُولَّى، وحُسْن الفكر فيمن يصلُح، وأنه لم يرَ أحقَّ من ذلك المولَّى ويسمَّى، ثم يُقال مايُفهم أنه

هو المقدّم الوصف أو المتقدّم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسِم بالأمر الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ (ويدعىٰ له) أن يقلَّد كذا، أو أن يفوّض إليه كذا، والأوّل أجلُّ؛ ثم يُوصىٰ بما يناسب تلك الولايةَ ممـا لا بدّ منه تارةً جُمْليًّا وتارة تفصيليًّا، ويَنَبَّه فيه علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ؛ ثم يختَمُ بالدعاء للولّى، ثم يقال: وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ به بعد الخَطّ الشريف أعلاه.

قال: ولفُضلاء الكُتّاب فى هذا أساليب، وتفنَّن كثيرُ الأعاجيب، وكلُّ مألوفٍ غريب، ومَن طالع كلامَهم فى هذا وجد ما قُلْناه، وتجلّى له ما أبهمْناه.

وذكره فى "التثقيف" بأوْضح معنًى وأبْيَن، فقال: ويُكتَب بعد الصَّدْر بخُطْبة مناسِبة أوّلها الحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم أما بعدُ، ويَذْكُر ما يرىٰ ذِكْرَه من حال الولاية والمولّى، ويذكر ٱسمَه، وهو أن يقال: ولمـا كان المَقَرّ، أو الجناب، وألقابه ونعوته إلىٰ آخرها، ويُدْعىٰ له: أعزّ الله أنصارَه أو نُصرتَه، أو نحوه، علىٰ ماجرتْ به عادتُه، ولا يُزاد علىٰ دَعْوةٍ واحدة؛ ثم يقال ما يُفْهِم أنه المرادُ بهـذه الأوصاف، أو المعنىٰ بهـذه الإشـارة أو نحو ذلك؛ ثم يقـال: ٱقتضىٰ حُسْن رأينا الشريف، ويذكر ما يقتضى تكريمَـه وتعظيمَه؛ ثم يقـال: فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العـالى، المولوىّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى (ويُدْعىٰ له بما يناسب الحال ثلاثَ دَعَوات أو أربعـا) أن يُفَوَّض إلىٰ المشار إليـه كذا؛ ثم يقال: فليتقلَّدْ ذلك، أو فليتلَقَّ هـذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يُوَصَّى بمـا يناسب تلك الولايةَ ممـا لا بدّ منه، ويحرص أن يَنَبِّه فيه علىٰ العمل بالتقوىٰ؛ ثم يُختَم بالدعاء للولّى بالإعانة والتأييـد ونحو ذلك ثلاثَ دعوات، وأكثرها أربع، وأقلُّها ٱثنتـان؛ ثم يقال: بعـد الخط الشريف شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالىٰ؛ ثم التاريخ

والمستَنَد، والحمدلَةُ، والحسْبَلةُ على العادة . ولم يَقُل فيه : وسبيلُ كل واقف عليه، كما قال فى "التعريف" .

واْعلم أنّ التقاليد على اختلافها لاتخْرُج فى مقادير قَطْع الورَق عن مِقدارَيْن :

الأوّل — قطعُ الثلثين بقَلم الثُّلُث الثقيل . وفيه يُكتَب لنُوّاب السلطنة بمصر والشام مطلقا، وكذلك الوزيرُ، والمشيرُ، وكُاتبُ السر، وقاضى قُضاة الشافعية والحنفيّة بالديار المصرية .

الثانى — قَطْع النصف بقلم الثُّلث الخفيف . وفيه يُكتَب لذَوِى التقاليد من أُمَراء العرب : وهم أميرُ مكةَ المشرَّفة، وأميرُ المدينة الشريفة، وأمير آل فَضْل من عَرَب الشام على ما تقدّم ذكره . ولا يُكتَب من التقاليد شىءٌ فيما دُون هذا المِقدار من قَطع الوَرق بحال . وسيأتى الكلام على نُسَخ التقاليد فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالى .

النوع الثانى

(مما يُكتَب فى الولايات السلطانية المراسيمُ)

جمع مرسوم، أخذًا من قولهم : رسَمْت له كذا فارتَسَمه إذا آمتثله، أو من قولهم : رسم علىّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهى على ضربين :

الضرب الأوّل

(المراسيم المكبَّرة)

لم يتعرض لها المَقرّ الشِّهابى آبن فضل الله فى "التعريف" لأنها لم تكن مستعملة فى زمنه وإنما حدَثت بعده .

قال فى " التثقيف " : وهى علىٰ نَمَط التقاليد ليس بينهما اختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما ــ أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قَطْع الثلثين بل فى قَطْع النصف أو الثلث . الثانى ــ أنه لا يقال فيها «تقليدٌ شريفٌ» بل «مرسومٌ شريف» .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها ــ أنه يقتصر فى طُرَّة المرسوم علىٰ «الأميرى» دُونَ «الكبيرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرىّ الكبيرىّ» . الثانى ــ أنه يقال فى المرسوم : «أن يستقرّ» ولا يقال : «أن يفوَّض» ولا : «أن يُقلَّد» . الثالث ــ أنه لا يقال : «علىٰ أجمل العوائد وأتمّ القَواعد» بل يقال : «علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته» . الرابع ــ أنه لا يقال فى الصَّدْر : «أما بعد» بل «وبعد» .

قال : وهى تختص بنُوّاب القِلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراءِ العُرْبان أو مَنْ(١) بالشام وحلَب، وشاذّى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى علىٰ طبقتين :

الطبقة الأولىٰ ــ ما يُكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثلث . وذلك للنوّاب بالقلاع : من مقدّمى الألوف والطّبلخانات : كنائب حِمْص، والرَّحْبَة، والبِيرة، وقلعة المسلمين، ومَلَطْيَة، وطَرَسُوس، وأَذَنَة، وبِهَسْنىٰ، والفتوحات الجاهانيّة وغيرها ممن يكتَب له المجلسُ العالى والسامىّ بالياء أو بغير ياء علىٰ ما تقدّم بيانه فى المكاتَبات إليهم . وكذلك بعضُ أمراء العُرْبان وهم أميرُ آل عَلِىّ، وأمير آل مِراء، وأمير بنى عُقْبة . قال فى " التثقيف " : وصورة ما يكتَب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله ممن بالشام الخ . تأمل .

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامىّ الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان (ويدعَىٰ له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية علىٰ عادة من تقدمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ما شُرِح فيه » .

فإن كانت النيابة تقدمةَ ألف : كنيابة الرَّحْبة ونحوها ، كُتِب فى طرّة مرسومِ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرىُّ الفلانىّ فلان ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه ، فى المكان الفلانىّ علىٰ عادة مَنْ تقدمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كانت النيابة طَبْلخاناه كتب : «مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكان كذا، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته »، أو كتب : «مرسوم شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكان كذا، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كانت نيابةَ قلعة دِمَشْقَ، كتب : «مرسومٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، فلانٌ ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه فى النيابة بالقلعة المنصورة بدمشق المحروسة، علىٰ عادةِ من تقدَّمه فى ذٰلك وقاعدته، علىٰ ماشُرِح فيه » . وكذلك كلُّ قلعة بحسب ألقاب نائبها التى يُكاتَب بها .

ثم يُكتَب فى الصَّدْر بعد البسملة خُطبةٌ مفتتحة بالحمدُ لله ، ثم يقول : وبعدُ » ويأتى بنحو ما تقدم ذكره فى التقاليد، ثم يقال : ولما كان المجلسُ العالى أو السامىّ إلىٰ آخر ألقابه، ثم يقال : فلان، ويدعَىٰ له بما جرتْ به عادتُه، ويقال مايُفْهَم منه أنه المقصودُ بما تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة؛ ثم يقال : فلذٰلك رُسِم

بالأمر الشريف إلى آخره أن يستقرّ المشارُ إليه فى كذا على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته، فليتلقّ ذلك ونحوه . ثم يُوصى بما يناسب وظيفته التى تولّاها، ويختم بنظير ماتقدّم ذكره فى ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبَّرة مايكتب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطرّة والصدر على ما تقدّم فى الطبقة الأُولى، إلا أن خُطبته تفتتح بأمّا بعدَ حمد الله، وتختَم بما تقدّم ذكره . قال : وقد تكتب لنوّاب القلاع من أمراء العشَرات : مثل نائب بَغْراس، ونائب الدَّرْبَساك، ونائب كَرْكَر، ونائب الكَختَا، ونحوها . قال : وكذلك أربابُ الوظائف غير النِّيابات، مثل شادِّ الدَّواوين بالشام وحلَب، وشادّ مراكز البَريد بهما، ونحو ذلك، وبعض أمَراء العرب : كأمير بنى مَهْدِىّ، ومقدّم عَرَب جَرْم، ومقدّم عَرَب زَبِيد على نُدرة فيه . فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلس السامى، الأمير فلان الدين أعزه الله تعالى، فى النيابة ببَغْراس، أو بالدَّرْبَساك، أو بكَرْكَر، وما أشبه ذلك على عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بشَدّ بالشام أو بحلَبَ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ أن يستقرّ المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالى فى شَدِّ الدواوين بالمكان الفلانى، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته على ماشُرِح فيه» . وإن كان بشَدّ مراكز البَريد، أُبْدل لفظ «شَدّ الدواوين» بلفظ «شَدّ مراكز البَريد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مَهْدِى، كتب : «فى إمرة بَنِى مهدىٍّ، على عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتَقْدمة عرب جَرْم، كتب : «فى تقدمة عرب جَرْم، على عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زَبِيد، أُبدل لفظ جَرْم بزَبِيد، وعلى ذلك .

الضـــــرب الثـــانى

(من المَراسيم التى تكتب بالولايات المَراسيم المصغَّرة)

وهى مايُكتب فى قَطْع العادة، وبها يُكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظرِ الأوقاف ونحوهِ . وهى صنفان :

الصنف الأوّل — مايُترك فيــه أوصالُ بيــاضٍ بين الطُّرَّة والبسملة، وهى أعلاها، ويُكتَب بالسامى بغيرياء أو مجلس الأمير :

وصــورتها أن يكتب فى الطرّة : «مرسومٌ شريفٌ أن يَســتقرّ المجلسُ السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان فى كذا وكذا بمــا لذٰلك من المعــلوم الشاهدِ به ديوانُ الوقف، أو نحو ذٰلك، علىٰ ماشُرِح فيه» ثم يكتب فى الصَّدْر بعد البسملة ماصورته : «رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» (باللقب الخاصّ ولقبِ السلطنة) ويُدْعىٰ له بمــا فيه براعةُ الآسـتهلال بذكْر الوظيفــة أو آسمِ صاحبها أو لقَبــه ونحو ذٰلك ، وأقلُّها ثلاثُ فِقَرات فمــا زاد «أن يستَقرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجل» (إلىٰ آخر ألقابه)، أو أن يستقرّ مجلسُ الأميرِ، الأجلّ (إلىٰ آخر الألقاب) لمــا له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بمــا يُناسب المقام) ثم يقــال : فلْيباشِرْ ذٰلك، أو فليتَلَقَّ ذلك، أو فلْيقابل صدَقاتنا الشريفةَ بكذا ونحو ذٰلك . ثم يُوصَّى بمــا يليق به ، ويدْعىٰ له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعلاه الله تعالىٰ» .

قلت : وهــذا الصِّنف إن رُوعِى صاحبُــه، كُتب فى قَطْع العادة المنصورىّ، وإلا ففى قطع العادة الصغيرِ . قال فى"التثقيف" : وممــا ينبَّــه عليه أنه لا يُكتَب

مرسومٌ شريفٌ فى قطع العادة إلا بمثل نيابة الشَّقيف بصَفد(١) وصَرْخد وعَجْلُون والصُّبَيْبة ، فإنه لا يُولَّى فيها إلا مقدَّمُ حَلْقة او جنـدىٌّ ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا ، فإنَّ كُفَّال الممالك يستبِدّون بالتولية فى ذٰلك .

الصنف الثـانى — ما يُكتب فى هيئـة ورقـة الطريق ، ويكونُ فى ثلاثة أوصال ، وصـورته أن يكتب فى الطرّة ماصورتُه : «مرسومٌ شريف أن يستقِرّ فلان ، أو أن يرتَّب فلان فى كذا وكذا ، علىٰ ماشُرِح فيه» ويكون ذٰلك فى سطرين ، ولا يكتب فى أعلاه الآسمُ الشريفُ كما يُكتب فى غيره : لأن من المعلوم أنه لا يُكتب فى هذا إلا الآسم الشريف فيستغْنَىٰ عن ذكره ؛ ثم يكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف» علىٰ نحو ماتقدّم ، إلا أنه لا يُحتاج فى الدعاء إلىٰ مايكون فيه براعةُ آستهلال ، بل يكْفِى «أعلاه الله وشرفه ، وأنفذَه فى الآفاق وصرّفه» ونحو ذٰلك «أن يَستقِرّ فلان فى كذا أو يرتَّب فى كذا ، فليعْتَمَدْ ذٰلك ويعمَلْ بحسَـبِه ومقتضاه ، بعد الخط الشريف أعْلاه الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ» .

النـــوع الثـالث
(ممـا يُكتب فى الولايات السلطانية التفاويضُ)

جمع تَفْويض ؛ وهو مصـدر فوّض الأمْرَ إلىٰ زيد إذا ردّه إليـه ، ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَىٰ اللهِ ﴾ أى أَرُدُّه إليـه . قال فى "التعريف" : وبه يُكتب لعامَّة القُضاة ، يعنى ممن دُون أرباب التقاليـد ، وهى من نَمَط التقاليد ، غيرَ أنها يقال فى تعريفها « تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا » . ومقتضىٰ ماذكره أنه إذا

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل .

كتب « تفويضٌ شريفٌ بقضاء قُضاة الديار المصرية مثلا » يكتب فى الطُّرّة : « تفويضٌ شريفٌ للمجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، بقضاء قُضاة المالكيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور علىٰ ما شُرح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدم ترتيبُه فى التقاليد ، إلا أنه يكون أخصر .

قلت : ولم أقف علىٰ نسخة تفويض غيرَ نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقر الشهابىّ ابن فضل الله لبعض قُضاة دِمَشْق . وقد أنشأتُ أنا تفويضا بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية لقاضى القُضاة جمالِ الدين يُوسف البِساطىّ ، حين وُلّى علىٰ أثَر ولاية قاضى القُضاة جلالِ الدين البُلْقِينىّ [1] قضاءَ قُضاة الشافعيَّة ، آفتتحتُه بلفظ : « الحمدُ لله الذى شَفَع جَلال الإسلام بجَماله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرّته : « تفويضٌ شريف للمجلس العالى ، القاضوىّ ، الجَمالىّ ، يوسُف البِساطىّ المالكىّ ، أعز الله تعالىٰ أحكامَه بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، علىٰ ما شُرح فيه » . وقرأته بالمجلس العامّ بالمدرسة المنصورية . وسيأتى ذكر نسخته فى الكلام علىٰ النُّسَخ فى المقْصد الثانى من هذا الطَّرَف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) بُلْقِينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النـــوع الرابع
(التواقيـــعُ ، جمعُ توقيـــع)

قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب عن آبن حاجب النُّعمان فى ذخيرة الكُتّاب: أنّ التوقيع معناه فى اللغة التأثيرُ الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقَّعـةُ الجَنبة[1] اذا أثَّر فيها الرَّحْلُ تأثيراً خفيفًا ، وأنه يحتملُ غيرَ ذلك . وفى آصطلاح الأقدمين من الكُتّاب أنه آسم لمـا يُكتَب فى حواشى القِصَص بخطّ الخليفة أو الوزيرِ فى الزمن المتقدّم ، وخط كاتبِ السِّرّ الآنَ؛ ثم غَلَب حتّى صار علَما علىٰ نوعٍ خاصٍّ ممـا يُكتَب فى الولايات وغيرها . قال فى "التعريف" : وهى علىٰ أُنْموذَج التفاويض . قال : وقد يقال : أن يرتَّب، وأن يقـدّم، ثم قال : وعُنوانها « توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا» ولا يقال فيها علىٰ آختلافها : «وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه» كما فى التقاليد، بل يقال : «فلْيُعتَمَدْ ما رُسِم به فيه بعد الخطّ الشريفِ أعلاه» . وقد ذكر فى "التعريف" أنها تكون لعامّـة أرباب الوظائف جليلها وحقـيرها ، وكبيرها وصغيرها ، حتّى الطبلخانات اللاحقين بشأو الكِبار فمَن دُونَهم . وقال فى "التثقيف" : إنها مختصَّـة بالمتعمِّمين من أرباب الوظائف الدينيّة والدِّيوانيـة ، ولا يُكتَب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البِيمارَسْتان، ونظر الجامع الجديد، ونظر الحَرَمين الشريفين، يعنى حَرَم القُدُس وحَرَم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بين كلامَيْهما أنه فى زمن صاحب "التعريف" كانت التواقيعُ تُكتَب بالوظائف لأرباب السُّيُوف من النِّيابات وغيرها قبـل أن تُحدَث المراسيمُ المكبَّرة المقدّمة الذكر؛ ثم خُصّت التواقيعُ بعـد ذلك بالمتعمِّمين دُونَ أرباب

---

(1) الجنب والجانب والجنبة محركة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضى الأمر على ذلك فى زمن صاحب "التثقيف" يجرى على حكمه ولم يبق ممن يكتب له توقيع من أرباب السيوف سوى نظار الجهات الثلاثة المتقدمة الذكر : من البيمارستان المنصورى ، والجامع الجديد الناصرى بمصر، ونظر الحرمين : حرم القدس الشريف ، وحرم الخليل عليه السلام . والحكم باق على ذلك إلى الآن .

ثم التواقيع على اختلافها لا تخرج عن أربع طبقات :

الطبقة الأولى

(ما يفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف بقلم خفيف الثلث . قال فى "التثقيف" : وصورته يعنى مايكتب به لأرباب الأقلام أن يكتب فى الطرة : « توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى ، الفلانى (ويدعى له دعوة واحدة) بما[1] جرت به عادته ، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت على ماشرح فيه» .

قال : فإن كان حاكماً ، كتب له بعد الكبيرى ، الحاكمى . وإن كان كاتب السر ، كتب له بعد الكبيرى ، اليمينى ، لاغير . ثم يكتب فى الصدر خطبة مفتتحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعد ، والتتمة على نظير ما ذكر فى التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولى لها مما يناسب الحال . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتب بذلك للقضاة الأربعة بالديار المصرية ، والقضاة الأربعة بالشام ، وكاتب السر بمصر

(١) لم يذكر المفوض به إليه للعلم به من نظارته والأصل أن يفوض الى المجلس ... ... نظر الجامع الجديد الناصرى مثلا بما جرت به الخ ح

والشـام ، وناظرِ الجيش بهـما ، وناظر الدواوين المعمورةِ والصُّحْبة الشريفـة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذلك لقاضى القُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية على ما كان الأمرُ عليـه أوّلا ، كتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرَّ المجلس العالى ، القاضوىُّ ، الكبيرىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامَه ، فى قضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصرية ، على أجمل العوائد وأتمّها ، وأكمل القواعد وأعمّها ، بمـا لذلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور ، على ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القُضاة الحنفيَّة ، على ما كان الأمرُ عليه أوّلا أيضا ، كتبَ له نظير قاضى القُضاة الشافعية إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بـ«الحَنَفيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة المـالكية ، على ما الأمر مستقرٌّ عليه الآنَ ، كتب له كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ«المـالِكيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة الحنابلة فكذلك ، ويقال فيه «الحَنَابلة» .

وإن كتب به لأحدٍ من القُضاة الأربعـة بالشام ، فكذلك ، إلا أنه يقال قضاء قُضاة الشافعيَّة أو الحنفية أو المـالكية أو الحنابلة بالشَّام المحروس .

وإن كتب به لكاتِبِ السرّ على ما كان الأمرُ عليه أوّلا ، كتب : « توقيع شريفٌ بأن يُفَوّض إلى المجلس العـالى ، القاضَوىّ ، الكبيرى ، اليمينىّ فلان ، ضاعفَ الله تعالى نعمتَـه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسـلامية أعلاها الله تعالى ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهـد به الديوانُ المعمورُ ، على ماشُرح فيه » .

وإن كُتب به لكاتبِ السرّ بالشـام، أُبْدل لفظُ المـالكِ الإسـلامية بـ«الشام المحـــروسِ» .

وإن كتب به لنـاظر الجيش بالديار المِصريّة، كتب : « توقيـعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، الفـلانىّ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَـه ، نَظَرُ الجيوش المنصـورةِ بالمـالك الإسـلاميّة ، أعلاها الله تعـالىٰ علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لناظرِ الجيش بالشـام ، أبدِل لفظُ المـالك الإسـلامية بـ«الشام المحـــروسِ» .

وإن كتب به لنـاظر الدولة، كُتِب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العـالى، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ، الفـلانىّ، فلان، ضاعفَ الله تعـالىٰ نعمتَـه ، نظَرُ الدواوين المعمورةِ والصُّحبةُ الشريفـةُ ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ علىٰ ماشُرِح فيه» .

وإن كتب به لنـاظر البيمارَسْتان لصاحبِ سيفٍ[1]، كتب : «توقيعٌ شريفٌ أن يفوّض إلىٰ المقرّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالى (علىٰ قدر رُتبتـه) الأميرىّ، الكبيرىّ ، الفلانىّ ، فلان الناصرىّ مثـلا : أعزّ الله أنصاره ، أو نُصرتَه ؛ أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه (بحسَب ما يليق به) نظرُ البيمارَسْتان المعمور المنصورىّ، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعد، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور علىٰ ما شُرِح فيه» . وكذلك نظرُ الجامع الجـديدِ ونظرُ الحرمَيْن الشريفين كلٌّ بمـا يناسب الألقاب . وعلىٰ ذٰلك .

(١) لعله «ولو كان صاحب سيف» .

المرتبة الثانية من التواقيع — ما يكتب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات، وهو لمن مرتبته السامى بالياء . قال فى "التثقيف" : وصورته فى الطرة والصدر على ما تقدم شرحه لكن باختصر مما تقدم . قال : وبذلك يكتب لنقيب الأشراف ولقضاة القضاة بحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك، وكذلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمفتين بدار العدل بها، ووكلاء بيت المال بها، والمحتسبين، ونظار الجيش بها، وكتاب الدست بمصر والشام، وناظر البيوت بالديار المصرية . وكذلك ناظر خزائن السلاح، ومستوفى الصحبة، وناظر بيت المال، وناظر الخزانة الكبرى وخزانة الخاص، وناظر الأحباس، ومشايخ الخوانق الكبار : كسعيد السعداء، وبيبرس بالقاهرة، والشميصاتية بدمشق . وكذلك تقدمة التركمان بالشام، وتقدمة الأكراد به، ومشيخة العائد .

فإن كتب بذلك لنقيب الأشراف، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى، الأميرى، الفلانى، فلان : أدام الله تعالى علوه، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية، على عادة من تقدمه وقاعدته، على ما شرح فيه» .

وإن كتب لقاضى قضاة الشافعية بحلب، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى، القضائى، الفلانى، فلان : أيد الله تعالى أحكامه، فى قضاء قضاة الشافعية بحلب المحروسة، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه » .

وإن كتب للحنفى بما كتب كذلك، وأبدل لفظ الشافعية «بالحنفية» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحد قضاة القضاة بغيرها : كطرابلس، وحماة، وصفد، والكرك، أبدل لفظ حلب بلفظ تلك المدينة، والباقى على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قُضاة العسكر بالممالك المذكورة ، كُتب « توقيعٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، فلان الشافعىّ ، مثلا أو نحو ذٰلك : أيّد الله تعالىٰ أحكامه ، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانىّ ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب بإفتاء دار العَدْل بشىءٍ من هذه الممالك ، أبدل لفظ «قضاء العسكر» بلفظ «إفتاء دارِ العدل» والباقى علىٰ حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلانٌ : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى وَكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانىّ ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من المحتسبين بهذه الممالك ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلانٌ : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظر الحِسْبة الشريفة بالمكان الفلانى علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » .

وإن كُتب لأحد من وُكلاء بيتِ المال بها ، كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى وكالة بيتِ المال المعمور بالمكانِ الفلانى ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من نُظّار الجيش بها ، كتب « توقيع شريف بأن يَستقِرّ المجلس السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظَر الجُيوش المنصورة بالمملكة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من كُتّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريفٌ بأنه يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه، فى كتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة» . ثم إن كان عن وفاةٍ عَيَّنه أو بنُزول عَيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبْدل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذٰلك فى نظر البيوت بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر البيوت المعمورة » .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائنِ السِّلاح بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السِّلاح المنصورة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحْبة، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفـلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى آستيفاء الصُّحْبة الشريفـة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بنظر بيت المـال ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىُّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر بيت المـال المعمور ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبْرىٰ ، كتب « توقيعٌ شريف أن يسـتقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَـه، فى نظر الخزانة العالية الكُبْرىٰ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاصّ ، أُبْدل لفظ الخزانة العالية الكبرىٰ بلفظ خزانة الخاصّ الشريف ، والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كُتِب بنظر الأحباس، كُتِب « توقيعٌ شريفٌ ان يستقر المجلسُ السامىّ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ رفعتــه ، فى نظر الأحباس المبرورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بمَشْيَخة الخانقاه الصَّلَاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقر المجلسُ السامىّ، الشَّيخىّ، الفــلانىّ : أعاد الله تعالىٰ من بركاته، فى مَشْيخة الخانقَاه الصَّلَاحيَّة، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه بيــبَرْس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصَّــلَاحيَّة » بلفظ «الخانقاه الرُّكْنيَّة بيبرس» والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كتب بمشيخة الشُّمَيصاتية بدمشق،أبدل ذٰلك بلفظ«الخانقاه الشُّمَيصاتيّة بالشام المحروس» .

وإن كتب بتَقْدِمة التُّرْكُمَان بالشام، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يســتقر المجلس السامىّ ، الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ، فى تَقْدِمة التُّرْكُمَان بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بتَقْدِمة الأكراد، أبدل لفظ «التُّركمان» بلفظ «الأكراد» .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يســتقر المجلس السامىّ الفلانىّ : أعزّه الله تعــالىٰ ، فى مَشْيخة العائد ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » . وعلىٰ ذٰلك .

الطبقـــة الثـانية

(من التواقيع ما يُفتتح بلفظ « أما بعـدَ حمد الله » وهو لمن رُتبته السامى بغـير ياء ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث، وهو الاصلُ فيما يُكتب فى الثلث ثم تُرُقِّىَ عنـه إلىٰ رُتْبـة الافتتاح بالحمد . ألا ترىٰ أن المَناشـيرَ التى تُكتَب فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات تُفْتَتَح كلُّها بلفظ « أما بعـدُ » علىٰ ما سـيأتى بيانُه فى المقالة السادسة، فى الكلام علىٰ المَنَاشير، إن شاء الله تعالىٰ .

وصورته أن يكتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السـامى، القضائىّ، فلانُ الدين أو الشيخُ فلان الدين فى كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه، علىٰ ماشُرِح فيه » ثم يَكتب فى الصدر « أما بعدَ حمدِ الله » ويصلِّى علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يقول : « فإنَّ أَوْلَى الأمور بكذا مَنْ هو بصفة كذا» أو «إنَّ أَوْلَى الناس بالتقديم من هو متَّصف بكذا» ونحو ذٰلك ؛ ثم يقال : « ولـمَّا كان المجلس» ويؤتىٰ بنحو ماتقدّم فى المفتَتح بالحمدُ لله .

قلت : وقد قَلَّ آستعمال هذا الضَّربِ بديوان الإنشـاء الشريف وإن كان هو الأصلَ فيما يكتب فى هذا القَطْع ، حتّى لايكاد يُكتَب به إلا فى النـادر ، تغَاليـا فى رِفْعة المكتوبِ لهم، معَ المسامحة لهم فى مثل ذٰلك .

المرتبة الثـانية — ما يُكتَب فى قَطْع العادة المنصورىّ .

والأمرُ فيه علىٰ ماتقـدّم فيما يُكتب من هذه الطبقـة فى قطع الثلث . قال فى "التثقيف" : وهو قليـلٌ جدًا لا يكون إلا فى تدريسٍ كبـير، أو نظرِ وقفٍ

كبير، أو مشيخةِ الحرم الشريف بالقُدُس الشريف، إن لم يكن فى قطع الثلث؛ أو لرجلٍ كبيرٍ قديم الهِجْرة فى الخدْمة الشريفة، إلا أنَّ الوظيفة صغيرةٌ لاتقتضى أن تكون فى قطع الثلث .

الطبقــــة الثــالثة

(من التواقيع مايفتتح بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — ما يُكتب فى قَطْع العادة المنصورى بقَلَمْ الرِّقاع ، وهو لمن رُتبته السامِى بغير ياء ممن لم تبلغ رتبتُه قطعَ الثلث . قال فى "التثقيف": وصورته أن يكتب فى الطرّة «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامِى القاضى فلان الدين: أعزه الله تعالىٰ فى كذا ، أو أن يُرتَّب ، أو أن يُقَدَّم » ويذكر ما تضمَّنه الشاهدُ من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوِزارة أو الخاصّ أو غير ذٰلك «علىٰ ماشُرِح فيه» . قال: ثم يكتب فى الصدر بعد البسملة « رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ، الفلانىّ، باللقب الخاص، ولقب السلطنة » : مثل الناصرىّ ، الزَّيْنِىّ ، ونحو ذٰلك (ويُدْعىٰ للسلطان بأدعية تُناسب الوظيفةَ والمتولِّىَ لها ، وأقلُّها ثلاث فِقَرات فما زاد) «أن يستقرّ المجلسُ السامى، القاضى، فلانُ الدين فلان، أو مجلسُ القاضى فلان الدين فلان : أعزّه الله تعالىٰ فى كذا ، لما له من صِفاتٍ هى كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بما يُناسب المَقام) ثم يقال : فليباشِرْ ذٰلك ، أو فليتلقَّ هذا الإحسان ، أو فليقابِلْ صدَقاتنا الشريفةَ» ونحو ذٰلك ؛ ثم يُوصَىٰ بما يليق بتلك الرتبة، ويدعىٰ له بسجعتين فقط . ثم يقال : «بعدَ الخطّ الشريف أعلاه» . ثم قال: وبذٰلك يكتب لكُتّاب الدَّرْج، ومستوفى

الدولة ، وناظر الأهراء ، وناظر المطابخ ، ومشايخ الخوانق الصغار ، والتداريس الصغار ، وأنظار الأوقاف الصغار ، ونحو ذلك مما لا يأخذه حصر .

وحينئذ فإن كتب بذلك لكاتب درج ، كتب فى الطرة « توقيع شريف أن يستقر مجلس القاضى فلان الدين فلان : أعزه الله تعالى فى كتابة الدرج الشريف » .

وإن كتب به لمستوف من مستوفى الدولة ، كتب «أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمته ، فى استيفاء الدولة الشريفة على عادة من تقدمه » .

وإن كتب لناظر الأهراء ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعته ، فى نظر الأهراء السعيدة » .

وإن كتب بنظر مطابخ السكر ، كتب « أن يستقر المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله تعالى رفعته ، فى نظر المطابخ السعيدة» .

وإن كتب بمشيخة خانقاه صغيرة ، كتب «أن يستقر المجلس السامى ، الشيخى ، فلان الدين فلان ، أو مجلس الشيخ فلان الدين فلان : نفع الله تعالى ببركته ، فى مشيخة الخانقاه الفلانية ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بتدريس صغير ، كتب «أن يستقر فى تدريس المدرسة الفلانية ، على عادة من تقدمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر وقف ، كتب « أن يستقر فى نظر الوقف الفلانى » ونحو ذلك .

ثم إن كان لشيء من ذٰلك معلوم يشهد به الديوانُ السلطانيُّ ككتابة الدَّرْج واستيفاءِ الدولة ، كُتِب بعد قوله وقاعدته : « بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور » .

وإن كان الشاهدُ بالمعلوم كتّابَ وقف، كتب « بما لذٰلك من المعلومِ الشاهدِ به كُتّابُ الوقف المبْرور » . ويقول فى آخر طُرّة كل ولاية من التقاليد، والتفاويض، والمراسيم، والتواقيعِ علىٰ آختلافها : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصِّغار، وهى لأصغر ما يكونُ من الولايات:
من نَظَر وقْفٍ صغيرٍ ونحو ذٰلك ، وتكون فى ثلاثة أوصال ونحوها)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل — ما يُكتب علىٰ مِثال أوراق الطّريق .

وصورتُها أن يُكتبَ فى أعلىٰ الدَّرْج : «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقر فلان فى كذا، علىٰ ما شُرِح فيه » . ويكونُ ذٰلك فى سطرين؛ ثم يُكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ» إلىٰ آخر ماتقدّم فى الطبقة الثالثة ، ويقلل فى الدعاء : « أعلاه اللهُ وشرَّفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذٰلك . ثم يقال : «أن يستقر فلانٌ فى كذا» ويشرح ماتضمّنه الجواب فى هامش القِصّة . ثم يقال : «فليعتمِدْ هـذا المرسُومَ الشريفَ كلُّ واقفٍ عليه ، ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خروج عن معْناه، بعْدَ الخط الشريف أعلاه» .

الضرب الثـانى — ما يُكتَب علىٰ ظُهور القِصَص .

وكيفيّته أن تُلصَق القِصّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرّ أو غيره علىٰ وصْلَيْنِ من ورَق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتُها أن يُكتب فى ظاهر القصّـة بغير بَسْمَلة قبل الوصل الذى وصـله نحو أربعة أصابع ماصورته : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ » علىٰ نحو ما تقـدّم . ويُدْعىٰ له : « أعلاه الله وشرّفَه ، وأنفذه وصَرّفه » علىٰ ما تقدّم فى الضرب الأوّل . ثم يقال : «أن يُتأمّل ما أنهاه رافعُها باطنا ، وليُتقـدّم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمّنه الجوابُ فى هامش القِصّـة . ثم يقال : « فليعتَمِد هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه ومقتضاه ، بعـد الخطِّ الشريف أعلاه» . قال : وإن كان رافعُ القصّةَ ممن هو متميِّز بعضَ التميُّز قيل : «مترجِمُها» بدل «رافِعُها» . فإن زِيدَ فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلسُ القـاصى أو المجلسُ السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبـة ، وتُذكر بعضُ ألقابه . ثم يقـال : « أدام الله عُلوَّه » أو « أعزه الله ، فليتقـدّم » ويكمِّلُ إلىٰ آخره .

وآعلم أنّ المقرّ الشّهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" آفتتاحاتٍ أخرىٰ للتواقيع بين رُتْبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسِم بالأمر الشريف» فقال : بعد الآفتتاح بأما بعدَ حمد الله : وقد تستفتح تقول : «أما بعدُ فإنّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه ، وقد تستفتَح بقول : « من حسُنَت طرائقُه ، وحُمدت خلائقُه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رُتبةً بعد رتبةٍ .

قلت : وهذه الآفتتاحات كانتْ مستعملةً فى الدولة العباسية ببغْدادَ ، وفى الدولة الفاطميّة بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة ، ثم فى الدولة التُّركيّة إلىٰ زمن المَقَرّ الشّهابىّ

المشار إليه فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم رُفِضتْ بعد ذٰلك، وتُرِك ٱستعمالها بالديار المصرية البتّة، فلم يكن أحدٌ من كُتّاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئًا منها .

المقصد الثالث

(فى بيان كيفيّة وضع ما يُكتب فى هذه الولايات فى الورق ، ويتعلّق به عشرةُ أمور)

الأمر الأوّل — الطُّرّة، وهى فى ٱصطلاحهم عبارةٌ عن طَرَف الدَّرْج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يُكتَب فى رأس الدَّرْج مجازا، تسميةً للشىء باسم محلّه .

قلت : وليس صحيحًا من حيثُ اللغة، فإنّه فى الأصل مأخوذٌ من طُرّة الثوب، وقد ذكر الجوهرىّ وغيره أن طُرّة الثوب هى طَرَفُه الذى لاهُدْب فيه، والذى لاهُدْبَ فيه من الثوب هو حاشيَتاه، بخلاف أعلاه وأسفلِه . نعم يجوز أن تكون مأخوذةً من الطَّرّ بمعنى القَطْع ، لأن الطُّرّة مقتَطَعةٌ عن كتابة المَتْن، يفْصِل بينهما بياضٌ ، ومنه سمّى الشَّعْر المرسَل على الصُّدغ طُرّة . وقد جرتِ العادةُ فى كل مايكتَبُ له طرّةٌ أن يكتب فى أعلىٰ الدَّرْج فى الوَسَط بقَلَم الرِّقاع بكل حالٍ ماصورتُه « الآسم الشريف » ثم تكتَبُ الطرّة تِلْوَ ذٰلك من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ، دون هامش عن يمينٍ ولا شِمال : بحيث تكون أطرافُ المنتصبات من أوّل السطر الأوّل ملاصقةً لأسفل ما كُتِب فى أعلىٰ الدَّرْج ممّا تقدّم ذكره . ويأتى بالطرّة المناسبة : من تقليد ، أو مرسوم، أو تفويض، او توقيع، بالقلم المناسب لمقدار قَطْع ذٰلك الورق علىٰ ما تقدّم بيانُه، ويأتى علىٰ ما يُكتب فى الطرّة علىٰ ماتقتضيه

الحال، علىٰ ماسبق ذكره إلىٰ أن ينتهىَ إلىٰ آخره فإن آنتهىٰ فى أثناء سطرٍ، تَرَكَ باقيَه بياضا، وكتب فى آخره «علىٰ ماشُرِح فيه» بحيث يُوافِق آخرُ ذٰلك آخرَ السطر . و إن آنتهى ما يُكتَب فى الطرّة فى آخر السطر، كتب تحتَ ذٰلك السطر علىٰ حيال آخره «علىٰ ما شُرِح فيه» كما تقدّم ، لايختلف الحالُ فى ذٰلك فى مكتوب ولاية، إلا فيما يُكتَب علىٰ ظهور القِصَص فإنّ العادة جرتْ فيه أن لايكون له طُرّة، ولا يُكتب فى أعلاه الآسمُ الشريف : لأنه قد علم أنه لا يُكتب فيه إلا الآسمُ الشريف، فلم يحتج إلىٰ تنبيهٍ علىٰ ذٰلك .

الأمر الثانى — البسملةُ الشريفة . ومن شأنها أن تُكتب فى أوّل كلّ ولاية لها شأنٌ ، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأُ فيه بحَمْدِ اللهِ فهُوَ أجْذَمُ» يعنى ناقصَ البركة . ومحلُّها من كُتُب الولايات فى أوّل الوصل الرابع بعد أوصال البَيَاض . أما مالا بالَ له من كُتُب الولايات : كالتواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص وما هو منها علىٰ صورةِ أوراق الطريق ، فقد جرىٰ الآصطلاحُ علىٰ أنه لا يُكتَب فى أوّلها بسملةٌ أصلا، بل تفتتح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاءُ الدين علىٌّ الكَرَكىّ حينَ وُلّىَ كتابة السرّ الشريف بالديار المصرية فى أوّل سلطنة الظاهر برقوقٍ الثانية أمر أن تُكتب فى أوّل هذه التواقيع بسملةٌ لطيفةُ المقدار، طلباً للتبرك؛ ثم تُرِك ذٰلك بعد موته وآنتقالِ الوظيفة إلىٰ غيره . ولايخفىٰ أنّ ماعليه الآصطلاحُ هو الوجه : فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قيّد مايُبْدَأ بالبسملة بما يكون له بالٌ من الأمور، ومقتضاه أنّ مالا بالَ له لايُبْدَأ فيه ببسملة . علىٰ أنه قد كان أمر أن تُجعل البسملةُ قبل قوله «رُسِم بالأمر

الشريف» ومقتضىٰ ذٰلك أن تقع العلامةُ فوقَ البسملة، وفيه مالا يخفىٰ . بخلاف غيره من الولايات الكِبار فإنّ العلامة تكونُ فيها تحتَ السطر الثانى من البسملة ، علىٰ ما سيأتى بيانُه .

الأمر الثالث — الآفتتاحُ الذى يلى البسملةَ . وقد علمتَ مما تقدم أنّ الذى آستقرّ عليه آفتتاحُ كُتُب الولايات على آختلافها من أعلىٰ وأدنىٰ لا يخرُج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الآفتتاحُ بالحمدُ لله، وهو أعلاها . ثم تختلف رتبتُه بعد ذٰلك باختلاف مايُكتب فيه من مقادير قَطْع الورق : إذ هو تارةً تُفتتح به التقاليدُ ، وتارة تفتتَح به المراسيمُ المكبَّرة ، وتارة تفتتَح به التفاويضُ ، وتارة تفتتَح به كبارُ التواقيع :

الثانى — الآفتتاحُ بأما بعدَ حمدِ الله . وهو المرتبةُ الثانيةُ من المراسيم المكبَّرة ، والتواقيعِ الكِبار . وتكون فى قَطْع الثلث تارةً ، وفى قطع العادة المنصورىّ أخرىٰ.

الثالث — الآفتتاحُ بِرُسِم بالأمر الشريف . وهو المرتبة الثالثةُ من المراسيم والتواقيع ، وهى أدنىٰ رُتَبها . وتكون فى قطع العادة الصغيرِ، وربما كُتِب بها فى قطع العادة المنصورىّ .

الأمر الرابع — البعديةُ فيما يفتتح فيه بالحمدُ لله، وهو علىٰ ضربين .

الأول — أن يقال بعد التحميدِ والتشهُّد والصلاةِ على النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما بعدُ، وهو الأعلىٰ . وتكون فى التقاليد خاصَّةً .

الثانى — وبعدُ، وهى دُونَ اما بعد . وتكون فى التفاويض وكِبَار المراسيم والتواقيع . وقد مرّ القولُ على ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الفَواتح فى المقالة الثالثة .

الأمر الخامس — وصفُ المتولّى بمـا يُناسب مَقامه ومَقامَ الولاية من المَدْح والتقريظ . وقد مرّ القولُ علىٰ ذٰلك فى المقْصِد الأوّل من هذا الطّرَف، فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصّة بصاحب الولاية . قد تقـدّم أنه يذكر فى الطُّرّة بعضُ الألقاب التابعـة للّقب الأصلىّ : من المقرّ والجناب وغيرهمـا، مع التصريح باسم المولَّى والدعاء له بمـا يُنَاسبه، على ماتقـدّم بيانُه هنالك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُستوعب جميعُ ألقابه ويعاد ذكْرُ الأسم والدعاء المذكور فى الطُّرّة . وقد تقدّم ذكْرُ الألقاب مسـتوفًى فى المقْصِد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصـيّة صاحبِ الولاية بمـا يُناسب ولايتَه . وقد تقـدّم التنبيهُ علىٰ ذٰلك فى الكلام علىٰ مقدّمات الولاياتِ أيضا .

الأمر الثامن — الدعاءُ لصاحب الولاية بمـا يناسـبُه إذا كان مسـتحقًّا لذٰلك . وقد ذكر فى "التعريف" أن من آستُصْغِر من المُوَلَّيْن لايُدعىٰ له فى أوّل ولاية ولا آخِرها، وربمـا قيل بدَل الدعاء أو بعده : «وَالخيرُ يكون» .

الأمر التـاسع — الخواتِم : من كتابة «إن شاء اللهُ تعالىٰ» والتاريخ، والمستنَد، والحمدلة، والتصليةِ، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخرِ مكتوبِ كلِّ ولاية : «إن شاء الله تعـالىٰ» فى سطرٍ منفردٍ .

وأما التاريخ، فإنه يُكتَب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتَبات، فيكتب «كُتِب فى يوم كذا من شهر كذا» فى سطر، ويكتَب «سنة كذا وكذا» فى سطر تحته .

وأما المستَند، فإنّه يكتب تحتَ التاريخ، كما تقدّم فى المكاتَبات . فإن كان بتلَقِّ كاتبِ السرّ، كُتِب فى سطرٍ واحد « حسَبَ المرسومِ الشريف » . وإن كان برسالة الدَّوادار، كتب « حسَبَ المرسوم الشريف » فى سطر، ثم كتب فى سطر تحته « برسالةِ الجناب العالى الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ الدَّوادارِ، الناصرىّ» مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب «حسَبَ الخَطِّ الشريف» . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب «بالإشارة العاليةِ الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب «كافلِ الممالك الشريفة الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ» فى سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب «بالإشارة العاليةِ الصاحبيَّة الوزيريَّة الفلانية » فى سطر، ثم كتب فى السطر الثانى « مدبِّرِ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» . وإن كان الوزيرُ صاحبَ سيف، أسقط منها «الصاحبيَّة» . اللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرا أو توقيعًا صغيرا مما كُتِب فى هيئة ورقة الطريق أو علىٰ ظهر القِصَّة ، فإنه إن كان بتلقِّ كاتب السرّ، كُتِب المستَنَد علىٰ حاشية التوقيع علىٰ سَمْت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتِب هناك «بالإشارة العالية» سطرين، علىٰ نحو ما تقدّم فيما يُكتَب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذٰلك . وإن كان برسالة الدَّوادار، كتب علىٰ الحاشية هناك « حسَبَ المرسوم الشريف » ، ثم كُتِب تحتَ التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلىٰ آخر المستَنَد .

وأما الحَمْدلةُ والصلاة على النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، ففى سطر تحت المستَنَد ، كما فى المكاتبات، يكتب فيها «الحمد لله وحده» ثم يخلِّى بياضا، ثم يكتب «وصلَواتُه علىٰ سيدِنا محمد وآله وصحبه وسلامُه» .

وأما الحَسْبلةُ ، ففى سطر تحتَ ذٰلك يكتب فيه « حَسْبُنا الله ونعم الوكيلُ » علىٰ ما تقدّم فى المكاتَبَات .

الأمر العاشر — البياض الواقعُ فى كُتُب الولايات، وله ستّةُ مواضع :

الأوّل — فيما بين الطُّرّة والبسملة ، وهى ثلاثةُ أوصال بالوصل الذى فيه الطرّة، لا يتجاوزُ ذٰلك فى مقدار قطع كبيرولا صغير . إلا أنه ربما ٱقتُصِر علىٰ وصلين فيما ٱستُصغر شأنُه من الرتبة الثالثة من التواقيع .

الثانى — الحاشيةُ فيما علىٰ يمين البسملة وما بعدها . وأهلُ زماننا يعبِّرون عن ذٰلك بالهامش، ولم أجدْ له أصلا فى اللغة . وقد تقدّم القولُ عليها فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ متعلّقات قَطْع الورق وما ينخرِط فى سِلْكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياضَ فيه ؛ علىٰ أنَّ مُلوك الروم يجعلون لكُتُبهم حاشيةً من أوّل الأسطر وحاشيةً من آخرها ، علىٰ ما تقدّم القولُ عليها فى الكُتُب الواردة عن صاحب القُسْطنطِينِيّة .

الثالث — بيتُ العلامة؛ وهو فيما بينَ السطر الأوّل : وهو الذى يلى البسملةَ ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكونُ فى آخر وصل البسملة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ الورق فى المقالة الثالثة أن مقدارَه فى الزمن القديم كان قَدْرَ شبر، وقد شاهدْناه دونَ ذٰلك بقليل فيما كُتِب به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" علىٰ مايشهَد به الموجودُ من تواقيعهم؛ ثم تَناقَص قليلا . فلمّا غَلَا الورقُ وقُصِّرت الأوصالُ نقص مقدارُه حتّى صار نحوَ شِبر(١)، وهو علىٰ ذٰلك إلىٰ الآن . ويزيد ذٰلك وينقص باعتبار قَطْع الورق فإنه فى القَطْع الكبير يكون الوصلُ أطولَ منه فى القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لايخفى .

الرابع — ما بين الأسطر فى مَتْن الولاية . وهو علىٰ مقـدار النِّصف من بيت العـلامة فى القطع الكبير والقطع الصغير ، لا يكاد ذٰلك يختلف إلا فى التَّواقيـع والمَرَاسـيم التى هى علىٰ هيئة أوراق الطريق ، والتى علىٰ ظُهور القِصَص فإنَّ ما بين السطرين منها يكون متضايقًا حتّٰى يكونَ بقدر ثلاثةِ أصابعَ مطبوقةٍ .

الخامس — ما بين أسطُر اللَّواحِق فيما بعدَ «إن شاء الله تعالىٰ» فإنه يكون ما بين كلِّ سـطرين من ذٰلك قدرُ نصف ما بين السطرين فى مَتْن الولاية ، إلا فى المستَنَد إذا كان سطرين ، مثـل أن يكون برسالة الدَّوادار ونحوها ، فإنَّ السطرين يكونان متلاصقيـن .

السادس — ما بعدَ اللَّواحق فى آخر الكتاب ، وهو قدرٌ يسيرٌ يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثةِ أصابعَ مطبوقاتٍ وما قارَبَ ذٰلك .

المَهْيَـع الثـانى

(فى ذكر نُسَخ ممـا يُكتب فى مَتْن الولايات من التقاليد والمَراسيم المكَبَّرة والتفـاوِيض والتَّواقِيـع)

قلت : وقد كنتُ هَمَمْت أن أجعلَ ابتدا آتِ التقاليد ، والتفاويض ، والمَراسيم ، والتواقيـع : من الافتتاح بـ «الحمـدُ لله» أو بـ «أما بعد حمد الله » أو بـ « رُسِم بالأمر الشريف» فى فصلٍ مستقلٍّ ، ومقاصدَها المتعلقةَ بالوظيفة ... ...(1) ... الكاتب الذى لا يحسن الانشاء ما أحب من الابتدا آت المنـاسبةِ للاسم أو اللَّقب ونحوهما ثم يبيِّن القصدَ المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذٰلك وأتيت بالنسخ علىٰ صُورتها لأمور : منهـا ــ أن فى تضييع النسـخة إفسادًا لصُورتها وضَياعَ فضـيلة المنشئين

---

(١) بياض بالأصل فى غير نسخة ولعله «فى فصل علىٰ حدة ليختار الكاتب الذى لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكرهم . ومنها ـ أن يعرف أنّ الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق ، وأنها مصطَلَح قد آصطَلَح عليه أهلُ ذلك الزمان . ومنها ـ أن يَعرِف المنشئ ترتيبَ من تقدّمَ لينسُجَ على مِنْواله . وإذا أراد من لادُرْبةَ له بالإنشاء أخذَ تحميدة من تقليدٍ أو توقيع وغيرهما ونقلها إلى مَقْصِد من مقاصد الولاية لم يُعْجِزه ذلك .

ثم قسمته على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(ولاياتُ وظائف الديار المِصرية ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(الولاياتُ بالحضرة ، وهى على ستة أضرب)

الضرب الأول

(ولايات ارباب السيوف ، وهى على طبقتين)

الطبقة الأولى

(ذواتُ التقاليد ، وهى ثلاثُ وظائفَ)

الوظيفة الأولى

(الكَفَالة ، وهى نِيَابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف المملكة فى المقالة الثانيةِ أن الكَفَالة هى أعلى رُتَب نيابة السلطنة ، وأنّ النائبَ الكافلَ يحكُم فى كل مايَحكُم فيه السلطانُ ، ويُعَلِّم فى التقاليد والتواقيع والمَنَاشير وغير ذلك ؛ بخلاف غيره من النوّاب فإنّ كل نائبٍ لا يعَلِّم إلا على ما يختصّ بخاصّةِ نيابتِه . وقد تقدّم فى مقدّمة الولايات أنّ لقبه «المَقرّ الكريم» على ما آستقرّ عليه الحال .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة، كُتِب بهـا من إنشاء الشِّهاب محمودٍ الحلَبيّ رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل رُكْنَ الدولة فى دولتنـا القاهرةِ ثابتَ القواعد، علىٰ فَرْقَد الفَرَاقد، راقيًا فى رُتَب العُلوّ الآخذةِ من أُفُق التأييد بالمَطَالع ومن نُطُق العزِّ بالمَعَاقد؛ حاليًا بعُـقُود المَهابة التى لا تزالُ لرُعْبِها علىٰ الأعداء طلائعَ خيلٍ فى المَرَاقب وروائعَ خَيَـال فى المَرَاقد، حاويًا من أنواع المفـاخر ما لو كاثرَتْه الدَّرارىُّ غدَتْ وهى لمجموعه فَرَاقد ، أو فاخرَتْه الدُّرَر ثقَّبتها الأفكارُ النواقد، مقلَّدًا من سُـيوف الظَّفر مالا تنْبُو فى نُصْرة الإسـلام مَضَاربُه وكيف تَنْبُو وأوامرُنا لعقُود حمائلِها علىٰ عَوَاتق مَجْده عَوَاقد .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عدَقتْ أمورَ دولتنا بمن يَرْفَع بأسُـه مَنارَها، وعقَدتْ قواعِدَ مملكتنا بمن يُوالى فضلُه أنوارَها، وعضَدتْ هِمَمَ أوليائنا بمن إذا تخيَّلتْ أعداءُ الدين مواقِعَ صَوارِمه كان أمنعُ صونِها إسَارَها وأنفعُ سِلاحِها فِرارَها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِقُ الهِمَمُ، بلَوَامعها، وتَشْرُفُ الكَلِمُ، بجَوامعِها ، وتزكُو الأُمَم، بمـا تنقُل الألسِنةُ منها عن القلوب إلىٰ مَسَامعِها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أقامنَا اللهُ لنَصْر دينه ، وألهمَنا تفويضَ مصالحِ أمّتِـه الىٰ كلِّ ولىٍّ ما رُفِعَتْ رايةُ نَصْرٍ إلا تلقَّاها عَرَابةُ مجدِه بيَمينـه ، وعضَّـدَنا فى جهاد أعدائه بأعزِّ صفىٍّ ينُوب بأسُـه للجيش عن طليعتِه ويقوم رأيه فى الحرب مَقَـامَ كَمِينه ؛ صـلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آختارهم لصُحْبته وآرْتضَاهم، وأرْهفَهُم لإقامة ملّته وآنتضاهم ، فمنهم من فازَ بمَزِيَّتىْ سَـبْقِه وتصديقِه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنَكِّب عن طريقِـه ، ومنهم من آختار الشهادةَ علىٰ الآنتصار بفَرِيقه

ورَفِيقه، ومنهم مَنْ أقامه بشَرَف الأُخُوَّة معــه مُقامَ شَقِيقه. صلاةً يبلِّغه إخلاصُ مُقيمها، ويُعرَضُ عليه إيمــانُ مُديمها، وسلم .

أما بعــدُ، فإنا من حينَ أورَثَنا الله مُلْكَ الإسلام لاعن كَلَالة، وألبَسنا فى مَواقف الذَّبِّ عن دينه حُلَل العزِّ المُعْلَمةَ بالجَلَالة ، ومكَّن لنــا فى أرضه، وأنهضَنا بمسْنُون الجهاد وفَرْضه ، ونَشَر دعوةَ مُلْكنا فى طُول الوجُود وعَرْضه ــ لم نَزَلْ نرتادُ لكَفَالة الممــالك الإسلاميَّة من تأْوِى منه إلىٰ رُكْنٍ شديد، ورأيٍ سدِيد، وحَزْمٍ يقرِّب من مَواهِب النصر كلَّ بعيد، وعَزْمٍ إذا أرهفَ صوارِمَه من أدْنىٰ الصعيد، وجفَ لهَوْل مواقِعِها بابُ الحديد، فهو المطوِىّ فى أثناء ضمائِرنا و إن تقلدنا قبْلَه سِواه ، والمنْوِىّ فى أحناء سرائرنا و إنَّمــا لامرئ ما نَواه، قد حلَبَ قِدمُ هِجْرته، الدَّهرَ أشْطُرَه، وكتب حُسْنُ خِبْرته، من عُنْوان السَّــيْر أسطُره، وتمثَّلتْ مرْآة الزمان لفِكْره فاجتلىٰ صُوَر الوقائع فى صَــفَائها، وترددَتْ تجارِبُ الأمم علىٰ سَمْعِه فعَــلِم ما يأتى وما يَذَر فى تَرْكها وآقتِفائها، وآستقبل دولةَ أسلافنا الشريفةَ من فواتحها : فكان لسانَ مَحاسنها، وبَنَان مَيامِنها، وخِزانةَ سرِّها، وكِنانةَ نَهْيِها وأمرِها ، وطليعةَ تأييدها، وذَرِيعةَ أوليائها إلىٰ عوارِفها وجُودِها، وعُنْوانَ أخبارِها، وعِنَانَ سَوابِقِها التى لا تُدْرِك مآثِرُ من ســلَف شَقَّ غُبارِها، ويمينَ قَبْضَــتِها المصَرِّفة بين البأس والنَّــدىٰ، وأمينَ آرائها المؤيَّدة بالتوفيق اللَّدُنِىّ علىٰ العــدا ، ورُكْنَها المُشَــيَّد بالأَسَل وهو مُتَّبنىٰ عليه الممــالك، وحصْنَها المصَفَّح بالصِّفاح فلا تستطيعُ الأهواءُ أن تتوقَّل إليه تلكَ المَسالك ، وزعيمَ جيوشِها التى آجتنَتْ من قَصَب قَوَاضبه ثمر النَّصْر غيرَ مَرَّة، ومقدَّمَ عساكرها التى آجتلَتْ به وجُوهَ الظَّفَر الحلوةَ فى أيَّام الكريهة المُرَّة .

ولما كان المَقَرّ الكريمُ (الفلانىّ) هو معنىٰ هـذه الصفات المُبْهَمه، ومَبْنىٰ هذه القواعد المُحْكَمه، وطرازَ حُلَل هذه الأحوال المُعْلَمه، وسرَّ المقاصد الظاهِره، وسِلْك هذه [النجوم] الزاهِيَة بل فَلَك هذه الدَّرارِىّ الزاهِره، تُحَلِّق صَوادِحُ البراعة، فتقع دُونَ أوصافه بمراحل، وتغوصُ سوابحُ اليَرَاعة، فيُلقيها العجْزُ عن آستخراج دُرَر نُعُوته بالسَّواحل، فأوصافُه تُذْكَر علىٰ وجْه الإجمال لضيق نِطَاق الفَصاحة عن تفصيلها، ومناقبُه تُشْكَر بلسان الإجماع لعجز ألْسنة الأقلامِ عن بُلُوغها إلىٰ غايتها ووُصُولها؛ فلذٰلك آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُفْسِح مَجالَ الهدىٰ، بتفويض إيَالَة الممالكِ إليه، وأن نَقْطَع آمالَ العِدا، بالآعتماد فى زَعَامة الجيوش الإسلاميَّة عليه، وأن نُقِرّ عيونَ الرَّعايا بإلقاء مَقاليدِ العَدْل والإحسان إلىٰ يدَيْه؛ وأن نصُونَ عقائلَ الممالك من مَهَابته بما يغدو سُورا لعَواصمها، وسِوَارًا لمَعَاصِمها؛ وشَنَبًا تفترّ ثغورُها عن بُرُوقه، أو لَهَبا يقْطَع طَريق أملِ العِدَا عن تخيُّل خَيالها فى طُروقه،: ليعتضدَ الدِّين منه برُكْنه، ويتغلَّب [علىٰ] الشِّرْك فى حالتَىْ حَرْبه ووَهْنه، ويتقَلَّب كلٌّ من رعايانا بين وِهَاد يُمْنه ومِهادِ أمْنه ـ رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال مُلْكه علىٰ الأركان، راقيًا من أُفُق النصر إلىٰ أعلىٰ مَكانةٍ وأرفع مكان ـ أن تُفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالديار المصريه، والممالك الإسلاميه؛ علىٰ أكمَلِ العَوائد، وأجمل القَواعد؛ تفويضًا تَمضِى أحكامُه فى الممالك الإسلامية شرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُربا؛ فلا يخرج منها شىءٌ عن أوامره وأحكامه، ولا يُعْدَل فى سِلْمها وحَرْبها عن حُكْمَىْ سُيوفه وأقلامه.

فليَستقِرّ فى هـذه الرُّتْبة العالية آستقرارَ الأركان المَوَاكث، والأَطْوادِ اللَّوابث؛ والأُصُول النَّوابت، والنجوم الثوابت؛ مؤثِّلا قواعدَها برأيه السديد ورايته، معوِّذًا كمالَها بسيف النصر وآيته، مبتدئًا فى إعلاء مَنَارها من العدل بأقصاه

ومن الإحسان بغايتــه ، مكثّرا أعدادَ الجيوش الإسلامية برأيه السعيد ، مقرِّبا من مَطامح النّصر النائية كلَّ بعيد ، مُوَكِّلا بحركات العَدُوّ وسكَناته جَفْنًا لا يألَفُ الغِرار[1] ، وسيفًا لا يعرِف القَرَار ، وعَزْما لا يَرضىٰ من عدوه دُونَ ٱصْطِلامه الفِرَار ؛ فلا تزال جيوشُ الإسلام بجميل تَعاهُده مُزاحة العوائق ، مُزَالةَ العلائق ؛ لامانعَ لها عن الركوب ، ولا قاطِعَ عن الوُثوب ؛ قد أعدّتْها عزائمُه ، فكلُّ زمانها بالتأهُّب للّقاء وقتُ إمكانه ، وأمدَّتْ بأسَها صوارمُه ، فهى لاتسأل عن عَدَد عدُوّها بل عن مكانه ؛ مقيما منارَ العدل الذى هو أساسُ المُلك ودعامَتُــه ، ورأسُ الحكم بأمر الله فى خَلْقه وهامَتُه ، ونَوْرُ الخصب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامّتُه[2] ، ناشرًا له [فى] أقْطار الممالك ، ماحيًا بنُور إقامته آيةَ ليلِ الظُّلْم الحالك ؛ معاضدًا أحكامَ الشريعة المطهَّرة بالانقياد إليها ، والاعتمادِ فى الحَلِّ والعَقْد عليها ، والاحتفالِ برَفْع منارها : فإنَّ ذٰلك من أفضل ما قدّمتْه الدولُ الصالحةُ بين يدَيْها ؛ مقدِّمًا عمــارةَ البِلاد علىٰ كلِّ مهمٍّ : فإنها الأصل الذى تتفرّعُ عنه المصالح علىٰ ٱفتراقها ، والمــادّةُ التى تستَطيل الجيوش الإسلاميَّة علىٰ العِــدا بتوسعها فى إنفادها وإنفاقها ، والأسبابُ التى تُعينُ الغيوثَ علىٰ نمــاء ما بَسَــط الله لعباده من أرزاقها ؛ وآكَــدُ مصالحها الرِّفْق الذى ما كان فى شيء إلا زانَه ، والعدل الذى ما ٱتَّصف به مُلْكٌ إلا حَفِظَه وصانَه ، فقد جعلْنــا أمره فى ذٰلك جميعه من أمرنا المُطَاع ، وٱقتصرْنا عن ذكرِ الوصايا بمــا فى خصائصه الكريمة من حُسْن الاضطِلاع وجميل الاطِّلاع ، وٱكتفَيْنا بمــا فى خلائقه الجميلة من محاسنَ لو تخيَّر نفْســه لم يزِدْها علىٰ ما فيه من كَرَم الطِّباع ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده وقد فَعَل ، ويجعل رُكْنَه من أثبتِ قواعد الدِّين وقد جعَلْ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الغِرار النوم القليل أو القليل من كل شىء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قُبَض الحَصَد إذا ٱجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .

* * *

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى زانَ دولتَنا القاهرةَ من حُسامِها بتقليـده ، وصانَ حِمىٰ ممالِكنا الشريفةِ من أوليائنا بمن تَغْدُو مواقِعُ سيوفه من كل عدُوّ قلائدَ جِيده، و زاد جَلالةَ الملك بمَنْ إذا ركِب فى مَواكِب نيابَتِه أو ردَ جيـادَ رُعْبه من كل مُتَوَّج من ملوك العدا مَنـاهلَ وَرِيده ، وفوّض تقْدمة جُيوشنا المنصورة إلىٰ مَن تُضاعِف مهابَتُـه فى عُيون العِـدا عدَدَ جنُوده، وتغزُوه سرايا خَيْله فى يَقظتِه وتطْلُع عليه طلائعُ خَيَاله فى هُجُوده، و إذا صَلَّتْ سيوفُه فى مَوْقِف وغًى أغرتْ رأسَ كلِّ مستكبِر لم يعْرِف اللهَ قبلَ رُكوعه بسُجُوده، مُشَرِّف أقدار أوليائنا من المَراتب بما تَشْرُف به أقدارُ المراتب فى نفسها ، ومفَضِّـل أيام دَوْلتنا علىٰ الدُّوَل بمـا ألِفتْه من جلالة مُلْكنا فى أمْسِها ، ومُجَمِّل سـيَرِ أصفيائنا من المَعْدَلة بمـا إذا غرسَتْه فى قلوب الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ ثمرةَ غَرْسها ، ومقَلِّد خواصِّنا من إيالة المُلْك ما إذا خطَبتْ به الأقلامُ علىٰ منابر الأنامل تَقلت البلاغةَ فى تلك الأوصاف عن قُسِّها ، ومفيض حُلَل الأنباء المرقومةَ بأسْنىٰ الرُّتَب علىٰ منْ إذا زانَتْ حِبَرُها اللابسَ زانهـا بلُبْسها ، و إذا أشرقتْ به هالةُ المَواكِب لو غَّى سقَطَتْ فوارسُ ملُوك العدا عن مَرا كبها وآضطربَت الأسِرَّةُ بملوك فُرْسها، و إذا كتَمتْه الأعداءُ أنباءَها نطقَت ألسنةُ رِياحه بأسرار أهل الشرك ولا يُرىٰ أسمَعُ من صُمِّها ولا أفصحُ من خُرْسها ، و إذا تطاولتْ أبطالُ الوقائع للقـائه آفترّتْ ثغور سيوفه عن شَنَب النصر لإلْفِها بمعانَقة الأعناق وأُنْسها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلىٰ أسمـاع المنابر، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسـنةَ الأقلام فى أفواه المحابر، وأعادتْ بسيف النصر حقُوقَ مُلْكنا الذى تلقَّيناه مع الأوّلية والأولوية من أسلافنا الكرام كابرًا عن كابر .

ونشهد أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال سيوفُنا بإعلاء مَنَارها ناهِضَه، وجِيادُ جهادنا لنشر دَعْوتها فى الآفاق راكِضَه، وموادُّ نعَمنا ونِقَمِنا لآمال حامليها باسطةً ولأرواح جاحِديها قابِضه؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى ايده الله تعالىٰ بنَصْره، وآتاه من معجزاته مايَحُول البصر دُونَ حَصْره، وجعله أمامَ الأنبياءِ وإمامَهم مع تأخُّر عَصْره، ونَصَره بالرُّعْب الذى زحْزَح كلَّ مَلِكٍ عن سريره وأنزل كلَّ متوَّج من قَصْره؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين هَجَروا فى نصرته، مأْلُوفَ الأوطان والأوطار، وركِبُوا فى إقامة ملَّته، مَخُوفَ الأهوال والأخطار، وفتَحُوا بيُمْن دَعْوته، ما آشتملت عليه المَشارِقُ والمغارِبُ من الأرجاء الممتدّة والأقطار؛ صلاةً لا يزال سيفُ جِهادِنا لدوامِها مُقِيما، وحكْمُ جِلادِنا لإقامتها مُديما؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من سمَت التقاليدُ بأوصافه، وشُرِّفتْ أمورُ الممالك بين بأسه وإنصافه؛ وحُلِّيت مواقفُ الخِدمة الشريفة من جواهر مَهَابته، بما هو جديرٌ بحلْيِ السيف، وزُيِّنت مجالسُ العدل من إيالته، بما هو مبرَّأٌ من المَيْل والهَوىٰ منزَّه عن الظلم والحَيْف؛ ومُلِئت القلوبُ من مَخَافته، بما يمنع ذا القُوّة فى الباطل من توهُّم البطش وذا الصَّبْوة فى الهَوىٰ من آستزاره (؟) ويُحَسِّن لها الفِرار، ويهوِّنُ عليها فى جَنْب ما نتوقَّعُه من مواقع سُيوفه السَّبْيَ والإسار، وعُدِق به من مصالح الأقاليم ما يصرِّفه بيمينٍ دأْبها اليُمنُ ويَسار شأنُها اليَسار؛ وفُوِّضتْ زعامةُ الجيوش منه إلىٰ هُمَام يقوم بأمرها علىٰ ما يجب، وليْثٍ لو لم ينهَضْ بأُلُوفها المؤلَّفة فى الوقائع لكان من نفْسه وحْدَها فى جَحْفل لجَب؛ ومِقْدامٍ آلافُ العدا فى شجاعته آحاد، وضِرْغامٍ قَسْور أهلِ الكفر بين يدَىْ وَثَباته وثَباته وأُسُودُهم نُقاد؛ من لم نَزَل نَعُدُّه فى أركان البيت الشريف المنصوريّ بالخناصر، ونُعدّه للمَوَاقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

الله وحدَّ السيف ناصر ، ونَدّخِرُه من معَادن أوليائنا الذين تمسَّكُوا من الانتماء إلينا بأمكَن الأسباب وأقوىٰ الأَوَاصر ، ونقَلّد أعطافَ الأواصر منه سيفًا يُرِىٰ منه بيْتُ العِدا ومعاقلُهم بأفتك حاصدٍ وأفلّ حاصر؛ فكَمْ من مواقفَ شَفَع فيها الشجاعةَ بالخضُوع لربِّه ، ومواطنَ لبِس فيها قَلْبَه علىٰ الدِّرع إذا لَبِس غيرُه الدِّرعَ علىٰ قَلْبه ؛ ومسالكَ سلَكها فى طاعة الله وطاعتنا والسُّيوفُ تَفِر من قُرُبها ، ومشاهدَ شهِدها فى طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفِرّ من حُجُبها ، ولَيَالٍ قطعها فى خدمتنا لم يصْحَبْ غيرَ ألسنة أسنَّتِه وأعيُنِ شُهُبها ، ومقاصدَ للذين بلَغها والسِّهامُ لاتجمِلُها من الفَرَق قوادمُ النُّسُور ، وسَرايَا وقفَ بينها و بين العِدا فضُرِبَ بينهم من شجاعته بِسُور ، وبِحارِ حَرْبٍ لم تجاسَرِ السوابحُ علىٰ قطْعها حتّى مدّ عليها من مُعْوَجّات سيوفه قناطرَ ومن مُقَوَّمات ذَوابِله جُسُور ؛ وكم أنامَ الرعايا فى مِهادِ عَدْلِه فلم يطْرُقْهم طَيْفُ ظالم فى الكَرا ، ولا رَوَّع سِرْبَهم خيالُ مُغيرٍ أوهَمَهُم السُّرىٰ؛ بل كانوا محفوظين بمهابته محفُوفين بمواهبه ، وادعِين فى ظلّه الذى مادَجَا عليهم ليلُ خَطْب إلا أطلع لهم بُدورَ الأمن فى غَياهِبِه .

ولما كان (فلان) هو الذى سار بذِكْر مَهَابته المَثَل ، وصار له فى قلُوب الأعداء من الرُّعب ماتَشَابه فيه القاتِلانِ الوَجَل والخَجَل ، وجمع محاسنَ الصفات فما أخذ عنه أو نُطِق به أو نُظِر إليه إلا وُجِد (مِلْءَ المَسَامع والأفواه والمُقَل)؛ ولا جَرَّد علىٰ العِدا سيفا إلا وودّعَتْ أرواحُهم الأجساد ، ولا أرْهفَ فى مجالس العَدْل والإحسان قلَما إلا وضمِنتْ له الآجامُ التى نشأَ بها (كَرَم السُّيُول وسَطْوةَ الآساد)؛ ولا طلَع فى أُفُق مواكِبَ إلا وهالتِ العِدا هالةُ بَدْره ، ودلّت علىٰ عِظَم سلطاننا رِفعةُ قَدْره ، وشهِدت له بحُسن طاعتنا طاعةُ أُمَرائنا لأمره ؛ وأسلَف من خدْمة والدنا السلطان الشهيد ما لم تَزَلْ له به عندنا حقوقٌ مرعيَّه ، وسوابقُ مرضيَّه ،

ورتبةُ تقديم سنيّه، ومزيةُ تقريبٍ جعلته مُشاهَدا بالعِيان مقدّما فى النيّه — آقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن نُرَوِّع العِدا بسيفه، ونُريَهم من تقدمته على الجيوش يقظةً ما كانوا يرَوْنه حُلْما من طَيْفه، ولِيعلَمَ الأعداء معاجلةَ أخذهم بالعُنْف والحَيْف، وأننا لا تأخُذُنا فى الله لومةُ لائم فليس بيننا وبينَ أعداء الله ورسُوله (صلى الله عليه وسلم) إلا السَّيْف .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زالتْ ممالكُ الإسلام به مُفْتَرَّة المَباسم، عالية مدى المَهَابة إذا طَرَقتها عواصفُ رِياح العِدا وقفتْ دُونَ بُلُوغها داميةَ المَنَاسم — أن تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية على العادةِ فى ذلك والقاعدة تفويضًا يُفيض على الممالك حُلَل المَهَابه، ويَسْلُب أعداءَ الدين رداءَ الأمن فلا ينفَعُهم الخضُوع ولا الإنابه، ويُضاعِف لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةَ بإجرائهم على ما ألِفُوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَم الله الإجابَهْ .

فليتقلّد هذه الرُّتبة الدالّةَ على آرتفاع قدره لدينا، الشاهدةَ له باحتفالنا بما أوجبه إخلاصُه من حقوق الطاعة والولاء علينا، المنبِّهةَ على أنه سيفُنا الذى نَصونُ الممالكَ بحدّه، ونَصُولُ على العِدا بمَضَائه الذى تَهلَّلُ وُجوهُ النصر كلّما أسفَر من غِمْده، وليستقرّ فى ذلك نافذًا فى المصالح الإسلامية أمْرُه، مُغيرا على جُيوش الأعداء ذِكْرُه، معمِلةً فى حماية الدِّين بيضُه المُرْهَفة وسُمْره، مجمِّلةً بإشراق طلعته مطالِعُ المَوَاكب، مسيِّرةً نجُوم أسنّته إلى قلوب أعداء الدِّين مَسِيرَ الكواكب، مُحْقِقةً بخُفُوق رايته مَساعى الكفر الصادرةِ عن آمالهم الكَواذِب، ليَعْلَمَ عدوّ الله أنه أشدُّ طَلَبًا له من أجَله، وألزمُ لعنُقه من عَمَله، وأسبقُ إليه من رَجْع صوته، وأنزلُ عليه من مُفَاجأة مَوْته. وليُجْمِل النظرَ فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعِفُ عِدّتها،

ويُبْقِى علىٰ توالى الأحقاب حِدّتَها وجِدّتَها، ويأخُذُهم بإدامة التمرّن فى الحُروب، وإطالة عِنان التأهُّب للرُّكوب، ويُعين كُلًّا منهم بملاحظة حاله علىٰ آستِدامه قُوّته وإمكانه، ويجعلُهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لايَسْأَلُون عن عدد عدُوّهم بل عن مَكانه. ولْيكُنْ لكلمة الشريعةِ الشريفةِ رافعا، ولشُبَه من يمتنع عن الانقيادِ إلى الأحكام دافعا، وعلىٰ يدِ من يتطرّق إلىٰ الخُروج عن أحكامه آخذا، ولمن لم يَسْلُك الأدبَ بين يَدَىْ حُكّامه بما يقتضيه تعظيمُ الحكم العزيز مؤاخِذا. ولْيأمُرِ النوّاب بإقامة منَار العدل الذى يومٌ منه خيرٌ للأرض من أن تُمْطَرَ أربعين يوما، ويَصْرِفْ إلىٰ مَصالح الثُّغور الإسلامية وحمايتِها فكرًا لم يختَرْ دَعةً ونظراً يأنَفُ أن يألَف نَوْما، وملاكُ الوصايا تقوىٰ الله وهى من خَصائص نفسه الكريمه، وراحةُ رُوحه التى هى للفكر فى مصالح الإسلام مُديمه، فلْيجتهِدْ فى المحافظة عليها ما آستطاع، ويُمْضِ بها فى مصالح الإسلام أمْرَه الذى جعَلْناه من أمرنا مُطاع.



وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، كُتِب به عن السلطان الملكِ أبى بكرِ آبن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طُقُزْدُمُرْ أمير مجلس، فى سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة، بعد أن بطلَتِ النيابةُ فى دولة أبيه الملِك الناصر عِدّةَ سِنين، وهى :

الحمدُ لله الذى آصطفىٰ لسلطاننا المنصورِ مَنْ ينُوب عنّا فى رعاية الجمهور أحسَنَ مَناب، وأضفىٰ علىٰ مُلْكنا المعمور من رياسته أسرّ سربال ومن حراسته أجَلّ جِلْباب، وكفىٰ دولتَنا الشريفةَ بسياستِه مُهِمّاتِ الأمور فلتأييدها بقيامه دَوَام ولتشييدها باهتمامه آستِصْحاب، وشفَىٰ الصُّدور بصُدُور إشارته المباركة التى لها بأوامرنا العالية آقترانٌ ومن ضمائرنا الصافية آقتِراب، وأوفىٰ له من بِرِّنا العميم بحقه

الذى [له] بعهده استحقاقٌ للتقديم و إيجاب ، وسبْقه القديم الذى له من سَعيد المصاهرة أكرمُ انتساج ومن حميد المُظاهرة ألزمُ انتساب .

نحمدُه على أن بصّر آراءَنا بطُرُق الوِفاق وسُبُل الصواب ، ونشكره علىٰ أن نَضّر راياتنا فى الآفاق : فلقُلوبِ العِدا من خَوْفها إرهاق و إرهاب .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً منزَّهة عن الشّكّ والارتياب، موجَّهةً إلىٰ قِبلتها التى ترضاها الألباب، ونشهد أنّ سيدنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أظفر عَزْمَه بالثّبات وقَهر خصمَه بالتّباب، ووَفّر قِسمه من الإنجاد ويَسّر حِزبه للإنجاب ، وأظهر اسمَه بعد اسمه فخلا فى الأفواه ذِكْرُه وطاب . صلى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين سلَكُوا من بعده فى رِعاية عهده أحسَنَ الآداب ، صلاةً متصلةَ الأسباب، موصّلةً إلىٰ خيرِ مآبٍ متكفّلةً بِنعَم باب (؟) لا يزال لسُحُب جُودها فى الوُجُود انصبابٌ ، ولمقْترِب وُفُودها وُرُود إلىٰ مَظانّ الرّضوان من غير إغباب ، ما جَرّد انتقامُنا علىٰ الأعداء سيفَ سطًا يقُدّ الرّقاب، وأوردَ إنعامُنا الأولياءَ بحرَ نَدًى زاخرَ العُبَاب . وجدّد قيامُنا بعلم هُدًى مرّتْ عليه الأعوامُ وما لُمِح له أثَرٌ ولا فُتِح له باب، واعتمَد مَقامُنا الشريفُ، فى الجمع للقلوب والتأليف، علىٰ أعلىٰ ولىٍّ وأعلىٰ جَنَاب ، وسلّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ، فإنّ أولىٰ من اعتمَدْنا فى الإنجاب والإنجاح علىٰ دِيانته ، واتّحدنا فيما أردْنا من الاستصحاب للصّلاح بإعانته ، واعتضَدْنا فى تقطين الممالك وتأمين المسالك بصيالته وصيانته، ورعينا عنـدَ والدنا الشهيد ـ سقَى اللهُ عَهْده صوبَ الرّضوان ـ علىٰ عُلُوّ مكانه ودُنُوّ مَكانته ، فاكتفيْنا فى كَفالة الأمّة و إيالة النّعمة بخشيته من ربّه واستكانته ـ من حُمِدت سجَاياه، وتعدّدتْ مَزاياه ، واستَنَدت

إلىٰ ما أمر اللهُ تعالىٰ به من العَــدْل والإحسان فى الأحكام قَضَاياه ، ووجَدَتْ منه الزُّهدَ والرِّفق رُعاةُ الإسلام ورَعاياه ؛ فهو الممدوحُ فعلُه، من جميع الألسنه ، الممنوحُ فضلُه، فى سائر الأزمنه ، الملموحُ عليــه آثارُ القَبُول الظاهرِ من عناية الله لمــا نَوَاه من الخير لخلق الله وأبطَنَه ؛ فهو عاضِدُ السلطنة الذى حَلَّ من العَلْياء مَوْطِنَه ،وكافلُ المملكه ،الذى سبَقَ إلىٰ كلِّ مجد فأدركه ؛ وسـيفُ الدوله ، الحامِى الحَوْزة البــادِى الصَّوْله ؛ ومَنْ له ٱشتمالٌ علىٰ العَلْيا ، ومن يقارِنُ التحقيقُ له رأيَا، ولا يباين التوفيقُ له سَــعْيا ، ويُعاوِن الهــدىٰ والنهىٰ علىٰ طُول المَدىٰ له أمرا ونَهْيا ، ويُعاين الورىٰ لسلطاننا المنصور منه مَهْدِيًّا يُجْمِل لدولتنا حِفْظا ويُحْسِن لُمْلْكنا رَعْيا .

وكان فلان هو الذى لم يزَلْ متعيِّن المَحاسن، متبيِّن المَيَامن، متمكِّن الرِّياسة فى كل الأَما كن؛ فحِلْمُه إذا اضطَربت الجبالُ الرَّواسى ثابتٌ ساكن، وعِلْمه الزائدُ بأوضاع السِّياســة وأنواع النَّفَاسة للوُجود من بَهْجتِه زائنٌ، ورأيُه الصائبُ للبلاد والعِبــاد صائِن، ورَعْيُه لخلق بالحق : القوىُّ منه خائفٌ والضعيفُ إليه راكن، وبِشْره هادٍ للرائى وبادٍ للعاين ، وذكْره الجميــلُ سائرٌ فى الآفاق والأقطار والمَدَائن؛ حتّى أظهر الله تعالىٰ بإمداد نَيِّرنا الأعظمِ من إشراق بَدْره انكامل ما هو فى سِرِّ الغيب كامِن ، وشَهر سيفَه الذى يغدو الإيمــانُ من مَهابته فى كَنَف منيعٍ وحَرَم آمِن .

ولمــا مضَتْ علىٰ مَنْصب النيابة الشريفــةِ فى أيَّام والدنا الشهيد بِضْعُ سِــنين ، وٱنقضَت الأيامُ والليالِى والدهرُ بمَوْهِبَتها ضَنِين ؛ ولا وُطِيتْ لها رَبْوه، ولا ٱمتُطِيت لهــا صَهْوه؛ وكانَتْ فى سِلْك مُلْكه مندَرِجه، وبصَفْو سلطَتِه ممتَزِجه؛ إلىٰ أنْ قضىٰ عليه الرِّضْوانُ النَّحْب ، وأفضىٰ من الجَنَان إلىٰ المَحَلِّ الرَّحْب ، رأينا بعــدَه بمَنْ كان يتحقَّق وُدَّه أنْ نَســتأنِس ، وأمضينا وصيَّتَه المبــاركة فى ٱختيار ثمرةِ الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يغرس ، وأفضينا إليه بالمناب عنا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستئثار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحكم لأنه كان أمير ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا ينبهم عليه شىء من خفايا القضايا ولا يلتبس ـ اقتضى حسن الرأى الشريف إلقاء ما فى أيدينا من مقاليد الممالك إلى يده ، وإبقاء وديعة هذا الأمر العظيم إلى صونه وعونه وتشدده ، وإيفاء جنابه إلى حميد هذه الغاية التى هى للمناسبة مناسبة لسؤدده .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازال يجمع شمل الإسلام بتعينه وتفرده ، ويرجع أمر الأنام منه إلى مأمون الرأى رشيده سفاح السيف مهنده ، منصور العزم مؤيده ، ويوسع الخليقة إذا وليهم بالرأفة والرحمة ومن أولى من أبى بكر بأن يخص أصحاب مهد عند الخلافة بإعذاب منهل الجود ومورده ـ أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ـ أعلاها الله تعالى ـ نيابة شاملة محيطه ، كاملة بسيطه ؛ تعنى كل أمير ومأمور ، وتدنى أمرها الذى يعامل بالإجلال ويقابل بالسرور ؛ برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ، غورا ونجدا ، بعدا وقربا ، شرقا وغربا ؛ وما منحه الله تعالى لوالدنا الناصر من الممالك ويذخر لسلطاننا المنصور ويحيى : تستوعب أمر ما نأى من هذه الأقاليم ودنا ، وتجب طاعته فيها على كل من كان مؤمنا ؛ ويمتثل فى ذلك كله أمره ، وتعمل فيه الروية فيجمل فكره ؛ ويؤمل فيه فتحه ونصره ، وينقل به مدحه وشكره ، ولا ينفصل منحه وبره ؛ ناظرا فى هذه النيابة الشريفة بفكره التام ، سائرا فيها السير الجميل من الدربة والإلهام ؛ ناشرا ظلال المعدلة على من سار أو أقام ، مظاهرا بجنابه منا أجل مقام . ونحن وإن كنا نحقق من خلاله الحسنى ، كل وصف يسنى ؛ ونثق منه بذى الصدر السليم الذى هو على

المقاصد يُعان و بالمحـامد يُغنىٰ ، فلسنا نُخِلّ بالوصية التى نَعْـلم أنّ له عنها آستغنا ؛ ولكننا لا نترك بها التبرّكَ ولا نَدَع ماسنّ الله تعالىٰ منها وشرع ، ولا نُغْفِل ، مايجب به أن يحتَفَل ، فقـد وصّى رسول الله صـلى الله عليه وسلم أصحـابه ، وأمضى أمره المسموعَ كلَّ ذى رجُوع إلىٰ الله تعالىٰ منهم و إنابَهْ ؛ فقد أولاه الله تعالىٰ كلّ جميل قبـل أن ولّاه ، وحلّاه بالسِّمات والمكْرُمات قبل أن رفَـع عُلاه ، واعطاه ما أرهَب العِدا من سَطَاه ، وهداه إلىٰ كلّ رُشْد تأتمّ به الهُداه .

فأهمّ ذٰلك تقوىٰ الله تعـالىٰ وهو عليهـا مجبُول ، وأمرُها عنـده متلقّى بالقبُول . والعـدْل فهو منـه مأمُول ، والآتصافُ بالإنصاف فهو دأبُه فيما يفْـعَل و يقُول ؛ والجهادُ : فعزائمه فى مَيْدانه تجُول ، وصوارِمُه بها من قِرَاع فُرْسانه فُلُول . والزُّعماءُ والأكابر فلهم من محافظته اعتناءٌ و بملاحظته شُمُول . والعساكرُ الإسلاميّة فبتأييده تَبْطِش أيديهـم بالعِدا وتصُول . وزعمـاءُ البلاد فلهم إلىٰ ظلّ رحمته إيواءٌ وبكَنَف نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلام فما منها إلاممورٌ بمـا أوتَه كفالتُه ماهول ، وثُغُوره فكلُّها بَسّـام بفتكاته التى ألقىٰ رُعْبَها فى البحر فهو بين كلّ فاجر و بينَ البحر يحُول ، وماهو بذٰلك من حميد المسالك موصُول ، ومحلُّه المقدّم لأنه أهمّ الأصول : من إكرام الحُكّام ، و إبرامِ الأحكام ، وآستيفاءِ الحُدُود ، وآقتفاء السُّنَن المعهُود : من إنجـاز الوُعُود ، و إحراز السُّعود ، والإجهاز علىٰ كلّ كَفُور وجَحُود ، والآحترازِ من فَظاظة الناس بإفاضة الجُود ، فكلُّ ذلك علىٰ خاطره مسْرُود ، ولما آثره مورُود ، وفى ذخائره موجُود ، ومن خِبْرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطرته مَشْهود ، فليَسَعْ أمرُنا هذا جميعَ الأمراء والجنُود ، وليرجعْ إليه كلُّ من هو من جملة المِلّة معدود ؛ وليقابِل مرسُومَنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ، ساعةَ الوقوف عليه وحالةَ الوُرُود ، وآلله تعالىٰ يُصْلح ببقائه الوُجُود ، ويَمْنَح باهتمامه المقصُود ، ويفتح المعاقلَ

باعتزامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مصدود . بل يصبح الكفر من خوفه محصورا ويمسى وهو بسيفه محصود ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه وصية لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يوصى بتقوى الله تعالى وتنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاضدة حكامها ، واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ؛ وتفقد العساكر المنصورة وعرضها ، وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها ؛ والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف؛ والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سكانها ، ومعاضدة مباشرى الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ؛ وتحصين مالديه ، وتحسين كل ما أمره إليه ؛ واستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ، ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولدا يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بخلفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويوفيه .

الوظيفة الثانيـــة

(الوزارة لصاحب سيف)

واعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة فى الإسلام "أبو حفص الخلال" وزير أبى العباس السفاح أول خلفائهم[1] كما ذكره القضاعى فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرة بين أرباب السيوف

(١) أى خلفاء العباسيين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها فى أرباب الأقلام أكثر. وعلىٰ ذٰلك جرىٰ عُرْف الديار المصرية من ٱبتداء الأمر و إلى الآنَ.

ومما يُنَبَّه عليه أنَّ الوزير إذا كان صاحبَ سَيْف ، كان فى مجلس السلطان قائماً فى جملة الأمراء القائمين ، و إذا كان صاحبَ قلم ، كان جالسًا كما يجلس أرباب الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سَيْف الدين بُكْتُمر . وهى :

الحمد لله الذى شدّ أَزْرَ دولتنا القاهرة. من أوليائنا بأمضىٰ سيف ، وعضّد أيامنا الزاهرةَ ، من أصفيائنا بأعدل وَلِىّ لا يوجَدُ فى حكمه حَيْف ، وعَدَق تدبيرَ أمورِ ممالكنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذوى الأطماع الطامحة عمّا لا يُحَب فلا يُلِم بهم فيها خاطر [ولا] يطرُقُهم بها طَيْف ، جاعلِ التأييد لآرائنا مصاحبا ، والتوفيق موافقا لأوامرنا التى لا تُهمِل من مصالح الإسلام مندوبا ولا تدَعُ من مهمّات المُلْك واجبا ، والإقبالِ تاليًا لمراسيمنا فى ٱرتياد من يغْدو قلبُ المُحِقّ من حَيفه ساكنًا وقلب المبطل من خَوْفه واجبا ، واليُمْنِ تابعا لاستخارتنا فى ٱنتخاب من لم يَزَل فى خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جالبا ، ولمنافع الإسلامِ والمُلْك طالبا ، ولمضارّهما حاجبا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عضّدت أيامَنا بمن جمعَتْ أدواتُه ، رتبتِي السيف والقلَم ، وعَدقَت تدبير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيّتَي العِلْم والعَلَم ، وشدّ أَزْرَ دولتنا بمن يُبَيِّضُ بمَعْدِلَته من صحائف أيّامنا ما هو أحبُّ إليها من حُمْر النَّعَم .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نُعِدّها للقائه ، ونتيمّن بها فى ٱفتقاد من نعتضِدُ به فى مصالح أهلها وٱنتقائه ، ونقدّمُها أمامَ كل أمر نَدَّخره لاعتلاء ولِيِّنا بالتقىٰ وٱرتقائه ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله إلىٰ الأُمَم

طُرًا، وخصّه بالأئمة التى جعل أمارة سبقها إلى الخيرات أنْ غدتْ محجّلة غُرًا ، وأيّده بنصره و بالمؤمنين الذين ما منهم إلا مَنْ أعرض عن زُخْرُف الدنيا و إن كان حُلْوا وقال الحقّ و إن كان مُرًا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين وَلَوْا أمته فعدَلُوا، والذين تمسّكوا بسَنَن سُنّته فما حادُوا عنها ولا عدَلُوا؛ صلاةً لا تزالُ الألسُن لإقامتها مُديمه، والقلوبُ لإدامتها مُقيمه؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإن أولىٰ من أبرزت الضمائرُ، فى الاعتضاد به مكنُونَ طَويّتها، واعتمدت الخواطر، فى تصريح عَلَانيتها بأولويّته لمصالح الإسلام علىٰ نيّتها، وتشوّفت البلاغةُ لرَقْم مَفَاخره، وتنافست المعانى فى تخليد مآثره، وهنّأت المَعْدَلة نفسَها، برافع لوائها، وأبدت الدولةُ أُنسَها، بناشر برّها فى الأقطار وآلائها، وافترّت ثغورُ الاقاليم المحروسة بمن تَلْهَج بمصالحها ألسنةُ أقلامه ، واخضرّت رُبىٰ آمال الأولياء بما يُسْفِر عنه من تهلّل بهاء غُرَر أيامه؛ مَنْ هزَزْنا منه لمصالح الإسلام سيفا يصلُ ما أمر اللهُ به أن يُوصَل، ويَفْصِل من مهمّات الممالك مايقتضى الحقُّ أن يُفْصَل؛ ويُبْرِز من معادن العَدْل والإحسان ماهو فى سرّ خلائقه كامن، ويُنْزِل من استقامت سيرتُه فى الحِمىٰ المُخْصِب والحَرَم الآمن؛ ويصُون الأموالَ بمَهَابته فلا تمتدّ إليها هَوَاجسُ الأطماع ، ولا تجاسَرُ أبصارُ غير الأمناء أن تقُصّ نبأَ رُؤْيتها علىٰ الأسماع ؛ ويُضاعِفُها بخبرته التى تَهْديها الأمانةُ إلىٰ مَعادنها ، وتدُلّها النزاهةُ علىٰ مواطنها، وتُبْدِى لها ظواهرُ الأعمال أسرارَ بواطنها، ويُعمّر بيوتَ الأموال بعمارة البلاد، ويثمّر فروعَ الطّارِف من مصالحها بحفْظ أصولِ التّلاد؛ ويكُفّ أكُفّ الظلم عن الرعايا فلا يخْشىٰ مُحِقٌّ علىٰ حقه ، ولا يخاف مستقيمٌ علىٰ ما قُسِم له من رزْقه ؛ ولا يطمع قوىٌّ إلىٰ من يستضْعف جانبَه، ولا يطْمَعُ باغ ذو الحيف علىٰ أحدٍ مخالِطَه فى نَسَب كان أو مُجانبه .

ولما كان الجَناب العالى (الفلانى) هو الذى أشِيرَ إلىٰ مَناقِبه، وآعتُضِد منه بمطيع لله فى السرّ والعَلَن ومراقِبِه ؛ وفُوّض تدبيرُ الممالك منه إلىٰ مَنْ لا تأخُذه فى الحق لومةُ لائم، وآعتمدَتْ أيامُنا الزاهرةُ منه علىٰ مَنْ طالَمَا سَرىٰ فى مصالحها علىٰ جِيَاد العزائم ؛ وشدّ أزْرَ الملك من موازرته بمن يكْسُو دَسْتَ الوزارة أُبَّهةً وجلالا، ويُلبِسُ منصبَها سنًا لو ملكَتْه الشمسُ مارامتْ عن بُروج شَرَفها آنتقالا ؛ ويَمُدّ علىٰ الرعايا لواءَ عدل لا يُقلِّص له هجيرُ الظلم كما تتقلّص الظلالُ ظِلالا ؛ وتطلُع به شمُوسُ الأرزاق علىٰ أولياءِ دولتِنا لكن لا تَرْهَب كالشُّموس غرُوبا ولا زوالا ؛ مع مَهابة تُخِيف الأُسْد فى أَجَماتها، ومعدَلة تُعين الغيوث علىٰ رَفْع مُحُول البلاد ودَفْع أَزَماتها ؛ وديانةٍ زانها التُّقىٰ، وخبرةٍ صانها الورَعُ وهما أفضل مابه يُرْتقىٰ .

وكانت الوزارةُ الشريفةُ نظامَ المملكة وقِوامَها، وذِرْوةَ الدولة وسَنامَها ؛ وتاجَ المراتِب وإكْليلَها، وعَتادَ الخزائن الجامعَ دَقيقَ المصالح الإسلامية وجليلَها ـ آقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن تُزيِّن هذه الرتبةُ بجوهرِ فِرِنده، وأن يصْدُر منصبُها عن مناقِبَ لا تصدر إلا عن جهته ومفاخِرَ لاتَرِد إلا من عنده ؛ وأن يطلِقَ فى مصالحها قَلَمه، ويمضيَ فى قواعِدها إشاراتِه وكَلِمه ؛ ويُطلِعَ فى أُفُقها شمسَ تدبيره، ويُعْدَقَ به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره ؛ وأن نجعل مسامعَ الأقاليم علىٰ سَعَتها إلىٰ أوامره ونواهيه مُصْغِيه، وأن نَصُدّ بسُمْعته عمن بَعُد عوارضَ الإمهال الملهيةِ ومواقعَ الإهمال المُطْغِيه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازالت سحائبُ بِرِّه مستَهِلَّه، وركائبُ المحامد إلىٰ حرم نِعَمه مُهِلَّه ـ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية علىٰ أكمل القواعد، وأجمل العوائد ؛ تفويضًا يُعْلى مَرامه، ويُمْضى مضاءَ ألسنة الأسنةِ أقلامَه،

ويبسُط فى مصالح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلقِ إليه من مهمّات كلّ قُطْر أزِمّته ليصَرِّف علىٰ مايَرَاه من المصالح عِنانَه .

فليستقرّ فى هذه الرُّتبة السنية آستقرارَ الدُّرَر فى أسلاكها، والدَّرارِىّ فى أفلاكها؛ نافذَ الأمر فى مصالح شَرْقِها وغرْبِها، مُطاعَ القول فى بُعْد أماكنها منه وقُرْبِها؛ ناشرًا كلمةَ العدل فى أرجائها ، محققا بالإحسان آمالَ أُمَمٍ قَصَرت علىٰ كَرَمنا ممدودَ رَجائها؛ مُعْليا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكّامه، والوقوف عند أوامره المُطاعة وأحكامه؛ حافظًا أقدارَ الرُّتَب بأكْفائها ، معتمِدًا علىٰ ذَوِى البُيوت المحافِظين على آتِّباع سِيَرِ أسلافهم وآقتِفائها ؛ معوِّلا علىٰ ذَوِى الخِبْرة التامة مع الدِّيانه ، مُراعِيًا مع ظُهور المعرفة جانبَ العِفَّة والنَّزاهة والصِّيانه؛ مُوكِّلا بمصالح بُيوت الأموال والخزائنِ المعمورةِ مَوادَّ الأموال ومَعِينِها، صارفًا إلىٰ عِمارة البلاد جميلَ تدبيرٍ تعتضد البحارُ والسُّحُب منه بمُساعِدها علىٰ رىّ الأرض ومُعِينِها؛ ميَسِّرا موادَّ أرزاق خَدَم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بِشْره وحُسْن رُوائه، مسَهِّلا مطالِبَ أرباب الرواتبِ والصَّدَقات بطَلَاقة وَجْهٍ لو تأمله آمْرُؤ صادِى الجوانِح لآرتَوىٰ من مائه؛ : ليتوفَّر أهلُ الوظائفِ علىٰ خِدَمهم بقلوب منْبَسِطةِ الآمال ، ويُناضِلَ عنها الفقراءُ بسِهام الليل[1] التى لا تَطِيش إذا طاشَتِ النِّبال؛ فقد جعلنا أمْرَه فى ذٰلك جميعه من أمرنا فلْيَكْتُبْ يمتَثَلْ ، وليقُل فى مصالحنا بما يراه يَسِر كلامُه سُرَى الرياح ويَسِرْ قولُه سَيْرَ المَثَل؛ ولا يُمْضَ عقدٌ ولا حَلّ، ولا ولايةٌ ولا عزْل؛ ولا رَفْع ولا خَفْض؛ ولا إبرام ولا نَقْض؛ إلا عن رأيه وإشارتِه، وبنَصّ خَطِّه وعبارتِه .

وفى سِيرته السَّرِيَّه، وديانته التى هى من أسباب الهوىٰ عَرِيَّه، مايُغْنِى عن وصايا تُمْلىٰ علىٰ فكره، وقواعد تُجْلىٰ علىٰ ذِكْره ؛ وملاكُها تقوىٰ الله : وهى من أخصّ

(١) المراد دعوات السَّحَر كما لايخفىٰ .

اوصافه ، ونشرُ العدل والإحسان وهُما من نتائج إنصاتِه لأمور الرعايا و إنصافِه ؛ لكن علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وترفَع درجاتِ المتقين ؛ فليجعلْها نجيَّ خاطِره ، وقِبْلة ناظِره ؛ والله تعالىٰ يُعْلِى قدره وقد فَعَل ، ويجعله من عباده المتقين وقد جَعَل ؛ بمَنّه وكرمِه . والاعتماد [علىٰ الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثـالثة

(الإشارةُ ، وهى وظيفة قد حدَثت كتابتُها ولم يُعْهَد بها كتابةٌ فى الزمن القديم)

وهـذه نسخةُ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمالِ الدين يوسف البشاسى إستادار فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوِّضت إليه الإشارة مضافةً إلىٰ الإستَدَاريّة ، وكَتَب له به المقرُّ الشمسىّ العُمَرىّ كاتبُ الدَّسْتِ الشريف ، فى شعبان سنة تسع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جدّد للديار المِصريّة بالمحاسن اليُوسُفيّة رَوْنَق جَمَالها ، وأعزَّ جانبَها بأجلِّ عزيزٍ ملأتْ هيبَتُه الوافرةُ فَسِيحَ مجَالِها ، وأسعدَ جَدّها بأسعدِ مُشيرٍ أدارتْ آراؤه الصائبـةُ مُتقاعِسَ الأمور مابين يمينِها وشِمالِها ، وأكرَمَ مآبَها بأمثل كافٍ عاد حسنُ تدبيره بضُروبٍ من المصالح أنامَ الخلقَ فى ظِلالها ، وأجاب سُؤْلَها بأكمَلَ لم تَعْدل عن خِطْبتها له و إن أطال فى مِطَالها .

نحمَـدُه علىٰ أنْ أغاثَ الدولةَ القاهرةَ بمن أَخصَب به بعد الإمحال رَبْعُها ، وطال بطَوْله بعد القُصور فَرْعُها ، وحَسُن فى المَنَاظر بحُسن تأتّيه لذى التأمُّل يَنْعُها .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له الذى شَرَع المَشُورة وحثَّ عليها ، وعلّق أمورَ السيف والقَلَم بها فردّهما عندَ اختلافِ الرأى إليها ؛ شهادةً ترفع قائلَها إلىٰ أسنىٰ المراتب وتُعْليه ، وتقرِّب المخلصَ فى انتحالها من مَقَام الاستخلاص وتُدْنيه .

ونشهـد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى وَرَد واردُ الأمة من مَنْهَـل شِرْعته المطهَّرة ماعَذُب مَشْرَعُه وِرْدا وِصَـدَرا ، وٱلتقطتِ السَّيَّارَةُ أحاديثَ فضـله فَصَيَّرتْها للرِّفاق سَمَرا، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تقيَّلوا مَساحِبَ أذياله فى العدل فعدَلُوا، ولَزِموا مَنْهج سُنَنه الواضحَ فما حادُوا عن سَواءِ السبيل ولاعدَلُوا، صلاةً تفوق العَدّ حَصْرا، وترفَع بركاتُهـا عن الأمة حَصْرا وتبدِل العُسْر يُسْرا ، فتُعيـد عِجَاف الزمان سِمَـانا وسُنْبلاتِ الوقت بعد اليُبْس خُضْرا، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ، فإنَّ للملكة قواعدَ تُبنىٰ عليها ، وأركانا تستَنِد إليها ، ودعائمَ يُشَـدّ بالآعتضاد بها بُنيانُها ، وعَمَدا يعتمِد عليها فى المهمَّات سلطانُها، وهـذه المَبَانى وإن ٱتَّسع نطاقُها ، وٱمتدّ بامتدادِ المملكة رُواقُها، فإنَّ بالسيف والقلم قِوامَها، وبالتعلُّق بحبالهـا بقاءَها ودوامَها ، إذ كانا قُطبين عليهما مَدَار فَلَكها ، ونقطتين عنهـما ينشأ الخطُّ المستقيمُ فى تدبير مُلكها، وزعيمين يُترافَعُ إليهما عند التخاصُم، وحَكَمَين يُرْجَع إلىٰ حُكْمهما عند التَّحاكُم ، إلا أنهما لايستقلّان بأنفُسهما عند التحالُف ، ولا يقوم أحدُهما برأسه لدىٰ التَّخالُف، بل لهما إمامٌ يَرْجِعان إليه، ويعوّلانِ عند ٱضطراب الأمورِ عليه ، وهو الرأى الذى لا يُقْطَع أمرٌ دون حكمه ، ولا يهتَدِى سارٍ فى مَهامِه المهـمَّات إلا بنَجْمه ، إذ كان علىٰ الشجاعة مُقَدَّما ، ودليـلُه من المعقُول والمنقُول مسلَّما، والمُتَّسم به لايزال عند المُلوك مبجَّلا معظَّما، لايتقدّمون عليه ولدا ولا والدا، ولا يُؤْثرون علىٰ مُعاضَدته عضُدا ولا ساعدا، إن أشار برأى تمسك الملكُ منه بالحبل المَتِين، أو مَحَضَه كلامَ نصح قال : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى ، الاميرى ، الكبيرى (إلىٰ آخر ألقابه) يُوسُف الناصرى : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه، هو الذى حنَّكته التَّجارِب و«حَلَب الدَّهْرَ

أشْطُرَه» ، وعَرف بتقليب الأمور علىٰ ممرّ الزمان مَخْبَره ؛ مع ما اشتمل عليه من الرأى الصائب ، والفِكر الذى اذا أبدتْ قريحتُه فى الارتياء عَجبًا أتتْ فطرتُه السليمةُ بالعجائب .

هذا وقد عَلَا فى الدولة القاهرة مَقامُه ، ورشَقَتْ أغراضَ مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سِهامُه ؛ وساس العساكرَ فأحسن فى سياستها التدبير ، وبذَل فى نَفَقاتها الأموالَ فمال فيها إلىٰ الإسراف دُون التقتير ؛ واستجاب الخواطرَ فأخذ منها بمجامع القُلوب ، واقتاد النفُوسَ الأبيّة قهرا فأطاعه مَنْ بينَ الشّمال والجَنُوب ؛ وقام من المهِمّات الشريفة بما لم يَسبِقْه إليه سابق ، وأتىٰ من خَوارِق العادات فى التنفيذ بما لم يَلْحَقْه فيه لاحِق ، وبادر إلى ترتيب المصالح فرتّبها ولم يَعُقْه فى انتهاز الفُرْصة عن دَفْع المفاسد عائق ؛ وأخذ فى حَطّ الأسعار فورد مَنْهلا من المعروف صافيا ، وأمر بإبطال المُعامَلين فكان له عمَلا علىٰ تَوالِى الأزمان باقيا ؛ ولازمَ بعدَ رضا الله تعالىٰ رِضَا مَلِكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم ، وتأسّىٰ فى تعريفه بنَفْسِه بيوسف عليه‌السلام فقال : ﴿ٱجْعَلْنِي علىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّى حَفِيظٌ عليم﴾ ـ اقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف تنويهًا بذكره ، وتقديمَه علىٰ غيره ممن رام هذه الرتبةَ فحُجِب دُونَها ﴿واللهُ غالبٌ علىٰ أمره﴾ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينى ـ لا زال يجمع لأوليائه شَمْلَ المَعالى ، ويُرَقّى أصفياءَه فى درجات العز علىٰ ممرّ الأيّام والليالى ـ أن تُفوّض إلىٰ المشار إليه الإشارةُ الشريفة التى هى أسنىٰ المقامات وأعلاها ، وأقصىٰ المرامات لدَيْنا وأغْياها ؛ مع ما انضمّ إلىٰ ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلّ قدرُها ، وعلا فى المناصب ذكرُها ؛ والخاصّ الذى اختص بمهمّاتنا

الشريفة، والديوان المفرد الذى غَمَر من ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغيرَ ذى الوظيفه، وتعلقات المملكة شرْقًا وغربا، ولوازمِها المفترقة بُعْدا وقُرْبا .

فليتلقَّ مافُوِّض إليه بيمينه التى طالمـا رَبِحت فى الطاعة صَفْقتُها، ويقابِلْه بالقَبول الذى محلُّه من القلوب مُهجَتُها، مقدِّمًا تقوىٰ الله تعالىٰ فيما خَفِيَ من مقاصده وظَهَر، مُؤْثِرا رضاه فى كل ما يأتِى ويَذَر، معتمِدا فى المصالح ٱعتمادَ ذى اليَقَظة الساهر، آتيا من غرائب الرَّغائب بمـا يحقِّق قول القائل : «كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِر» .

والوصايا كثيرة ومن بَحْره تُستخرَج دُرَرها، ومن سوابق آرائه تُستوْضَح أوضاحُها وغُرَرُها، والله تعالىٰ يُديم عليـه نِعَمَ إقبالنـا الباطنةَ والظاهره، ويتولّاه من العناية بمـا يحقّق له دائم قوله : ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِى الدُّنْيـا والآخِرَه﴾ . والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانيــــة

(ممن يكتب له من أرباب السيوف ذواتُ التواقيع، وفيها وظائفُ)

الوظيفــــة الأولىٰ

(نظر البيمارستان لصاحب سيف)

(١)

الحمد لله رافِع قَدْرِ من كان فى خِدمتِنا الشريفةِ كريمَ الخِلال، ومُعْلِي درجةِ من أضفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليةِ مَديدَ الظِّلال، ومجـدِّدِ نِعَمِ من لم يخُصَّـه اعتناؤُنا بغـاية إلا رقَّتْه هممُه فيها إلىٰ أسنىٰ رُتَب الكمال، ومفوِّض النظرِ فى قُرَب

---

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفة إلىٰ مَنْ لم يلاحظ من خواصّنا أمرا إلا سَرَّنا ما نُشاهد فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمده علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرِى إلىٰ الأولياء عَوارِفُها ، ومناهِله التى لا تبرَح تشتمل علىٰ الأصفياء عواطِفُها ، وآلائه التى تُسدِّد آراءنا فى تفويض القُرَب إلىٰ مَنْ إذا باشَرها سُرّ بسيرته السرِيّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفَع الإخلاصُ لِواءَها ، وأفاض الإيمانُ علىٰ وُجوه حَمَلتها إشراقَها وضياءَها ، ووالىٰ الإيقانُ إعادةَ أدائها بمواقف الحق وإبداءَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظمىٰ ، المَقْصُوص فى السُّنّة ذِكْرُ حوضه الذى من شَرِب منه شَرْبةً فإنَّه بعْدَها لا يَظْمَا ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنزَّلة وبشَّرت به الهواتِفُ نَثْرا ونَظْما ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته ، بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاص فى محبته ، سعادةَ الدنيا والآخره ، وأقبلُوا علىٰ حظُوظهم من رضا الله ورِضاه فلم يُلْوُوا علىٰ خِدَع الدنيا الساحِره ؛ صلاةً دائمةَ الاتِّصال ، آمنةً شمسُ دولتِها من الغُروب والزَّوال ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ الأمور بالنظر فى مَصالحها ، وأحقَّها بتوفيرالفكْرعلى آعتبادِ مَناهجها وآعتِماد مناجِحِها ، أمرُ جِهَات البِرّ التى تقرَّب بها السلطانُ الشهيد الملكُ المنصور (قدّس الله رُوحَه) إلىٰ من أفاض نِعمَه عليه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليه ، ورَغِبَ بها فيما عندَ الله : لعلمه أنَّ ذٰلك من أنْفَس الذخائر التى أعدّها بيْنَ يدَيْه ؛ وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقَله الله بها عن سريرِه إلىٰ مَقْعَد صدْق عند ربِّه ،

وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يوم سِلْمِه بعد أن عَفَّى بها مَعاقِلَ الكفر فى يومِ حَرْبه ؛ وأقام بها مَنارَ العلوم فَعَلا مَنالُها ، وأعدّ للضُّعفاء بها من مواد البِرّ والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُل إليه أموالُها ، وأن نرتادَ لها مَنْ اذا فوّضْنا إليه أمرا تحقّقْنا صَلاحَه ، وتيقّنّا نَجاحه ، وآعتقدْنا تَنمِيَة أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفاعه وآنتفاعِه علىٰ أقواله وأفعاله ، وعلِمنا من ذٰلك ما لا نحتاجُ فيــه إلىٰ آختبار ولا آعتِبار ، ولا يُحتاج فى بيــان الخِيرَة فيه إلىٰ دليــلٍ إلا إذا آحتاجَ إليــه النَّهار ، لنكونَ فى ذٰلك بمَثابة من ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابها ، أو جدّد لهــا وقْفًا : لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد أكفاء النَّظَر لهــا من أبوابها .

ولمــا كان فلان هو الذى نبّهتْ أوصافُه علىٰ أنه ماوَلِىَ أمرا إلا وكان فوقَ ذٰلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضِيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُبَ به صَــدْرا ، ولا طلع فى أُفُق رُتْبة هلالا إلا وتأمّلَتْه العيون لأجَلّ رُتَب الكمال بَدْرا ، يدرك مانأىٰ من مصالح ما يليه بأدنىٰ نظَر ، ويسبِقُ فى سَــدَاد ما يباشره علىٰ ما يجبُ سَــدادَ الآراء ومواقِعَ الفِكَر . ونحن نزدادُ غِبطةً بتدبيره ، ونتحقّق أنّ كل ما عدَقْنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسندناه إلىٰ عارفِه وفوّضناه إلىٰ خبيره ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نَعْدِق بجميل نظره هذا المُهِمَّ المقدّم لدينا ، وأن نُفوّضَ إليه نظرَ هذه الأوقافِ التى النظرُ فى مصالحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلهُ عميمًا ، وبِرُّه يقدّم فى الرُّتَب من كان من خواصّ الأولياء كريمــا ــ أن يُفوّض إليه كَيتَ وكَيْتَ .

فلْيلِ هــذه الرتبةَ التى أُريد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهمّ ، وقُصِــد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَمــاء والفقَراء والضُّــعفاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصّ المصالح وأعمّ .

ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخُصُوصها نظرًا يَسُدّ خَلَلَها ، ويُزِيح عِلَلَها ؛ ويعَمّر أصولَها ، ويُثَمِّر محصولَها ؛ ويحفَظ فى أماكنها أموالَها ، ويقيم بها معالمَ العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرّائها ، ويستعيدُ صحةَ مَن بها من الضعفاء بإعداد الذّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافظ علىٰ شُروط الواقف فى إقامة وظائفها ، واعتبار مَصَارفها ؛ وتقديم ما قدّمه مع مَلاءة تدبيره باستكمال ذٰلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستَدْعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودها ويجتلِب ؛ وضَبْط تلك الحواصل التى لا خزائنَ لها أوثق ، من أيدى أمنائه وثِقَاتِه ، ولا مُودَع لها أوفق ، من أمانة من يتَّقِي اللهَ حَقَّ تُقَاته ؛ فلذٰلك وَكَلْناه فى الوَصَايا إلىٰ حُسْن معرفته واطّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا واضْطلاعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولونى)

من إنشاء المَقَرّ البَدْرى ابن المَقرّ العَلَائى بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فى الدولة الظاهرية برْقُوق ، كتب به المَقَرّ الشمسى العمرى كاتبُ الدَّسْت الشريف لأبى يزيد الدَّوَادار ، وهى :

الحمدُ لله الذى أقامَ من أوليائنا خيْرَ ناظر ، يقَرّ به كل ناظر ، وأدام بنا بِناءَ المعروف الزاهِرِ وحُسْنِهِ الباهر ، وأنام الأنامَ فى مِهَاد الأمن بانتقاءِ وَلِيٍّ لسانُ الكون حامدٌ له ومادحٌ وشاكِر ، وفتح أبوابَ السعادة باصطفاءِ صَفِيٍّ طاب بسفارته كلُّ خاطر من مُقِيم وخاطر ، ومنحَ أسباب السيادة بأوفىٰ وَفِيٍّ عَمَر بوجُوده

الوجودَ وغَمَر بجُوده كلَّ باد وحاضِر، وأبْصَرَ بالدين المتين والفضل المبين فأقمناه للنظَر علىٰ بُيوت الله تعالىٰ لأوْلويَّته بذٰلك : ﴿ إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾ .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى ظهَرَتْ(١) بالمَزِيد فسَرَّتِ السرائر، وظهَرَتْ بنُور الرُّشْد المَديد فأشرقَ بها الباطنُ والظاهر . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له العزيزُ القادر، شهادةً صدَقتْ فى الإخلاص بها الألْسنةُ والضمائر . ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه مَعْدِنُ الأسرار، وبحرُ الجُود الزاخر، ومنبَعُ الأنوار، صاحبُ الآياتِ الظاهرةِ والمُعْجزات الباهرةِ والمَفَاخر، الذى يَبْعثُه اللهُ مَقَاما محمودًا يحمَدُه الأوائلُ والأواخر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه النُّجومِ الزَّواهر، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جهاده فكان كلٌّ منهم للدِّين الحنيفِ أعظمَ مجتهِد ومؤيِّد وناصِر، وسَلَّم تسليما كثيرًا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من أُلْقِيتْ إليه مقاليدُ الأمور، وصرَّفناه فى جميع مَصَالِح الجُمهور، وفوّضْنا إليه النظرَ فى بُيوتِ الله تعالىٰ ليعْمُرَها بنظره السعيد وتُضاعَفَ له الأُجور، ومكَّنَّا له فى دولتنا الشريفةِ حتّى صار قُطْبَ فَلَكها عليه تدور، وبسَطْنا يدَه ولسانَه فهو يَنْطِق عنَّا ويأمر بالقضاء والقَدَر فى الوُرُود والصُّدُور، وقيَّدنا الأرزاقَ بقَلَمه، والمهمَّاتِ بكَلِمه، فلا فضْلَ إلا من فَيْضه المنشور ــ من آمتاز علىٰ غيره بفضيلتَي السَّيف والقَلَم، وتقدّم فى الطاعة الشريفةِ بأثبَتِ قَدَم، كان بها من السابقين الأوّلينَ من القِدَم، وآتَّصف بالشَّجاعة والشَّهامة والمَعْرفة التامّة والحِلْمِ والعَدْل والحِكَم، فهو التَّرْجُمان عنّا الناطقُ بفَصْل الخطاب فى السِّرِّ للتُّرْك والعَرب والعَجَم، وعُرِف بالرأْى السديد، والنظَر السعيد، والتدبير الحَميد، والقول المُفِيد،

(١) ظهرت بالمزيد قويت به وظهرت بنور الرشد أوضحت وبانت .

والجُود والكَرَم ؛ وطُبِـع علىٰ الخير الجَزِيل ، والدِّين الجَمِيـل ، عُمْره فى الحقّ قائم ، لا تأخُذه فى الحقِّ لومةُ لائمٍ ، طالَمَا أحيا بحُسْن السِّفارة من العَدَم .

هو واحدٌ فى الفَضْل والنظرِ السعيد لأبى سعيد .

فمن الذى يَحْكِيه فى الشَّرَف العَتِيد بطَل الوَغىٰ أبو يزيد .

قـد تفرّد فى العِـفَّة والدِّيانه ، والثِّقة والأمانه ، واتّحف بالصَّفا ، وتردّىٰ بالوفا ، وشفىٰ بالخير والجبر مَنْ كان بالفَقْر علىٰ شَفَا فحصَل له الشِّفا ؛ ووفىٰ بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخفىٰ(١) ، ولحِق فى الجُود والدِّين بسَمِيِّه أبى يَزِيد البِسْطامىّ الولىّ :

قالوا : الولىُّ أبو يَزِيدٍ قدْ مَضىٰ * وهو الفَريدُ بفَضْـلِه والصادِقُ !

قلْتُ : الأميرُ أبو يزيدٍ مِثْـلُهُ * هذاك سابِقُـه وهـذا اللّاحِقُ !

ولمـا كان فلان هو المشار إليـه بهذه الصِّفات الحَسَـنه ، والمناقِب التى تنوّعَتْ فى مدائحها الألسِنَه ، وعُرِف بالجُود فَمَلَك حُبُّه الأفئدةَ فارتفعَتِ الأصواتُ بالدعاء له مُعْلِنه ؛ طالَمَا أنالَ النِّعم ، وأزال النِّقَم ، وجَبَرَ القُلوب ، وكشَف الكُرُوب ، وجَلَا ظَلام الخُطُوب ، ونَشَر المعروف ، وأغاثَ المَلْهُوف ، وأنقَذَ من المَهَالك ، وعَمَر بتـدبيره المَمَالك ، ووصَـل الأرزاق ، وأجرىٰ الأطلاقَ علىٰ الإطلاق ـ اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نعتَمِد فى جميع الأشياءِ عليـه ، ونُلقِيَ مقاليدَ الأمور إليه ، ونَنُوط به المهِمَّاتِ وغيْرَها : ليكون العِلْمُ بالكُلِّيات والجزئيَّات لدَيْه .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لازالَ يتحِف بالمَزِيد من كَرَمه ، ويُسْبِغ جلابِيبَ نِعَمه ، ويجرى بحرُ فضلِه الواسـع ، ويعُمُّ بنظَره المقرّبين من أوليائه كلَّ جامع للخير جامع(٢) ، أن يستقرّ ... ...

(١) جرى على لغة طيء نظراً للسجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "فى نظر الجامع الطولونى" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه المواضع .

فليتلقَّ هذا التفويضَ الجليلَ بقَبُوله ، ويبلِّغ الجامعَ المذكورَ ما يرتقبُه من عِمارته التى هى غايةُ مأمُوله . ومنه تؤخَذ الوصايا لأنه لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتِنا العالِمُ بالحقائق والدَّقائق ، فلا يَحتاج أنْ يُوصىٰ ولا أن نفْتَح معه فى الوصية بابًا ، ومايصْلُح ان يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خِطابا :

ومِثْلُك لا يُدَلُّ علىٰ صَـوابٍ * وأنْت تُعَـلِّمُ النـاسَ الصَّوَابا !

والله تعالىٰ يؤيده فى القول والعَمَل ، ويعُمُّ بوجُوده وَجُوده الوُجود وقد فعَـلَ ؛ ويُبقِيـه مَدىٰ الدهر ، ويستخْدِم لسُعُوده الساعةَ واليومَ والجمعةَ والشَّهْر ؛ ويجعلُ بابه الطاهِرَ مفتوحا للقاصدين علىٰ الدَّوام ، ويُقِيمُه واسطةَ عِقْـد المُلْك فإنه مُبارَكٌ أينما كان ورحمةٌ للأنَام ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه حجـةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثـالثـــــة

(نِقَـابةُ الأشراف)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الدِّيار المِصرية فى المقالة الثانية أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرتِ العادةُ أنَّ الذى يتولّىٰ هـذه الوظيفةَ يكون من رُءُوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنمـا أوردْتُه مع أرباب السُّـيوف لأن المقرَّ الشِّهابىَّ بنَ فضـل الله قد ذكر فى بعض دَسَـاتيره الشاميَّـة أنه يُكْتَب لنَقيب الأشراف « الأميرىّ » ولا يكتَب له « القَضَائىّ » ولو كان صاحبَ قلَم .

وقد رأيتُ له عدّةَ تواقيعَ علىٰ ذٰلك مكتَتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبَي الشام وحلب وغيرهما، معبّرا عنه فيهـا بـ«الأميرى»، وتوقيعُه فى قطع الثُّلُث مفتتحٌ بخُطْبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» .

وهذه نسخةُ [توقيع][(١)] بنِقابة الأشراف، وهى :

الحمدُ للهِ مشَرِّفِ الأنساب، ومُوفِى الأحساب، حقوقَ ملاحظَتِهم بغيرِ حساب، وجاعِلِ أيّامِنا الشريفةِ تحمَدُ الاكتساب .

نحمده بمحامدَ حسنةِ الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا شـكَّ فى مَقَالهـا ولا ٱرْتياب . ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أنْزَلَ عليـه الكتاب، وشرّف به الدَّرارىَّ من شجرته المبـاركةِ الأعْقاب، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تتوارَىٰ شمْسُها بحِجاب .

وبعدُ، فإنَّ خير ما صُرِفت الهِممُ إلىٰ تشيِيد مَبـانيه، وتقْييـد مُهْمَل رَوَاعيـه وملاحظةِ قاصيه ودانيه، المحافظةُ علىٰ كلِّ ما يرْفَع قدرَ الآل ويُعْليه، ويرُدُّ إليهم عِنانَ الاعتناء ويَثْنِيه .

ولمّـا كانتِ العترةُ الطاهرةُ النبويةُ وُرّاثَ الوحى الذين آلَ إليهم مِيرَاثُه، وأهلَ البيت الذين حصَل لهم من السُّؤدَد آياتُه، وقد سأل اللهُ وهو المسئُول لهم القُرْبىٰ، وخصَّهم بمزايَا حقيقٌ بمثلِ متصرّفهم أنه بها يُحْبىٰ وأنها لهم تُجْبىٰ : لمـا فى ذٰلك من بركاتٍ تُرْضِى سيدَ المرسلين وتُعْجِبه، ويُسَطِّر الله [الأجر] لفاعله ويكْتُبه؛ وكان لابدَّ لهم من رئيس يُنَضِّد سِلْكَهم وينَظِّمه، ويعظِّم فخرهم ويفَخِّمه؛ ويحفظ أنسابَهم،

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ويصْقُل بمكارمه أحسابَهم ؛ ويَنمّى بتدبيره رَيْعهم ، ويُتابع تحتَ ظِلّ هذه الشجرة الزكيّة ما زكَى يَنْعَهم ؛ ويحفَظُهم فى ودائع النَّسْل ، ويَصُدّ عن شَرَف أَرُومتِهم من الأدْعِياء المدّعين بكل بَسْل (١) ، ويَحْرُس نِظامهم ، ويُوالى إكرامَهم ؛ ويأخُذهم بمكارم الأخلاق ، ويمُدُّهم بأنواع الإرفاد والإرفَاق ؛ ويتولّى رَدْع جانيهم إذا لم يَسْمَع ، ويتدبَّرُ فيه قولَه : « أنْفُك مِنْكَ وإنْ كانَ أجْدَع » .

ولَمَّا كان فلان هو المشارُ إليه من بنى هـذه السُّلالة ، وله من بينهم مِيزةٌ باطنةٌ وظاهرةٌ وإن كانُوا كُلُّهم شيئًا واحدا فى الإجلال والإعظام ، فقد تميّزتْ من بين الأنامل السَّبَّابةُ علىٰ الخِنصر والبِنْصر والوُسْطىٰ والإبهام ، وكَمْ ثَمَرٍ جَنِيٍّ فُضِّل بعضُه علىٰ بعض فى الأُكُل وهو يُسْقىٰ بمـاءٍ واحد ، وقد امتاز علىٰ بنى هاشِمٍ سيدُ المرسلين عليـه أفضل الصلاة والسلام ــ اقتضىٰ حُسْنُ الرأى المُنِيف ، أنْ رُسِم بالأمر الشريف ــ لا برِح يختارُ وينتقى ، ويجتَبِى من يخشىٰ اللهَ ويتَّقى ــ أن تُفَوَّضَ إليه نِقابةُ الأشراف الطالِبيِّين علىٰ عادةِ من تقدّمَه من النُّقباء السادة .

فلْيجمَعْ لهم من الخـير مايُبْهِج الزهراءَ البَتُول فعـلُه ، ويفعَلْ مع أهله وقَرابته منهـم ماهو أهـلُه ؛ ولْيحفَظْ مواليِدَهم ، ويُحَرِّرْ أسانِيدَهم ؛ ويَضْـبِطْ أرقافَهم ، ويعتَمِدْ إنصافَهم ؛ ويُثَمِّر متَحَصَّلاتِهم ، ويُكَثِّر بالتدبير غَلاّتِهـم ؛ ويأخُذ نَفْسَـه بمُساواتِهم ، فى جميع حالاتِهم ؛ ولْيأخُذْهم بالتجمُّع عن كل مايَشِين ، والعملِ بمـا يَزِين ، حتّى يُضِيفوا إلىٰ السُّؤدَد حُسْنَ الشِّيَم ، وإلىٰ المَفاخرِ فاخرَ القِيَم ؛ وكلُّ مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومِنْه وإليـه ، واللهُ يحفظُه من خَلْفِه ومن بين يدَيْه ، بمنّه وكرمه ! .

(١) البسل الشدة كما فى اللسان . ووقع فى الاصل «نسك» بالنون والكاف وهو تصحيف .

⁂

وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها فى "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلّك عن الوَصايا إلا ما تَتبرّك بذكره ، ويسُرّك إذا اشتملت علىٰ سِرّه ؛ فأهلَك [أهلَك ، راقب] (١) الله ورسوله جدَّك صلى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسئول ، وارفُقْ بهم فهم أولادُ أمّك وأبيك حَيْدَرَةَ والبَتُول ، وكُفّ يدَ من علمتَ أنه [قد] (١) استطال بشَرَفه فمدّ إلىٰ العِناد يدًا ، واعلم أنّ الشريفَ والمشروفَ سواءٌ فى الإسلام إلا من اعتدىٰ ، وأنّ الأعمال محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يدَى الله فقدّمْ فى اليوم ما تَفْرَح به غدًا ؛ وأزِل البِدَع التى يُنْسَب إليها أهلُ الغُلُوّ فى وَلَائهم ، والغُلُوّ فيما يُوجِب الطعنَ علىٰ آبائهم ؛ لأنّه يَعلم أنّ السلفَ الصالح رضى الله عنهم كانوا منزّهين عمّا يدّعيه خَلْفُ السَّوْء من افتراق ذاتِ بينِهم ، ويتعرّضُ منهم أقوام إلىٰ ما يجرّهم إلىٰ مَصارِع حَيْنِهم ؛ فللشِّيعة عثَراتٌ لا تُقال ، من أقوال ثِقال ؛ فسُدّ هذا البابَ سَدّ لَبِيب ، واعمَلْ فى حَسْم موادّهم عَمَلَ أريب ؛ وقُمْ فى نَهْيهم والسيفُ فى يدك قيامَ خَطيب ، وخوّفْهم من قَوارِعك [مَوَاقِع] (١) كلِّ سَهْم مُصيب ، فما دُعِى « بحيَّ علىٰ خير العَمَل » إلىٰ خيرٍ من الكتاب والسنّة والإجماع [فانْظُر فى نادى قومك عليها عقُودَ الاجتماع] (١) . ومَنِ اعتزىٰ إلىٰ اعتزال ، أو مالَ إلىٰ الزَّيْديّة فى زيادة مَقَال ، أو ادّعىٰ فى الائمة الماضين ما لم يدَّعُوه ، أو اقتفىٰ فى طُرُق الإماميّة بعضَ ما ابتدَعُوه ، أو كَذَب فى قول على صادقِهم ، أو تكلّم بما أرادَ علىٰ لسان ناطقهم ؛ أو قال : إنه تلقّ عنهم سِرًّا ضَنُّوا علىٰ الأمّة ببَلاغه ، وذادُوهم عن لَذّة [مَساغه] (١) ، أو رَوىٰ عن يوم السَّقيفة والجَمَل غيرَ ما ورد أخبارا ، [أو تمثّل بقول من يقول : عبد شمسٍ قد أوقدَتْ لبنِي هاشم نارا] (١) أو تمسّك من عقائد الباطن بظاهر ، أو قال

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

إنَّ الذاتَ القائمةَ بالمعنىٰ تختلف فى مَظَاهِر؛ أو تعلّق له بأئمة السَّتْر رجاء، أو ٱنتظر مُقيما برَضْوىٰ عنده عَسَلٌ وماء، أو رَبَط علىٰ السِّرْداب فرَسَه لمن يقُودُ الخيل يَقْدَمُها اللِّواء؛ أو تلَفَّتَ بوجهه يظُنّ عليًّا كرّم الله وجهه فى الغَمَام، أو تَفَلّت من عِقَال العقلِ فى ٱشْتِراط العِصمة فى الإمام . فعرِّفْهم أجمعين أنَّ هذا من فساد أذهانهم، وسُوء عقائد أدْيانِهم؛ فإنَّهم عدَلُوا فى التقرب بأهْلِ هذا البيت الشريف عن مَطْلُوبهم، وإن قال قائل إنهم طَلَبوا فقل له : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

وٱنظُرْ فى أمور أنسابِهم نظَرا لا يَدَع مجَالا للرِّيَب ، ولا يستطيعُ معه أحدٌ أن يدخُل فيهم بغير نَسَب ، ولا يَخْرُج منهم بغير سَبَب ، وسَاوِقِ المتصرِّفين فى أموالهم فى كلِّ حِساب وٱحفَظْ لهم كلَّ حَسَب . وأنتَ أوْلىٰ من أحسَن لمن طَعَن فى أسانيد هذا الحديث الشريف أو تأوّلَ فيه علىٰ غير مُرادِ قائلِه صلى الله عليه وسلم تأديبًا ، وأراهُمْ مما يوَصِّلهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله طريقًا قريبا . ونَكِّل بمن علمتَ أنه قد مالأَ على الحق أومالَ إلىٰ فريق الباطل فَرَقا، وطوىٰ صَدْرَه علىٰ الغِلِّ وغَلَب من أجله علىٰ ما سبَق فى علْم الله تعالىٰ من تقديم مَنْ تَقَدَّم حَنَقا ؛ [وجارَ وقد](1) أوضَحْتَ لهم الطريقةَ المُثلىٰ طُرُقا؛ وٱردَعْهم إن تعرّضوا فى القَدْح إلىٰ نضال نصال، وٱمنَعْهم فإن فِرَقهم كلَّها وإن كَثُرت خابطةٌ فى ظلامِ ضَلال ؛ وقدِّمْ تقوى الله فى كل عَقْد وحَلّ، وٱعملْ بالشريعة الشريفة فإنها النَّسَب الموصُول الحَبْل .

وٱعلم أنَّ المقرَّ الشهابىَّ بنَ فضل الله قد ذكَر فى "التعريف" عِدّةَ وصايَا لجماعة من أرباب السُّيوف ، لم يُكْتَب لأحد منهم فى زماننا، بل رُفِض ٱستعمالُها وأُهْمِل . ونحن نذكُرها حِفْظا لذِكْرها، وٱحتياطًا أن يقتضِيَ الحالُ فى زمنٍ كتابةَ شيء منها .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الدّيار المصرية أنّ أصله أطابك[1] بالطاء المهملة ومعناه الأبُ الأمير ، وأنّ أول من لُقّب بذلك زنكى أطابك صاحب المَوْصل، ثم غَلبت فيه التاءُ المثناةُ بدَلَ الطاء ، وهى :

وأنت آبنُ ذلك الأبِ حقيقه ، وولَدُ ذلك الوالدِ الذى لم تُحْمَل له إلا من دماء الأعداء عَقيقه ؛ وقد عُرِفَتَ مثله بثبَات الجَنَان ، وصُلْتَ بيدك ووَصَلْتَ إلى مالم يَصِلْ إليه رُمْح ولا قدَر عليه سِنَان ؛ ولم يُزاحمك عدُو إلا قال له : أيها البادى المقَاتِل كيف تُزاحم الحديد، ولا سُمّى آسمك لجَبَّار إلا قال له : ﴿وجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وأنتَ أَوْلى من قام بهذه الوظيفه ، وألّف قلوبَ هذه الطائفة التى ما حَلَم بها حالمٌ إلا و باتَ يُرْعَدُ خِيفَه ؛ فلْيأخُذْ هذا الأمرَ بزِمَامه ، وليعمَلْ لله ولإمَامه ؛ وليَرِمِ فى حُبِّ البَقَاء الدائم بنَفْسه على المنيّه ، وليُنادِمْ على مُعاقَرة الدّماء زُهورَ سَكاكِينه الجَنيّه ؛ وآطبَعْ منهم زُبَرا تُطاول السيوفَ بسَكاكِينها ، وتأخُذ بها الأُسُودَ فى عَرِينها ؛ وتمتدّ كأنّها آمالٌ ، لما تُريد ، وتُرْسَل كأنّها آجالٌ ، ولهذا هى إلى كلِّ عدوّ أقربُ مِن حَبْل الوَريد ؛ وأنْذِ منهم شُعَلا إذا دعيتْ بأحسابها لا تجد إلّا متحاميا ، وآرم منهم سهاما إذا دعِيَتْ (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفَرِّج بهم عن الإسلام كلَّ مَضيق ، وآقلَعْ عن المسلمين من العَوَانية كلَّ حجَرٍ فى الطريق ؛ وصَرِّف رجالَك المَيَامين ، وتصيَّدْ بهم فإنّهم صُقُور ومَناسِرهم السَّكاكين ، وآختَطِفْ بهم الأبصارَ فبأيمانهم كلُّ سِكّينة كأنّها البرقُ الخاطف ، وآقْطِف الرءُوسَ فإنها ثمراتٌ أينعَتْ لِقاطف ؛ وآعرِفْ لهم حقَّهم وضاعِفْ لهم

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة فى رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريمـا، وأدمْ لهم بِنا بِرَّ عميا، وقدّم أهلَ النفع منهم فقد قدَّمهم الله ﴿وفَضَّلَ اللهُ المُجاهدِينَ عَلَىٰ القاعدِينَ أجْرًا عَظِيما﴾ .

وٱعلَمْ أنهم مثلُ الوُحوش فزِدْ فى تأنِيسِهِم ، وٱشكُرْ إقدامَهم فطالمـا ٱقتحَمُوا علىٰ الملوك وما هابُوا يقظةَ حرسِهِم، وٱرفعْ بعضَهم علىٰ بعضٍ درجاتٍ فى نفقاتِ تَسافِيرِهم وقُعود مَجْلِسِهم ، ولا تُسَوِّ بينَهم فمـا هُم سَواءٌ و﴿لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ﴾ . وأصلُ هذه الدعوةِ ما زالتْ تَنْتقِل بالمَواريث حتّى ٱنتهتْ إلينا حقوقُها ، وأوْمضتْ بنـا حيثُ خلعَتْ هَيَا كلَها بجرْعاء الحِمَىٰ بُروقُها ، والله تعالىٰ يوفّقه ويُرْشِده ، ويُطَوِّل باعَه لمـا قَصُرت عنه سَواعدُ الرِّماح ووصَلَت إليه يدُه .



الثانية — وصيّة أستاد الدار .

ولْيتفقّدْ أحوالَ الحـاشيَةِ علىٰ ٱختـلافِ طَوائفها ، وأنواعِ وظائفها ؛ ولْيرتّبْهـا فى الخِـدْمة علىٰ مايَجب ، وينظُر فى أمورهم نظرًا لايَخفىٰ معـه شىءٌ ممـاهم عليه ولا يحتجب ؛ ولْيبدأْ بمُهمّ السِّماط المقدّمِ الذى يُقدّم ، وما يَتنوّعُ فيه من كل مَطْعَم ؛ وما يُمدّ منه فى كل يوم بُكْرةً والعَصْر ، وما يُسـتدعىٰ معه من الطَّوارِئ التى لايَأخُذها الحـدّ ولا يحصُرها الحصر ؛ وأحوالِ المَطْبَخ الكريم الذى منـه ظهور تلك المَخافى ، ووفاءُ ذٰلك الكرمِ الوافى ؛ والتقدّم إلىٰ الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانةِ المآكل مما يُعاب علىٰ الإطلاق . ثم أمر المشروب وما تُغْلَق عليه أبواب الشراب خاناه السـعيدة من لطائف مأكـولٍ ومشروب ، وشىءٍ عزيزٍ لا يوجد إلا فيهـا إذا

عزّ المطلوب ؛ ومراجعــة الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها، وتُنْسَبُ لطبخه من حُمْر اليواقيت كوانينها ؛ و إفراز ماهو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقه ، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسَــلَّم إلا إلىٰ ثقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التى هى خزانة اللِّباس ، وموضعُ ماتَبْرُزُ به من الزِّينة للناس ؛ وما يُحتاجُ إليه من آلاتِ التطبيب ، وما يُعيَّن لها من الصابُون وماءِ الوَرْد والطِّيب ، وغير ذٰلك من بقيَّة ما هى مستَقَرّه ، و يُؤخَذ منها مُسْــتَدَرُّه ؛ ومن يُسْتَخْدَم بها ممن بَرِئ من الرِّيَب ، وعُرِف بالعَفَاف والأدب ؛ وعُلِم أنه من أهل الصِّــيانه ، وعلىٰ ماسُــلِّمَ إليه ومَنْ خالطهُ الأمانه . ثم الفِراش خاناه وما يُنْصَبُ فيها من الخِيام ، وما يكونُ فيها من فَرْش سَفَر ومُقَام ، وشَمَع يُفضِّض كافُورُ كافُوريَّته آبنُوسَ الظَّلام . ثم غِلْمان الإصْطَبْل السعيد والنَّجَّابة و إن كان إلىٰ سواه استخدامُهُم ، ولدىٰ غيره مستَقَرّهم ومُقَامُهم ، لكنَّهم ماخَرَجُوا من عَديده ، ولا يَرُوقُهم ويَرُوعُهم إلا حَسَنُ وعْده وخَشِنُ وَعِيــده . ثم المُنَاخَات السُّــلطانيةُ وما بها من جِمَــال ، وما يَسْرَح فيها من مالٍ وجَمَال ؛ ومن يُستخدَم فيها من ســيروان ومِهْمَرْد ، وما فيها من قِطَار مُزْدَوَج وفَرْد ؛ فيوفِّرُ لهــذه الجهة نصيباً من النظر يشاهد أُمُورَها وقد غابتْ فى الأقطار ، وتفرقتْ كالسُّــحُب يلزمُها القِطَار القَطَّار ؛ وليكُونوا علىٰ بالِه فإنهم يسْرِقُونَ الذَّرَّة[1] من العَيْن ومعهم الذَّهَب العَيْنُ مُحمَّلا بالقِنْطار ؛ فلْيُحْسِن منهم الاِرْتِياد ، وليتخيَّر أَرَقَّهم أفئدةً فإنَّهم بكَثْرة ملازمتِهِم لِلإبل مثلُها حتّى فى غِلَظ الأكباد . وطَوائف المُعامَلِين ، والأبقار ومَنْ عليها من العامِلِين ، وزَرائبِ الغنم وخَوَلِهَا ورِعائِها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تَطْلُبه فى آستدعائها ؛ ونفقات الأمراء المماليك السلطانيَّــة فى إهلالِ كلِّ هِلال ، وما يُصْرف فى كُساهم

(١) فى "التعريف" « درّة الكحل » .

علىٰ جارى عادتهم أو إذا دعتْ إليه ضرورةُ الحال ؛ وما يؤخذ عليه خطُّه من وصولات تُكتَب ، وآستدعاآت تُحسَب من لوازمه وهى للكثْرة لا تُحسَب ؛ فليكنْ لهذا كلِّه مراعيا ، ولأُموره واعيا ، ولما يجب فيه دُونَ ما لا يجب مستدْعياً وإليه داعيا ؛ وهو كبيرُ البيتِ وإليه يرجع أمر كلِّ مملوك ومستخدَم ، وبأمره يؤخَّر من يؤخَّر ويقدَّم من يُقدَّم ، ومثلُه يُتَعلَّم منه ولا يُعلَّم ؛ وعَصاه علىٰ الكلِّ محمولة علىٰ الرِّقاب ، مبسوطةٌ فى العَفْو والعِقاب ، ومكانُه بين يدَيْنا حيثُ نراه ويرانا ولدَيْنا قابَ قوسَيْن أو أدْنىٰ من قَاب .

وعليه بتقْوىٰ الله فبها تمامُ الوصايا وكمالُ الشرُوط ، والأمرِ بها فعصاه محكمة وأمره مبْسوط ، وكلُّ مايُناط بنا : من خاصَّة أمورنا فى بيتنا ــ عَمَره الله ببقائنا وزاد تَعْميرَه ــ بتدبيره منُوط .

الثالثــة ــ وصِيَّة أميراخور .

وقد تقــدّم فى الكلام على الألقابِ فى المَقَالة الثــالثةِ أنّه مركَّبٌ من لفظين : عَربِىٍّ وهو أمير ومعناه معْروف ، وأُخُور فارسىٌّ ومعناه العَلَف ، والمعنىٰ أميرُالعلَف . وكأنه فىالأصل كان هو المتولِّى لعلُوفة الخيل ، ثم آرتفعتْ وظيفتُه حتّى صار صاحبُها من أكابرالأُمَراء المقــدَّمين ، وهو يتحــدّثُ فى الإصْطَبْلات السلطانيّة وما حوَتْه من خَيْل وبِغال ودَوابّ وجِمالٍ وأثاثٍ ، وغيرِ ذٰلك .

وهذه نسخة وصيته :

ولْيكُنْ علىٰ أكمل مايكونُ من إزاحةِ الأعْذار ، والتأهُّب لحركاتنا الشريفةِ فى لَيْلٍ كانَ أو نَهار ، مقدِّمًا الأهَمَّ فالأهمّ من الأمور ، والأبْدأَ فالأبْدأَ من [تقديم] (١) مَراكبنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لازمة كما لا يخفى .

السعيدةِ وتَهيئةِ مَوْكِبنا المنصُور، وترتيبِ ذٰلك كلّه علىٰ ماجرتْ به العَوائد، وتحصيل ماتدْعُو الحاجةُ إليه علىٰ قَدْرِ الكِفَاية والزَّوائد، والنَّظرِ فى جميع إصْطَبْلاتنا الشريفةِ، والحِشارات السعيدة، وخيلِ البَريد، والرَّكائب المُعَدّة لقطْع كلِّ مدًى بعيد، وما يجتَمِع فى ذٰلك وينقسِم، وما يُركَب منها ويُجنَب ممـا يَسِم الأرضَ بالبُدُور والأهِلّة من كلِّ حافِر ومَنْسِم، وما هو برَسْم الإطلاق، وما يُعَدّ لمماليك الطّباق، وخَيْل التِّلاد، وما يُجْلَب من قَوْد[1] كلِّ قبيلة من القبائل ويجىء من كلِّ بلدٍ من البلاد، والمشترىٰ مما يُباع من المواريث ويُستعرَض من الأسواق، وما يُعَدُّ للمواكب وللسِّباق، وليُجِلْ رأيَه فى ترتيب ذٰلك كلّه فى مراتبه علىٰ ما تقتضيه المُهِمّات، والاحتراز فى التِّلاد مما لعلّه يُبدَّل ويقال هو هذا أو يؤخَذُ بحجة أنه مات، وليَجتهِد فى تحقيق ما نَفَق، [وليُحرِّره علىٰ حُكْم ما يتحقّق عنده لا علىٰ ما اتَّفق[2]] وكذٰلك فليكُنْ فحصُه عمّن يستخدمُ عنده من الغِلْمان، ولا يهمِلُ أمورَهم مع معاملتِهم بالإحسان، ولا يستخدِم إلا من تُشكر سيرَتُه فى أحواله، وتُعرَف خِبرتُه فيما يُراد من أمثاله، وكذٰلك الرَّكّابة الذين تملك أيديهم أعِنّةَ هذه الكرائم، والتحرُّز فى أمرهم ممن لعلّه يأوى إليهم من أرباب الجَرائم، والأوشاقيّةُ الذين هم مثلُ مماليكه وهم فى الحقيقة إخوانُه، وجماعةُ المباشِرين الذين هم فى مباشرة الإصْطَبلات السعيدة ديوانُه، وكلُّ هؤلاء يُلزِمهم بما يلزم أمثالَهم من السُّلوك، ويُعلِمهم بما يجب عليهم أن يتعلّمُوه من خِدْمة الملوك، ولا يَسْمَح لأحدٍ منهم فى أمر يُفْضِى إلىٰ إخلال، ولا يقتضِى فَرْطَ إدْلال، وليُقِمْ أوَدَهم بالأدَب فإن الأدَب مافيه إذْلال، وكلُّ هؤلاء الطوائف ممن يتجنَّب العامةُ مخالطَتَهم لما طارَ فى أيَّام من تقدّم عن أمثالِهم من سُوء السُّمْعه،

---

(١) فى اللسان من معانى "القود الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهى لازمة كما لا يخفى .

ويُتخوّف منهم الشّرعه ؛ فليكُنْ لهم منك أعظَمُ زاجِر ، ومَن شُكِىَ إليك منهم فسارِعْ إلىٰ التنكيل به وبادِرْ ؛ وآشْهِر من فعلك بهم ما يُوجِب منهم الطُّمأنينه . ولا يعود أحدٌ بعده يُكَذِّب يقينَه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعُك ، وبهم يمتد باعُك ، هم بحَسَب ما تجعلهم بصَدَده ، وما منهم إلا من يقْدِر [أن] يتعدّىٰ حدّه فى مقام قَدَمه وبَسْط يده ؛ فاجعلْ لكلٍّ منهم مَقاما معلوما ، وشيئًا تجعل له فيه تحكيما . وتثمين الخيول المشتراة والتَّقادِم قَوِّمها بأهل الخبْرة تقويمَ عَدْل ، وقُل الحقَّ ولا يأخُذْك فيه لومٌ ولا عَذْل ؛ وما يُصْرَف من العليق برَسْم الخيول السلطانيه ومَنْ له من صدَقَاتنا الشريفة عَليق ، مُرْ بصرفه عند الآستحقاق وآضْبِطه بالتعليق ؛ وتصرّفْ فى ذٰلك كلّه ولا تتصرَّف إلا تصرُّف شَفِيق ، وصُنْه بأقلام جماعة الدِّيوان ولا تقنع فى غير أوقات الضرورة برفيقٍ عن رفيق ؛ وكذٰلك البراسيمُ السلطانية أصْلا وزِياده ، ولا تَصْرِف إلا ماتأمُر به وإلا فلا تخْرُجْ فيه عن العاده ؛ ونُزلَاؤُك من أمراء العُرْبان عامِلْهم بالجميل ، وزِدْ فى أخذ خواطرهم ولو ببَسْط بِساط الأُنْس لهم فما هو قليل ؛ : لتَتضاعفَ رغْبتُهم فى كلِّ عام ، وليستدِلُّوا ببَشَاشةِ وجهك لهم علىٰ مابعدَه من الإنعام ؛ وبِغالَ الكئوسات السعيدةِ والأعلامِ المنصوره ، وأثقال الخزانة العالية المعموره ؛ آجعلها من المهمّات المقدَّمه ، والمقدِّمات لنتائج أيام النصْر المُعْلَمه ؛ ورتِّبْها فى مَواقِفها ، وأتمَّها أتمَّ ما يكون من وظائفها ؛ فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور ، وإليها يَأْوِى كلُّ مستظِلٍّ ورَحَىٰ الحرب تَدُور ؛ وغير ذٰلك من قُماش الإصْطَبْلات السعيدة من الذَّهب والفِضّة والحرير ، وكلِّ قليل وكثير ؛ باشِرْه مباشرةَ من لا يتخلَّى ، وأحصِه خَرجا ودَخْلا ؛ وإيّاك والأخذَ بالرُّخَص ، أو إهمالَ الفُرَص ، أو طلَبَ فائتٍ جُرْم أهمَلته حتَّى نَكَص .

الرابعة — وصية مُقدَّم المماليك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف أنه يتحدّث فى أمر المماليك السُّلطانية والحُكم بينهم، ويركَبُ خلفَهم إذا ركب السلطانُ كأنّه يحفظهم . والوصية هى :

ولْيُحْسِن إليهم، ولْيعْلَمْ أنّه واحد منهم ولكنه مقدَّمٌ عليهم ، وليأخُذْ بقلوبهم مع إقامة المَهَابة التى يُخيَّل إليهم بها أنه مَعَهم وخَلْفَهم وبين يدَيْهم، ولْيُلْزِم مقدَّم كلِّ طَبَقة بما يلزمه عند تقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطِّبَاق، وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْس السَّوّاق؛ وليكُنْ لأحوالهم متعهِّدا، ولأمورهم متفقِّدا؛ وليستَعْلِم أخبارَهم حتّى لا يزالَ منها علىٰ بَصيره،ولْيعْرِف ماهم عليه مما لا يخفىٰ عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلًا فإنهم جِيرَه ؛ ولْيأمُرْ كلًّا منهم ومن مقدَّميهم والسَّوّاقين لهم بما يلزمُهم من الخِدْمه ، وليُرتِّبْهم علىٰ حُكم مكانَتِهم منّا فإن تساوَوْا فليقدّم من له قُدْمه؛ وليعدل فى كل تفْرِقه، وليُحسنْ فى كل عَرْض ونَفَقه، وليفرِّقْ فيهم مالهم من الكَساوى ويُسْبِلْ عليهم رِداءَ الشَّفَقه ؛ وليُعِدّ منهم لغابنا المَحْمِىّ سِبَاعا تفترس العاديَه ، وليُجْمِل النظرَ فى أمر الصِّغار منهم والكِبَار أصحاب الطَّبَقات العاليه؛ وليأخُذْهم بالرُّكوب فى الأيّام المعتاده، والدُّخول إلىٰ مكانِ الخِدْمة الشريفة والخروج علىٰ العاده ، وليُبْدِرْهم فى أوقات البياكير والأسفار نطاقًا دائرَ الدِّهْليز المنصور، وليأمُرْهم أمرا عامًّا بأن لا يركبَ أحدٌ منهم إلا بدُسْتُور ولا ينزلَ إلا بدُسْتُور ؛ وليحترِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان ، ولا يستخْدِم منهم إلا معروفا بالخير ويُقيمُ عليهم الضُّمّان ؛ ولْيحرِّر علىٰ مَنْ دخَل عليهم وخَرَج ، ولا يفتَحُ لأحدٍ منهم إلا من عُلِم أنه ليس فى مثله حَرَج ؛ ولا يَدَع للرِّيبة بينهم مجالا للاضْطراب، وليُوصِ مقدَّميهم بتفقُّد مايُدْخَل إليهم فإن الغِشَّ أكثَرُه من الطَّعام والشَّراب ؛ وليُدِمْ مراجعتَنا فى أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصواب، وليعمَلْ بما نأمره به ولا يجدُ جَوًى فى جواب .

الضـــــرب الثـانى

(ممّن يُكتب له بالوِلايات بالديار المِصرية أربابُ الوظائف الدينية، وهو علىٰ طبقتين)

الطبقـــــة الأولىٰ

(أصحابُ التقاليد ممّن يُكتَب له بالجناب العالى)

وتشتمل علىٰ عدّة وظائف

الوظيفـــةُ الأولىٰ

(القضـاء)

قد تقـدّمَ فى المقالة الثانيـةِ فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنّ الديارَ المصرية كان يليها قاضٍ واحدٌ، إلىٰ أنْ كانت الدولةُ الظاهريةُ «بيبَرس» فى أوائل الدّولة التُّركيـة، وقاضِى القضاة يومئذ القاضِى تاجُ الدين عبـدُ الوهاب آبن بنتِ الأَعزّ الشافعيّ، فاضطَرب الأمرُ لاختلاف المذاهب، فاقتضىٰ رأىُ السلطان تقريرَ أربعة قُضاة من كل مَذْهب قاض، وقُرِّر القـاضِى تاجُ الدين ابن بنت الأعزّ فى قضاء قُضاة الشافعية علىٰ حاله، وكُتِب لكلٍّ منهم تقليـدٌ بذٰلك؛ ثم خُصَّ قاضى القضاة الشافعيـة بالتولِيَة فى بلاد الريف دُونَ غيره من القُضـاة الثلاثة، وآستمرّ الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ الآنَ. إلا أنه لمـا حدثَ بديوان الإنشاء تنويعُ ما يُكتب لأرباب الأقلام إلىٰ تقاليد، فى قطع الثلثين، وتَفاوِيضَ، وتَواقيعَ، فى قطع النصف، تقرّرَ الحالُ علىٰ أن يُكتَب للقُضاة الأربعة تواقيعُ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العـالى»، ولم يزَل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِىَ القاضى عمادُ الدين أحمدُ الكَركىّ الأزرقىّ قَضاء قُضاة

الشافعية فى أوّل سلْطَنة الظاهرِ « بَرْقُوق » الثانية ، وأخُوه القاضى علاءُ الدين علىّ كاتبُ السرّ ، فعُنِي بأخيه عمادِ الدين المذكور ، فكَتَب له تقليدا فى قطع الثلثين بـ«الجناب العالى» . وبَقِى الثلاثةُ علىٰ ما كانوا عليه من كِتابةِ التواقيع إلىٰ أن وَلِيَ القاضى جمالُ الدِّين محمودٌ الحلبيّ القَيْسَرِيّ المعروفُ بالعَجَمِيّ رحمه الله قَضاء قُضاة الحنفيَّة فى الدولة الظاهريَّة أيضا، مضافًا إلىٰ نَظَر الجيش، فكُتِب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بالجناب العالى أيضا؛ وبقِى المالكيُّ والحنبليُّ علىٰ ما كانا عليه من كتابة التواقيع فى قَطْع النِّصف . ولم يزلِ الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِيَ قاضى القُضاة جمالُ الدين يوسُف البِسَاطىّ قَضاءَ قُضاة المالكية فى الدولة الناصرية «فَرَج بن الظاهر برقوق» فأنشأتُ له تفويضًا وكتبت له به ، ولم يكُن أحدٌ ممن عاصَرْناه كُتِب له تفويض غَيْره . ثم لما وَلِي الشيخُ جمال الدين عبدُالله الأَقْفَهْسِيّ قضاءَ المالكية، كتب له توقيعٌ فى قطع النصف ، إلا أنه كُتِب له بـ«الجناب العالى» كما يُكتَب لأصحاب التقاليد ، وجرىٰ الأمرُ فيمَن بعدَه علىٰ ذٰلك . ولم يبقَ من هو علىٰ النَّمَط الأوّل سِوىٰ قاضى القُضاة الحنابلة، ويُوشِك أن يُكتَب لكلٍّ من المالكيّ والحنبليّ أيضا تقليدٌ: لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرتُ ما يكتَب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للمُفتَرِق وتقريبًا للمَأْخذ .

وهـٰأنا أذكر ما يكتب للأربعة علىٰ الترتيب .

الأوّل (قضاء القُضاة الشافعية)

وهذه نسخةُ تقليدٍ بقضاء القُضاة الشافعية، كُتِب به لقاضى القُضاة تاج الدين ابن بنتِ الأعزّ رحمه الله، حينَ ٱستقرّ أحدَ القُضاة الأربعة بعد ٱنفراده بالوظيفة علىٰ ما تقدّم، وهى من إنشاء القاضِى محيي الدين بن عبدِالظاهر رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله مجرِّدِ سيفِ الحقِّ علىٰ من اعتدىٰ، ومُوسِّعِ مَجَالِه لمن راحَ إليه واغتدَىٰ، ومُوضِّحِ طريقه لمن اقتادَ واقتدىٰ، ومزيِّنِ سمائِه بنُجوم تستمِدُّ الأنوارَ من شمس الهُدىٰ ؛ الذى أعْذَب لِشرْعة الشريعة المحمَّدية يَنْبُوعا ، وأقامَها أصْلًا مَدَّ بِثمار الرُّشْد فُروعا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى ألزمَتْنا لتشييدِ مَبانِيها شرُوعا، ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَعْمُر بها من القلوب والأفواه رُبُوعا . ونصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى أرسله الله إلىٰ الخلائق جميعا، وقام بِعبْء الأمر يصنَعُ حَسَنا ويُحْسِن صَنِيعا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لا يبْرَح برقُها ملْمُوعا، ولا ينفَكُّ وِتْرُها بالتسليم مشْفُوعا .

وبعدُ، فإنَّ أحقَّ من جُدِّد له شَرَفُ التقريض، وخُلِّد له إرضاءُ الأحكام وإمضاءُ التفويض ، ورِيشَ جناحُه وإن لم يَكُن المَهِيض ، وفُسِّح مجالُه وإن كان الطويلَ العَرِيض ؛ ورُفِع قدْرُه علىٰ الأقدار ، وتقسَّمتْ من سحائبه الأنواءُ ومن أشِعَّته الأنوار، من غَزُر مدُّه فجرَتْ منه فى رِيَاض الحقِّ الأنهار، وغدا تخْشَع لتقْواه القلُوبُ وتُنصِت لقوله الأسْماع وتَرْنُو لمُحَيَّاه الأبصار؛ قد أوفَد من إرشاده للأمة لُطْفًا فلُطْفا، وأوقَد من علمه جَذْوةً لا تخبُو وقَبَسا بالهوىٰ لا يُطْفَىٰ، وفاتَ النُّظَراء والنُّظَّار فلا يُرْسِل أحدٌ معه طِرْفا ولا يَمُدّ إليه من حَيائه طَرْفا ، واحتَوىٰ من عُلُوم الشريعة علىٰ ما تفترق فى غَيْره ، وغدا خيْرَ دليلٍ إلىٰ الحقِّ فلا يُقتَدَىٰ فى المُشْكلات إلا برأْى اجتهاده ولا يُهتَدىٰ فى المذاهب إلا بِسَيْره ؛ وكان لتلك الشريعة المحمَّدية قُطْبا ، ولجُثْمانها قَلْبا ولسوارها قُلْبا ، ولدليلها بُرهانا ، ولإنسانها عيْنا ولعينها إنْسانا ، فكم أرضىٰ بَنِى الأنام عن الأيَّام ، وكم أغْضىٰ حياءً مع قدرته علىٰ الانْتقام ، وكم أمضىٰ لله حُكْما لا انفصالَ لعُرْوته ولا انْفِصام ، وكم قضىٰ بالجَوْر فى ماله وبالعَدْل فى الأيتام ؛

فلو ٱستعداهُ الليلُ علىٰ النهار لأنصفَه من تعدّيه، ولم يُداجه لما ستَرَه عليه من تعدّيه فى دَيَاجِيه ؛ فهو الصادعُ بما أمر اللهُ به ولو علىٰ نفسِه، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبةَ من غيرِ محاباةٍ حتّى لعدِه من يومِه وليومه من أمْسِه .

ولما كان قاضى القُضاة تاجُ الدين عبدُ الوهَّاب ممن هو فى أحْسَنِ هذه السّمات قد تَصوّر، وكادَتْ نجومُ السماء بأنواره تَتَكَثَّر، وتجوْهَر بالعلوم فأصبَح حقيقةً هو التاجَ المُجَوْهَر؛ وله مزايا السُّؤدَد التى لايُشَكّ فيها ولا يُرْتاب، وسجايا الفضلِ التى إذا دخل [اليه] غيرُه من باب واحد دخل هو إليه من عِدّة أبْواب؛ وهو شجرةُ الأحكام، ومَصْعَدُ كَلِم الحُكَّام، ومَطْلَع أنجُم شرائع الإسلام، ومَهْبِط وَحْى المُقَدّمات والآرتسام، ومجتَمَع رِفَاق القضايا فى الحلال والحَرَام ـ خرج الأمرُ الشريفُ بتجديد هذا التقليدِ الشريفِ له بقضاء القُضَاة بالديار المصرية : فليستصْحِبْ من الحق ما هو مَلِيٌّ باستصحابه، وليستمِرَّ علىٰ إقامة مَنَار الحق الذى هو مُوَثّقُ عُرَاه ومؤكّدُ أسبابه، وليحتَلِبْ من أخلاف الإنْصاف ما حَفَّله آجتهادُه ليد احتلابه ؛ عالمًا بأنّ كل إضاءة إنارتُها من قَبَسه، وإن آستضاء بها فى ديَاجى المُنىٰ، وكلَّ ثمرةٍ من مغترَسه، وإن مَدّ إليها يَدَ الاجتنا ؛ وكلَّ جدْولٍ هو من بَحْره وإن بَسَط إليه راحةَ الآعتراف، وكلَّ مَنْهَج هو من جادّته وإن ثَنَىٰ إلىٰ سُلوكه عِنَان الآنصراف لا الآنْحِراف؛ وهو بحمد الله المجتهدُ المُصيب، والمادّةُ للعناصر وإن كان نصيبُه منها أوفَرَ نصيب ؛ وسجاياهُ يتعلّم منها، كيْف يُوصّى ويُعلّم، ومزاياه تُقوّم الأَوَد، كيف يُقوّم ، والله الموفّق بمنّه وكرمه ! .

الثانى — قاضى قُضاة الحنفيّة علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ من لَدُن القاضى جمال الدين محمودٍ القَيْسَرىّ وإلىٰ آخروقت . وموضوعُها النظرُ فى الأحكام

الشرعيّة علىٰ مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، ويختصّ نظره بمصر والقاهرة خاصّةً .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كُتب به لمن لقبه شمسُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى أطلَع فى أفُق الدِّين الحنيف شمسا مُنيرَهْ ، ورفَع درجةَ من جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحكم علىٰ بصيرَهْ ؛ وقلّد أمورَ الأمة لمن يَعْلم أنّ بين يديه كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيره ، ووفّق لفصل القضاء مَنْ مشىٰ علىٰ قَدَمِ أقْدم الأئمة فسار فى مَذْهبه المُذْهَبِ أحسَنَ سِيره ؛ الذى ادَّخر للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضلَ ذخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تحلّىٰ به بعد العَطَل وكُلّ قضاءٍ خيره ، وأيقظ عنايتَنا لمن رَقَد الدهرُ عن فضله فباتَتْ عينُ الآستحقاق بآستقرار رتبته قَريره .

نحمَدُه حمدَ مَنْ توافَتْ إليه النِّعم الغَزِيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرةُ فى المُدَد اليسيره ، وأخصَبَت فى أيامه رياضُ الفضائل فهى بكلّ عالم عَدِمَ النظيرَ نَضِيره ؛ وآفتتح دولتَه برَفْع مَنَار العدل فآمالُ أهل الظلم عن تعَاطيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطل عن الآمتداد إليه قَصِيره ، وخصّ المناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلَبّستْ بها هِممُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدتْ إليها أبصارُ مَن دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُصْلِحُ العَلَنَ والسريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ موقِنةً والألسُنُ ناطقةً والأصابعُ مُشِيره ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الذى بعثَ الله به الرسُل مُخْبِرةً وأنزل الكُتُب بمبعثه بَشِيره ؛ وآجتباه فى خيرِ أُمّة من أكرمِ أَرُومة وأشرف عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلّته إلا لمن أعمىٰ الغىُّ بصيرتَه وهل ينفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ؛ وخصّه بالأئمة الذين وفّقهم للاستعانة بالصبر

والصلاةِ وإنَّها لَكَبِيره، وجعل علماءَهم وَرَثَةَ الأنبياء فلو ٱدُّعِيَتْ لأحكامهم العصمةُ لكانت بذٰلك جَدِيره ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تتقرَّبُ بدَوَامها إلىٰ الله فيُضاعفها لنا أضعافًا كثيره، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أولىٰ الأمور بأن تُشاد قواعدُه ، وتُتَعهَّد معاهِدُه ؛ ويُعلىٰ مَنارُه ، وتُفاضَ بطُلُوع شمسه أنوارُه ؛ ويَحلَّىٰ به بعد العَطَل جِيدُه ، ويُنظَم فى سِلك عُقُود الأمة فَرِيدُه ؛ وتَكمَّلَ به قُوىٰ الدين تكمِلةَ الأجساد بقُوىٰ الطبائع الأربع ، وتُعمَّرَ به رُبُوعُ الملة التى ليس بعـدها من مَصِيف لِملَّةٍ ولا مَرْبَـع ، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالة بعضها من مَطْمَع ؛ وتُجلىٰ به عمَّن ضاق عليه المَجَالُ فى بعض المذاهب الغُمَّه ، ويستقرُّ به عددُ الحُكَّام علىٰ عدَدِ الأئمـة المستقِر علىٰ عددِ الخلفاء الراشـدين من خُلَفاء الأمَّه ؛ ويُمَـدّ به علىٰ الخلق جناحُ الرحمة وافِرَ القَوادِم وارِفَ الظِّلال ، ويجمَعَ به عليهم ماجمع اللهُ فى أقوال أئمتِهـم من الحق وما ذَا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلَال ، ـ أمرُ القضاء علىٰ مذهب الإمام أبى حنيفةَ النُّعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى ٱشتَقَّ الله له من المِلَّة الحنيفيَّة نِسبةً سَرتْ فى الآفاق ، وأفاضَ عليه من موادِّ القياس الجلىِّ كُنوزا نَمَت علىٰ الإنْفَاق ، وعضَّد أيَّامه بولِيَّىْ عهدٍ قولُهما حجة فيما تفرَّدا به من الخِلاف أو ٱجتمعا عليه من الوِفَاق ؛ وعُدَّ من التابعين لقدَم عَهْده ، وسُمِّى « سراجَ الأمة » لإضاءة نُوره بهما من بعده .

ولمـا خَلَا بانتقال مباشِره إلىٰ الله تعـالىٰ ، توقَّف مـدّةً علىٰ ٱرتياد الأكْفاء ، وٱرْتِياءِ من هو أهلُ الاصـطفاء ؛ وٱختيارِ من تكمُل به رفعةُ قَدْره ، ويعيـد لدَسْته بتَصَـدُّره علىٰ بِساط سليمانه بهجةَ صَدْرِه ؛ ويغدُو لسِرِّ إمامه بعد إماتة هـذه الفَتْرة باعثًا ، ويُضْبِح وإن كان واحدَ عصْره لأبى يوسفَ ثانيًـا ولمحمد بن الحسن ثالثا ؛

ويُشَبَّه به البَلْخىُّ زُهْداً وعِلْما ، والطَّحاوِىُّ تمسُّكا بالسُّنَّة وفَهْما ؛ ويعترِفُ القُدُّورىُّ من بحره ، ويعترف الحُصَرىّ بالحَصَر عن إحْصاء فضله وحَصْره ؛ ويقف من مذهبِ ابن ثابت ، على أثبتِ قَدَم وينتمى من فِقْـه النُّعمان إلى فَرْع زاكٍ وأصـل ثابت ، وينشُر من أحكامه ما إنْ وافق الأئمةَ فهو حجَّـة قاطِعة ومَحجَّة ساطِعــه ؛ أو خالفهم بمَذْهبه فهو رحمةٌ واسعه ، ونعمةٌ [و] إن كانت بين الطُّرق فارقةٌ فإنَّها على الحق جامِعَه .

ولمـا كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرتبة آنتظارَ الشمس بعـد الغَسَق ، والمرتَقَب لبلُوغ هذه المنزلة التى تقدّمتْ إليها بوادرُ آستحقاقه فى السَّبق ، والمعطُوفَ على من وُصف من الأئمة وإن تأخّر عن زمانه عطفَ النَّسَق ؛ وهو الذى مادامَ يعـدِلُ دمَ الشهداء مدادُ أقلامه ، وتضع الملائكةُ أجنحتَها رضًا بمـا يصنَع من نقل خَطَواته فى طلب العلم وسَعْيِ أقدامه ؛ ودخلَ من خشيةِ الله تعالى فى زُمْرة من حُصر بإنَّما(١) ، وهَجر المضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العلْم فلو عُدَّت هَجَعاته لقَلَّمـا ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقيَّـد أوابدَها ، وأحرَزَ شَـوارِدَها ؛ ولَجَّج فى بِحار المَعَـانى فغَاصَ على جواهرِها ؛ ونظر نظرةً فى نُجوم العُـلوم فاحتَوى على زُهْرِها ، ورادَ خمائلَ الفضائل فاستولى على أزاهِرِها ؛ وآنتهى إليه علمُ مذهبِه فبرَّز على من سَلَف ، وجارى علمـاء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبَـاره وما وقَف ، ونَحَا نحوَ إمامه فلو قابله يعقوبُ مع معرفتِه فى بحثٍ لآنصرَف ؛ وتعيَّن علـيه القضاءُ وإن كان فرضَ كِفاية لا فرضَ عَيْن ، وقدَّمــه الترجيحُ الذى جعل رُتبَته همزةَ آستفهامٍ ورتبــة غيرِه بَيْنَ بَيْنَ ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

(١) يريد الاشارة الى قوله تعالى : « إنمـا يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذٰلك رُسم أن يفوّض إليه كيت وكيت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبَح فيها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نائبا وبشَرْعِه قائما، ويتقلَّدْها تقلُّدَ من يعلَم أنه قد أصبح علىٰ حكم الله مُقَدِّما وعلىٰ الله قادِما، ويتثبَّتْ تثبُّتَ من يعتصِمُ بالله فى حُكْمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكونُ ألْحَنَ بحجَّته وإن كان ظالما ، وليَلْبَس لهذا المَنْصب حُلَّةً تمنع المُبْطِل من الإقدامِ عليه، وتدفَعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نَزَعه الشرعُ من يَدَيْه ، وتُؤَمِّن الحقَّ من آمتدادِ يَدِي الجَوْر والحَيْف إليه ؛ وليُسوِّ بين الخصمين فى مَجْلِسه ولَحْظه ، ويَعْدِلْ بينهما فى إنصاته ولفظِه، : ليعلَمَ ذُو الجاه أنه مساوٍ فى الحق لخَصْمه، مكفوفٌ باستِماع حجَّتِه عن الطمَع فى ظُلْمه؛ ولا ينقُض حكمًا لم يخالِف نَصًّا ولا سُنَّةً ولا إجماعا، وليُشارِكْ فيما لا يجهله من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيَّد بذٰلك مع آطّلاعه آطلاعا، وليغتنِمَ فى ذٰلك الآستعانةَ بآرائهم فإنَّ الله تعالىٰ لا ينتزِع هذا العلم انتزاعا، وليسُدّ مَسالِكَ الهوىٰ عن فِكْره، ويَصْرِفَ دواعِيَ الغضَب لغيرِ الله عن المُرور بذِكْرِه[1]، وليجعَلِ العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحْكُمْ بما أراه الله «والله يَحْكُم لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ»، إن شاء الله تعالىٰ .

الثالث — قاضى قضاة المالكية :

وهذه نسخة تقليدٍ بقضاء قُضاة المالكيـة ، لقاضى القُضاة جمالِ الدين يوسُفَ البِساطِيِّ المُقَدّم ذكْرُه ، فى العَشْر الأخير من رَجَب الفَرْد سنةَ أربع وثمانمائة، وهو :

الحمدُ لله الذى شَفَع جَلالَ الإسلام بجَماله ، وناطَ أحكامَه الشرعيَّةَ بمن آقترَن بجميدِ مَقاله جميلُ فِعَاله ، وخصَّ مذهبَ عالِمِ المدينة بخيْرِ حاكمٍ ما جرىٰ حديثُه

(١) الذكر والذكرى بالضم والكسر التذكر .

الحسَنُ يومًا إلا وكان معدُودا من رِجَاله ، وعَدَق النظرَ فى أحكامه بأجَلِّ عالم لو طُلِب له فى الفضل مِثْلٌ لعجَز الزمانُ أن يأتِىَ بمِثاله .

نحمدُه علىٰ أن أخلَف من النَّبعة الزكِيَّة صِنوًا زاكِيا ، وأدالَ من الأخ الصالح أخًا للعُلوم شافِيـا ، ولمَنصِبه العلِىّ ولله الحمدُ وافِيـا . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له مجرّدُ سـيف الحق علىٰ كلِّ مبطِل معـانِد ، ومرهِفُ حدِّه القاضب لكل مُلحِدٍ عن سَوَاء السبيل حائد ، وأنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبىّ فاق الأنامَ بفضله وعمَّ البريَّة بعَدْله ، وسَدّ بابُ التوبة علىٰ منتقِّصه فلم تكن لتُقبَلَ توبةُ مثلِه ، وكان إلىٰ مالكٍ مصيرُه فلا جرمَ قَضىٰ بإهدار دَمِه وتحتُّم قتلِه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ذَبُّوا عن حِمىٰ الدين وذادُوا ، وسلكوا سبيلَ المعْدَلة إذ حكَمُوا فمـا ضَلُّوا عن سَنَن الطريق ولا حادُوا ؛ صلاةً تبقىٰ ببقاء الدُّهور ، ولا تزولُ بهجةُ جمالها بتوالى الأعوامِ والشُّهور، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ، فإنَّ أولىٰ ماقُصِر عليه النظَر ، وآستُغرقتْ فيــه الفِكر وعَرَا العيونَ فيه السهَر ، وصُرِفت إليــه الهِمَم ، ورَغِبت فى البراءة من تحلُّفــه الذِّمم ـ النظرُ فى أمر منْصب الشرع الشريف الذى يأوِى الملهوفُ إلىٰ ظلِّه ، ويلجأ المستجيرُ إلىٰ عَدْله ، ويتعلَّق العُـفَاة بوثيق عُروته ومَتِيـن حَبْـله ؛ وبرَهْبته يكُفُّ الظالم عن ظُلْمه ، وينتصـفُ الخصمُ من خَصْمه ، ويُذْعِن العـاصى إلىٰ طاعتِـه وينقادُ الأبِىّ إلىٰ حُكْمه ، ويأتَمُّ به الحائرُ فى دُجىٰ الجهـل فيستضِىءُ بنُوره ويهتـدى بنَجْمه ؛ لاسيمـا مذهَبُ مالكٍ الذى لم يزَلْ للدِّين من أهل الإلحاد مُثْئِرا ، وللقِصاص من أهل العِناد مبتَـدرا ، وبسَلِّ سَـيف الحقّ علىٰ الطُّغَاة المتمردين مشـتَهِرا ؛ ففاز من سَطَوات الإرهـاب بأرْفَع المراتِب ، وعلا رقابَ المُلحِدين بأرْهف القواضِب ، وخُصَّ من

سَفْك دماء المُبْطلين علىٰ البَتّ بما لم يشارِكْه فيه غيرُه من المَذاهب ؛ فوجبَ أن يُختارَ له من ينُصُّ الآختبار علىٰ انه أهل للاختيار ، ويقطع المنافسُ أنه الراجحُ وَزْنا عند الآعتبار، وتأخذ مناقبُه البسيطةُ فى البَسْط فلا تنفَدُ إذا نفِدَت مناقبُ غيره المركّبةُ عند الآختصار ؛ ويشهَدُ له ضِدُّه بالتقدّم فى الفضل وإن لم تتقدّمْ منه دَعْوىٰ ، ويعترفُ له بالآستحقاق خصمُه فيتمسّك من عدَم الدافع فيه بالسّبب الأقوىٰ ، ويحكُمُ له بعلوّ الرُّتبة مُناوئُه فيرتفع الخلافُ وتنقَطِع النَّجْوىٰ ، ويسجّل له حاسدُه بثُبوت المفاخر المحكوم بصحّتها فلا ينقضُها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظرِ الغايةَ القُصْوىٰ ؛ وتنفذ أحكامُه فى البريّة فلا يُوجَد لها مخالِف ، وتحذَر شيعةُ الباطل سَطْوتَه فلا يرىٰ الباطل مُحَالف ، ويشْتَهر عنه من نُصْرة الحق ما يأْمَن معه المستضْعَف الخائف ، ويتحقّق فيه من قيام العَدْل ما يرتَدِع به الظالم الحائف ؛ ويَستوِى عنده فى لزوم الحق القوىُّ والضعيف ؛ ولا يُفرِّق فى لازمه بين المَشْرُوف والشريف ؛ ولا يميِّز فى حَمْل الأعباء الشرعيّة بين الشّاق وغيره ولا بينَ الثقيل والخفيف ؛ ولا يُحابِى قريباً لقَرَابته ، ولا جليلا لجلالته ، ولا ظالماً خوفَ ظلمه ولاذا آستطالة لآستطالته ؛ ولا يستَزِلُّه ذُولَسَن لِلَسَنه ولا بليغٌ لبَلَاغته ، ولا يُخالِف بين الصديق الملاطِف وغيرِه إلا فى منْع قَبُول شهادته .

ولما كان المجلس العالى القاضَوِىّ ، الكبيرِىّ ، الإمامِىّ ، العالمىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرئيسِىّ ، الأوحَدِىّ ، العَلّامىّ ، الكاملىّ ، الفاضلىّ ، المُفيدىّ ، الفَريدىّ ، المُجِّىّ ، القُدْوِىّ ، الخاشعِىّ الناسكِىّ ، الحاكمِىّ ، الجَمالىّ ؛ جَمالُ الإسلام ، شَرَفُ الأنام ، حاكمُ الحُكّام ، أوحدُ الأئمه ، مُفيد الأمّه ، مؤيِّد الملّه ، مُعِزُّ السنّه ، شمسُ الشريعه . سيفُ المناظرين ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أميرِ المؤمنين ،

أبوالمحاسن «يوسفُ البِساطىُّ» المالكى ـ أدام الله تعالى نعمتَه ـ هو المرادُ من هذه الصِّفات، التى وقعَتْ من محلّه الكريم موقِعَها، والمقصودُ من هــذه السِّمات، التى أَلِفتْ من سِيرته الفاضلةِ موضِعَها؛ وقارعُ صَفاة هذه الذِّرْوة التى ما كان ينبغى لغيره أن يَقْرَعها؛ وشمسُ الفضل الحقيقُ بمثلها أن لا يتوارىٰ جمالُها بحجاب الغُروب، وفاصِــلُ مشْكِلات القضايَا إذا آشــتدّ إشكالُهــا وعظُمت فى فَصْلها الخُطُوب، ومتعيِّن الوِلاية التى إذا كانتْ فى حقِّ غيره علىٰ الإباحة كانتْ فى حَقِّه علىٰ الوُجُوب؛ وقد دَرَّب الأحكامَ وخَبَرها. وعَرَف علىٰ التحقيق حالَها وخَبَرها، ووَرَدَ من مَشَارِبها الرائقة أصفىٰ المنــاهِل فأحسَن وِرْدَها وصَدَرها؛ ونَفُست جواهر فوائده ففاقَت جواهرَ المعادِن، وغطَّت محاسنُ فضله فضائلَ غيره ولا تُنْــكَر المحاسنُ لـ«يوسُفَ» وهو «أبو المَحاسن»، فعلُومهُ المدَوَّنة بالبيان والتحصيل كافله، ومُقَــدّمات تنبيهاته بنتائج النَّوادر الحسنة متواصِــلَه؛ وتهذيبُ ألفاظِه المنقَّحة تُؤْذن بالتحرير، وعيونُ مسائله المتواردةِ لا تدخُل تحت حَصْر ولاتقدير؛ فلو رآه «مالك» لقال: ما أعظَمَ هــذه الهمَّه، أو أدركه «آبنُ القاسم» لوفَّر من الثناء عليه قِسْمَه، أو عاصره «آبنُ عبدالحَكَم» لحكَم له بأنَّ سهمه قد أصاب الغَرض وغيرَه أطاشَ الريحُ سَهْمَه؛ أو عاينه «أشهبُ» لقال قد ركِب هذا الشَّهباءَ أنَّى يُلْحَق، أو سمع «آبنُ وهْب» كلامه لقطع بأنه هِبَــةٌ ربَّانيَّة وبمثله لم يُسْبَق؛ أو بلغ «آبنَ حبيب» خبرُه لأحَبَّ لقاءه. أو بَصُر به «سُحْنون» لتحقَّق أنه عالم المذْهَب ما وَرَاءه؛ أوآستشعر بقُدومه «آبنُ سيرين» لبَشَّر به. أو جاوره «آبنُ عَوْف» لعــاف مجاورةَ غيره أو مجــاورةَ طُنُبه. أوجالسه «آبن يُونُس» لتأنَّس بمجالسته، أوحاضره «أبو الحسنِ بنُ القَصَّار» لأثْجىٰ قبه بحُسن محاضَرَته؛ أوجاراه «القاضى عبدُ الوَّهاب» لقضىٰ بعُلوّ مكانته، أو آتَّصل ذكره «بالمــازَرى» لزَرىٰ علىٰ «مازَر» لبُعْدها عن دار إقامته؛ أو آطَّلع

«القاضى عياضٌ» علىٰ تحقيقاته لاَستحسَنَ تلك المَدارك، أوناظره «آبنُ عبدالسلام» لسَلَّم أنه ليس له فى المنـاظرة نظيرٌ ولا فى تدقيـق البحث مُشـارِك؛ أو مَرَّ به «آبن الجَلَّاب» لجلَب فوائدَه إلىٰ بلاده. أو حضَره «آبنُ الحاجب» لتحقَّق أنه جامعُ الأُمَّهات علىٰ آنفراده .

هـذا وقد حُفَّ بجَلَال لا عهْدَ لأحدٍ بمثله ، ولا طاقةَ لفاضل بمُقاومة فَضْله ، ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قَبْله ؛ فاجتمع من جَمال الجَلَال ، وجَلال الجَمال ، ما لم يكن ليدخُل تحتَ الإمكان ، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمـة بثالثٍ ورابع فقام بنـاءُ الدِّين من المذاهب الأربعة علىٰ أربعـةِ أركان ؛ ولا عِبرةَ بمـا يذْهَب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تَبَعًا للمنجِّمين فى آعتقادِهم الفاسد ، فقد وَرد أنَّ زَوايا الحوض علىٰ التربيع وذٰلك فيه أعظمُ دليل وأقومُ شاهد .

وكان مـذْهَب مالك رحمـه الله هو المُراد من هـذه الوِلاية بالتخصيص ، والمجْلِسُ الجَمَالىّ المشارُ اليه هو المقصودُ بهذا التفويض بالتنصيص ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُوَفِّىَ مرتبتَه السنيَّةَ حقَّها ، ونُبَوِّئَ النِّعم مستحِقَّها ، ونملِّك رقابَ المعالى مستَرِقَّها ، ونقدِّم علىٰ طائفة المـالكيَّة من أضحىٰ لهم جَمَـالا ، ونُتحِفَهم بمن أمسىٰ لعزِّهم كمالا ، ونفوِّض قضاءَ مذْهَبهم إلىٰ من إذا جرىٰ فى مَيْدان حُكْمه قالت محاسنُ قضاياه : (هكذا هكذا وإلا فَلَالا) . ونُسنِدَ الأحكامَ الشرعيةَ إلىٰ من هو بها أعرَف ، ونَقِفَها علىٰ من عُرِف أنه علىٰ الحقائق ماضٍ وعند السُّـنَّة يتوقَّف ، ونُعدق أمرها بمن أَلِفَ النزاهةَ فنكِرَةُ المَطامع عنده لا تَتعرَّف ؛ ونَكِلَ النظرَ فيهـا إلىٰ مَنْ أمسىٰ لشُروط الآستيجاب جامعا ، ونُقدِّم فى ولاية هذا المنْصب من شَفَع له آستحقاقُه وكفىٰ بالآستحقاق شافِعا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازال يَبْسُط لأوليائه من بساط الأُنْس ما كان مَطْوِيّا ، ويُنِيلهم من رغائب الآمال ما كان عنهم فى سالف الأزمان مَزْوِيّا ـ أن يُفوَّض إليه قضاءُ قُضاة مذهب عالم المدينة، وإمامِ دارِ الهجرة، مالكِ بن أنَس الأصبحىّ : قدَّس الله تعالىٰ رُوحَه . فليتلَقَّ ما فُوِّض إليه بأفضل تلقٍّ يليق بمِثْله ، ويتقبَّلْه تقبُّلا يناسب رِفعة محَلِّه ، ويبتهِجْ بأجلِّ تفويض لم يُسْمَحْ بتمنِّيه لآخر من قبلِه .

ومن أهمِّ ما نُوصِيه به، ونوجِّه القول إليه بسببه، تَقْوى الله تعالىٰ التى هى مِلَاك الأمر كلِّه ، وقِوَام الدين من أصله ؛ والاشتمالُ عليها فى سِرِّه وجهره والعملُ بها فى قوله وفعلِه ، ثم بِرُّ الخلق والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبه الشرعُ من الحقوق عليهم ؛ ففى التقوىٰ رضا الله وفى البرِّ رضا الخلق وناهيك بجمعهما من رُتْبة فاخره، إذ لا شكَّ أنَّ من حصَّل رضا الله ورضا الخلق فقد حصَل علىٰ خير الدنيا والآخره؛ ووراءَ ذٰلك قاعدةٌ فى الوصايا جامعه، وتَذْكِرة لذوى الذِّكرىٰ نافعه ؛ وهى أن يتأمَّل أحوال غيره تأمُّل من جعلها لنفسه مِثالا، ولِنَسْجه مِنْوالا ؛ فما استحسنه منها أتىٰ مثْلَه ، وما استقبحه تجنَّب فعلَه ؛ واقفًا فى ذٰلك عند ما وردَتْ به الشريعة المطهَّرة بنص صريح أو تأويل صحيح ، مُعْرِضا عن العقليَّات المحضة فلا مجالَ للعقْل فى تحسينٍ ولا تقْبيح .

وأما أدَبُ القضاء الجارِى ذِكْرُ مثله فى العُهُود ، والنظرُ فى أمر النُّوّاب وكُتَّاب الحكم والشُّهود ؛ فهو به أدرَبُ وأدرَىٰ، وبمعرفة ذٰلك لهم وعليهم أحقُّ وأحرىٰ ؛ غير أنَّا نُوصِيه بالتثبت فى أمر الدِّماء وعَلاقتِها، وتحقُّق حكمها قبلَ الحُكم بإراقتها ؛ فإنَّ ذٰلك لمادّة القلَق فيها أحْسَم ، ومن تَبِعاتها فى الدارين أسْلَمَ ؛ والوصايا كثيرةٌ

ولكنّها منــه تُستفاد، وعنــه تؤخَذُ وإلـيـه تُعاد؛ والله تعالىٰ يتولّاه، ويحُوطه فيما ولّاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فـا فوق مَنصبه منصبٌ يتمنّاه؛ والاعتمادُ ... ...[1] إن شاء الله تعـالىٰ .

وكُتب لستٍّ إن بَقِين من شهر رجب الفردِ عامَ أربع وثمـانمـائة، حسَبَ المرسوم الشريف، بمقتضىٰ الخط الشريف .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء القُضاة الحنفيّة بدِمَشْق، من إنشاء القاضى ناصر الدين آبن النَّشَائى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَنَـارَ الشَّرع الشريف مستمِرًّا علىٰ الدَّوام، وشَمَلَ مَنْصِب الحكم العزيز للعالِم بعد العالِم علىٰ مَمَرّ الأيام، وأجملَ آنتخابَ من يقُوم بأعباء القضايا، ومن تدُوم به مَزَايا السَّجايا ، فيتخيَّر لذٰلك الإمام بعد الإمام ؛ وأقبل بوجْه آجتبائه علىٰ ولىٍّ تتأكَّد بإنصاته وإنصافه إحكامَ الأحكام، وعدَل باعتنــائه إلىٰ تعيينِ من ترتفِع به فى العلوم أعلامُ الإعلام، ومن يتأيَّد به الحقُّ فى كل نقضٍ وإبْرام .

نحمده علىٰ نِعَمه الوافرة الأقسام ، السافرةِ [اللثـام] عن وجُوه الزيادة الوِسَام ، ونشكره علىٰ مِنَنه الجِسام، ومَوَاهِبِـه التى لا تبْرَحُ ثغُورُ إحسانهـا لذَوِى الاستحقاق واضحةَ الابْتِسام .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً كفيلةً بالمَرام، مُنِيلةً للإكرام، جميلةَ التلفُّظ والالتِئام، جزيلةَ الكَنَف والاعتِصام؛ ونشهَد أنّ محمّدًا عبدُه ورسوله الذى أقام اللهُ به شعائرَ الإسلام، وأظهر شرائعَ الدين الحنيف بحُسَامِ نصره الحَسَّام،

(١) أى إلىٰ آخر مايكتب فى مثله ، وحذفه من باب الاختصار .

وأورثَ مَنْ أهَّله من أُمَّته كُنوزَ العلوم التى لاتنفَـدُ فوائدُها مع كَثْرة الإنفاق مدَى السنِينَ والأعْوام، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَدَوْا المؤمنين بإلْهام الكَلاَم، وعَدَوْا علىٰ المشركين بسِهَام الكِلاَم، وأبدَوْا من إرشادهم إلىٰ خَفَايا القضايا ما يظْهَر بتهذيبهم ظُهورَ بدْر التَّمـام، صلاةً دائمةً باقية تُجْزِل لقائلها الأجْر التام، وتُرْسِل إليـه سحائبَ المواهب هاطلةَ الغَمَام، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من تَذَهَّب به مذْهبُه، وتحلَّى به محلُّ الشرع الشريف ومَنْصبُه، وأنار بنُور إرشاده ليلُ الشك وغيهبُه، وسَهُل بتقريبه علىٰ فَهْم الطالب مطْلَبُه، وهمىٰ به وابِلُ العلم وصيّبُه، وأُتيح به للستفيد كنْزُ الفوائد التى يَدْنُو بهـا أرَبُه، وشِيمَ من برق شِيَمِه بالشام ماوُجِد فى الجَوْد صادقُه وفُقِـد خُلَّبُه ــ مَنْ علا فى العلوم نسَـبُه، وتأكَّد فى الدين سببُه، وشَـيَّد مبْنىَّ المَعَالى مُعْرَبُه، وصقَل مَرَايا الأفهام مُهَذَّبُه، وزاحمَ منكبَ الجَوْزاءِ فى آرتفاع القَدْر منْكِبُه، وجمَّل مواكب المباحث فى الأُصول والفروع موْكِبُـه، وسحَّتْ بدقائقِ الحقائق سُحُبه، وآشـتاق إلىٰ قُرْبه موطنُ الحكم العزيز فمـا زالَ يرتقِبُـه، وآرتاحَ الزمانُ إلىٰ عَفَافه وإنصافه فأرشـد حيثُ نختارُه لذلك وننتخبه .

ولمـا كان المجلس العالى ... ...[1] أيَّد الله أحكامَه هو الذى أرشَدَ الطالِبين فى البِـدايه[2]، وأفاد المنتهين درجَاتِ النِّهايه، وأفهمَ المستفيدينَ صوابَ الهِـدايه، وغدا سابِقًا [فى] حَلْبة العُلماء إلىٰ أقصىٰ غايه . كَمْ قَرَّب إلىٰ الأذهان غامِضَ المُشْكل وأوضَحَ مفهُومه، وكَمْ أشاع فرائد فوائده التى طَبَّق الأرض بها عُلُومَه، وكم أباحَ لَقْطَ ألفاظه المشحونةِ بالحِكَم فتحلَّى الناس بدُرَرها المنثورةِ والمنظُومه؛ معَ ماله من دِينٍ

(١) بياض بالأصل متروك لتكملة الألقاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز عامىّ نص عليه آبن برّى وجماعة" .

متين ، وآستحقاق للتقدّم مبين ، وصلاح بلغ به درجات المتّقين المرتقين، وآتباع لسُنَن الحق فى الحُكم بين الخَلْق عن يقين ـ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن يُقْرَن منصِبُ القضاء بجماله ، وأن يُعوّض عن إمامه المفقود بإمامه الموجُود ليستمرّ الأمرُ علىٰ حاله .

فلذٰلك رُسم ... ... ـ لا زالت أئمةُ العلم الشريف فى أيامه يخلُف بعضُهم بعضا، وأقدارهم تدُوم رفعتُها مدىٰ المُدَد فلا تجد نَقْصا ولا نقضًا ـ أن يُفوّض[1] ... ...

فلْيباشِرْ ذٰلك بعلمه المأثور،وحُكْمه المشهور، وإنصافِه الذى يَعْدِل فيه، وآتصافه بالحق الذى ما بَرِح يُوفيه ؛ قاضيًا بينَ الخصوم بما أمر اللهُ عزَّ وجل، مراقبًا لخشية الله علىٰ عادَتِه، مُذيعًا لِلمِلّة الحنيفيّة أنواعَ إفادته ؛ قاطعا بنَصْل نَصّه مُشْكِل الإلباس، جامعًا فى أحكامه المسدَّدة بمقتضىٰ مَذْهبه بين الكتاب والسُّنّة والقياس . والوصايا كثيرةٌ ومِلَاكها التقوىٰ وهى مادّتُه، وطريقُه المستقيمُ وجادّتُه؛ وما زالتْ عُمْدَتَه التى يعتمِدُ عليها، وعدّتَه التى يستند فى إسناد أمْرِه إليها؛ والله تعالىٰ يجمّل الأيام بأحكامه، ويبلّغه من خير الدنيا والآخرة غايةَ مُراده ومَرَامه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضاة المالكيّة أيضا، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين البساطىّ المذكور عند عَوْده إلىٰ الوظيفة، لأربع بَقِين من ذى القَعدة سنة سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلالِ الدين عبدالرحمن البُلْقينىّ إلىٰ قضاء قُضاة الشافعيّة أيضا، وهى :

---

(١) بياض فى الأصل والمراد واضح مما تقدّم .

الحمدُ لله الذى أعاد لرُتْبة القضاء رَوْنَق « جَمالِها » وأسعدَ جَدَّها بأسعد قِرانٍ ظهرَتْ آثارُ يُمْنِه بما آثرتْه من ظُهور «جَلَالِها»، وأجاب سُؤْلها بأجَلّ حاكمٍ لم تَعدِل عنه يوما فى سُؤالِها ، وأسعَدَ طَلِبَتَهَا بأكملِ كُفءٍ لم تَنفكّ عن خِطْبته وإنْ أطال فى مِطَالِها ، وأكرم مآبَها بأكْرمِ كافٍ ما فاتَها مَنالُ ماضٍ إلا أدركَتْه به فى مآلِها .

نحمَدُه علىٰ أنْ أُعطِيَتِ القوسُ بارِيها ، وأُعِيدت مِياهُ الٱستحقاقِ إلىٰ مَجارِيها ، ورُدّتِ الشاردةُ إلىٰ مالكٍ أَلِفَت منه بالآخرةِ ماأَلِفتْ من خيره فى مَبَادِيها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَحْقق بالإخلاص مَنَاطُها، ويزدادُ مع طول الأمَد نَشَاطُها، ولا ينطَوِى علىٰ مَرّ الأيامِ ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بِساطُها . ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أفضلُ نبىّ رَفَع قواعدَ الدين وشَاد، وقامَ فى الله حقَّ القيام فحَسَم بسَيف الشرع مادّةَ الفَساد، وأحكم بسَدِّ الذّرائع سِدادَ الأمور فجرت أحكامُ شريعتِه المطهَّرة علىٰ السَّدَاد ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱستُنْشِق من مَعْدَلتهم أطيبُ عَرْف، وخُصُّوا من صفات الكمال بأحْسَن حِلْية وأكمل وَصْف ؛ صلاةً تُوهِى عُرا الإلحاد ، وتفصِمُها، وتَبُكُّ أعناقَ أهل العِنَاد، وتَقْصِمُها، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فلاخفَاءَ فى أنَّ الأبصار تتشوَّفُ لرؤية الهلال مع قُرْب الغَيْبة للأخذ منه بنصيبِها ، والشمسَ يُترقَّب طلُوعها فى كلِّ يومٍ وإن قرُبَ زمانُ مَغيبِها ، والمسافرَ يُسرُّ بإيابه وإنْ تكرر قُدُومه من بَعيد المسافة وقَرِيبها ، والسَّهرانَ يتطلَّع من ليلتِه الطويلةِ إلىٰ طُلُوع فَجْرها ، والمَنَاصبَ السنيَّة تأرِز إلىٰ مستحقِّها كما تأرِزُ الحيَّة إلىٰ جُحْرها .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضَوِىّ، (إلىٰ آخر ألقابه) أعزّ الله تعالىٰ أحكامه هو الذى حُمِدت فى القضاءِ آثارُه، وسارتْ بحُسْن السِّيرة فى الآفاق أخبارُه، وحَسُن بحُسْن تأتّيه فى الوِرْد والصَّدَر إيرادُه و إصْدارُه ؛ وتنافَس فى جميل وَصْفه الطِّرْس والقَلَم، وظهرَتْ فضائلُه (ظهورَ نار القِرىٰ ليْلا علىٰ عَلَم)؛ ونشرَتِ الأيّام من عُلُومه ماتُطْوىٰ إليه المَراحل، وجادَتْ مَواطِرُ فكره بما يُخْصِب به جَنابُ المَرْبَع الماحِل؛ وعَمَرتْ من منْصِب القضاء بولايته مَعاهِدُه، وجرتْ بقضايا الخير فى البَدْء والعَوْد عوائدُه؛ ونفذَتْ بنَفَاذ أوامره فى الوجود أحكامُه، ورُقِم فى صحائف الأيّام علىٰ توالى الدُّهور نقضُه و إبرامُه ؛ وسُجِّل بثُبوت أحقِّيته فانقطعَتْ دُونَ بلوغ شأْوِه الأطماع ، وحُكِم بمُوجَب فضله فانعقَد علىٰ صحّة تقدُّمه الإجماع ؛ ففرائدُ فوائده المُدَوّنة تُؤْذِن بالبَيان والتحصيل ، ومُقَدِّمات تنبيهاتِه المحقِّقة، تكفِى نتائجُ إفضالها عن الإجمالِ والتفصيل؛ وجواهرُ ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرةُ التى تُقْتنىٰ، ومَداركُ مَعانيه الفائقة، حَسْبُك من ثَمرةِ فكرٍ تُجْتنىٰ؛ وتهذيبُ إراداته الواضحة تُغْنى فى إدراكها عن الوَسائل ، وتحقيقُ مسائله الدقيقةِ تُحَقِّق فيها أنها عُيونُ المسائل ــ وكانتْ وظيفةُ قضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية فى رفِيع رتبتها، ووافر حُرْمتها، قد ألقتْ إليه مقاليدَها ، و رفعتْ بالانْتماء إلىٰ مجلسه العالِى أسانيدَها ، وعرفَتْ محلَّه الرفيعَ فتعلَّقتْ منه بأعزِّ مَنال، وحظِيَتْ بجماله اليُوسُفىّ المرَّةَ بعد الأُخْرىٰ فقالتْ : لابَرَاحَ لى عن هذا الجَمال ؛ وعجِمَتْ بتكَرُّر العَوْد عُودَه فأعرضتْ عن السِّوىٰ ، وقرّتْ بالإيابِ إليه عَيْناً «فأَلْقتْ عصَاها وآستقرّ بها النَّوىٰ» ــ آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُعيد الوظيفةَ المذكورةَ إليه، ونُعوّل فى آستكشاف مُشْكلاتِ الأحكام علىٰ ما لدَيْه ، إقرارًا للأمر فى نِصَابه، وردًّا له بعد الشِّرَاد إلىٰ مَثَابه ، وإسعافًا للمَنْصب بطَلِبَته وإن أتعَبَ غيرُه نفسَه فى طلابه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُبْدِئ المعروفَ ويُعيده، ويُوَفِّر نصيبَ الأولياء ويَزيدهُ ـ أن يفوّضَ إلىٰ المجلس العالى المشار إليه قضاءُ القُضاة بمَذْهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مَالِك بنِ أنَسٍ الأَصْبَحِىّ» رضى الله عنه، علىٰ جارى عادته المتقدِّمة فى ذٰلك . وأن يُضافَ إليه تدريسُ قُبَّة الصالح والأنظارُ الشاهد بها توقيعُه الشريف، وأن لا يقَرَّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدرِّس ومُعيد إلا بتعيينه، علىٰ أتم العوائد وأجملها، وأعمِّ القواعد وأكملها .

فليعُدْ إلىٰ رُتْبتــه السنيَّة برفيع قَدْره وعلِيِّ هِمَّتــه، ويقابِلْ إحسانَنا بالشكر تُحفْه بمزيد الإقبال إذ لا زيادةَ فى العُلو علىٰ رُتْبته . ثم أوّل ما نُوصيه به، ونؤكِّد القولَ عليــه بسبَبه، تقوىٰ الله التى هى مِلَاك الأمور كلِّهــا، وأولىٰ المفترَضات فى عَقْــد الأمور وحَلِّها ؛ فهى العِصْــمة التى مَنْ لجأ إليها نَجَــا، والوقايةُ التى ليس لِمنْ حاد عنها من لَحَاق قَوَارِع الله مُلْتَجا . ونُتْبِــعُ ذٰلك بالتلويح إلىٰ الآحتيــاط فى المسائل التى تفرّد بها مذهَبُــه الشريف ضِيقا وسَعَه، وآختَصَّ بهــا إمامُه الأصبَحِىّ دُون غيرِه من الأئمة الأربعَه ؛ وهى مسائلُ قليــله، آثارُها فى الورىٰ كثيرةٌ جليله ؛ منها سَفْكُ دمِ المتنقص والسابّ، وتحَتُّمُ قتله علىٰ البَتِّ وإن تابْ ؛ فعليه أن يأخُذ فى ذلك بالآهتمام، ولا يُعْطِىَ رُخْصة فى حقِّ أحدٍ من الأنبياء والملائكةِ عليهم السَّلام، ليكون ذٰلك وسـيلةً إلىٰ الخُلوص عن القَــذىٰ، وذريعةً إلىٰ سلامة الشَّرَف الرفيع من الأَذَىٰ ؛ إلا أنَّا نُوصِــيه بالتثبُّت فى الثُّبوت، وأن لا يعجَلَ بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يُمكِنُ تداركُه بعــد أن يفُوت . ومنهــا : الشهادةُ على الخط وإحياءُ ما مات من كُتُب الأوقاف والأملاك، وتقريبُ ماشَطَّ فلا يَقْبَلْ فيه إلا اليقظَ الواقفَ مع تحقُّقه دُونَ حَدْسه، ولا يطلِق عِنــان الشُّهود فإنَّ الكاتب ربمــا آشتَبَه عليه خَطُّ

نَفْسه ـ ومنها : ثُبوتُ الولاية للأوصياء، فيُجْريها علىٰ اعتقاده، ولكن إذا ظهرَت المصلحةُ فى ذٰلك علىٰ وَفق مُراده ـ ومنها : إسقاطُ غَلَّة الوقف إذا استُرِدَّ بعد بيعه مدّةَ بقائه فى يَد المشترى، تحذيرا من الإقدام علىٰ بيْع الوقف وعقوبةً رادعةً لبائعه المجترِى . إلىٰ غير ذٰلك من مسائل الانفراد، وما شاركه فيه غيرُه من المذاهب لمُوافقة الاعتقاد، فيُمضى الحكمَ فيه بأقوى العزائم، ويُلزِم فيها بما استبانَ له من الحقِّ ولا تأخُذه فى الله لَوْمةُ لائم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا الراجعة إلىٰ أدَب القضاء فلدَيْه منها الخُبْر والخَبَر، ومنه تُستملىٰ فوصيَّته بها كنَقْل التَّمْر إلىٰ هَجَر، والله تعالىٰ يعاملُه بلُطْفه الجميل، ويحُفُّه بالعناية الشاملةِ فى المُقَام والرَّحيل، إن شاء الله تعالىٰ، والاعتماد ... ...

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الحنابلة ، وهى :

الحمدُ لله الذى أطلع فى أُفُق الدِّين[1] القَيِّم شمسًا مُنيره، ورفع درجةَ مَنْ جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحُكْم علىٰ بَصيره، وقلَّد أمورَ الأئمة بمن يَعْلَم أنَّ بين يدَيْه كتابا لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيره، ووَفَّق لفصل القَضاء مَنْ مَشىٰ علىٰ قَدَم إمامه الذى ادَّخَر منه للحكم فى أيَّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضَلَ ذَخيره، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تَحَلّىٰ به بعد العَطَل وكلُّ قَضاءٍ خيره، وأيقظ عنايتَنا لمن رقد الدهرُ عن فضله فباتتْ عينُ الاستحقاق باستقرار رُتْبته قريره .

نحمده حمدَ من توافَتْ إليه النِّعم الغزيره، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرة فى المُدَد اليسيره، وأخصبَتْ فى أيَّامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالِمٍ عدِمَ النظيرَ نَضيره،

(١) تقدّمت فى تقليد حنفى بأطول من هذا وببعض تغيير .

وآفتتح دولَتَه برفع مَنَار العدل فآمالُ أهلِ الظلم عن تَعاطِيه قاصرةٌ وأيْدِى أهل الباطِل عن الآمتداد إليه قَصِيره ، وخَصَّ المَنَاصبَ فى ممـالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّسَتْ بها هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدتْ إليها أبصارُ مَنْ دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُصْلِـحُ العَلَن والسَّرِيره ، وتُصْبِـح بها القلوبُ مُوقِنةً والألسُن ناطقةً والأصابعُ مُشِيره . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى بعث اللهُ به الرسلَ مخبِرةً وأنزل الكُتُبَ بمَبْعثه بَشِيره ، وآجتباه فى خير أُمةٍ من أكرم أَرُومةٍ وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوار مِلَّته إلا لمن أعمى الغىُّ بصيرتَه وهل تنفَـع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صـلاةً تَتَقَرَّبُ بدوامها إلى الله فيضاعِفُها لنا أضعافا كَثِيره ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ أَوْلى الأمور بأن تُشادَ قواعدُه ، وتُتَعهَّد معاهدُه ، ويُعلىٰ مَنَارُه ، وتُفاضَ بطلوع شَمْسِـه أنوارُه ، وتُكَمَّل به قُوى الدين تكملةَ الأجسادِ بقُوىٰ الطبائع الأربَع ، وتُعمَّرَ به ربوعُ الملة التى ليس بعدَها من مَصِيف لِملَّة ولا مَرْبَع ، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالةِ بعضِها من مَطْمَع ، أمرُ القضاء علىٰ مذْهَب الإمام الرَّبَّانىّ « أحمد بن حنبـل » رضى الله عنه ، وكان قد خَلَا بانتقال مباشره إلىٰ الله تعـالىٰ ، وتوقَّف مدّة علىٰ آرتيـاد الأكْفاء ، والإرشاد إلىٰ من هو أهـل الاصـطفاء ، وآختيار من تكمُل به رِفعـةُ قَدْره ، ويُعيـد لدَسْته علىٰ بِساط سُليمانه بهجةَ صَدْره .

ولمـا كان فلانٌ هو المنتَظَر لهذه الرُّتْبة آنتظارَ الشمس بعـدَ الغَسَق ، والمرتَقَب لبُلوغ هـذه المنْزلة التى تقدّمت إليها بَوَادرُ آستحقاقه فى السَّـبَق ، والمعطوفَ علىٰ الأئمة من أصحاب إمامه ـ وإن تأخر زمانه ـ عطْفَ النَّسَـق ؛ وهو الذى ما زالَ

يعدِلُ دَمَ الشهداء مِدادُ أقلامه ، وتضَعُ الملائكةُ أجنحتَها رضًا بمـا يَصْنَع من نَقْل خُطُواته فى طلب العـلم وسَعْى أقدامه ، ودخل من خَشْـية الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّمـا ، وهجر المَضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّتْ هَجَعاتُه لقلّـا ؛ وهَجّر فى إحراز الفضائل فقيّـد أوابِدَها ، وأحرَزَ شوارِدَها ؛ ولَجّج فى بِحـار المعانى فغاص علىٰ جواهِرِها ، ونظَر نظْرةً فى نُجوم العلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وزار خمائِلَ الفضائل [فاستوى] علىٰ أزاهِرِها ؛ وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبه فبَرَّز علىٰ مَنْ سلف ، وجارىٰ علمـاء عصره فوقفتْ أبصارهم عن رؤية غُباره وما وقَف ؛ وتعيّن عليـه القضاء وإن كان فرضَ كفايةٍ لافرضَ عيْن، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رتبَته همزةَ آستفهام ورُتْبـة غيره بيْنَ بين ــ آقتضى رأيُنـا الشريف آختصاصَه بهـذا التمييز، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظِ الوجيز .

فلذٰلك رُسم أن يفوَّضَ إليه كَيْت وكَيْت . فليتولَّ هـذه الرتبةَ التى أصبح فيهـا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نائبًا وبشَرْعه قائمـا، ويتقلّدْها تقلُّد من يعلم أنه قد أصبح علىٰ حُكم الله تعـالىٰ مقدِّما وعلىٰ الله قادِما، وَيتثبتْ تثبُّت من يعتصِم بحبـل الله فى حكمه فإنّ أحدَ الخَصْـمين قد يكون ألحنَ بحجّته وإن كان ظالمـا ، وَيلبَسْ لهذا المنصِبِ حُلّةً تمنَعُ المبطِل من الإقدامِ عليه، وتدفَعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نزعه الشرعُ الشريفُ من يديه، ويُؤَمِّن الحقَّ من آمتداد يَد الجَوْر والحَيْف إليـه ؛ وليُسَوِّ بين الخصمين فى مجلِسـه ولحظه، ويعدِلْ بينَهما فى إنصاته ولفظه : ليعلَمَ ذُو الجـاه أنّه مساوٍ فى الحقّ لخصمه ، مكفُوف باستماع حُجّته عن الطمع فى ظُلْمه ؛ ولا ينقُضْ حكمًا لم يخالِف نصّا ولا سنّة ولا إجماعا، وليشارِكْ فيما لا يجهلُه من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيّد بذلك مع اطلاعه آطّلاعا، وليغتنِمْ فى ذلك الآستعانة

بآرائهم : فإنّ الله تعالى لاينتزع هذا العِلْمَ انتزاعا؛ وليسُدَّ مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعىَ الغضب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحكم بما أراه الله ﴿ واللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ .

وهذه نسخة وصية أوردها فى "التعريف" تشمَل القُضاةَ الأربعةَ ، قال : وصيةٌ جامعةٌ [لقاضٍ](1) من أىّ مذهب كان ، وهى :

وهذه الرُّتبة التى جعل اللهُ إليها منتهىٰ القَضَايا ، وإنهاءَ الشَّكَايا ؛ ولا يكون صاحبها إلا من العُلَماء ، الذين هُم ورثةُ الأنبياء ؛ ومتولّى الأحكام الشرعيّة بها كما ورث عن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم علمَه ، كذلك وَرِث حُكْمَه ؛ وقدأصبح بيده زِمامُ الأحكام، وفَصْلُ القضاء الذى يُعرَض [بعضه](1) بعدَه علىٰ غيره من الحُكّام؛ وما منهم إلا مَنْ ينقُدُ نَقْدَ الصيرَفِىّ، وينفُذُ حكمُهُ نفاذَ المَشْرَفِىّ؛ فليتروَّ فى أحكامه [قبل إمضائها ، وفى المحاكمات اليه](1) قبلَ فَصْل قضائها؛ وليراجع الأمرَ مرّةً بعد مرّةٍ حتى يزُولَ عنه الاِلتباس ، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمّل كتابَ الله وسنّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماعَ والقِياس؛ وما أشكل عليه بعد ذلك فليُجَلِّ ظُلَمه بالاستخاره، وليُحُلَّ مُشْكِله بالاستشاره ، ولا يرَ نَقْصا عليه إذا آستشار فقد أمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم بالشُّورىٰ، ومن مِنْ أوّل السَّلَف مَنْ جعلها بينَه وبينَ خطَإ الاجتهادِ سُورا ، فقد يَسْنَح للرء ما أعيا غيرَه وقد أكثر فيه الدَّأب ، ويتفطّن الصغيرُ لما لم يَفطَنْ إليه الكبيرُ كما فَطِن آبنُ عمر رضى الله عنهما للنخْلة [و] مامَنَعه أن يتكلّم إلا صغرُ سِنّه ولُزُومًا مع من هو أكبرُ منه للأدب؛ ثم إذا وضح له الحقّ

(1) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضىٰ به لمستحقِّه ، وسَجَّل له به وأشهد علىٰ نَفْسه بثُبوت حقِّه ؛ وحكم له به حكما يَسُرُّه يوم القيامة أنْ يراه، وإذا كَتَب له به، ذُكِر بخَيْر إذا بَلِيَ وبَقِيَ الدهرُ ما كَتَبَتْ يداه . وليسوِّ بينَ الخصوم حتَّى فى تقسيم النظَر، وليَجْعلْ كلَّ عمله علىٰ الحَقِّ فيما أباحَ وما حظَر ؛ وليُجِد النظرَ فى أمرِ الشهود حتّىٰ لا يدخُلَ عليه زَيْف ، وليتحَرَّ فى آستيداءِ الشهاداتِ فرُبَّ قاضٍ ذُبِح بغير سِكِّين وشاهدٍ قُتِل بغير سَيْف ؛ ولا يقْبَلُ منهم إلا مَن عُرِف بالعَدَاله ، وأُلِف منه أن يَرىٰ أوامرَ النفْس أشدَّ العِدَا له ـ وغيرُ هؤلاء ممن لم تَجْرِ له بالشهادة عاده ، ولا تَصدّىٰ للآرتزاق بسُحْتها ومات وهو حَيٌّ علىٰ الشَّهاده ، فليَقبلْ منهم من لا يكونُ فى قَبُول مثله مَلَامه ، فرُبَّ عدلٍ بين منطقةٍ وسَيْف وفاسقٍ فى فَرَجِيَّة وعِمامه ـ ولينقِّب علىٰ ما يصدُر من العُقود التى يؤسَّس أكثرُها علىٰ شَفَا جُرُف هار ، ويُوقِع فى مثل السِّفَاح إلا أنَّ الحُدودَ تُدْرأ بالشُّبُهات ويبقىٰ العار ـ وشهودُ القِيمة الذين يَقْطَع بقولهم فى حقِّ كلِّ مستحقٍّ ومالِ كلِّ يتيم ، ويُقلَّد شهاداتِهم علىٰ كل أمرٍ عظيم ؛ فلا يُعوِّل منهم إلا علىٰ كلِّ رَبِّ مالٍ عارفٍ لا تخفىٰ عليه القِيَم ، ولا يُخاف معه خَطأ الحَدْس وقد صقَل التجريبُ مِرْآةَ فهمه علىٰ طُول القِدَم . وليتأَنَّ فى ذٰلك كلِّه أناةً لا تَقْضِى بإضاعة الحقّ، ولا إلىٰ المُطاوَلة التى تُفْضى إلىٰ مَلَلِ من آستحق . وليمهِّدْ لرَمْسه ، ولا يتعَلَّل بأنَّ القاضىَ أسيرُ الشهود وهو كذٰلك وإنما يَسْعىٰ لخَلَاص نفسِه ـ والوكلاءُ هم البَلاءُ المُبْرَم ، والشياطينُ المسوِّلُون لمن تَوكَّلُوا له الباطلَ ليُقضىٰ لهم به وإنما تقطع لهم قِطعةٌ من جهنَّم ، فليكُفَّ بمهابته وَساوِسَ أفكارِهم ، ومَساوِىَ فُجَّارهم ؛ ولا يدع لجَنْىٰ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنُوعه ، ولا يدَ آعتداء تمتدُّ إلا مغلولةً إلىٰ عُنقه أو مقطُوعه . وليطهِّر بابَهُ من دَنَس الرسل الذين يمشُون علىٰ غير الطريق ، وإذا رأىٰ واحدٌ منهم درهما ودَّ لو حصل فى يَده ووَقَع فى نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثلُه أن يُوصىٰ ،

ولا أن يُحصىٰ عليه منه أفرادُ عَمَلِه وهو لا يُحْصىٰ ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظَرَ العُموم ، فليعمُرْها بجميل نظره فرُبَّ نظرةٍ أنفعُ من مواقع الغُيوم ؛ وليأخُذْ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهم بالتقديم ، وتفاوتَ بُعــدُ ما بينه و بينهم حتّى صار يُزيلُ عارضَ الرجُل منهم النظرةُ [منه] ويأسُو جِراحَه منه التكليم . وهذه الوصايا إنمـا ذُكرت علىٰ سبيل الذِّكْرى ، وفيه ـ بحمد الله ـ أضعافُها ولهذا ولَّيناه والحمدُ لله شُكْرا ؛ وقد جعلنا له أنْ يستنيبَ مَنْ يكون بمثل أوصافِه أو قريبًا من هذه المَثابه ، ومن يرضي له أن يحمل عنه الكَلَّ و يقاسِمَه ثَوابه ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ هى جِماعُ الخير ولا سيَّمـا لصاحب هذه الوظيفه ، ولمنْ وليها أصْلا وفرْعًا لا يستغني عنها ربُّ حُكْم مطلقُ التصرُّف ولا خليفه .

ويُزاد الشـافعيّ :

وليعلَمْ أنه صدرُ المَجْلس ، وأنه أدنىٰ القوم وإن كانوا أشباهَه منا حيثُ نَجْلس ، وأنه ذُو الطَّيْلَسَان(1) الذى يخضَع له ربُّ كلِّ سيف ويُبْلس ؛ ولْيتحقَّقْ أنه إنمـا رفعه علمُه وتُقاه ، وأنَّ سبَبَ دينه لادُنْياه هو الذى رَقَّاه ؛ فليقدُرْ حقَّ هذه النِّعم ، ولْيقف عند حدّ منصِبه الذى يَوَدّ لو اشترىٰ سَوادَ مِدَاده بحُمْر النَّعَمْ .

ويقال فى وصيته : وأمرُ دَعاوىٰ بيتِ المـال المعمُور ، ومحاكماتِه التى فيها حقُّ كل فردٍ فرد من الجمهور ؛ فليحترِزْ فى قَضايَاها غايةَ الاحتراز ، وليعمَلْ بمـا يقتضيه لهـا الحقُّ من الصِّيانة والإحْراز ؛ ولا يَقبَلْ فيها كلَّ بينةٍ للوكيل عن المسلمين فيهـا مَدْفَع ، ولا يعمَلْ فيها بمسألة ضعيفة يظن أنهـا ما تَضُرُّ عند الله فإنها ما تَنْفَع ؛ وله حقوق فلا يجِدُ من يَسْعىٰ فى تملُّك شيءٍ منها بالباطل منه إلا اليأس ، ولا يلتفت إلىٰ مَن رَخَّص لنفسه وقال : (هو مالُ السلطان) فإنَّه مالنا فيه إلا ما لِوَاحِدٍ من الناس .

(1) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثلثة .

وأموال الأيتام الذين حَذّر اللهُ من أكل مالهم إلا بالمعْروف لا بالشُّبُهات، وقد مات آباؤُهم ومنهم صغارٌ لا يهتَدُون إلىٰ غير الثدْى للرَّضاع ومنهم حملٌ فى بطُون الأُمَّهات؛ فليأْمُرِ المتحدّثين لهم بالإحسانِ إليهم، وليعرِّفْهم بأنهم سيُجْزَوْن فى بَنِيهم بمثل ما يعمَلون معهم إذا ماتُوا وتَرَكُوا ما فى يدَيْهم، وليُحَذِّرْ منهم من لاولد له : ﴿ولْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافُوا عَلَيْهِمْ﴾ . وليقُصَّ عليهم فى مثل ذٰلك أنباءَ من سَلَف تذْكيرا، وليتْلُ عليهم القرآنَ ويُذَكِّرْهم بقوله تعالىٰ : ﴿إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. والصدقاتُ الموكولة إلىٰ تَصريف قلَمه، المأكولةُ بعَدَم أمانةِ المباشرين وهى فى ذمّته، يتيقّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه استحقاقها، والعملِ بما لا يجب سِواه فى أخذها و إنفاقها . والمسائلُ التى تفرّد بها مذهَبُه وتَرَجَّح عنده بها العَمَل، وأعدَّ عنها الجوابَ لله إذا سأل، لا يعمَلْ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهب إمامه أوعليه أكثرُ الأصحاب، ورآه قد حكَم به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجْحانه عنده وللاستصحاب . ونُوّابُ البَرّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقّق استحقاقَه، فإنه إنما يولِّيه علىٰ مسلمين لا عِلْمَ لأكثَرِهم فهم إلىٰ ذى العلم أشدُّ فقه؛ هذا إلىٰ ما يتعرّف من ديانتِهم ومن عَفَافهم الذى يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبر من الفاقة وهو به يتَحَلَّى، ثم لايزال له عينٌ عليهم فإنَّ الرجال كالصناديق المُقْفَلة لايُعرف الرجلُ ما هو حتّى يتولّى .

ويزاد الحنفىّ :

وليعلَمْ أن إمامه أوّلُ من دوّن الفقْه وجَمعه، وتقدّم وأسبَقُ العلماء من تَبِعه؛ وفى مَذْهبه ومذاهب أصحابه أقوال فى المذْهَب، ومسائلُ ما لحقه فيها مالك وهو أوّلُ

مَنْ جاء بعدَه وممَّن يُعَدّ من سوابقه أشهَب؛ ومن أهمها تزويجُ الصّغائر، وتحصينُهن بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكبائر؛ وشُفْعةُ الجوار التى لو لم تكُنْ من رأيِهم لما أَمِنَ جارُ السُّوء علىٰ رَغْم الأُنوف، ولأقام الرجلُ الدّهرَ ساكنًا فى داره بينَ أهله وهو يتوقّع المَخُوف؛ وكذلك نفقةُ المعتدّة التى هى فى أَسْر من طلّقها وإن بُتَّتْ من حِبـاله، وبقِيَت لا هو بالذى يُنفِق عليها ولا هى بالتى تستطيعُ أن تتزوجَ من رجل يُنفِق عليها من ماله؛ ومن آستدانَ مالًا فأكله وآدّعَىٰ الإعسار، ولفّق له بينـةً أراد أن تُسـمع له ولم يدخُل الحَبس ولا أُرْهِق من أمره الأعسار، وأهـل مذهبه علىٰ أنه يُسجَن ويمكُثُ مُدّة، ثم إذا آدّعىٰ أنّ له بينةً أُحْضرت ثم هل تُقْبل أولا . فهذا وأمثاله مما فيه عمومُ صلاح، وعظيمُ نفعٍ ما فيه جُناح؛ فليقض فى هذا كلّه إذا رآه بمقتضىٰ مذْهَبه، وليهتَدِ فى هذه الآراء وسواها بقَمَر إمامه الطالع أبى حنيفة وشُهُبه؛ وليُحْسِن إلىٰ فُقَهاء أهل مذهبه الذين أدْنى إليه أكثَرَهم الاغتراب، وحلّق بهم إليه طائرُ النهار حيثُ لايحلّق البازى وجناحُ الليـل حيث لايَطير الغُراب؛ وقد تركوا وراءَهم من البلاد الشاسِعه، والأمداد الواسِعه؛ ما يُراعَىٰ لهم حقّه إذا عُدّت الحقوق، ويجمعه وإيّاهم به أبُوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنْسَب إلىٰ العُقُوق .

ويزاد المـالكىّ :

ومذهَبُه له السيْفُ المُصْلَت علىٰ مَنْ كفر، والمُذْهِب بدَمِ من طُلّ دمُه وحصل به الظّفَر؛ ومَن عَدَا قدْرَه الوضيع ، وتعرّضَ إلىٰ أنبياء الله صلواتُ الله عليهم بالقول الشّنيع؛ فإنه إنمـا يُقتل بسيفِه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيرا بقوله الذى به تفرّد؛ ولم يزلْ سيفُ مذهبه لهم بارِزَ الصّفْحه ، مسلّمـا لهم إلىٰ مالكٍ خازن النار من مذهب مالكٍ الذى مافيه فُسْحه؛ وفى هذا مايُصَرح غُدُر الدِّين من القَذىٰ، ومالم تُطَلّ دماءُ

هؤلاء (لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ)؛ وإنما نُوصيه بالتحرّى فى الثُّبوت ، [والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت ،][1] وإنما هو رجلٌ يَحيا أو يمُوت ، فليتمهّل قبل بَتّ القضاء ، وليُعذِر إليهم لاْحتمال ثبوتِ تفسيق الشهود أو بَغضاء ؛ حتّى لا يُعجِّل تِلافًا ، ولا يَعجَل بما لا يُتلافىٰ ، فكما أننا نُوصيه أن لاينقُضَ فى شَدّ الوَثاق عليهم إبراما ، فهكذا نُوصيه أن لايُصيب بغير حقّه دمًا حراما ؛ وكذلك قبول الشهادة على الخَطّ ، وإحياءِ ماماتَ من الكُتُب وإدناء ما شَطّ ؛ فهذا مما فيه فُسْحة للناس ، وراحةٌ مافيها باس ؛ إلا أنه يكون الثبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال ، لالتَزع يد ولا لإلزام بمجرّدها بمال ؛ وهكذا مايراه من ولايةِ الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقيه ، وفيه مصلَحة وإلا فما معنَى الوصيّه ؛ وهو زيادةُ احترازٍ ما تضُرّ مراعاة مثلها فى الأمور الشرعيّه ؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرَّيْع فى وقف آستُرِدّ وقد بيع ، وعُطْل المشترى من التكسُّب بذلك المال مدةً لا يشترِى ولا يَبيع ؛ وهذا مما يَبُتّ قضاءه فى مثله ، ويحلّ عقابَ من أقدم علىٰ بَيْع الوقف إحرامَه مدّةَ البيع من مَغَلّه ؛ وسوىٰ ذلك مما عليه العَمَل ، ومما إذا قال فيه قال بحقٍّ وإذا حكم عدَل . وفقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليلٌ ما هم ، وهم غُرَباءُ فليُحسِن مَأْواهُم ، وليكرم بكرمه مَثْواهم ؛ وليستقرّ بهم النّوىٰ فى كنَفه فقد مَلّوا طُول الدّرْب ، ومعاناة السفر الذى هو أشدُّ الحَرْب ، وليُنْسهم أوطانَهم ببِرّه ولا يَدَعْ فى مآقيهم دَمْعا يَفيض علىٰ الغَرْب .

ويُزاد الحَنْبلىّ :

والمُهِمّ المقدَّم ــ وهو يعلم ما حَدَث علىٰ أهل مَذْهبه من الشَّناعه ، وما رُمُوا به من الأقوال التى نَتْركها لما فيها من البَشاعه ؛ ونكتَفى به فى تَعفية آثارِها ، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١ .

أذاها عن طريق مَذْهَبه لتأمَنَ السالكةُ عليه من عِثارها ؛ فتعالىٰ الله أن يُعْرف بكَيْف ، أو يُجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف ، والانضمامُ إلىٰ الجماعة والحذَرُ من الانفراد ، و إقرارُ آياتِ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه من الاعتقاد ، وأنَّ الظاهرَ غيرُ المراد ، والخُروج بهم إلىٰ النُّور من الظَّلْماء ، وتأويل مالا بُدّ من تأويله مثلُ حديث الامَة التى سُئلت عن رَبِّها : أينَ هو فقالت فى السَّماء ؛ و إلا ففى البليَّة بإثبات الجهة مافيها من الكَوَارث ، و يلزم منها الحدوثُ والله سبحانه وتعالىٰ قديمٌ ليس بحَادِثٍ ولا محَلّا للحوادث ؛ وكذٰلك القولُ فى القرءان ونحن نُحذِّر مَنْ تكلَّم فيه بصَوْت أو حَرْف ، فما جزاء من قال بالصوت إلا سوطٌ و بالحرف إلا حَتْف ؛ ثم بعد هذا الذى يَزَعُ به الجُهَّال ، ويَرُدّ دُونَ غايته الفِكْرَ الجَوّال ، ينظُر فى أمور مذْهَبه و يعمل بكل ما صَحَّ نقلُه عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛ فقد كان رحمه الله إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناسُ تلكَ المُدَّة ، وقام نَوبةَ المحنة مقَام سيد تيْم ــ رضى الله عنه ــ نَوْبةَ الرِّدّة ؛ ولم تَهُبَّ به زُعزُعُ المَرِيسى وقد هبَّتْ مَرِيسا ، ولا آبْنُ أبى دُوَاد وقد جمع له كلَّ ذَوْد وساقَ إليه من كلِّ قُطْر عِيسًا ؛ ولا نَكَثَ عُهدةَ ما قدم له المأمونُ فى وصيَّة أخيه من المَوَاثِق . [ولا روَّعه سوطُ المعتصِم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثِق](1) .

فليَقفُ علىٰ أثره ، وليقِف بمسنَده [علىٰ مذهبه](1) كلِّه أو أكثره ، وليقض بمفرَداته وما آختاره أصحابُه الأخيار ، وليُقلِّدْهم إذا لم تختلِف عليه الأخبار ، وليحترِز لدينه فى بيع ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثمنه فى مثله ، والاستبدالِ بما فيه المصلحةُ لأهلِه ؛ والفَسْخ علىٰ من غاب مدّةً يسُوغ فى مثلها الفَسْخ ، وترْكَ زوجةً لم يترك لها

(1) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نَفقة وخلَّاها وهى مع بقائها فى زوجيّتــه كالمعلّقه ، و إطلاقِ سَرَاحها لتتزوّج بعــد ثُبوتِ الفَسْخ بشُروطه التى يبقىٰ حكمُها به حكْمَ المطلَّقه ، وفيما يمنع مُضارَّة الجــار ، وما يتفرّع علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : «لا ضَرَر ولاضِرَار» ، وأمرِ وقف الإنسان علىٰ نفْسه و إن رآه ســوىٰ أهل مذْهبه ، وطلَعتْ به أهلَّةُ علمــاءَ لولاهم لمــا جَلا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبه ، وكذلك الجوائح التى يخفّف بها عن الضُّعَفاء وإن كان لا يَرىٰ بها الإلزام ، ولا تجرى لدَيْه إلا مَجْرىٰ المصالحة بدليل الإلتزام ، وكذلك المعاملةُ التى لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لمــا أ كل أ كثَرُ الناس إلا الحرامَ المَحْض ، ولا أُخِذَ قِسْم الغِــلال والمعامِلُ هو الذى يزْرَع البُذُور ويحرُث الأرض ، وغيرذٰلك ممــا هو من مفرَداته التى هى للرِّفق جامِعــه ، وللرَّعايا فى أ كثر معايِشهم وأســبابِهم نافعه ؛ فإذا ٱستقرّت الفُروع كانت الأصولُ لها جامعَه[1] . وفقهاءُ مذهبِه هم الفُقَراء لقلّة المحصول وضَعْف الأوقاف ، وهم علىٰ الرِّقَّة كالرِّماح المعَــدّة للثِّقاف ، نخــذْ بخواطِرهم ، ومُدّ آمالَهم فى غائب وَقْتِهم وحاضِرهم ، وٱشمَلْهم بالإحسان الذى يُرَغّبهم ، ويقل به طلَبهم لوجوه الغنىٰ ويكْثُر طُلَّبهم .

---

(١) عبارة "التعريف" « واذا استقرت الاصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقـــــة الثـانية

(من أرباب الوظائف الدِّينية أصحابُ التواقيع ، وتشتمل علىٰ مَراتِبَ)

المرتبـــــة الأُولىٰ

(ما كان يكتَب فى النصف بـ«المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أوّلا ، وقد تقــدّم)

المرتبـــــة الثـانية

(ما يكتب فى قطع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وآعلم أنّ الأصل فيما يُكتب من التواقيع أنْ يفتتح بـ«أما بعــدُ» إلا أن الكُتّاب تسامحُوا فيــه فافتتحُوا لمن علَتْ رتبتُــه حيث آقتضىٰ الحــالُ الكتَابةَ له فى الثلث بـ«الحمدُ لله»، وأبقَوْا من آنحطّت رتبته عن ذلك علىٰ ما كان عليه من الآفتتاح بـ«أما بعد» وهــا أنا أُورِد ما سنح من ذلك مما أنشاه الكُتّاب فى ذلك من الآفتتاحَيْن جميعا . ويشتمل على وظائفَ .

الوظيفــــة الأُولىٰ

(قضاء العسكر)

وقد تقدّم فى المقالة الثانيةِ أنّ موضُوعها التحدّثُ فى الأحكام فى الأســفار السلطانيّة وأنّ له مجلسًا يحضُره بدار العَدْل فى الحَضَر . وقد جرت العادةُ أن يكون قُضاة العسكر أربعةً : من كلّ مذهَب قاضٍ .

وهذه نسخةُ توقيع شريف بقضاء العسكر المنصور بالحضْرة السلطانية، وهى :

الحمدُ الذى رفع للعلم الشريف فى أيامنا الزاهرة منارا ، وزاد بإعلاء رُتب أهله دولتنا القاهرة رفعةً وفخارا ، وزان أحكامه الشريفة بحكّامه الذين طلعوا فى غياهب مُشكلاته بُدُورًا وتدفقوا فى إفاضته فى الأحكام الشرعيّة بحارا .

نحمده على نعمه التى حلّت فجلّت ، ومننه التى أظلّت الجود فاستهلّت .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تكون لقائلها ذُخرا ، وتُعلى للتمسّك بها فى الملإ الأعلى ذِكرا ، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذى هو أسبق الأنبياء رُتبة وإن كان آخرهم عصرا ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أضحوا للمقتدين بهم شموسًا منيرة وللمهتدين بعلومهم نجوما زُهرا ، صلاةً لا تزال الألسن تُقيمها ، والأسماعُ تستديمها ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أولى من نوّهنا بذكره ، ونبّهنا على رفعة قدره ، وأطلقنا ألسنة الأقلام فى وصف مفاخره وشُكره ، وأثّلنا قواعد مجده التى لو رام بنانُ البيان استقصاءها حال الحَصَرُ دون حصره ، ونفّذنا كلم حُكمه ورفعنا فى أندية الفضائل ألوية فُنونه وأعلامَ نَصره ، من لم يزل دمُ الشهداء يسيلُ مدادَ أقلامه ، وتُقيمُ منارَ الهدى أدلةُ فضائله وشواهدُ أحكامه ، وتوضّح الحقّ حتى يكاد المتأمّل يلحظ الحُكم لوضوحه ويُبصره ، وينصُر الشرع بإمداد علمه ولينصرنّ الله من ينصُره ، وشيّد مذهب إمامه الإمام الفلانى فأصبح فسيحَ الأرجاء وإن لم يكن فيه فُسحه ، وجدّد قواعدَ العدل فى قضايا عساكرنا المنصورة فهو مُشاهَد من كَلِمه ومن نظره فى لمحه ملحه .

ولما كان فلان هو الذى نعتنا بما تقدّم من الخطاب خلائقه الحسنى ، وأثنينا على ما هو عليه من الإقبال على جوهر العلم دون التعرّض إلى العَرَض الأدنى ، مع ما حواه من موادّ فضائل تزكو على كثرة الإنفاق ، وفرائد فوائد تُجلب على أيدى

الطَّلَبة إلى الآفاق ؛ وقُوّةٍ فى الحق ، الذى لا تأخُذه فيه لومةُ لائم ، وعدْلٍ أحكام فى الخَلْق ، ألذّ من سِنَة الكرى فى جَفْن نائم - اقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن نوَطّد فى عساكرنا المنصورةِ قواعدَ أحكامِه ، ونُوطِّن كُلّا منهم على أنه تحتَ ما يُمْضيه فى أقضيته النافذة من نقضه وإبرامه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة : على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، وأن تُبْسط كلمتُه فى كلِّ ما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف . فليحكُمْ فى ذلك كلّه بما أراه الله من عِلْمه ، وآتاه من حِكَمه وحُكْمه ، وبيّن له من سُبُل الهدى ، وعيَّنه لبصيرته من سُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم التى من حادَ عنها فقد جار واعتدى ؛ وليقِفْ من الأحكام عند ماقرّرته الشريعةُ المطهَّرة من أحكام الله التى لا يعقلُها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كُلّا من المتقاضِين بالوقوف عند ماحُدّ له : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولٰئِكَ هم الظالِمُون﴾ . والوصايا وإن كثُرَت فمن مثله تُفَاد ، وإن جَلّت فسمْعُه فى غِنًى عما يُبْدأُ له منها ويُعاد ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالى التى هى شِعار أُنْسِه ، وحِليةُ يومِه وأمسِه ؛ والله تعالى يسدّده فى القول والعمَل ، ويوفّقه لما يرضاه ويصُونُه من الخَطَإ والخطَل .

⁂

وهذه وصيةٌ لقاضى العسكر ، أوردها فى "التعريف" وهى أن يُقال :

وهو الحاكم حيثُ لا تنفُذ إلا أقضيَةُ السيوف ، ولا تَزْدحِمُ الغرماء إلا فى مواقِف الصُّفُوف ؛ والماضى قلمُه وكلُّ خَطِّيّ يُمدّ بالدّماء ، والمضى سجلُّه وقد طوَى العَجاجُ كالكتاب سِجِلَّ السماء ؛ وأكثَرُ مايُتَحاكم إليه فى الغنائم التى لم تحِلّ لأحدٍ قبل هذه الأمّه ، وفى الشَّركة وما تُطلب فيه القسْمه ؛ وفى المبيعات وما يُرَدّ منها بعَيْب

وفى الديون المؤجّلة وما يُحكَم فيها بغَيْب؛ وكلُّ هذا مما لا يحتمل طُولَ الأناة فى القضاء، واشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردُّد إليه بالإمضاء؛ فليكن مستحضرا لهذه المسائل ليَبُتَّ الحكم فى وقته، ويُسارع السيفَ المُصْلَتَ فى ذلك الموقف ببَتِّه؛ ولْيعلمْ أن العسكرَ المنصورَ هم فى ذٰلك الموطن أهلُ الشهادة، وفيهم من يكون جُرْحه تعديلًا له وزيادة؛ فليقْبَلْ منهم من لا تخفىٰ عليه سِيما القَبُول، ولا يردّ منهم من لا يضرُّه أن يردّه هو وهو عند الله مَقْبول؛ وليجعَلْ له مستقرّا معروفا فى المُعَسكر يُقْصَد فيه إذا نُصِبت الخِيام، وموضعًا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان علىٰ يمين الأعلام؛ وليلزمْ ذٰلك طُولَ سفره وفى مُدَد المُقام، ولا يخالِفه ليُبْهِم علىٰ ذوى الحوائج فما هو بالصالحيَّة بمِصْرَ ولا بالعادليَّة بالشام، ولْيتّخذْ معه كُتّابا تكتُب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود، وليُسجِّل لذى الحق بحقه وإلا فما آنسدّ بابُ الجحود؛ وتقوىٰ الله هى التى بها تُنصَر الجنود، وما لم تكن أعلىٰ ما يكُون علىٰ أعلام الحَرْب وإلا فما الحاجةُ إلىٰ نَشْر البُنود.

الوظيفة الثانية

(إفتاءُ دار العَدْل)

وموضوعُها الجلوس بدار العدل حيثُ يجلس السلطانُ لفصل الحكومات، والإفتاءُ فيما لعلّه يطرَأ من الأحكام بدار العدل. وهى وظيفةٌ جليلة، لصاحبها مجلسٌ بدار العدل يجلسُه مع القُضاة الأربعة ومَنْ فى معناهم.

وهذه نسخة توقيع لمن لقبُه «جمال الدين» يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى:

الحمدُ لله جاعل العِلْم للدِّين جَمالا، وللدنيا عِصمةً وثِمَالا، ولأسباب النَّجاة والنَّجاح شارةً إذا تحلّى بها ذُو التمييز كان أحسنَ ذَوى المراتب حالا، وأجلَّهم

فى الدارين مَبْـدَأ ومآلا ، وأحقّهم برتبة التفضيل التى ضَربت لهـا السنّةُ المطهّرة فضلَ البَدر على الكواكب مِثالا .

نحمَدُه على نِعَمِه التى خصّت دارَ عدلنا الشريف من العلماء بأَكْفائها، وآصطفَتْ لِـا قرُب من مجلسنا المعظّم مَنْ دلّ على أنّ التأييد قرينُ آصطفائها .

ونشهد أن لا إله الا الله وحدَه لا شريك له شهادةً يفترُّ عن شَنَب الصواب ، ثَغرُها ، ويتفتّح من فَصْل الخطاب، زَهْرها؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بحكم التـنزيل ، المنصوصُ فى الصُّـحُف المنزّلة على ذكر أُمّتـه الذين علمـاؤُهم كأنبياء بنى إسرائيل ؛ صلّى الله عليــه وعلى آله وصَحْبه الذين هم كالنُّجوم المُشْرِقة، من اقتدى بهم آهتـدى ، وكالرُّجوم المحرقة، من آعتدى وجَدَ منها شهابا رَصَدا ؛ وسـلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أَوْلى ما آرتَدْنا له من رياض العلم مَنْ سَمَا فيه فَرْعُه،ورَحُب بتلَقّى أنواع العُلوم ذَرْعُه ؛ وبَسَـقَتْ فى فُنون الفضائل أفنانُه ، ونَسقَتْ فرائدَ الفوائد فى سلك الطُروس بَنانُه ـ فُتيا دار عدلنا الشريف التى أحكامُنا لهـا تابِعه ، وأغصانُ العدل بِثِمار فَتاوِيهـا مُورِقةٌ يانِعه، وأعيُنُنا إلى أفواه مُفْتيها رامقةٌ وآذانُنا لمقالاتهم سامِعَه .

ولما كان فلان هو ثمرةُ هذا الآرتياد، ونُخبةُ هذا الآنتقاد؛ المعقودُ عليه فى آختيار العلماء بالخَناصر، والعريقُ فى أَصَالة العلوم بأَصَالة ثابتةِ الأَواصر؛ والذى إذا أجاب تدفّقتْ أنواءُ الفوائد ، وتألّقت أضـواءُ القَرائد ، وآتُّخذتْ مسـائِلُ فِقْهــه قَواعدَ تترتّب الأحكام الشرعيـة عليها ومصادرُ وحيــه مَوَارِد ـ اقتضت آراؤنا الشريفــةُ أن نُزيّن بَهْجةَ هذه الوظيفة بجَماله ،ونُنَزّه إشراقَها بنُور فضائله التى لو قابلَها بدرُالأفق نازعته حُلّةَ كَماله .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زالتْ أحكامُه مع أوامر الشرع الشريف واقفه ، ومعـدَلتُه الشريفةُ باقتفاء آثار الحق لمُشتكيَات الظُّلْم كاشفه — أن يفوّض إليـه كذا : فليُباشِرْ هذه الوظيفـةَ السنيَّة مفَجِّرا ينـابيعَ العلوم فى أرْجائها ، محقِّقا للفتاوَىٰ بتسهيل مواردِها وتقريب أوحائها ، موضِّحا طُرُقها بإقامة براهينـه وأدلَّته ، مُبْدِيا دقائقَها التى يُشْرِق بها أُفُقُ الفكر إشراقَ السماء بنجُومها والأُفُق بأهلَّتـه ، مُظْهِرا من غوامضـها ما يُقَرِّب علىٰ الأفهام مَنـالَهُ ، ويُفَسِّح لجياد القرائح مَجَـالَه ، ويَنَقِّح لكل ذى تَرَوٍّ رويَّتَـه ولكل مرتَجِل بديهتَـه وآرتجـالَه ، فإنه الكاملُ الذى قطع إلىٰ بلوغ الغايةِ مَسَالكَ اللَّيالى ، والإمامُ الذى غاص فِكْرُه من كل بحر لُجَجَ المعانى فاستخرج منهـا مكنُونَ اللآلى ، مع أن علمه المهـذَّبَ غنيٌّ عن تنبيـه الوَصايَا ، مَلِيٌّ بمـا يلزم هـذه الوظيفـةَ من الخصائص والمَزَايا ، فإنَّ البحرَ يأبىٰ إلا تدفُّقا ، والبدرَ إلا تألُّقا ، والله تعالىٰ يزيدُه من فضـله ، ويُزَيِّن به أُفُقَ العلم ويَزِيد مِنَّا دُنُوا قُرْبَ محَـلِّه .

الوظيفـــة الثـالثة

(الحِسْـبة)

وقد تقدّم أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ أرباب المَعَايش والصَّنائع ، والأخذُ علىٰ يَد الخارج عن طرِيق الصَّلاح فى مَعيشتِه وصِناعته . وحاضرةُ الديار المِصريَّة تشتمل علىٰ حِسْبتيـن[1] :

الأولىٰ — حِسبةُ القاهرة : وهى أعلاهمـا قَدْرا ، وأفخمُهما رُتْبة ، ولصاحبها مجلسٌ بدار العَدْل مع القُضاة الأربعة وقُضاة العسكر ومُفْتِي دار العدل وغيرِهم . وهو يتحدّث فى الوجْه البحرىّ من الديار المِصرية فى ولاية النُّوّاب وعَزْلهم .

---

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التى سيأتى لهـا توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحِسبةُ تُولَّى للتعمّمين وأرباب الأقلام إلىٰ الدولة المؤيّدية شيخ، فولّاها للأمير سيف الدّين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلىٰ الحُجوبيّة . علىٰ أنّ فى سجلّات الفاطميّين مايشهد لها فى الزمن المتقدم . وربّما أُسندتْ حسبةُ القاهرة إلىٰ والى القاهرة، وحِسْبةُ مصر إلىٰ والى مِصْر .

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك، وهى :

الحمدُ لله مجدّدِ عوائدِ الإحسان، ومُجْرى أولياء دولتنا القاهرة، فى أيّامنا الزاهرة، علىٰ ماأَلِفُوه من الرُّتَب الحِسان، ومضاعِفِ نِعَمنا علىٰ من ٱجتنىٰ لنا بحُسْن سيرته الدعاءَ الصالحَ من كل لسان .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لاتُحصىٰ بِعدّها . ولاتُحصَر بحَدّها، ولا تُستزادُ بغير شُكْرِ آلاءِ المنعِم وحَمْدِها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نُقيمها فى كُلِّ حُكْم، وتحاوِلُ سيوفُنا جاحدِيها فتنهَض فتَنْطِقُ بالحجة عليهم وهم بُكْم، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من ٱئْتمر بالعدل والإحسان، وأعدلُ آمرٍ أمتَه بالوَزْن بالقِسط وأنْ لايُخْسِرُوا الميزان، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱحتَسَبُوا فى سبيل الله جُلَّ عَتَادِهم، وٱحتَبَسُوا أنفُسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجِهَادهم، فلا تُنْتَهب جَنائِبُها فى الوُجُود، وتَسرى نجائبُها فى التَّهائم والنُّجود، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أَوْلىٰ مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره، وإنارة بَدْره، وإعلاءِ رُتْبته، وإدناء منزلته، وإعلامِ مُخْلِص الأولياء بمضاعَفَة الإحسان إليه أنّ اللهَ لايُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عمَلا، وأنّ كرمنا لا يُخيِّب لمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعته فى أيّامنا الشريفة أمَلا، مَنْ لم تزَلْ خدَمُه السابقةُ إلىٰ الله مقرِّبه، وعن طُرُق الهوىٰ مُنكِّبه، وبالله

مُذَكَّره، وعلىٰ الباقياتِ الصالحات من الأعمال موفَّره؛ مع ماأضافه إلىٰ ذلك من أمرٍ بمعروف، و إغاثة ملهُوف، ونهيٍ عن منكر، وآحتسابٍ فى الحق أتىٰ فيه بكلِّ ما تُحمَد خلائقُه وتُشْكر، وآجتنابٍ لأعراض الدنيا الدَّنيَّه، وآجتهادٍ لما يُرضى الله ويرضينا من آتِّباع سيرتنا السَّريَّه ؛ وشِدَّةٍ فى الحق حتَّى يُقال به ويُقام، ورفْق بالخلق إلا فى بِدَعٍ تُنْتَهك بها حرمةُ الإسلام ، أو غِشٍّ إن لم يخُصَّ ضررُه الخاصَّ فإنَّ ذلك يعمُّ العام .

ولمَّا كان فلان هو الذى آختصَّ من خِدْمتنا، بما رفَعه لدَيْنا، وأسلَف من طاعتنا ، ما آقتضىٰ تقريبَه منَّا واستدعاءَه إلينا ، ونهض فيما عدقْناه به من مصالح الرعايا وكان مشكُورَ المساعى فى كل ماعُرِض من أعماله فى ذلك علينا ـ آقتضىٰ رأينا الشريف أن يفوّض إليه كذا ، فليستقرّ فى ذلك مجتهدا فى كلِّ ما يعمُّ البرايا نفعُه، ويجمُل لديهم وَقْعُه ، ويمنَع من يتعرّض باليَسار ، إلىٰ ما لهم بغير حقّ ، أو يضيِّق بالآحتكار، علىٰ ضعفائهم مابسَط اللهُ لهم من رِزْق ، ويذُبُّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطيلها، ويعرِّفهم بالمحافظة علىٰ الحق فى المعاملات قواعدَ تحريمِها وتحليلِها ؛ ويُريهم بالإنصاف منارَ القسطاس المستقيم لعلهم يُبْصِرون ، ويؤدِّبُ من يجدُ فيهم من المطفِّفين : ﴿الَّذِين إذا آكتالُوا علىٰ النَّاس يَسْتوْفُون وإذا كالُوهُمْ أوْ وَزَنُوهم يُخْسِرون﴾ ويأمُرُ أهلَ الاسواق بإقامة الجماعاتِ والجُمَع ، ويقابل من تخلَّف عن ذلك بالتأديب الذى يَرْدَع من أصرَّ فيه علىٰ المخالَفة ويَزَع ؛ ويُلزِم ذَوِى الهيئات بالصِّيانة التى تُناسب مناصِبَهم، وتُوافِق مراتِبَهم ، وتنزِّه عن الأدْناس مَكاسِبَهم ، وتصُون عن الشوائب شاهدَهم وغائبَهم ؛ ولا يمكِّن ذَوِى البيوع أن يَغْبِنُوا ضُعفاءَ الرعايا وأغبياءهم ، ولا يُفَسِّح لهم أن يرْفَعوا علىٰ الحق أسعارهم ويَبْخَسُوا الناسَ أشْياءَهُم .

وليحمل كُلًّا منهم على المعامَلات الصحيحه ، والعقود التى غدَتْ لهـا الشريعةُ الشريفة مُبيحه ؛ ويجنّبهم العقُودَ الفاسده ، والحِيَلَ التى تَغُرّ بتدليس السِّلَع الكاسده ؛ وهو أخبر بالبيوع المنصوص على فسادها فى الشرع الشريف ، وأدرى بما فى عدم تحريرهم المكاييـلَ والموازيـنَ من الإخسار والتطفيف ؛ فليفعلْ ذلك فى كل مايجب ، ويَحتَسب فيه مايدَّخره عند الله ويحتَسب ؛ ولتكن كلمتُه فى ذلك مبسوطه . ويدُ تصرُّفه فى جميع ذلك مُحيطة وبمـا يستَنِد إليه من أوامره مَحُوطه ؛ ولْيُوص نُوّابه بمثـل ذلك ، ويوضِّحْ لهم بإنارة طريقته كلَّ حالٍ حالك ؛ ويقدِّمْ تقوى الله على كلِّ أمر ، ويتَّبِـعْ فيه رضا الله تعـالى لارضا زيد وعمرو ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك بحِسْـبة الفُسْطاط المعبَّر عنه الآنَ بمصر عَوْدا إليهـا ، وهى :

الحمدُ لله الآمرِ بالمعروف والناهى عن المنكر ، الشاهد بالعَدْل الذى تقوى به كلمةُ الإيمـان وتُنْصَر ؛ والغامرِ بالجُود الذى لا يُحصى والفَضْـل الذى لا يُحْصَر ، العامرِ ربوعَ ذَوِى البيوت بتقديم من آنعقدت الخناصرُ على فَضْله الذى لايُجْحَد ولاينكَر .

نحمدُه على نِعَمه التى لا تزال ألسنةُ الأقـلام ترقُم لهـا فى صُحُف الإنعـام ذِكْرا ، وتجدِّد لهـا بإصابة مواقع الإحسان العامِّ شُكرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصـدَع بنُورها ليلَ الشرك فيـُول بِحْرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى قمعَ اللهُ به من آغترَّ بالمَعاصى وغَرّ ، وأقام بشريعته لواءَ الحق الأظهر ومَنارَ العـدل الأظهر ، وعلى آله وصحبه

الذين سلكُوا من الهداية بإرشاده مَنْهَجَ الحق الأنور ، وآحتَبَسُوا نفوسَهم فى نُصرته ففازُوا من رضاه بالحظ الأَوْفىٰ والنصيب الأوفر .

وبعدُ ، فإن الله تعالىٰ لما جعل كلمتنا المبسوطةَ علىٰ العدل والإحسان مقصُورَه ، وأوامرَنا الشريفةَ بإقامة مَنار المعروف مؤيَّدةً منصُوره ، وأحكامَنا المشهورةَ بالإنصاف فى صحائف الدَّهر بالمحاسن مَسْطُوره ، وألهمنا من آتِّباع الشرع الشريف ما غدَتْ به قلوبُ الرعايا آمنةً مسرُوره ـ قصدنا أن نختارَ لمراتب الدِّيانة والعَفَاف مَنْ لم يزل بيتُه بالصَّدارة عليًّا ، ووصفُه بأنواع المحامد والمَمَادح مَليًّا .

ولما كان فلان هو الَّذى ورِثَ السِّيادةَ ، عن سلَفٍ طاهر ، وتلقَّى السعادةَ ، عن بَيْتٍ فُروعه التقوىٰ فأزرتْ بالروض الزَّاهى الزَّاهر ، وسَرَتْ سرائُره بحسن سِيرته وسَيْره ، وأبطن من الدِّيانة ماأظهرتْه أدلَّة خَيْره ، وتنَقَّل فى المَرَاتب الدِّينيَّة فأَرْبىٰ فى حُسْن السلوك علىٰ غيْره ، وسلَك من الأمانة الطريق المُثْلىٰ ، وآعتَمَد ماعَدِمَ به مُضاهيا ومِثْلا ، وجنىٰ ما نطَق بإنصافه فَضْلُ الكيل والميزان ، ورجَاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشِيَه أهلُ الزَّيْغ والبُهْتان ، وكانت الحِسبةُ المباركة بمصر المحروسة قد أَلِفَتْ قضاياه وأحكامَه ، وعرَفَت بالخُبْر معروفَه وشكَرت نقْضَه وإبرامه ، وفارَقَها علىٰ رَغْمها منه آختيارا ، وعادَتْ له خاطبةً عقيلةَ نَزَاهته التى لا تُجارىٰ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى أن يفوّض إليه كذا . فليقَدِّم خِيرةَ الله فى مباشرة هذه الوظيفه ، وليُقِمْ مَنارَها بإقامة حدُودها الشريفه ، ولْينظُرْ فى الكيل والميزان اللَّذين هما لسانُ الحق الناطق ، ولينشُرْ لواء العَدْل الذى طالما خفقَتْ بُنُودُه فى أيَّامنا حتَّى غدا قلبُ المجرم وهو خافق ، وليُحسِنِ النظرَ فى المَطَاعم

والمَشَارب ، ولَيرْدَع أهلَ البِدَع ممن هو مستخفٍ بالَّليل وسارِب ؛ وفيه ـ بحمد الله تعالىٰ ـ من حُسْن الألْمعِيَّة ما يُغْنِى عن الإسهاب فى الوَصَايا ، ويُعين علىٰ السَّداد فى نَفَاذ الأحكام وفَصْل القَضَايا ؛ وكيف لا وهو الخَبِير بما يأتى ويَذَر ، والصَّدْر الذى لا يَعْدُو الصَّوابَ إن وَرَد أوصَدَر ؛ والله تعالىٰ يَعْمُر به للعَدْل مَعْلَما ، ويكسُوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوبًا بالثَّواب مُعْلَمـا ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه .

* * *

وهذه وصية محتسب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد وَلِىَ أمرَ هذه الرُّتْبة ، ووُكل بعَيْنه النظرُ فى مصالح المسلمين لله حِسْبة ؛ فلينظُرْ فى الدَّقيق والجليل ، والكثير والقَليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤمَر فيه بمعروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكر ؛ وما يُشْتَرىٰ ويُبَاع ، وما يُقرِّب بتحريره إلىٰ الجنة ويُبْعِد من النار ولو لم يَكُنْ قد بقِىَ بيْنَه وبينها إلا قدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكل ما يُعْمَل من المعايِش فى نهارٍ أو ليل ، وما لا يُعرَف قدْرُه إلا إذا نطَق لسانُ الميزان أو تكلَّم فَمُ الكيل . وليعمَلْ لديه معدَلا لكلِّ عمَل ، وعيارًا إذا عُرِضتْ عليه المعايِرُ يُعرفُ مَنْ جار ومَنْ عدَل ؛ وليتفقَّدْ أكثَرَ هذه الأسباب ، ويحذِّر من الغِشِّ فإنَّ الداءَ أكثَرُه من الطَّعام أو الشَّراب ؛ وليتعَرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليُقِمْ عليهم من الأُمَناء من ينوب عنه فى النَّظَر ، ويطمئنُّ به وإن غابَ إذا حضَر ؛ ويأمُره بإعلامه بما أعضَل ، ومراجعته مهما أمكن فإنَّ رأى مثله أفضَل . ودار الضَّرب والنُّقودُ التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكونُ فيها من الزَّيْف مالا يَظْهَر إلا بعد طُول اللُّبْث ؛ فليتصَدّ لمهمَّاتها بصَدْره الذى لا يَحْرَج ،

وليَعْرِض منها علىٰ المِحَكّ من رأيه مالا يَجُوز عليه بَهْرَج ؛ وما يُعلَّق من الذهب المكسور ويُروبص من الفضّة ويُخْرَج، وما أكلت النار كلَّ لِحامه أو بعضه فليقم عليه من جِهَته الرقباء ، وليُقم علىٰ شمس ذَهَبه مَنْ يرقُب منه ما تَرقُب من الشمس الحرباء ؛ وليُقِم الضُّمَّان علىٰ العَطَّارين والطُّرُقيَّة من بَيْع غرائب العقاقير إلا ممّن لايستَراب فيه وهو معروف ،وبخَطّ متطبِّب ماهِرٍ لمريض معيَّن فى دواء موصوف . والطُّرُقيَّة وأهلُ النِّجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلىٰ ساسَان ، ومن يأخُذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان، وكل إنسان سَوْء من هـذا القَبيل هو فى الحقيقة شيطانٌ لا إنسان ، امنَعْهم كلَّ المنع ، واصدَعْهم مثل الزُّجاج حتّى لا يَنْجَبِر لهم صَدْع، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فما يُجْدى فى تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفع ؛ واحسِم كلَّ هذه الموادّ الخبيثه ، واقطَعْ ما يُجَدِّد ضعفاءُ الناس من هـذه الأسباب الرَّثيثه ؛ ومَنْ وجَدْتَه قد غَشَّ مسلما ، أو أكل بباطلٍ دِرْهما ؛ أو أخبر مشْتَرِيًا بزائد ، أو خرجَ عن معهود العَوائد؛ أَشْهِرْه فى البلد . وأَرْكب تلك الآلةَ قَفاه حتّى يضْعُف منه الجَلَد ؛ وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمات النِّساء وغيرهما من الأنواع ممن يُخافُ من ذِئْبه العائثِ فى سِرْب الظِّباء والجآذر، ومن يُقْدِم علىٰ ذٰلك ومثله وما يُحاذِر، ارشُقْهم بسِهامك، وزَلْزِلْ أقدامَهم بإقْدامك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلا من اختَبَرْت أمانَتَه ، واختَرت صِيانَتَه . والنُّوَّاب لا ترضَ منهم إلا من يُحْسن نَفَاذا ، ويُحْسَب لك أجْرُ استنابته إذا قيل لك من استَنَبْت فقلْت هـذا؛ وتقوىٰ الله هى نعم المَسالك ، وما لك فى كلِّ ما ذكرْناه بل أكثره إلا إذا عمِلْت فيه بمذهَب مالك .

الوظيفـــة الرابعـــة

(وكالة بيت المـال)

وهى وظيفةٌ عظيمةُ الشان رفيعةُ المقدار، وقد تقدّم أن موضُوعَها التحدّثُ فيما يتعلّق بمَبيعات بيتِ المـال ومُشْتَرَواته[1] : من أرض وآدُر وغير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ، وأنّ متولّيَها لا يكون إلا من أهل العلم والدِّيانة، وأنّ له مجلسًا بدار العدل: تارةً يكونُ دون مجلس المحتَسِب، وتارة فوقَ مجْلسه، بحَسَب رِفْعــة قدْر كل منهما فى نَفْسه . وقد أُضيف إليها فى المباشرة نظرُ كِسْوة الكَعْبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المـال :

الحمدُ لله جامع المَناصب الدينيّة، لمن خطَبْته لهـا رتبتان : العلمُ والعمَل، ومكمِّلِ الرُّتب السَّنيّة، لمن وُجِدت فيه أهبتان : الورَعُ والتُّقىٰ وعُدِمت منه خلّتان : الحِرْصُ والأمَل؛ جاعلِ آختصاص الرُّتب بأكفائها حِلْيَة الدُّول، والنظرِ فى مصالحها الخاصّة والعامّة زينةَ أيامنا التى تتلفّت إلىٰ محاسِنها أجيادُ الأيّام الأُوَل .

نحمَــده علىٰ نِعَمِه التى عصمَتْ آراءنا من آعتراض الخَلَل، وأمضَتْ أوامرَنا من مصالح الأمة بمـا تَسْرِى به المحامدُ سُرىٰ النجوم ويَسِير به الشُّكْرُ سَيْرَ المَثَل .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لم نزلْ نستنْطِق بها فى الجهاد، ألسِنةَ الأَسَل ، ونُوقِظ لإقامتها عُيونَ جلاد ، لهـا الغُمُود جفُون والسهام أهدابٌ والسُّــيوف مُقَل؛ ونشهد أنّ محمدًا عبــده ورسوله الذى أظهر اللهُ دينَه علىٰ الأديان وشرّف مِلّته علىٰ الملل، وأسرىٰ به من المسجد الحرام إلىٰ المَسْجد الأقصىٰ إلىٰ سِدْرة

(١) جرىٰ على اللغة العامية والا فصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتهىٰ وعاد ولم يَكْمُل الليْلُ بينَ السَّيْر والقَفَل، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هجَرُوا فى المُهاجَر إليه الأحياءَ والحِلَل، وشَفَوْا بأسـنة سنته العِلل والغُلَل ، وتفرّدوا بكمال المَفَاخر فإذا خَلعتِ الأقلامُ علىٰ أوصافهم حُلَلا غدَتْ منها فى أبهى من الحُلَل، صلاةً تتوالىٰ بالعَشِىّ والإبكار وتتواتَرُ فى الإشراق والطَّفَل، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أوْلَى الرُّتب بإنعام النظر فى آرتياد أكْفَائها،وآنتقاد فرائد الأعيان لها وآنتقَائها ، وآستخارةِ الله تعالىٰ فى آختيار من يكون أمرُ دينه هو المُهِمَّ المقدّم لدَيه، وآستنارةِ التوفيق فى آصطفاء من يكون مهِمُّ آخرته هو المرئىّ المصوَّر بين عينَيْه؛ مع ما آتصفَ به من محاسنِ سَجَايَا جُبِلت عليها طِباعُه، وخُصَّ به من سوابِقِ مزايا رَحُبَ بها فى تلَقِّ المصالح الدينيَّة صَدْرُه وباعُه، رتبتان يَعم نفعُهما ويَخُص، ويحسُن وقْعُهـما بمـا يُبْـديه من أوصافه ويَقُصّ ؛ ويتعلَّق كلٌّ منهما بجماعة الأمَّـة فَرْدا فَرْدا ، ويشـتَمِلان علىٰ منـافِعهِم علىٰ آختلافها بَدْأً وإعادةً وعَكْسا وطَرْدا ؛ ويكون المتصدِّى لها مناقِشًا علىٰ حقُوقهم وهم ساهُون ، ومفتِّشا عن مصالحهم وهم عنها لاهُون ؛ ومناضِلًا عنهم وهم غافِلُون، ومشمِّرا للسعى فى مَصالِحهم وهم فى حِبَرِ الدَّعَة رافِلُون ، ومتكَفِّلا لآستمـاع الدَّعوىٰ عنهم جَوْبَ فلَوات الجَوَاب، ومتكفِّلا بالتحرِّى فى المحاوَرَة عنهـم وإصابةِ شاكِلةِ الصَّواب ، ومؤدِّياً فى نصحهم جُهْـدَه تقرُّبا إلىٰ مَرَاضِينا وله عندنا الرِّضا وآبتغاءَ ثوابِ الله : ﴿واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب﴾ وهُما وَكالةُ بيت المـال المعمور والحِسْـبةُ الشريفةُ بالقاهرة المحروسة : فإنَّ منافع وكالةِ بيتِ مال المسلمين عائدةٌ عليهم ، آئِلة بأحكام الشريعة المطَهَّرة إليهم؛ راجعةٌ إلىٰ مايعمُّهم مَسارُّه ، مُعَدَّةٌ لمـا تُدْفَع به عنهم من حيثُ لا يشعُرون مَضارُّه؛ صائنةٌ حقوقَهم من تعـدِّى الأيدى الغاصـبه ، حافظةٌ بيوتَ أموالهم من آعتراض الآمال

العاملة الناصبه ، وكذلك نظرُ الحِسْبة : فإنه من أخصّ مصالح الخَلْق وأعمّها ، وآكد الوظائف العامّة وأكلها آستقصائيّة للصالح الدينيّة والدُّنيويّة وأتمّها، يحفَظ على ذوى الهيئات أقدارَهم ، ويبيّن بتجنُّب الهَنَات فى الصَّدْر مِقْدارَهم ، ويَصُون بتوقّى الشُّبُهات إيرادَهم وإصدارَهم ، وينزّه معامَلاتِهم عن فسادٍ يُعارِضها ، أو شُبَه تُنافى كمالَ الصحة وتُناقِضُها ، ويحفَظ أقواتَهم من غشّ مُتْلِف ، أو غُلُوّ مُجْحِف ؛ إلى غير ذلك من أدْوِيةٍ لا بدّ من الوقوف على صحة تَرْتِيبِها وتركيبِها ، وتتبّع الأقوال التى تجرى بها الثِّقةُ إلى غاية تجريبِها ؛ ولذلك لا تُجْمعان إلا لمن أوقفَه علمُه على جادّة العمَل ، وآقتَصَر به ورَعُه على مادّة الحق فليس له فى التعرُّض إلى غيره أمَل ؛ وسَمَتْ به أوصافُه إلى مَعالم الأمور فوجد التُّقَى أفضلَ ما يُرْتَقَى ، وعَرَضتْ عليه أدَواتُه جوهرَ الذخائر فوجد العملَ الصالحَ أكمَلَ ما يُنتقَد منها وما يُنْتَقَى ؛ وتحلَّى بالأمانة ، فصارتْ له خُلُقا وسَجِيّه ، وأنِسَ بالنَّزاهة ، فكانتْ له فى سائر الأحوال للنَّجاة نَجِيّه ؛ وأرتْه فضائلُه الحقَّ حيثُ هو فتمسَّك بأسبابه ، وتشبَّث بأهدابِه ، وآتَّصف به فى سائر أحوالِه فإن أخَذَ أخذَ بحُكْمه وإن أَعطَى أعطَى به ؛ وآحترز لدينه فهو به ضَنِين ، وآستوْثَق لأمانته وإن لم يكن فيها بحمد الله متَّهمًا ولا عليها بظَنِين ، وآجتنَى ثمارَ المَحامد الحُلْوةَ من كِمام الأمانةِ المُرَّه ، وعلِم أنَّ رضا الله تعالى فى الوقوف مع الحقِّ فوقَفَ معه فى كلِّ ماساءَه للخلق وسَرَّه .

ولمّا كان فلان هو الذى أمسكَتِ الفضائلُ بما كَمُلها من آداب نَفْسه ونَفاسة آدابِه ، وتجاذبَتْه الرُّتَب للتحلّى بمكانته فلم تكُن هذه الرتبةُ بأحقّ به من مجالِس العلم ولا أوْلَى به ، وشهِدت له فضائلُه معنًى بما شهِدت له به الأئمةُ الأعلامُ لفْظا ، ونوهتْ بذكره العلومُ الدينيّة التى أتقنها بحْثا وأكمَلَها درايةً وأثبتَها حفْظا ؛ فأوصافُه كالأعلام المشتَقّة من طباعه ، الدالّة بدوامها على آنحصار سبَب الآستحقاق فيه

وآجتماعه ، المنبِّهة علىٰ أنه هو المقصودُ بهــذه الإشارات التى وراءها كلُّ مايحمَد من آضــطلاعه بقواعد هــذه الرُّتَب وآطِّلاعه ؛ فهو سِرُّ ما ذُكر من نعوتٍ وأوصاف ، ومعنَى ماشُهِر من مَعْدَلة وإنصاف ، ورُقُومُ ماحُبِّر من حُلَل أُفيضتْ منه علىٰ أجمل أعطــاف ــ رُسِم [1] أن يفوَّض [1] تفويضًا يقع به الأمر فى أحسن مواقِعِه ، ونَضَع به الحُكْم فى أحمد مواضِعِه ، ويُحَلِّ من أجياد هذه المنــاصب محَلَّ الفرائد من القلائد ، ويقع من رياض هذه المراتبِ وُقُوعَ الحَيَا الذى سَــعِد به رأْى الرائد .

فليباشِرْ هاتين الوظيفتين مُرْهفا فى مصالحهما همّةً غيرَهِمّه [2] ، مجتهدا من قواعدهما فيما تبرأ به عنــد الله منّا ومنــه الذِّمّه ، محاقِقا علىٰ حقُوق بيت المــال حيثُ كانتْ محاققةَ من يعلم أنه مطلوبٌ بذٰلك من جميع الأُمَّه ، متحرِّيا للحق فلا يغدُو لمــا يجبُ له مُهْملا ، ولا لمــا يجب عليه مُمــاطِلا ، واقفًا مع حكم الله تعالى الجَــلِىّ فى الأخذ والعطاء فإنّه سِيَّان من تَرَك حقًّا أو أخذ باطلا ، مُجْرِيًا عوائد الحِسْبة علىٰ ماأُلِف من تدبيره ، وعُرِف من إتقــانه وتحريره ، وشُهِر من آعتناده للواجب فى سائر أموره ؛ مكتفِيًا بمــا آطَّلع عليــه قديمــا من مصالحها ، منتهيًا إلىٰ ماســبَقَتْ معرفتُه به من أســبابها ومناجِحها ؛ والله تعالىٰ يوفّقــه فى آجتهاده ، ويُعِينــه علىٰ مايدَّخره لمَعَاده ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه وصيةُ وكيل بيت المــال أوردها فى "التعريف" :

وهو الوكيلُ فى جميع حقُوق المسلمين وماله معهم إلاحقُّ رجلٍ واحد ، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتّى يُقِرَّ الجاحد ؛ وهو القائمُ للدَّعْوىٰ لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض فى الموضعين والغرض منه الآختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مرارا . (٢) أى غير ضعيفه .

ومنًا بما يُؤخذ لهم أو يُؤخذ من يديهم ، والمُعَدّ لتصحيح العقود ، وترجيح جهة بيت المال فى العَقار المبيع والثمن المَنقود ، والمتكلِّمُ بكتاب الوكالة الشرعية الثابته ، والثابتُ القَدَم والأقدامُ غيرُ ثابتـه ، والمَفسوح المَجال فى مجالس الحُكّام ، والمجادِلُ بلسان الحقّ فى الأحكام ، والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسمع فى وجهه أو فى وجه من أذن له فى سَماعها ، والمرجوعُ إليه فى إماتةِ كلِّ مخاصَمَة حصل الضجَر من طُول نِزاعها ، وإبداءِ الدّوافع ، ما لم يجِدْ بُدًا من الإشهاد عليه بعَدَم الدافع ، والانتهاءِ إلى الحق كان له أوعليه ولا يَقِف عند تثْقِيل مثقِّل ولاشفاعةِ شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتُمتحن الشهود](1) ويُمْشَى على الطُّرُق المستقيمه ، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القديمه ، وبه يتم عَقْد كل بيع وإيجار إذا كانت المصلحةُ فيها لعامّة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يُوكَّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطة بحَسَب الأوقات الحاضره .

ونحن نُوصيه فى ذلك كلّه بالعمَل بما عَلِم ، والانتهاء فى مقتضى قولنا إلى مافَهِم ، وتقديمِ تقوى الله فإنه متى قدّمها بين يديه سَلِم ، والوُقُوف مع رضا الله تعالى فإنه متى وقَف معه غَنِم ، والعملِ بالشرع الشريف كيفَمَا توجّهت به أحكامُه ، والحذَر من الوقوف فى طريقه إذا نفذَتْ سِهامُه ، ومَنْ مات وله ورثة معروفةٌ تستكمل بحقّها ميراثَه ، وتحوزُ بحظّها تُراثَه ، لا يكلفُهم ثبوتًا يكون من باب العنَتْ ، والمدافعة بحقّ لايحتاج [مستَحِقُّه](1) إلى زيادة ثَبَت ، وإنما أنتَ ومن كانت قضيتُه مُنْكَره ، والمعروفُ من مستحقّ ميراثِه نَكِره ، فأولئك شـدِّدْ فى أمرهم ، وأوْطِ شُهداءَهم فى الاستِفْسار منهم على جَمْرِهم ، وتَتَبَّعْ باطن الحال لعله عنك لا يتَستّر ، ولا يُمشى عليك فيه الباطلُ ويمشى شاهدُ الزُّور بكُمّيه ويتبختر ، فإن تحقّقتَ صحةَ شهاداتهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشْهِرْهم فى الدنيا ودَعْهم فى الآخرة لايُخَفَّف عنْهُم العـذَابُ ولا يفتَّر، وكلُّ مايُباع أو يؤجَّر آرجع فيـه إلىٰ العوائد، وتقلَّد أمرَ الصغير، وجدِّدْ لك أمرًا منًّـا فى الكبير، وذٰلك بعد مراعاة ماتجِبُ مراعاتُه، والتأنِّى كلَّ التأنِّى حتَّى يثبُتَماينْبغى إثباتُه، وشهودُ القِيمة عليهم المَدَار، وبشهادتهم يُقَدَّر المِقْدار، وما لم يكونُوا من ذوِى الأقدار، ومن أهل الخِبْرة بالبَزِّ والجِدار، وممن آشترىٰ العَقَار وآستغَلَّه وبنىٰ الدار، وإلا فاعلم أنَّ مثله لايُرجَع إليه، ولا يُعَوَّل ولا سيَّما فى حقِّ بيت المال علَيْه(١)، فاتَّفِقْ مع وُلاة الأمُور من أهل الأحْكام، علىٰ تعيينِ من تَعيَّن لتقليدِ مثلِ هذه الشهاده، وتعرَّف منهم مَنْ له كلُّ الخِبْرة حتَّى تعرِفَ أنه من أهـل الزَّهَاده، ولك أن تدَّعِىَ بحق المسلمين حيثُ شئْت ممن ترىٰ أن حقَّه عنده يترجَّح، وأن بيِّنتَهم تكون عنده أوضَح، فأمَّا الدَّعْوىٰ عليك فمن عادتها أن لا تُسْمَع إلا فى مجلس الحكمِ العزيزِ الشافعىِّ ــ أجلَّه الله تعـالىٰ ــ ونحن لانغيِّر العوائد، ولا ننقضُ مابَنَت الدولُ السالفةُ عليـه القواعد، فليكُنْ فى ذٰلك المجلس سماعُها إذا تعيَّنَت، وإقامةُ البينات عليها إذا تبيَّنتْ، واللهَ اللهَ فى حقِّ بيت المـال، ثم اللهَ اللهَ فى الوقتِ الحاضرِ والمآل، ومَنْ تستنيبُهم عنك بالأعمال لا تُقِرّ منهم إلا من تَقَرّ به عيْنُك، ويُوفَّى به عند الله لا بمـا تُحَصِّـله من الدنيا دَيْنُك، ومَنْ كان نعمته مُصْلِحا، ولأمَله مُنْجِحا، لا تغيِّرْ عليه فيما هو فيـه، ودَعْه حتَّى يتبينَ لك خافِيه، ولتستَقْصِ فى كلِّ وقتٍ عنهم الأخبار، ولتستَعْلِمْ حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تزال منهم علىٰ يقينٍ، وعملٍ بمـا فيه خلاصُ دنيا ودِين .

(١) كذا فى التعريف أيضا والمراد أن المقوّمين يشـترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات والا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوّل على كلامهم .

الوظيفـــة الخـامسة

(الخَـــطَابة)

وهى من أجلّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفس الأمر . وموضوعُها معروفٌ . وتختصّ هذه الطبقة من التواقيع بخَطَابة الجوامع .

وهذه نسخةُ توقيع بخَطَابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة، حيث مُصَلّى السلطان، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ :

الحمـدُ لله الذى أنار بالذِّكْر قلُوبَ أوليـائه ، وكشَفَ بالذِّكْرىٰ بصائرَ أصْفِيائه ، وأنال أهلَ العِـلْم بالإبلاغ عنـه إلىٰ خلْقه وِراثةَ أنبيائه، وآختار لإذْكارِنا بآلاء الله من فُرْسان المَنَابر مَنْ يُجاهد الأعداءَ بدُعائِه، ويُجاهِر الأوِدّاء من مواعظه بمـا يعلَم كلٌّ منهم أنّ فى مُؤْلِم صَوَادِعه دواءَ دائِه، فإذا آفتتَح بحمد الله أثنىٰ عليـه بمِوادّ علمه حقَّ ثَنائه، ونزّهه بمـا ينبغى لسُبُحات وجْهِه وجلالِ قُدْسه وتقدُّس أسمائه، وأثنىٰ كما يجبُ علىٰ نبيّه صلَّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومَنْ بعـدَه من الرُّسلِ تحتَ لِوائه، وإذا تُليتْ علىٰ خيلِ الله خُطبتُه تشوّقَتْ بلقاءِ أعداء الله إلىٰ لقائِه، وخَطبتِ الجنانَ من بذْل نفُوسها ونفائسها بمـا أفْتتَه فى سبيل الله لآتّقائه .

نَحمَدُه علىٰ أن جعَلَنا لذِكْره مستَمِعين، ولأمره ونَهْيه متّبِعين ، وعلىٰ حَمْده فى كل ملإٍ من الأولياءِ مجتَمِعين .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال تختالُ بذكرها أعطافُ المَنَابر، وتتعَطّر ألسِـــنةُ الأقلام بمـا تنْقُله منها عن أفْواه المَحَـابر، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى هَدى اللهُ مَنْ تقـدّم من الأمة بخُبْره ومن تأخّر بخَبَره ، وجعل روضةً من رِياض الجنة بين قَبْره ومِنْبَره، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم

أوّلُ من عُقِدتْ بهم من الجُمَع صلواتُها، وأكرمُ مَن زُهِيت به من الجهاد والمَنَابر صَهواتُها، صلاةً لا نزال نُقيمها عند كلّ مسْجد، ونُديمها فى كلّ مُتْهِم فى الآفاق ومُنْجِد، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ المنابرِ أن يُرتادَ له من أئمة العلماء علّامةُ عَصْره، ورُحلةُ مِصْره، وإمامُ وقته الذى يَصْدَع بالحق وإن صَدَع، وعالمُ زمانه الذى يقُوم فى كل مَقَام بما يُناسبه مما يأخُذ فى الموعظةِ الحسنةِ وما يَدَع ، مِنبرٌ نُذَكِّر بآلاء الله علىٰ أعواده وإن لم نَزَل لها من الذّاكرين، ونُنبِّه فيه علىٰ شُكر الله بالرأفة علىٰ خَلْقه وإن لم نَبْرَح لها بذٰلك وغيرِه من الشاكرين، ونُشَوِّقُ عليه إلىٰ الجهاد فى سبيل الله بما أعدّ اللهُ لنا علىٰ ذٰلك من النصْر والأجْرِ وإنْ كُنّا علىٰ الأبَد إليه مُبادِرين، وإلىٰ إقامةِ دَعْوة الحق به مُبَاكِرين .

ولما كان فلان هو الذى تعيّن لِرُقِيّ هذه الرتبة نخُطَب لخَطَابتها، وتبيّن أنه كُفْؤُهَا الذى تتشَوّقُ النُّفوس إلىٰ مواعظه فترْغَبُ فى إطالتها لإطابَتِها — اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نحَلِّيَ بفضائله أعطافَ هذا المِنْبَر الكريم، وأن نختَصّ نحن وأولياؤُنا بسَمَاعِ مواعِظه التى تُرَغِّب فيما عندَ الله بجهادِ أعداء الله ﴿ واللهُ عِنْدَهُ أجرٌ عظيم ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زال يُطْلِعُ فى أُفُق المنابرِ من الأولياء شمسًا مُنيره، ويُقيم شعائرَ الدين من الأئمة الأعلام بكُلِّ مُشْرِق العَلَانِيَة طاهِرِ السَّريره — أن يفوّضَ إليه كذا : فلْيَحُلَّ هذه الرتبةَ التى لم تُقَرَّب لغيره جِيادُها، ويُحَلِّ هذه العقيلةَ التى لا تُزَان بسوى العلم والعمل أجيادُها، ويَرْقَ هذه الهَضْبةَ التى يطُول إلّا علىٰ مِثْله صُعُودُها، ويَلْقَ تلك العصبة التى تجتمع للأولياء به (؟) حُشودها. وهو يعلم أنّه فى موْقف الإبلاغ عن الله لعِباده، والإعلام بما أعدّ اللهُ فى دار كرامته لمَنْ

جاهد فى الله حقَّ جهاده ، والإنذارِ لمن قصَّر فى إعدادِ الأُهْبة ليوم معَاده ؛ وهو بمحضَر من حُمَاة الإسلام ، ومَشْهَدٍ ممن قلَّدْناه أمرَ أمَّة سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ فليَقصُر خُطَبه علىٰ طاعةٍ لله يحُضُّ عليها ، وعَزْمةٍ فى سبيل الله يُشَوِّق إليها ، ومعْدَلة يصفُ ماأعدّ الله لوُلَاة أمرٍ قدَّمتْها بين يدَيْها ؛ وتوبةٍ يبعَثُ الهِمَم ، علىٰ تعجيلها ، وأوقاتٍ مكرَّمة ينَبِّه الأمم ، علىٰ احترامها بتقوىٰ الله وتبجيلها ؛ ودُنْيَا يُنْذِر من خِدَاعها ، ويبيِّن للمُغتَرِّ بها ماعُرِف من خلائقها المذمومة وأُلِف من طِبَاعها ؛ وأُخرىٰ يوضِّح للمُعْرِض عنها وَشْك قُدُومها ، ويحذِّر المقصِّر فى طِلَابها من عذَابها ويبشِّر المشمِّر لهـا بنَعِيمها . وليعْلَمْ أنَّ الموعِظة إذا خرجَتْ من الألسِنَة لم تَعْدُ الأسماع ، ولم يُحصَل منها علىٰ غير تعقُّل القَرائن والأسْجاع ؛ وإذا خرجَتْ من القلوب وقعت فى مِثْلها ، وأثمرت فى الحال بالمحافظة علىٰ فَرْض الطاعة ونفْلها ؛ وسكَنَتْ فى السرائر طِباعَ طاعةٍ تأبىٰ علىٰ مُحاوِل نَقْلها ، وقدحَتْ(١) فى البصائر من أنواع المعْرِفة ما لم يُعْهَد من قَبْلها . وليجعَلْ خُطَبه فى كل وقتٍ مناسِبةً لأحوال مستَمعيها ، متناسبةً فى وضُوح المقاصد بينَ إدْراك مَنْ يَعِى غوامِضَ الكلام ومَنْ لا يَعِيها ؛ فخيرُ الكلام ما قَلَّ ودَلّ ، وإذا كان قِصَرُ خطبةِ الرجُل وطُول صلاتِه منبئين عن فقهه فما قَصَّر مَنْ حافظَ علىٰ ذٰلك ولا أخَلّ ؛ وليُوشِّح خُطَبه من الدعاء لنا وللمسلمين بما يُرجىٰ أن يوافِقَ ساعةَ الإجابه ، وإذا توخَّى الغرضَ بدعائه لعُمُوم الأمة فقد تعيَّنتْ ـ إن شاء الله ـ الإصابَه ؛ وهذه الوصايَا علىٰ سبيل الذِّكْرى التى تنفَع المؤمنين ، وترفَعُ المحسنين ، والله تعالىٰ يجعله ـ وقد فعل ـ من أوليائه المتقين ؛ بمَنِّه وكرمه ! ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله وقذفت .

* * *

وهذه وصية خطيب أوردها فى "التعريف" :

ولْيرقَ هـذه الرُّتبة التى رُفعتْ له ذُرا أعوادِهـا ، وَقُدّمتْ له من المنابر مُقرَّباتُ جِيادِها ؛ وليصْعَدْ منها علىٰ أعلىٰ دَرَجه ، وليَسْعدْ منها بصَهْوةٍ كأنما كانتْ له من بُـكْرة يومـه المُشْرِقِ مُسْرَجه ؛ ولـيَرْعَ حقَّ هـذه الرتبةِ الشريفـه ، والذِّروة التى ماأُعِدّت إلّا لإمامٍ فردٍ مثلِه أو خليفه ؛ وليقفْ حيثُ تَخْفُقُ علىٰ رأسـه الأعلامُ ، ويتكلَّم فتخرَس الألسـنة وتَجِفُّ فى فَمِ الذُّرَا الأقلام ، ولْيقرَعِ المسـامعَ بالوعْـد والوعيـد ، ويُذَكِّرْ بأيام الله مَنْ ﴿كان له قَلْبٌ أوْ أَلْقَى السَّـمْعَ وهُو شَـهِيد﴾ . ويُلِّين القلوبَ القاسيةَ و إن كان منها ما هو أشدُّ قَسْوةً من الحجارة والحديد ؛ ولْيَكُنْ قد قدّم لنَفْسه قبل أن يتقَدّم ، وليُسْـبِلْ عليه دِرْعَ التوبة قبل أن يتكلَّم ، وليجعَلْ لكل مَقامٍ مَقالا يقُوم به علىٰ رءُوس الأشهاد ، ويفَوِّقْ منه سَهْما لايُخْطِئ موقعُه كلَّ فؤاد ؛ وليَقُمْ فى المِحراب مَقام من يخشىٰ ربَّه ، ويخافُ أن يَخْطَف الوجَلُ قلْبَـه ؛ وليعلم أنَّ صدَفةَ ذٰلك المحراب ما ٱنفلقَتْ عن مثل دُرّته المكْنُونه ، وصناديقَ الصُّـدُور ما أُطْبِقَتْ علىٰ مثل جوْهَرته المخزُونه ؛ وليؤمَّ بذٰلك الجَمِّ الغَفير ، وليتقدّم بين أيديهم فإنّه السَّـفير ؛ وليؤدِّ هذه الفريضـةَ التى هى من أعظَم الأركان ، وأولِ الأعمـال التى تُوضَع فى المِيزان ، وأقربِ القُرَب التى يَجْمَـع إليها داعى كلِّ أذان ؛ وليقُمْ بالصلاة فى أوقاتِها ، وليُرِحْ بها الناسَ فى أوّل مِيقاتِها ، وليخَفِّف مع الإتمام ، وليتحمَّل عمَّن وراءَه فإنه هو الإمام ؛ وعليـه بالتقوىٰ فى عَقْد كل نيَّه ، وأمامَ كلِّ قضيَّه ؛ والله تعالىٰ يجعَله ممن ينقَلِبُ إلىٰ أهله وهو مسْرُور ، ويُنْصَبُ له مع الأئمة المُقْسِطين يوم القيامة عن يمين الرحمن منابِرُ من نور ؛ بمَنِّه وكرمه .

الوظيفة السادسة

(الإمامة بالجوامع، والمساجد، والمدارس الكبار التى تصدر التولية عن السلطان فى مثلها)

وهذه نسخة توقيع بالإمامة :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى جعلت أيَّامنا الشريفةَ تزيدُ أهلَ الفضائل إكراما، وتخُصّ بالسيادة والتقديم من أنشَأه الله تعالىٰ قُرّةَ أعيُنٍ وجعله للمتَّقين إماما، وقدّمه علىٰ أهل الطاعة الذين يَبِيتُون لربّهم سُجَّدا وقِياما .

والشّهادةِ له بالوحدانيَّة التى تكسُو مُخْلِصَها جَلَالا وسَّاما ؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى أمَّ النـاسَ وعلَّمهم الصلاةَ وأظهر فى إقامة الدِّين مقالا محمُودا ومقامًا ، وعلىٰ آله وصحبه الذين تمسَّكوا بسُنَّته توثُّقا وآعتصاما ــ فإنَّ خير الرتَب فى هذا العصر وفيما تقدّم، رُتبةُ الإمامة حيثُ تقدّم سيدُ البَشَر فى مِحْرابها علىٰ الأمة وأمّ؛ فاختارها من آتّبع الطريقَ المحمديَّةَ وشَرْعَها، وعلم سَناءَها ورَفْعها؛ فزاد بذٰلك سُمُوًّا إلىٰ سموّه، وحصل علىٰ تَضاعُف الأجر ونُموّه؛ وهو فلان .

رسم ــ لا زالت أيامه الشريفةُ تَشْمَل ذَوِى الأصالة والصَّدارة بجزيل فَضْلِها ، وعوائدُ إنعامه تجرى بإتمـام المعروف فتُبقِى الرتَبَ الدينيَّةَ بيدِ مستحِقّها وتسارع إلىٰ تخليد النعم عند أهلها ــ أن يستمرَّ فلان فى كذا جاريًا فيه علىٰ أجمل العادَات ، إعانةً له علىٰ آكتسابِ الأجُور بمـا يعتمده من تأهيـل مَعْهَـد العبادات؛ ورعايةً لتكثير المَبَارّ ، وترجيحًا لمـا آشتمل عليه من حُسْن النظر فى كل إيراد وإصْـدار ، وتوفيرًا للمَنَاجح التى عُرِفت من بيته الذى كَمْ أُلِفَ منه فعلٌ جميل وعَمَلٌ بارّ ، ووثوقًا

بأنه يعتَمد فى عمــارة بمساجِد الله ســبحانه وتعالىٰ أنه تَشْهَد به الملائكةُ المتعاقبُون بالليل والنهار، والله تعالىٰ يجعل النِّعم عنده مؤبَّدة الآستقرار، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــــة السابعة

(التدريس، وموضُوعه إلقاءُ المسائل العلمية للطَّلبَة)

وهــذه نسخة توقيــع بتدريس كُتِب به للقــاضى عزِّ الدين آبن قاضى القضاة بَدْرِ الدِّين بن جَماعةَ ، عوضًا عن والده . فى جُمادىٰ الآخرة ســنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحَمْدُ لله مُتِمِّ فَضْله علىٰ كلِّ أحد ، ومُقِرِّ النِّعمة علىٰ كلِّ والد ووَلَد ، الذى خَصَّ أولياءَنا ببُلُوغ الغايات فى أقْرب المُدَد ، وآستصحابِ المعروف فمــا يُنْزَع منهم خاتَمٌ من يَدٍ إلَّا لِيَد .

نحمَدُه بأفضل ما يحمَدُه به مَنْ حَمِد ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً باقيــةً علىٰ الأَبد ، ونُصلى علىٰ ســيدنا محمد نبيِّه الذى جعــل شريعتَه واضحةَ الجَدَد ، قائمةً بأعلام العلمــاء قِيامَ الأَمَد ، صلَّىٰ الله عليــه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين شَبَّهم فى الهُدى بالنُّجوم وهُمْ مثلُها فى كَثْرة العَدَد ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ نِعَمَنا الشريفةَ لا تَحَوّل ، ومواهِبَنَا الجزيلة ... ... [(١)] تَخَوّل ، وكرمَنَا يُمهِّد منــازِلَ السُّعود لكل بَدْرٍ يتنقَّل ، وشِيَمَنا الشريفةَ ترعىٰ الذِّمَم لكلِّ من أنفَق عُمْرَه فى ولائها ، وتحفَظ مالهَــا من المآثِر القديمة بإبقائها فى نُجَباء أبنائها ، مع ما نُلاحِظُه فى آستحقاقِ التقديم ، وآنتخاب مَنْ تَرقَّىٰ منهم بين العِلْم والتعليم ، وحَصَّل

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تخوّل . وفى اللسان "التخول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العِلمَ الكثير، .واستمدّ من نُور والده وهو البَـدْر المُنير، وعُلم بأنّه فى الفضائل سرُّ أبيه الذى شاع، وخليفتُه الذى لو لم يَنُصّ عليه لما آنعقد [إلا] عليه الإجماع ، والواحدُ الذى ساد فى رُتْبة ابيـه وما خلَتْ من مثله — لا أخْلىٰ اللهُ منه البِقَـاع ! .

وكان المجلس السامىّ، القضائىّ، الفـلانىّ، هو المرادَ بمـا قدّمْنا من صِـفاته الجميـله ، وتوسّمْنا أنه لَمْعَةُ البَـدْر وهى لاتخفىٰ لأنهـا لا تَرُدُّ العُيونَ كَلِيله ، ورأىٰ والدُه المشارُ إليه من آستحقاقه ماآقتضىٰ أن يُنَوّه بذكره ، ويُنَبّـه علىٰ المعرفة بحقّ قَدْره ، فآثر النُّزُول له عمّـا باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصرَ المحروسـة ليقُوم مَقامَـه ، ويُقَرّر فوائدَه ويَنْشُر أعلامَه ، ويَعْـلم أنه قد حلّق فى العليـاء حتّى لَحِق البَـدْرَ وبلغ تَمَـامه ؛ فعلِمْنا أنّ البركةَ فيما أشار ، وأنّ اليُمْنَ بحمـد الله فيما رجّحـه من الآختيـار .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف — زاد الله فى شَرَفه، وجعل أقطارَ الأرض فى تصَرّفه — أن يُرَتَّب فى هـذا التدريس عوضًا عن والده ، أطال الله بقـاءَه علىٰ عادته وقاعدته إلىٰ آخر وقتٍ لأنه أحقُّ من آستحق قدْرُه الرفيعُ التميـيز، وأولىٰ بمِصْرَ ممن سـواه لمـا عرَفَت به مصر من العزيز ثم من عَبْد العزيز .

ونحن نُوصيك أيُّها العالِم — وفّقك الله — بالمُدَاومة علىٰ ما أنت بصَدَده، والمذاكرة للعلم فإنّك لاتُكاثِرُ العلَماء إلا بمَدَده، والعملِ بتقوىٰ الله تعالىٰ فى كل قَصْد وتَصْدير، وتَقْريب وتقرير، وتأثيلٍ وتأْثير، وتقليل وتكثير، ونصّ وتأويل، وترتيبٍ وترْتيل، وفى كل ماتَزْدادُ به رفعتُـك، وتطيرُ به سُمْعَتُك، ويحسُنُ به الثناءُ علىٰ دِينك المتين ، ويقومُ به الدليلُ علىٰ ما وضح من فَضْلك المبين .

وآعلم بأنك قد أدركتَ بحمد الله تعالىٰ وبكرمنا وبأبيك وباستحقاقك ما آرتدّ به كثيرٌ عن مَقَامك ، ووصلتَ في البِداية إلىٰ المَشيخة في زاوِيةِ إمامك ؛ فاعمل في إفادةِ الطَّلَبة بما يرفَعُ الرافعيُّ لك به الرايه ، ويأْتمُّ بك إمامُ الحرمين في النّهايه ؛ فقد أمسيتَ جارَ البحر فاستخرِج جُمَانَه ، وآجتهد لتُصيب في فَتاوِيك فإنّ أوّلِيك سِهَام رميُها من كِنَانه ؛ وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ بمقتضاه والآعتماد[(١)] .

✦✦✦

وهذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعيّ بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولىٰ زَيْن الدين بن الخَضِر مُوَقِّع الدَّسْت ، كُتِب به لتاج الدين محمد الإخنائي شاهد خِزَانة الخاص ، بالنِّيابة عن عمّه قاضي القضاة تقيّ الدين المالكيّ في أيام حياته ، مستقلًّا بعدَ وَفاته ، وهي :

أما بعدَ حَمْدا لله علىٰ أنْ زانَ مجالِسَ المَدَارس في أيّامنا الشريفة بتاجِها ، وأقربها من ذَوِي الإنابة من يستَحِقُّ النيابةَ عن تقِيّ قَوَّى الأحكام بإحكامها وإنتاجها ، ورفع قدرَ بيتٍ مباركٍ طالما آشتَهر عَلَمُ عِلْمه وصدَر عن صَدْره فكان مادّةَ مَسَرّة النفس وآبتهاجِها ، وجعل عوارِفَنا ترعىٰ الذُّرِّيّةَ الصالحةَ في عَقِبها وتُولِّي كلَّ رُتْبة مَنْ أضحىٰ لأهلها بوَجَاهته مُواجِها ؛ والشهادةِ له بالوَحْدانيَّة التي تَنْفِي شِرْكَ الطائفة الكافرة ومَعْلُولَ آحتجاجِها ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذي آستقامتْ به أمورُ هذه الأمة بعد آعْوِجَاجِها ، وتشرَّفتْ به علماؤُها حتّى صارتْ كأنبياء بني إسراءيلَ بحُسْن آستنباطِها للجُمَل وجميلِ آستخراجِها ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عمِلوا وعَلِموا وأوضحُوا لهذه المِلَّة قويمَ مِنْهاجِها ـ فإنَّ أَوْلَى الأولياء ببُلوغ الأمَل ، وتعاهُد

(١) أي الى آخر ما يقال في مثله .

مدارس العلم بصالح العَمَل ، وإظهار سرِّ الفوائد للطالبين ، وحَلّ عقود مُشْكِلها بجميل الاطّلاع وحُسْن اليقين ، من حَوىٰ معرفةَ الفُروع والأُصول ، وحاز من مَذهبه المُذْهَب خَيْرَ محْصُول ، ونشأ فى حِجْر الفضائل ، واقتدىٰ بحُكّام بيته الذين لهم فى العُلُوم بمصرَ والشامِ أوضحُ البراهين وأقوى الدَّلائل ، وله فى الآباء والأُبوّة ، الديانةُ التى بلغ بها من الإقبال مَرْجُوّه ، طالَمَا سارتْ أحكامُ عمِّه ـ أجله الله ـ فى الأقطار ، وحكَمَ فأبدىٰ الحُكْم بين أيدينا أوفى الأمصار . وله العَفَاف والتُّقىٰ والمآثرُ الجميلةُ وجميلُ الآثار ، والفَتاوَىٰ التى أوضح بها مُشْكِلا ، وفَتَح مُقْفَلا ، والفصلُ بين الخصوم بالحقِّ المُجْتَلىٰ ، والبركةُ التى لدولتنا الشريفة منها نصيبٌ وافر ، والتصميمُ الذى اقترن بغَزَارة العلم والوَقَار الظاهر ، فهو ـ أعز الله أحكامَه ـ من العُلماء العاملين ، وله البُشْرىٰ بما قاله أصدقُ القائلين ، فى النبإ الذى تتمُّ به الزيادةُ والنماء : ﴿ إنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ .

ولما كان المجلس السامى هو الذى استوجبَ التصديرَ لإلقاء الدروس ، وأضحىٰ مالكيًّا مالكًا أزمّة الفضائل حائزًا من أثوابها أفخر مَلْبُوس ، وله بخزانة خاصّنا الشريف وإصْطبلاته السعيدةِ الشهادةُ البيِّنه ، والكتابةُ التى هى العزُّ الحاضر فلا يُحتاج معها إلىٰ إقامة بَيِّنه ، والكَفَالةُ التى نطقتْ بها الأفواه مُسِرَّة ومُعْلِنه ، والأمانةُ التى حذَا فيها حذْوَ أبيه واتَّبع سَنَنه .

فلذلك رُسِم ـ لا زال يُديم النِّعَمَ لأهلها ، ويُبْقِى المراتبَ الدينيَّة لمن أضحىٰ محلُّه مناسبا لمَحَلِّها ، أن يستقر ... ... [1] فلْيَنُبْ عن عمِّه فى هذا التدريس ، وليَقْفُ ما يَسُر النفوسَ من أثره النفيس ، وليُفِدِ الطلبةَ علىٰ عادته ، وليُبْدِ لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده فى تدريس زاوية الشافعى الخ .

النُقول ما يُظهِر غزيرَ مادَّته ، وليستنبط المسائل ، وليُجبْ بالأدلّة المُسائل ، وليرجّح المَباحث ، وليكن لوالده ـ رحمه الله ـ أحقَّ وارث ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالىٰ ، وليتزيَّد من العلوم ليبلُغ من صدقَاتنا الشريفة آمالا ، والله تعالىٰ يسدِّدُ له بالتقوىٰ أقوالًا وأفعالا ، بمنِّه وكرمه .



وهـذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسـةِ الصَّلاحيَّة المجاورةِ لتُرْبة الإمام الشافعيّ رضى الله عنـه ، كُتِب به لقاضى القُضاة تقِيّ الدين ، آبن قاضى القُضاة تاج الدِّين آبن بِنْت الأعزّ . من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله شافِي عِيّ البَحْث بخيرِ إمامٍ شافِعِيّ ، والآتى منه فى الزّمن الأخير بمن لو كان فى الصَّدْر الأوّل لأثنىٰ علىٰ وَرَعه ودينه كلُّ صحابِيّ وتابِعِيّ ، ومُفيد الأسماع من وَجيزِ قولِه المحرَّر ما لولا السبقُ لمـا عَدَل إلىٰ شرح وجيزِ سواه الرافعيّ .

نحمده علىٰ نِعَمٍ ألهَمَتْ وضْعَ الأشـياء فى محلّها ، وآستيداعَها عند أهلِها ، وتأتّيها بمـا يزيل الإشكال بانجذابِ مَنْ شكْلُه مناسبٌ لشَكلها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتزيَّن بها المَقال ، ويتبيَّن بهـا الحقُّ من الضَّـلال ، ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسوله ونبيُّـه موضِّحُ الطُّرُق إلىٰ الحق المبين ، وناهجُها إلىٰ حيث مجتَمَعُ الهدىٰ ومرتَبَع الدِّين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً تَهْدى إلىٰ صراط الَّذين ، ورضى الله عن أصحابِه الذين منهم مَنْ جاءَ بالصِّدْق وصَدَّق به فقوِىَ سببُ الدين المتين ، ومنهم من فَرَق بين الحق والباطل وكان إمامَ المتقين وسُمِّيَ أميرَ المؤمنين ، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة فثبَّت جأْشَ المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلّى الله عليه وسلم الرايةَ فأخذَها منه باليمين ، ورضى الله عن بقيّة الصحابة أجمعين .

وبعدُ، فلما كان مذهَب الإمام الشافعي «محمد بن إدريس» رضى الله عنه هو نُهْدة المتلفظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبهجةُ المتلحِّظ ، وطرازُ مَلْبَس الهدىٰ، وميدانُ الاجتهاد الذى لاتقفُ أعنّـة جياده عن إدراك المَـدىٰ، وقد تجملتْ ديارُ مصر من بركة صاحبه بمن تُشَـد إليه الرِّحال، وتَفْخَرُ جَبَّانة هو فيها حالّ ، وجِيدٌ هو بجواهر عُلُومه حالٍ ، ومن يَحْسُن إلىٰ ضريحه المُنِيف الاستناد ، وإذا قُرِئَتْ كُتُبه لديْه قيل ما أبعَدَ هذا المَرْمىٰ الأسنىٰ! وما أقربَ هذا الإسْناد! ،وما أسْعدَ حَلْقةً تُجْمع بين يدى جَدَثه يتصدَّر فيها أجلُّ حَبْر، ويتصدَّىٰ لنَشْر العلوم بها من عُرف بحُسْن السِّيرة عند السَّبْر، ومَنْ لولا خَرْقُ العوائد لأجاب بالشُّكر والثناء عليه صاحبُ ذٰلك القبْر كما قال: «قال صاحب هذا القبر» ـ حَسُن بهذه المناسبة أن لاينتَصِبَ فى هذا المَنْصِب إلا من يَحْمَـدُ هذا السيدُ الإمامُ جِوَاره ، ومَن يرْضيه منه ـ رضى الله عنه ـ حُسْنُ العباره، ومن يستحقُّ أن يتصدر بين نُجوم العلماء بِدارة تلك الخطّة فيقال قد جمّل الله به دارةَ هذا البدر وعَمّر به من هذا المدرَّس دارَه، الذى يفتقر إلىٰ تنويل نِعَمه، وتنويه قَلَمــه ، من الأئمة كلُّ غني ، ويُعجَب ببلاغة خُطَبه، وصياغة كُتُبه، من يَجْتَـلِي ومن يجتَنِي ، ومن يَهْنَا المستفيدُون من عذُوبة ألفاظه وصفاء معانيه بالمَوْرد الهني ، ومَنْ إذا سَحَّ سَحابهُ الهَطَّالُ اعترفَ له بالمُمُوّ والهمُول المزنى ، والذى لسَـعْد جَدّه من أبيه ليث أكرِمْ به من لَيْث وأكرم ببَنِيه من أشبال! ، وأعززْ به من فاتح أبوابِ إشكالاتٍ عَجَز عن فَتْحها القفَّال! ، ومن إذا قال سكتَ الناس ، ومن إذا قام قَعَد كلُّ ذى شِمَاس، وإذا أخذ بالنصِّ ذَهَب الاقْتياس ، وإذا قاس قيل هذا بحرُ المَذْهب المشارُ إليــه بالأصابـع فى مِصْره حلالةً ولا يُنْـكَر لبحر المصر الإشارةُ

بالأصابع ولا القياس ، ومن يزهو بتقىٰ قلبه ورُقىٰ جوابه لسانُ التعويل ولسان التعويذ ، كما يميس بإحاطته وحياطته قلمُ الفتوىٰ وقلمَ التنفيذ ، ومن يفخر [به] كلُّ عالم مفيد إذا قال : أنا بين يديه طالبٌ وأنا له تلميذ ، ومَنْ حيثما ٱلتفتَّ وجدتَ له سُؤددا جمّا ، وكيفما نظرتَ رأيتَ له من هُنا وزارةً ، ومن هُنا خطابةً ، ومن هُنا مشيخةً ، ومن هنا تدريسا ، ومن هُنا حُكما !!!! ؛ فهو الأصلُ ومَنْ سواه فُرُوع ، وهم الأثمادُ وهو اليَنْبُوع ؛ وهو مجمُوع السياده ، المختارُ منه الإفاده ، فما أحسنَه من ٱختيار وما أتمَّه من مجموع ، وكان قاضى القُضاة ، سيِّد العلماء ، رئيسُ الأصحاب ، مقتَدَى الفِرَق ، قُدوةُ الطوائف ، الصاحب تَقِيّ الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضى القُضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شرَفه ، ورَحِم سلَفَه ، هو منتهىٰ رغبة الراغب ، ومُشْتهىٰ مُنْية الطالب ؛ ومَنْ إذا أضاءت ليالى النُّقُوس بأقمار فتاويه قيل (بياضُ العَطَايا فى سَوَاد المَطَالب) ، ومن تتَّفِق الآراء علىٰ أنه لِسِنِّ الكُهُولة شيخُ المَذَاهب ؛ ومَنْ عليه يَحْسُن الاتفاق ، وبه يجمُل الوِفَاق ، وإذا وَلِىَ هذا المنصبَ ٱبتهج بولَايته إيَّاه مالك فى المدينة وأبو حنيفةَ وأحمدُ رضى الله عنهم فى العِرَاق ؛ وٱهتزَّتْ به وبمجاورة فوائده من ضريح إمامه جوانبُ ذٰلك القبْر طَرَبا ، وقالت " الأُمُّ " لقد أبهجتَ ـ رحم الله سلفَك ـ بجدِّك وإبائك جدًّا وأبا ، ولقد ٱستحقيْت أن يقول لك منصبُ سلَفِك رضى الله عنهم : أهْلًا وسَهْلا ومَرْحَبا ، وهذه نَسَماتُ صَباً ، كانت الإفادة هُنالك تعرِفُها منك من الصِّبا .

فالحمد لله علىٰ أن أعطىٰ قوْسَ ذٰلك المحراب باريها ، وخصَّ بشَقِّ سهامِها من لا يزال سعده مُباريها ، وجمَّل مطلَع تلك السماء ببدرٍ كم باتتْ [عليه] الدُّرر تحسُد دَرَاريها ؛ وألهَم حسنَ الاختيار أن يجرى القلَمُ بما يحسُن بالتوقيع الشريف موقعُه ، ويجملُ فى أثناء الطروس وضعُه وموضعُه .

فرسم بالأمر الشريف العالى المولوى ، السلطانى : ــ أجراه الله بالصواب ، وكشف بارتيابه كلّ ارتياب ، ولا زال يختار وينتقى للمناصب الدّينيّة كلّ عالم بأحكام السنّة والكتاب ــ أن يفوّض إليه تدريس المدرسة الصلاحيّة الناصريّة المجاورة لضريح الإمام الشافعيّ بالقرافة رضى الله عنه . فليخوّل وليتولّ كلّ ذى استفاده، وليجمّل منه بذلك العقد الثمين من علماء الدّين بأفخم واسطة تفخر بها تلك القلاده، وليذكر من الدروس ما يبهج الأسماع، ويرضى الانتجاع، ويجاد به الانتفاع ، ويجتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع ، ويتناقل الرّواة فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع ، وليقل فإنّ الأسماع لفوائده منصته، والأصوات لمباحثه خاشعةٌ والقلوب لمهابته مخبته ، ولينهض قوىّ المسائل بما يحصّل لها أعظم انتعاش، وليمت ما أماته إمامه من البدع فيقال به له : هذا محمد ابن إدريس مذ قمت أنت عاش، وليسمع بعلومه من به من الجهل صمم، وليستنطق من به من الفهاهة بكم، وليحقّق عند الناس بتعصّبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآن الحاكم ابن الحاكم أخو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عبد الحكم .

وأما غير ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحب إلهامها ، وجالب أقسامها ، وجهينة أخبارها، ومطلع أنوارها ، فلا يعاد، عليه ما منه يستفاد ، ولا ينثر عليه درّ هو منظّمه فى الأجياد، والله تعالى يعمّر بسيادته معالم الدين وأكنافه، ويزيّن بفضله المتين أوساط كلّ مصر وأطرافه، ويضيف إليه من المستفيدين من بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشه خفضا بتلك الإضافه ، ويجعله لا يخصّص حنوه بمعهد دون معهد ولا بمسافة دون مسافه، ويبقيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللّطافه، وألطافه بهذه الولاية تقول لكلّ طالب فى القرافة التى رافه .

قلت : ولما تُوفّي قاضي القضاة بدرُ الدين بنُ أبي البقاء ــ تغمده الله تعالىٰ برحمته ــ وكان من جملة وظائفه تدريسُ هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلىٰ الشام في بعض الحَرَكات ، فسافر ٱبنُه أقضىٰ القضاة جلالُ الدين حتّى ادرك السلطانَ بالطريق ، علىٰ القُرب من غَزّة ، فولّاه الوظيفةَ المذكورةَ مكانَ أبيه ؛ وكان القاضي نورُ الدين بنُ هلال الدولة الدِّمَشقيّ حاضرًا هُناك ، فأشار إليه القاضي فتحُ الدين فَتْح الله كاتبُ السر الشريف ــ عامله الله بلطفه الخفيّ ــ بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سَجْعتين ، هما :

الحمدُ لله الذي أظهَر جلالَ العلماء الشافعية بحضْرةِ إمامهم ، وأقام ساداتِ الأبناء مقَامَ آبائهم في بثّ علومهم وصلاتِهم وصِيامِهم . ولم يجاوز ذلك إلىٰ غيره ، فسُطِّر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلِّم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نور الدين بن هلال الدولة للقاضي جلال الدِّين المذكور : إنّ هذا التوقيعَ يبقىٰ أبيضَ : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملته علىٰ هذا الأسلوب . فسمع القاضي كاتبُ السرّ كلامَه ، فكتبَ لِي بتكملتـه علىٰ ظَهْره ، وعاد به القاضي جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرني بكلامِ ٱبن هلالِ الدولة وما كان من قوله ، فتلكّأْت عن ذٰلك ، ثم لم أجِدْ بُدًا من إكماله وإن لم أكُنْ من فُرسان هذا المَيْدان ، فأنشأْت له علىٰ تينك السجعتين ما أكملته به ، فجاء منه تِلْوَ السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ٱبن هلال الدولة :

وخصَّ برياسة العلم أهلَ بيتٍ رأتْ كُهولهُم في اليَقظة ما يتمنّى شُيوخُ العلماء أن لو رأَوْه في مَنامهم .

وجاء من وسطه :

اقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُنَوِّه بذكره، ونقدّمه علىٰ غيره ممّن رام هذا المَقامَ فحُجِب دُونَه ﴿وَاللهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِه﴾ .

وجاء فى آخره :

والله تعالىٰ يرقّيه إلىٰ أرفع الذُّرا، وهذه الرتبةُ وإن كانت بِدايتَه فهى نهايةُ غيره (وإنّا لنَرجو فوقَ ذٰلِكَ مَظْهرا) .

وقد أعوَزَنى وِجْدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَياع مُسْودّتها ولم يحضُرْنى منها غيرُ ماذكرتُه . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضى تقى الدين ابن بنت الأعزّ مالا ينظَر مع وُجوده إلىٰ غيره .

⁂

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصّة بالمالكية، المعروفة بالقَمْحية، بمصرالمحروسة، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين الأَقْفَهسى، وهى :

الحمدُ لله الذى زيّن معالمَ المدارس من أعلام العُلماء بجَمالها، وميّز مراتبَ الكَمَلة بإجراء سَوابِق الأفكارِ فى مَيادِين الدُّروس وفَسِيح مَجالها، وعَمَّر معاهدَ العلم بأجلِّ عالم إذا ذُكِرت وقائعُ المناظَرة كان رأسَ فُرسانها ورَيِّس رجالها، وناط مقاصدَ صَلاح الدين بأكمل حَبْر إذا أُورِدتْ مناقبهُ المأثورةُ تمسَّك أهلُ الدِّيانة منها بوَثيق حِبالها .

نحمَدُه على اختيار الجوهر والإعراض عن العَرَض، والتوفيق لإدراك المَرامى وإصابة الغَرَض .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لاشريك له الذى خصّ أهلَ العلم بكريم حِبَائه، وشرَّف مَقامَهُم فى الخليقة بجَعلهم فى حَمْل الشريعة ورَثةَ أنبيائه، شهادةً تُعذِبُ لقائلها بحُسْن الإيراد وِرْدا، وتُجدِّد لمنتحِلها بمواطن الذِّكرِ عَهْدا فيتّخذ بها عند الرحمٰن عَهْدا، ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ عَلِم وعَلَّم، وأكرمُ رسولٍ فصَّل الأحكامَ إذ شَرَع ونَدَب وأوجبَ وحلَّل وحَرَّم، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُنُوا بتفسير كتاب الله تعالىٰ فأدْرَكوا دقيقَ مَعانيه، واهتمّوا بالحديث رِوَايةً ودِرَايةً ففازُوا بتأسيس فِقه الدِّين وإقامة مَبانيه، صلاةً تُحيط من بِحار العلم بزاخِرها، وتأخُذ من الدُّروس بطرَفَيها فتقارِنُ الحمدَ فى أوَّلها وتصْحَب الدعاء فى آخرها، ما تُتُبِّع بالمنقول مواقِعَ الأثَر، وعُوِّل فى المعْقُول علىٰ إجالة الفِكْر وإجادة النَّظَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ ماصَرفت النفوسُ إليه هِمَمَها، وأخلصتْ فيه نِيّتَها وخلَّصتْ من تَبِعاته ذِمَمَها، وتَبِعتْ فيه آثارَ من سلَف من الملوك الكِرام، وأعارَتْه كُلِّيَّ نظرِها وقامتْ بواجبه حقَّ القيام ــ أمرُ المدارس التى هى مَسْقَط حَجَر الاشتغال بالعِلم ومستَقَرّ قاعدته، وقُطْب فلَك تَطْلابه ومُحيط دائرته، ومَيْدان فُرْسان المشايخ ومَدَار رجالها، ومَوْرِد ظِمَاءِ الطَّلَبة ومحطُّ رحالها، لا سيَّما المدارسُ الأيُّوبية التى أُسِّس علىٰ الخير بِناؤُها، وكان عن صَلاح الدين منْشؤُها فتألّق برقُها واستطار ضياؤُها .

ومن أثبتِها وَثيقه، وأمثلها فى الترتيب طَرِيقه، المدرسةُ القَمْحية بالفُسْطاط الآخذةُ من وجوه الخير بنِطاقها، والمخصوصُ بالسادة المالكيَّة امتدادُ رُواقها، إن اعتُبِرتْ رعايةُ المذاهب قالت : مالِكٌ وما مَالِك، وإن عُمِلَتْ حِسْبة المدارس فى البِرِّ، كانتْ لها فَذَالك، قد رُتِّب بها أربعةُ دُروس فكانتْ لها كالأركان الأربعه، وجُعلت صدَقتُها الجاريةُ بُرًّا فكانت أعظم بِرًّا وأعمّ منفعه .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، الشيخىُّ، الكبيرىُّ، العالمىّ، العاملىّ، الأفضلىُّ، الاكملىُّ، الأوحدىُّ، البليغىّ، الفريدىّ، المفيدىّ، النجيدىّ، القُدْوىّ، الحُجّىّ، المحقّقىّ، الإمامىّ، الجمالىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرَفُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ، قدوةُ البلغاء زينُ الأمه ، أوحدُ الأئمّة ، رُحْلة الطالبين ، فخرُ المدرّسين ، مفتى الفِرَق لسانُ المتكلمين ، حجّة المناظرين ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، وَلِىُّ أمير المؤمنين ، أبو محمد « عبدُ الله الأقْفَهْسىّ » المالكىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ـ هو عينُ أعيان الزمان ، والمحدَّثُ بفضله فى الآفاق وليس الخبرُ كالعيان ؛ ماوَلِىَ منصبا من المناصب إلا كان له أهْلا ، ولاأراد الانصرافَ من مجلسِ علمٍ إلّا قال له مَهْلا ، ولا رَمىٰ إلىٰ غاية إلا أدْركها ، ولا أحاط به مِنْطَقةُ طلَبةٍ إلا هزَّها بدقيق نظَره للبحث وحَرّكها . إن أطال فى مجلسه أطاب ، وإن أوجز قصّر محاوِرُه عن الإطالة وأناب ، وإن أورد سؤالا عَجَز مناوئُه عن جوابه ، أو فتح باباً فى المناظرة أحجم مُناظِرُه عن سَدِّ بابه ، وإن ألَمَّ ببحث أربىٰ فيه وأناف ، وإن أفتىٰ بحُكْمٍ اندفع عنه المُعارِض وارتفع فيه الخلاف ؛ فنَوادرُه المدوّنة فيها البيانُ والتحصيل ، ومقدّماته المبسوطةُ إجمالُها يُغْنِى عن التفصيل ؛ ومشارقُه النيِّرة لا يأفُلُ طالِعُها ، ومداركه الحسنةُ لايَسْأم سامِعُها ، وتهذيبُه المهذَّب جامعُ الأُمّهات ، وجواهره الثمينةُ لاتُقاوَم فى القيمة ولا تُضاهىٰ فى الصِّفات ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُنوّه بذكره ، ونُقدّمه علىٰ غيره ، ممن حاول ذلك فامتنع عليه ﴿ والله غالِبٌ علىٰ أمْرِه ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينىّ ـ لا زالت مقاصِدُه الشريفةُ فى مذاهب السَّداد ذاهِبه ، ولأغراض الحقِّ والاستحقاق صائبه ـ أن يستقرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه فى تدريس المدْرَسة

الصَّــلاحيَّة بمصر المحروســة المعروفة بالقَمْحية عِوضًا عن فلان الفلانى، على عادة مَنْ تقــدّمه .

فليتلَقّ ذلك بالقَبول ، ويَبْسُطْ فى مجالس العلم لسانَه فمن كانَ بمَثابتــه فى الفضل حقّ له أن يَقُول ويَطُول ، وملاكُ الأمر تقوى الله تعالى فهى خيرُ زاد ، والوصايا كثيرة وعنه تُؤخَذ ومنه تُستفاد ، والله تعالى يبلِّغه من مقاصده الجميلة غايةَ الأمل ، ويرقِّيــه من هِضَاب المعالى إلى أعلى مَراتِب الكمال وقد فَعَلْ ، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المَدْرسة الصلاحيَّة المذكورة، أنشأتُه للقاضى شمس الدين محمد ابن المرحوم شهاب الدين أحمــد الدِّفْرىّ المــالكىّ، فى شعبان سنة خمس وثمــانمــائة، وهو :

الحمدُ لله مُطْلِــع شمس الفضائل فى سمــاء مَعاليها، ومبلِّغ دَرارِىّ الدَّرارىّ النبيهةِ الذِّكر بسَعادة الجَدّ غايةَ غيرها فى مَبادِيها، وجاعِلِ صَلاح الدِّين أفضلَ قصدٍ فوّقت العنايةُ سِهامَها بإصابةِ غَرَضه فى مَرامِيها ، ومجدِّدِ مَعالِم المدارس الدارسةِ بخَيْر نظر يقضى بتشييد قواعِدِها وإحكام مَبانِيها .

نحمَدُه على أنْ صرَف إلى القيام بنَشْر العلم الشريف اهتمامَنَا، وجعل بخِيرته العائدةِ إلى التوفيق فى حُسْن الاختيار اعتصامَنَا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له مُفيضُ نتائج الأفكار من وافِرِ إمداده، ومخصِّصُ أهــلِ التحقيق بدقيق النَّظر تخصيصَ العــامِّ بقَصْره على بعض أفراده، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أوفَرُ البرية فى الفضل سَهْماً، والقائلُ

تنويها بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لى فى صَبِيحةِ يَوْمٍ لا أزْدادُ فيه عِلْما » صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَلُّوا من الفضل جواهِرَه الثمينه ، والتابعين وتابعى التابعين الذين ضُرِبتْ آباطُ الإبل منهم إلىٰ عالِمِ المدِينه .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما صُرِفت إليه الهِمَم ، وبَرِئَت بتأدية حقّه الذِّمَم ، وغدَتِ النفوس بالنظر فى مصالحه مشتَغِله ، والفكرُ لشرف محلّه منه إلىٰ غيره منْتقِله ، النظرُ فى أمر المدارس التى جُعِلت للاشتغال بالعلم سَبَبا موصولا ، ولطَلَبته رَبْعا لا يزال بمجالس الذكر مأهُولا ، لاسيَّما المدارس التى قد قَدُم فى الإسلام عهدُها ، وعَذُب باستمرار المعروف علىٰ توالى الأيّام وِرْدُها .

ولمّا كانت المدرسة الصَّلاحية بفُسْطاط مصر المحروسة قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانها ، ومُهِّدت علىٰ الخير قواعدُها وأركانُها ، وآختصَّت طائفةُ المالكية منها بالخِصِّيصة التى أغنىٰ عن باطن الأمر عُنوانُها ، وكان المجلسُ السامىّ هو الذى خطَبتْه الرُّتَب الجليلة لنَفْسها ، وعيَّنته لهذه الوظيفة فضائلُه التى قد آنَ ولله الحمدُ بُزُوغُ شمسِها ، وعَهِدت منه المعاهدُ الجليلةُ حسنَ النظر فتاقَتْ فى يومِها إلىٰ ما ألِفت منه فى أمسِها ــ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن نُفرده بهذه الوظيفةِ التى يقوم إفرادُه فيها مَقام الجمع ، ونجمعَ له من طرفَيْها مايتَّفق علىٰ حُسْنه البصرُ ويقضى بطيب خَبَره السَّمْع .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ : ــ لا زال يُقيم للدِّين شِعارا ، ويرفَعُ لأهل العلم الشريف مِقْدارا ــ أن يستقرّ فى الوظيفة المذكورة لما آشتَهر من علمه ودِيَانته ، وبانَ من عفَّته المشهورة ونَزاهتِه ، واتَّصَف به من الإفاده ، وعُرِف [عنه] من نَشْر العلوم فى الإبْداء

والإعاده ؛ وشاع من طريقتــه المعروفةِ فى إيضاحه وبيانِه ، وذاعَ من فوائده التى قدّمَتْه علىٰ أبناء زمانه ، ورفَعَتْه إلىٰ هذه المرتبة باستحقاقه علىٰ أقرانه .

فلْيُباشِرْ تدريسَها مُظْهِرا من فوائده الجليلةِ ما هو فى طَىِّ ضميره ، مضْمِرا من حُسْن بيَـانِه ما يُستغنىٰ بقليله عن كثيره ؛ مقرّبا إلىٰ أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائقة ما يُفيــد ، مُورِدا من علومه المدوّنةِ ما يجمع له بين نَوادِر المقدّمات ومَدَارك التمهيد ؛ مُوَفِّيا نظرَها بحسن التدبيرِ حقَّ النظر ، موفِّرا رِزْقها بمـا يُصَدِّق الخُبْرُ فيه الخَبَر ؛ قاصــدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّب لراجٍ أمَلا ، معاملا فيه اللهَ معاملةَ من يَعلم أنه لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عملا . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعـالىٰ فليجعلْها إمامَه ، و يتخيَّلْها فى كل الأحوال أَمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلِّغه من رضاه نهايةَ سؤله وغايةَ أمله ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نســخة توقيع بالتدريس بقُبَّة الصالح ، أنشأتُه لقاضى القضاة جَمال الدين «يوسُفَ البِساطِىّ» بعــد أن كُتِب له بهـا مع قَضاء القُضاة المــالكية، فى العَشْر الأخير من شعبان سنة أربع وثمــانمــائة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل للعلم جَمَالا تتهافَتُ علىٰ دَرْكه محاسنُ الفضائل، وتتوارَدُ علىٰ ثبوت محامِده المتوارِدةِ قواطِعُ الدلائل، وتُحقِّق شواهدُ الحـال من فضله ما يُتَلمَّح فيه من لوائح المَخَايل .

نحمَــدُه علىٰ نِعَمه التى ما آستهلَّتْ علىٰ وَلِىّ فأقلعَ عنه غَمَامُها، ولا آســتقرَّتْ بيد صفِىّ فأنتُزِعتْ من يَده حيثُ تَصرّف زِمَامُها؛ ونشهد أنــ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُزْهر بمعالم الدِّين غُروسُها، وتَيْنَــع بثمار الفوائد المتتابِعة دُروسُها؛

وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرا . وأولهم فى علو المرتبة مكانا وإن كان آخرهم فى الوجود عصرا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الحائزين بقربه أنفر المناقب، والفائزين من درجة الفضل بأرفع المراتب؛ صلاة تكون لحلق الذكر نظاما، ولأولها آفتتاحا ولآخرها ختاما؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن من شيمنا الشريفه، وسجايانا الزاكية المنيفه؛ أنا إذا منحنا منحا لا نستعيده، وإذا أعطينا عطاء لا ننقصه بل نزيده؛ وإذا قربنا وليا لا نقصيه، وإذا أنعمنا على صفى إنعاما لا نعده عليه ولا نحصيه .

ولما كان تدريس المدرسة المالكية بقبة الصالح من أعلى دروسهم قدرا ، وأرفعها لدى التحقيق ذكرا، وأعظمها إذا ذكرت الدروس فخرا؛ إذ بمجال جداله تنفطر المرائر، وبميدان مباحثه تشتهر البلق من مضمرات الضمائر؛ وبسوق مناظرته يتميز النضار عن الشبه، وبمحك مطارحته تتبين الحقائق من الشبه؛ وبمظان مجلسه يعرف العالى والسافل، وبمعركة فرسانه يعرف من المفضول والفاضل؛ ومن ثم لا يليه من علمائهم إلا الفحول، ولا يتصدى لتدريسه إلا من أمسى بحسام لسانه على الأقران يصول؛ ولم يزل فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القضاة فى الأول والآخر، تابعا لمنصب الحكم فى الولاية كل زمن إلا فى القليل النادر؛ وكان المجلس العالى، القاضوى، الكبيرى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى نعمته قد آشتملت ولايته عليه لابتداء الأمر آستحقاقا، وحفظه كرما عليه فلم يجد الغير إليه آستطراقا — آقتضى حسن الرأى الشريف أن نتبع ذلك بولاية ثانية تؤكد حكم الولاية الأولى، ونردفه بتوقيع يجمع له شرف القدمة والجمع ولو بوجه أولى .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، الزينى ـ لا زال يعتمد فى مَشاهد الملوك أتمّ المصالح ، ويخُصّ الصالحَ منهم بمزيد النظر حتّى يقال ما أحسنَ نظرَ الناصر فى مَصالح الصّالح! ـ أن يستمرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه علىٰ ما بيَده من الولاية الشريفة بالتدريس بقُبّة الصالح المذكورة ، ومَنْع المُعارض و إبطال ما كُتِب به وما سيُكتَب ما دام ذٰلك فى يده ، علىٰ أتمّ العوائد وأكملها ، وأحسَنِ القواعد وأجملها .

فليتلقّ ما فُوّض إليه بكِلْتا يدَيْه ، ويشْكُرْ إحساننا الشريفَ علىٰ هذه المِنْحة فإنّها نعمةٌ جديدةٌ توجبُ مزيدَ الشكر عليه ؛ وليتصدّرْ بهذا الدرس الذى لم تزل القلوبُ تتقطّع علىٰ إدراكه حَسَرات ، ويتصدَّ لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هُنا تُسْكَبُ العبَرات ، ويُبْرِزْ لفُرْسان الطَّلَبة من ...(١)... صدْره من كَمِينه ، ويُفِض علىٰ جَدَاولهم الجافّة ما سَحَّ به فكره من يَنَابِيع مَعِينه ، مستخرجًا لهم من قاموس قريحته دُرَر ذٰلك البَحْر الزاخر ، مُظْهِرا من مكنُون علمه ما لا يُعلَم لِمَدّه أوّلٌ ولا يُدرك لمَدَاه آخر ، ويُنفِقْ من ذخائر فضله ما هو بإنفاقه مَلِىٌّ ، متفقّدا بفضل غَنَائه من هو عن فوائده المُرْبِحة غيرُ غَنِىٍّ ؛ مقرّرًا للبحْث تقريرًا يزول معه الإلْتباس ، مسْنِدا فروعَه النامية إلىٰ أثبتِ الأصول من الكتاب والسنّة والإجماع والقياس ؛ معتمِدا لما عليه جادّةُ مذهَبه فى الترجيح ، جاريًا علىٰ ما ذهب إليه جَهابذةُ محقّقيه من التصحيح ؛ مُقْبِلا بطَلَاقة وجهه فى دَرْسه علىٰ جماعته ، باذلًا فى آستمالتهم طاقةَ جُهده محسنا إليهم جُهدَ طاقته ؛ مربّيا لهم كما يُربِّى الوالدُ الولد ، مُوفّيا من حقوقهم [فى] التعليم ما يبقىٰ له ذِكْرُه علىٰ الأبد ؛ منمّيًا ناشِئَتَهم بالتدريب الحَسَن تنمية الغُروس ، جاهدًا فى ترقِّيهم بالتدريج حتّى يؤهَّل من لم يكن تُظَنُّ فيه أهليةُ الطلب لأنْ يتصدّىٰ

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفَتَاوىٰ و إلقـاء الدُّروس ؛ سالكا من مناهج التقوىٰ أحسنَ المسالك ، مُورِدا من تحقيقات مذهَبِه ما إذا لمَحه اللامحُ لم يشُكَّ أنه لِزِمام المذْهَب مالِك ؛ والله تعـالىٰ يُجْريه علىٰ ما ألِفه من مَوارد إنعامه ، و يمتِّع [هذه الرتبة] السنِيَّة : تارةً بمجالس دُرُوسه وتارة بمجالس أحكامِه ؛ والاعتماد ... ...



وهـذه نسخة توقيع بتدريس الحـديث بالجامع الحـاكِمِىّ ، من إنشاء الشِّهاب «محمودٍ الحلبىّ» للشيخ قُطْب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى أطلَع فى أفُق السـنَّة الشريفة من أعلام علمائها قُطْبا ، وأظهر فى مَطالِعها من أعيان أئمَّتهـا نُجوما أضاءَ بهـم الوجودُ شَرْقا وغَرْبا ؛ وأقام لحِفْظها من أئمة أعلامها أعلامًا أحسَنُوا عن سَنَدها دِفاعا وأجملوا عن مُتُونها ذَبًّا ، وشَرَّف بها أهلَها فكلَّما بَعُدتْ راحلتُهم فى طلبها ٱزدادُوا من الله قُرْبا ؛ وٱختار لحَمْلها أُمناءَ شَغَفَتْ محاسِنُهم قلوبَ أهل الفِرَق علىٰ ٱختلافها حُبًّا ، وسلَكُوا باتباعها سَنَن السُّـنَن فأمِنُوا أن تُروِّع لهم الشُّبَهُ سِرْبا ؛ وألهمَنا من تعظيم هذه الطائفة ما مهَّد لهم فى ظِل تقرُّبنا إليـه مَقَاما كريمًـا ومَنْزِلا رَحْبا ، وعصَم آراءَنا فى الآرتيادِ له من الخَلَل فلا تختـار له إلا من تُسَرُّ باختياره طَلَبَة وتُغْبَط بتعيينه أئمةٌ ونُرضِى بٱرتيادِه رَبّا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى صانَتْ هذه الرتبةَ السنيَّة بأكْفائهـا ، وزانَتْ هـذه المرتبةَ الشريفةَ بمن لم تَمِل عينُه فى تأثيل قَواعِدها إلىٰ إغفائها ، وجعلتْ هذه الدرجةَ العليَّةَ فَلَكا تُشْرِق فيه لأئمَّـة الحديث أنوارُ علوم تَفْنىٰ الدُّهورُ دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهـادةَ مُجادل عن سُـنَّته الشريفة بألسِنة أسنَّته ، مجالِدٍ عن كلمتها العاليةِ بقَبْض مَعاقد سُيُوفه و إطلاق أعِنَّته ، باعث

بالجهاد دعوتها إلىٰ كلّ قلب كان عن قبولها فى حُجُب أكنّته . ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذى أُوتِىَ جوامِعَ الكَلِم ، ولوامِعَ السُّنّة التى من اعتصم بها عُصِم ومَنْ سَلَّم بها سَلِم ؛ فهى مع كتابِ الله أصلُ شَرْعه القويم ، وحبلُ حكمِه الذى لا تُمكَّنُ يدُ الباطل من [حل] عِقْده النظيم ، وكنوزُ دِينه التى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَضُّوا علىٰ سُنّته بالنّواجذ ، وذَبُّوا عن شريعته بسُيُوف الجِلاد القواطع وسِهَام الجِدَال النوافذ ؛ صلاةً لا يزال يُقَام فرضُها ، ويُملأُ بها طُولُ البسيطة وعَرْضُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ ما توجّهت الهِمَمُ إلىٰ ارتياد أئمّته ، وتوفَّرتِ الدَّواعى علىٰ التقرُّب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مَناصبه إلىٰ البَرَرة الكِرام من أُمّته ــ علمُ الحديث النبوىّ صلواتُ الله وسلامُه علىٰ قائله ، وحفظُه بدرُوسه التى جَعَلتْ أواخرَ زمَنه فى صِحّة نَقْله ومعرفةِ أسراره كأوائِلِه ؛ وأن(١) نختار لذٰلك من نَشَأ فى طَلَبه حتّى اكتَهل ، وسَرىٰ فى تحصيله سُرَىٰ الأهلّة حتّى اكتمَل ؛ وغُذِّى بلِبان التبحُّر فيه حتى امتزَج بأديمه ، وجَدَّ فى تحصيله واجتهد حتّى ساوىٰ [فى] الطلَب بين حديثِ عُمُره وقديمه ؛ وحَفِظ من مُتُونه ، ما بمثله يستَحِقُّ أن يُدعىٰ حافظا ، وغلَب علىٰ فُنونه ، حتّى قلَّ أن يُرى [بغير] علومه والنظرِ فى أحكامه لافِظا ؛ فإنّه بعد كتاب الله العزيز مادّةُ هذا الدِّين الذى يُحكَم بنُصوصه ، وتتفاوت رُتَبُ العلماء فى حُسْن العمل بمطلَقه ومقيَّده وعُمومه وخُصوصه ؛ وعنهما تفرّعت أحكامُ المِلّة فملأت علُومُها جميعَ الآفاق ، وزكَتْ أحكامُها الشرعيةُ علىٰ كَثْرة الإنفاق ؛ وسرىٰ الناس منها علىٰ المَحجّة التى استوىٰ فى الإشراق ليلُها ونهارُها ، وعَلَا علىٰ المِلَل بالبراهين القاطعة نُورُها ومَنارُها ؛ وكفىٰ أهلَها شرفًا أنهم يذُبُّون عن سنّة نبيهم ذَبَّ اللُّيوث ، ويجُودُون

(١) لم يتقدّم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهتم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

علىٰ الأسماع بما ينفع الناسَ فى أمر دينهم ودُنْياهم منها جَوْدَ الغُيوث ، ويُحافِظون علىٰ ألفاظها محافظةَ من سمِعها منه صلى الله وسلم عليـه ، ويعظِّمُون مجالسَ إيرادها ونَقْلِها حتّٰى كأنهم لحسن الأدَب جلوس بين يدَيْه ؛ ويُغـالُون فى العُلوّ طلبا للقُرْب منه وذٰلك من أسْنَى المَطالب ، ويَرْحَلُون لضَمِّ شَوارده من الآفاق فيأقْرَبُ المَشارق عندهم من المَغارب ! .

ولمـا كان المجلسُ الساميّ الفلانيّ : هو الذى عُنِى بكلّ ماذُكر من وصفٍ كريم ، وحديثِ وَرَع قديم ، وقدَم هِجرة فى علم الحديث آقتضَتْ له حُسنَ أوْلَوِيَّة ووجُوبَ تقديم ؛ وتلقَّ هذا العلم كما وُصِف عن أئمّته حتّٰى صار من أعيانهم ، ولقِىَ منهم عُلَمَاءَ أضحى باقتفائهم كما كانوا رُحْلةَ زمانهم ؛ ونظر فى عُلُومه فأتقنَها فكأنه ينطِقُ فيهـا بلسان آبنِ الصَّلاح ، وأحرزَ غاياتِ الكمال ، فى أسمـاء الرِّجال ، فإلىٰ آطّلاعه يُرجَع فى تجريح المجَرَّح وتعديل الصِّحاح ؛ وكان منصبُ تدريس الحديث الشريفِ النبويّ الذى أنشأناه بالجامع الحاكميّ تكثيرًا لنشر أحاديثِ مَنْ لاينطق عن الهوىٰ ، ونوَيْنـاه لآرتواء الرُّواة من بحر هذا العلم الشريفِ بالإعانة علىٰ ذٰلك وإنَّمـا لكُلِّ آمرئٍ ما نوىٰ ، قد آسـتُغْرِقَتْ أوقاتُ مباشره بتفويضنا الحكمَ العزيز علىٰ مذهبه إليه ، وتوفير زمَانه على[1] ....

قلت : وتختلِف أحوالُ التواقيع التى تُكتَب بالتداريس باْختلاف موضُوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللُّغـة ، والنحْو ، وغير ذٰلك ، فى براعة الآستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا آكَدُ .

(١) ترك هنا بياضا للبقية ولعله لم يكمله اتكالا على ماهو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردها فى التعريف :

وصية مدرِّس — ولْيطْلع فى محرابه كالبَدْر وحوله هالةُ تلك الحَلَقه[1]، وقد وقت أهداب ذلك السوادِ منه أعظمَ اسْوِدادًا من الحَدَقه، ولْيرْقَ سجّادتَه التى هى لِبْدة جَوادِه إذا اسْتَنَّ الجدال فى المِضْمار، وليُخْفِ [أضواءَ] أولئك العلماءِ الذين هم كالنُّجوم كما تتضاءَلُ الكواكبُ فى مَطالِع الأقْمار، وليُبْرِزْ لهم من وراء المحراب كمينَه، وليُفِضْ علىٰ جداولِهم الجافَّة مَعينَه، وليَقْذِف لهم من جَنَبات مابين جَنْبيه دُرَر ذلك البحر العَجّاج، ولْيُرِهِمْ من غُرَر جِياده ما يُعْلَم به أنّ سوابِقَه لايهولُها قَطْع الفِجاج، ولْيُظْهِرْ لهم من مكنُون علمه ما كان يُخْفيه الوَقار، ولْيَهَبْ من مَمْنُون فضله مايُهَبُ منه عن ظهرِ غنًى أهلَ الافتقار، وليُقرِّرْ تلك البُحُوث ويبيِّنْ ما يرِدُ عليها، وما يُرَدُّ به من مَنعِها وتطرّقَ بالنقْض إليها، حتّى لا تنفصل الجماعةُ إلا بعد ظُهور الترجيح، والإجماع علىٰ كلمةٍ واحدةٍ علىٰ الصحيح، وليُقْبِلْ فى الدروس طَلْقَ الوجه علىٰ جَماعته، وليستَمِلْهم إليه بجُهْد استطاعته، ولْيُرَبِّهِم كما يُرَبِّي الوالدُ الولَد، وليستَحْسِنْ ماتَجِيء به أفكارهم وإلا فكم رَجُلٍ بالجَبْهة لِبنْتِ فِكْرٍ وأَد، هذا إلىٰ أخذِهم بالاشتغال، وقَدْح أذهانِهم للاشتعال، ولْيُنَشِّئ الطلبة حتّى يُنَمِّي منهم الغُروس، ويؤهِّلَ منهم مَنْ كانَ لايُظَنُّ منه أنه يتعلَّمُ لأنْ يُعَلِّمَ ويُلْقِيَ الدُّروس .

وصية مقرئ :

ولْيَدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان فإنه مِصْباحُ قلبه، وصَلاحُ قُرْبه، وصَباحُ القَبُول المُؤْذِنِ له برضا ربه، وليجعَلْ سُوَره له أسْوارا، وآياتِه تُظْهِر بين عينيه

---

(١) جرى فى تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبى عمرو بن العلاء من كونه لغة فى السكون أنظر " المصباح " .

أنوارا ؛ وليتْلُ القُرءان بحُروفِه وإذا قرأ آستعاذ ، وليجمَعْ طُرُقَه وهى التى عليها الجمهور ويَتْرُك الشَّواذّ ، ولا يرتَدَّ دونَ غايةٍ لإقْصار ، ولا يقِفُ فبعد أن أتمَّ لم يبْقَ بحمد الله إحصار ، وليتوسَّعْ فى مذاهِبِه ولا يخْرُجْ عن قراءة القُرّاء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذُلْ للطَّلَبة الرِّغاب ، وليُشْبِع فإنَّ ذَوِى النَّهْمة سِغَاب ، وليَبِرِّ الناسَ ما وَهبه الله من الاِقتدار فإنه آحتضَنَ السَّبْع ودخَل الغاب ؛ وليُتِمّ مبانِىَ ما أتم « آبنُ عامر » و« أبو عمرو » له التعْمير ، ولقَّه « الكِسَائى » فى كسائه ولم يقل جَدِّى « آبنُ كثير » ؛ وحُمَّ به « لحمزة » أن يعُودَ ذاهبُ الزمان ، وعلِمَ أنه لا « عاصمَ » من أمر الله يُلْجأ معه إليه وهو الطُّوفان ؛ وطَفِق يتفجّر علما وقد وقفَتِ السُّيول الدَّوافع ، وصَار أكثرُ قرّاء الزمان لعدم تفهيمِهم وهو « نافع » ؛ وليُقْبِل علىٰ ذَوِى الإقبال علىٰ الطَّلَب ، وليأْخُذْهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتَسَب ؛ وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعماء ، ووصل سبَبَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلىٰ السماء ؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم والإنصاف إذا سُئِل فعِلْمُ الله ما يتَناهَىٰ ﴿وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ .

وصية محدّث :

وقد أصبح بالسنَّة النبَوِيّة مضطلِعا ، وعلىٰ ما جمعتْه طرُقُ أهل الحديث مُطَّلعا ؛ وصَحَّ [فى] الصحيح أنَّ حديثَه الحسَن ، وأنَّ المرسَلَ منه فى الطلَب مقْطُوع عنه كلُّ ذى لَسَن ؛ وأنَّ سنَدَه هو المأخوذُ عن العَوالى ، وسَمَاعه هو المرَقّص منه طُولَ الليالى ؛ وأنَّ مثله لايُوجَد فى نَسَبه المُعْرِق ، ولا يُعرَف مثلُه للحافظيْنِ « آبنِ عبد البَرّ » بالمَغْرِبِ و « خَطيب بَغْدَادَ » بالمَشْرِق ؛ وهو يعلم مقدارَ طلب الطالب فإنه طالما شَدّ له النِّطاق ، وسعىٰ له سَعْيَه وتجشَّم المشَاق ؛ وآرتحل له يشتدّ به حرصُه والمَطَايا

مُرْزِمه ، وينبِّهُه له طلَبُــه والجُفون مُقْفَــلة والعُيون مُهَوِّمه ؛ ووقَفَ علىٰ الأبواب لا يُضْــجِره طولُ الوقوف حتى يُؤذَن له فى وُلُوجها ، وقعَــد القُرفُصاءَ فى المجالس لا تَضيق به علىٰ قِصَر فُروجِها .

فليُعاملِ الطلبةَ إذا أتَوْه للفائدة معاملةَ من جَرَّب، وليُنَشِّط الأقرباءَ منهم ويُؤْنِس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تَغَرَّب، وليُسْفِرْ لهم صَباحُ قصده عن النَّجاح، وليَنْتَقِ لهم من عُقُوده الصِّحاح، وليوَضِّح لهم الحديث، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كان يُسار إليه السَّيْرَ الحثيث، ولْيُوَتِّهم ممـا وسَّع الله عليه فيه المجَال، ويعَلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال ؛ ويبصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعـديل ، والتوجيه والتعليـل ، والصحيح والمعتــلّ الذى تتناثَرُ أعضاؤُه سُقْما كالعليل ؛ وغير ذٰلك ممـا لرجال هــذا الشان به عِنَـايه ، وما يُنقَّب فيــه عن درايةٍ أو يُقْنَع فيــه بمجرّد رِوَايه ؛ ومثْـله ما يُزاد حلمـا ، ولا يُعْرَف بمن رَخَّص فى حديثٍ موضوعٍ أو كَتَم عِلْمـا .

وصـــية نحوىّ :

وهو زيدُ الزَّمان، الذى يُضرَب به المَثَل، وعَمْرو الأوان، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل، وما زِنِيّ الوقت ولكنه الذى لم تَسْتَبِحْ منــه الإبل . وكسائىّ الدّهر الذى لو تقــدّم لمـا آختار غيْرَه الرشــيدُ للمأمون . وذُو السؤْدَد ، لا أبو الأسود ، مع أنه ذُو السابقة والأجر المَمْنون ؛ وهو ذو البِرِّ المـأثور . والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذَيْل فخَـاره المجرور ؛ والمعروفُ بمـا لا يُنْـكر لمثله من الحَزْم ، والذاهب عمـلُه الصـالحُ بكل العوامل التى لم يبْقِ منهـا لحَسوده إلا الجَزْم ؛ وهو ذُو الأبنيَــة التى لا يُفْصِــح عن مثلها الإعراب . ولا يُعرف أفصَحُ منها فيما أُخِذَ عن الأعراب ؛

والذى أصبحت أهدابُه فوقَ عمائم الغمائم ثُلاث ، ولم يزلْ طُولَ الدهر يُشكَر منه أمسُه ويومُه وغَدُه وإنما الكلماتُ ثلاث . فليتصدَّ للإفاده ، وليعلّمْهم مثلَ ما ذُكر فيه من علم النحو نحوَ هذا وزياده ؛ وليكن للطلبة نجمًا به يهتدىٰ ، وليرفع بتعليمه قدْرَ كل خبْر يكون خبرًا له وهو المبتدا ؛ وليقدِّمْ منهم كلَّ من صَلَح للتبريز ، وآستحقَّ أن يُنصَب إمامًا بالتمييز ؛ وليُوردْ من موارده أعذَبَ النِّطاف ، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليُوقفْهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويُعرِّفْهم دقائقَ البحوث حتّٰى آشتقاقَ الآسم هل هو من السُّموّ أو من السماء ؛ وليبيِّن لهم الأسماءَ الأعجميَّة المنقولةَ والعربيةَ الخالصه ، وليدُلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يُشْتَبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ؛ وليحَفِّظْهم المُثُل وكلماتِ الشُّعراء ، ولينصِب نفْسَه لحَدّ أذهان بعضهم ببعض نصبَ الإغراء ؛ وليعاملْ جماعة المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كلِّه فليرفُقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .



وهذه وصية لغوىّ أوردها فى التعريف[1] .

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثامنــــة

(التصـــــدير)

وموضوعه الجلوس بصَدْر المجلس بجامع أو نحوه . ويجلس متكلّم أمامَه على كُرْسىّ كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرَّقائق والوَعْظيَّات ، فإذا انتهى كلامُه وسكَت ، أخذ المتصــدّر فى الكلام على ما هو فى معنى تفســير الآية التى يقع الكلامُ عليها ، و يســتدرج من ذلك إلى ماسنَح له من الكلام . و ربمــا أُفْرد التصديرُ عن المتكلم على الكرسىّ .

وهذه نســخةُ توقيع بتصــديرٍ أنشأتُه للشيخ شهاب الدين « أحمدَ الأنصارىّ » الشهير بـ« الشابّ التائب » بالجامع الأزهر ، وهى :

رسم ... ... [1] لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تَخُصُّ المجالسَ بمَنْ إذا جلس صدْرَ مجلس كان لرتبته أجملَ صَدْرٍ يحتِى من علَماء التفسير ، ومن إذا دقَّق لم يفهم ... ... [2] عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامُه فى الحقيقة تفْسيرَ تفسير ، وتَصطفِى من سَراة الأماثل مَنْ دارَ نعتُه بين « الشابّ التــائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرمُ نعتٍ على كلِّ تقدير — أن يستمرَّ المجلس السامىّ أدام — الله تعالى رفعته — فى كذا وكذا ، لأنّه الإمامُ الذى لا تُسامى علومُه ولا تُسام ، والعلّامة الذى لا تُدْرَك مَدارِكُه ولا تُرام ؛ والحَبْر الذى تنعقدُ على فضله الخَنــاصر ، وفارسُ الحَلْبــة الذى يعْترِف بالقُصور عن مجاراة جِيَاده المُناظِر ، وآيةُ التفسير التى لا تُنْسَخ ، وعَقْد حقيقته الذى لا يُفْسَخ . والمــاهرُ الذى آســتحقَّ بمَهارته التصــدير ، والجــامعُ لفُنونه المتنوعةِ

---

(١) أى بالأمر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله «لم يفهم شرحه إلا عنه» أو نحو ذلك .

جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير، وترجمانُ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعَجَب العُجَاب، والعارفُ بهَدْى طريقه الذى إذا قال قال الّذى عندَه علمٌ من الكتاب، وزاهدُ الوقت الذى زيّن بالعلم العمَل، وناسكُ الدهر الذى قصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأمل .

فليتلَقَّ ما أُلقِىَ إليه بالقَبول، وليَسْتَنِدْ إلىٰ صدْرِ مجلس يقُول فيه ويطُول، وليبيِّنْ من معانى كتاب الله ما أجْمَل، ويوضِّح من خفِىِّ مقاصده ما أشْكَل، وليَسْلُك فى تفسيره أقومَ سَنَن، ويُعْلِنْ بأسراره الخفيَّة فسرُّ كتاب الله أجْدَرُ أن يكون عن عَلَن، وليَجْرِ فيه علىٰ ما أُلِف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقِّق المناظرةَ فَمَنْ ؟، وليأخُذْ مشايخَ أهل مجلسه بالإحسان، كما أحسَن الله إليه فهل جَزَاءُ الإحْسان إلا الإحْسَان، ويُحُضَّ شَبابَهم علىٰ التوبة ليُحِبَّهم الله فيتَّصل فى المحبة سَنَدُهم فإن « الشابَّ التائبَ » حبيبُ الرحمن؛ والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفَع الذُّرا، ويرفَع مجلسَه السامى علىٰ محل الثُّرَيَّا (وإنا لنرجُو فَوْقَ ذٰلكَ مَظْهَرا) . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضُوعه التحدُّث فى أمورٍ خاصَّة بإباحة ضَرورَاتها، وعمَل مَصالحها، وآستخراج متحصِّل جهاتها، وصَرْفه علىٰ الوجه المعتَبَر، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وتشتمل علىٰ عِدّة أنظار :

منها ــ نظر الأَحْباس : جمع حُبْس[1] وهو الوَقْف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصلُ وَضْعه أراضِىَ آشتراها (الإمامُ الليثُ بن سعد رضى الله عنه)

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ماوقف» وهو المراد هنا .

ووَقَفها علىٰ جهاتِ بِرٍّ، ثم تبِعه الناسُ فى إضافة الأوقاف إلىٰ ذٰلك ، إلىٰ أن كانتْ وِزارة الصاحبِ بهاءِ الدين آبن حَنَّا فى سلطنة الظاهرِ بِيبَرس البُنْدُقْدارى ، فأفردَ للجوامع والمساجد والرُّبُط والزَّوايا ونحو ذٰلك رِزَقا، وقصَر تحدُّثَ ناظرِ الأحبـاس ومباشِرِيه عليها ، وأُفردت الأوقافُ بناظرٍ ومباشِرِين كما سيأتى :

وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبِيمارَسْتان المنصورىّ (١) ، كُتِب بها «لمهذَّب الدين» وهى :

الحمـدُ لله الذى دَبَّر بحكمته الوجُود ، وعمَّ برحمته كلَّ موجود، وحال بنَفْع الدواء بين ضُرِّ الداء كما حالتْ عطاياه دُونَ الوُعود ؛ نحمَده ونشكره وهو المشكور المحمُود ، ونُثنى عليه خيرَ الثناء قيامًا وقُعودًا وعلىٰ الجُنُوب وفى السجُود، ونستزيدُه من فضله فإنه أهلُ الفضل والجُود .

ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً اللهُ بها والملائكةُ وأولُو العـلم شُهود ؛ ونشهد أن محمّدًا عبده ورسوله المبشِّر لأمته بالجَنَّات والخلُود، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة دائمةً إلىٰ يوم الوُعُود .

وبعـد، فإنَّا لمـا أقام الله بنا شَعائرَ الإيمـان ، وأصبح دينُه بحمد الله منصوراً بنا علىٰ سائرِ الأدْيان، وجاهدْنا فى الله حقَّ الجهاد باليَد والقلب واللِّسان، وشيَّدنا لعلومه وشرائِعه كلَّ بديع الإتقان ، ورتَّبنا فيه من العلماء الأعيان كلَّ رفيع الشان، وآخترْنا له الأخيار من أهل العلم بالطِّب والفِقه والحديث والقُرءان ؛ ورأينا كل من تقدّمَنَا من الملُوك، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسَنَ سُلُوك ، قد آهتمَّ بعلِم الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواقيع الوظيفة السابعة الخاصة بالتداريس .

علمَ الأبدان ، وأنشأ كلٌّ منهم مدرسةً ولم يحفِل بِبِيمارَسْتان ، وغفَل عن قوله صلى الله عليه وسلم : «العِلْم علْمان» ؛ ولم يأخُذ أحدا من رَعيته بالاشتغال بعلم الطِّب المُضطَرّ إليه ، ولا وقف وقفا علىٰ طلَبة هـذا العلم المنصوص عليه ، ولا أعدّ له مكانًا يحضُر مَنْ يشتغل بهذا الفن فيه ، ولا نصَب له شخصا يتمَثّل هذا المشتغل لديه ـ علمنا نحن بحمد الله تعالىٰ من ذٰلك ما جهِلُوه ، وذكّرنا من هذه القُرْبة ما أهملُوه ، ووصَلْنا من هذه الأسباب الدِّينية والدُّنيوية ما فصَلوه ؛ وأنشأنا بمارَسْتانا يبْهَر العيونَ بهْجه ، ويفُوق الأبنيةَ بالدليل والحجَّة ، ويحفَظ الصحةَ والعافيةَ علىٰ كل مُهْجه ؛ لو حلَّه من أشفىٰ لَعُوجِل بالشِّفا ، أو جاءه من أكْمَده السُّقْم لاشتفَى ، أو أشرف عليه العُمُر بلا شِفاء لعاد عنه بشِفَا ؛ ووقفْنا عليه من الأوقاف المبرورة مايملأ العينين ، ويُطْرِف سماعُ جملته الأُذُنين ، ويعيدُ عنه مَنْ أمَّه مملوء اليدين ؛ وأبحنا التَّداوىَ فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير ، وساوَيْنا فى الانتفاع به بين كل صغير وكبير ، وعلمنا أن لانظير لنا فى مُلْكنا ولانظيرَ له فى إبقائه فلم نجعل لوقْفه وشرطه من نظير ؛ وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعِلْم الطب الذى كاد أن يُجهَل ، وشرَعنا للناس إلىٰ وِرْد بحره أعذَبَ مَنْهَل ، وسهَّلنا عليهم من أمره ما كان الحُلُم به من اليَقظة أسهَل ؛ وآرتدْنا له من علماء الطِّب من يصْلُح لإلقاء الدروس ، وينتفِع به الرئيسُ من أهل الصِّناعة والمرءوس ، ويؤتَمن علىٰ صحة الأبدان وحِفْظ النفوس ؛ فلم نجِد غيرَ رئيس هذه الطائفة أهلًا لهذه المرتبه ، ولم نَرْض لها مَنْ لم تكن له هذه المَنْقبه ، وعلِمنا أنه متىٰ ولِيَها أمسىٰ بها مُعجَبا وأضحتْ به مُعْجَبه .

ولما كان المجلس السامى « مهـذَّب الدين » هو الرئيس المشارُ إليه ، والوحيدُ الذى تُعقَد الخناصرُ عليه ؛ وكان هو الحكيم « بقراط » ، بل الجليل « سقراط » ، بل الفاضل « جالينوس » ، بل الأفضل « ديسقُوريدُوس » ـ آقتضت الآراء

الشريفةُ أن تُزاد جَلالتُه بتولية هـذا المنصب الجليل جَلالَه ، وأن تُزَفّ إليه تجرُّ أذيالَه . وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُح إلا لهَا ولم تَكُ تَصْلُح إلّا له) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال للدِّين ناصرا ، ولأعلام العُلوم ناشرا ــ أن يفوّض إليه تدريسُ الطب بالبيمارَسْتان المبارك المنصوري ، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علمًا بأنه المتمَهِّر فى هذا الفنّ ، وأنه عند الفِراسة فيه والظّنّ ، وأنه سقراطُ الإقليم إذا كان غيرُه سِقراط الدّنّ ؛ وثقةً بأنا بالجوهر قد ٱلتقطْنا ، وبالخبر قد ٱغتبَطْنا ، وعلى الخبير قد سقَطْنا .

فليتَلَقّ هـذه النعمةَ بالشكر الجليل ، والحمدِ الجزيل ، والثناءِ الذى هو بالنَّماء والزيادة كَفيل ؛ ولينتصبْ لهـذا العِلم المباركِ ٱنتصابَ من يقوم بالفَرْض منه والسنّه ، ويُعْرَفُ له فيه الفضلُ ويُتقلّد له فيه المِنّه ، ويُثنى على آثاره الجميلة فيه وتُثْنى إليه الأعنّه ، وليُبْطِل بتقويمه الصحّةَ ما ألّفه ٱبنُ «بطلان» ، وليُرِنا بتدبيره جِبِلّةَ البِر فإنه «جالينُوس» الزمان ، وليبذل النّجاة من الأمراض والشفاءَ من الأسقام فإنه «ٱبن سِينا» الأوان ؛ وليجمع عنده شَملَ الطلبه ، وليُعْط كلَّ طالبٍ منهم ماطلبه ، وليبلِّغْ كلَّ متمنٍّ من الاشتغال أرَبَه ؛ وليشرَحْ لهم صدرَه ، وليبذُلْ لهم من عمره شطْرَه ، وليكْشِفْ لهم من هذا العلم المكنون سِرّه ، وليُرِهِم ماخفِيَ عنهم منه جَهْره ؛ وليجعلْ منهم جماعة طَبَائعيه ، وطائفةً كحّالين وجَرائحيّه ؛ وقوما مُجبِّرين ، وبالحديد عاملين ، وأُخرى بأسماء الحَشائش وقُوَى الأدْويه وأوصافها عالمين ؛ وليأمُرْ كُلًّا منهم بحفظ مايجب حفظُه ، ومعرفةِ مايزيد به حَظُّه ، وليأخُذْه بما يُصلِح به لسانَه ولفظَه ، ولا يفتُرْ عنهم فى الاشتغال لحَظْه ؛ وليُفْرِدْ لكل علم من العلوم طائفَه ، ولكل فن من فنونه جماعةً بمجاسِه عارفَه ؛ وليصرفْ إليهم من وجوه فضائله كلّ عارفه ،

وليَكْشِفَ لهم ما أشكل عليهم من غوامِضِه فليس لهـا من دُون إيضاحه كاشِفَه ؛ لِيُنْشَرَ فى هذا المكان المبـارَك من أرباب هـذه العلوم قومٌ بعدَ قوم ، ويظهَرَ منهم فى الغـد ـ إن شاء الله ـ أضعافُ ماهو ظاهرٌ منهم اليْوم ؛ وليُقال لكلّ من طلَبته إذا شُرِع فى إجازته وتزكيته : لقد أحْسنَ شيخُه الذى عليه تأدّب ، وإنَّ مَن خرَّج هذا «المهذَّب» ؛ عاملًا فى ذلك بشروط الواقف أعزَّ الله نصرَه ، واقفًا عند أمره أمضى اللهُ أمرَه ؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة توقيع بنظَر الأحباس مفتَتَحة بـ«أما بعد» وهى :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى أَذن أن تُرْفع بيوتُه ويُذْكَر فيها آسْمُـه ، ويُكَثَّر فيها قَسْم ثوابه ويُجزل قِسْمه ، والصلاة علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى عَظُم به قطعُ دابر الكُفْر وكَثُر حَسْمُه ـ فإنَّ خير مَنْ عُوِّل عليه فى تأسيس بيوتِ الله وعِمـارة رُبُوعها ، ولَمِّ شَعَثها وشَعْب صَدُوعها ؛ والقيـامِ بوظائفها ، وتسهيل لطائفها ؛ وتأهيل نواحِيها ، لهُبُوط الملائكة لتلقِّ المصَلِّين فيها ، مَنْ كان ذا عَزْم لاتأخُذه فى الله لومةُ لائِم ، وحَزْم لايُلِمُّ بأفعاله لَمَم المآثم ؛ ونظرٍ ثاقِب ، ورغبـةٍ فى آختيار جميل المآثر والمَناقب ، ومباشرةٍ تُرْعَىٰ قوانينَ الأمور وتكتِنفُها آكتناف مُراقِب .

ولمـا كان فلانٌ ممَّن هذه الأوصافُ شِعَارُه ، وإلىٰ هذه الأمور بِدَارُه ؛ وكَمْ كَتَب الله به للدّولة أجرَ راكِع وساجِد ، وكم شكرَتْه وذكرَتْه ألسِـنةُ أعلام الجوامع وأفواهُ محَاريب المساجِد ـ آقتضىٰ مُنِيف الملاحظة والمحـافظة علىٰ كل قريبٍ من بيوت الله وشاهـد ، أنْ خرج الأمر الشريفُ ـ لابَرِح يكشِف الأوْجال ، ويدعُو له فى الغُدُو والآصال رجَال ـ أنْ يفوَّض لفلان نظرُ ديوان الأحبـاس والجوامع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالىٰ .

فليباشِرْها مباشرةَ من يُراقب الله [إنْ] وقَّع أو توقَّع ، وإن أطاعَ أو تطَوّع ؛ وإن عزَل أو ولّى ، وإنَّ أدَّب مَنْ نَهىٰ عبدا إذا صَلّى ؛ وليجتهِدْ كلَّ الاجتهاد فى [صَرْف] رَيْع المساجد والجوامع فى مَصارفها الشرعيَّة ، وجهاتها المرعيَّة ؛ وليأخُذْ أهلَها بالملازمة فى أحيانها وأوقاتِها ، وعِمَارتها بمصابِيحها وآلاتِها ؛ وحفْظِ مايُحفظون به لأجْلها ، ومعاملتهم بالكرامة التى ينبغى أن يُعاملَ مثلُهم بمثلِها ؛ وليحترِزْ فى إخراج الحالات إذا خُرِّجت وأُخرِجتْ ، وفى مستحَقَّات الأجائر إذا آستُحِقَّت وإذا عُجِّلت ؛ وفى التواقيع إذا أُنْزلت وإذا نُزِّلت ، وفى الاستِئمارات التى أُهْمِلت وكان ينبغِى لو أُهِّلتْ ؛ وإذا باشر [و] ظهَر له بالمباشرة خَفَايا هذا الدِّيوان ، وفَهِم ما تحتويه جرائدُ الإحسان ، فليكُنْ إلىٰ مصالحه أوّلَ مُبَادر ، ويكفيه تدبُّرُ قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بَدْر الدين حَسَن » الشهير بابن الدَّاية ، مفتَتَحا بالحمد لله ، جاء فَرْدا فى بابه . إلا أن مسوَّدته غُيِّبت عنّى ، فلم أجِدْها لأثبِتَها هاهنا كما أثبتُّ غيرها مما أنشأتُه : من البَيْعاتِ والعُهود والتواقيع والرسائل وغير ذٰلك .

ومنها ـ نظرُ الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستَيْن ، ويدخُلُ فيه أوقافُ الحَرَمين وغيرهما .

وهذه نسخةُ توقيع بنظرها ، وهى :

الحمدُ لله الذى حفِظ مَعالِمَ البِرّ من الدُّثور ، وأحيا آثارَ المعروف والأُجور ، وصانَ الأوقافَ المحبَّسة من تبْديل الشروط على توالِى الأيّام والشُّهور .

نحمَدُه علىٰ فضله الموفُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لها فى القُلوب نورٌ علىٰ نُور ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المؤيَّد المنصور ، الطالعُ البُدور ، المبعوثُ بالفُرْقان والنُّور ، المنعوتُ فى التوراة والإنجيل والزَّبُور ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما كَرَّتِ الدُّهور ، وطلعَتْ كواكبُ ثم تَغُور .

وبعدُ ، فإنَّ أهل الخير من المؤمنين تقرّبُوا إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ من طَيِّبات أموالهم بأوقافٍ وَقَفُوها علىٰ وجوه البرّ وعَرَّفوها ، وجعلُوا لها شروطا ووصَفُوها ؛ فتقبَّل الله لهم ذٰلك ، ثم ماتُوا فما انقطع عملُهم بها وهم فى بَرْزَخ المَهَالك ؛ ووَلِيَها بعدَهم الأمناءُ من النُّظَّار ، فقاموا بحقُوقها وحفْظ الآثار ؛ وأجْرَوْا بِرَّها الدارَّ فى كلِّ دار ، وصانُوا معالمَها من الأغيار ، وشاركُوا واقفِيها فى الصدقة لأنهم خُزَّانٌ أمناءُ أخيار .

ولما كان فلان هو الذى لا يتدنَّس عِرْضُه بشائِبه ، ولا تُمْسِى المصالحُ وهى عن فكره غائبَه ، ولا تبرَحُ نجومُ السُّعود طالعةً عليه غيرَ غائبه ؛ وهو أهلٌ أن يُنَاط به التحدُّثُ فى جهات البرّ الموقُوفه ، وأموالِ الخير المصْرُوفه ، لأنه نَزَّه نفسَه عما ليس له فلو كانتْ أموال غيره غَنَمًا ما اختصَّ منها بصُوفَه ؛ فلذٰلك رُسم (1) ... ...

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشَرةً حسَنة التأثير ، جميلةَ التَّثْمير ، مأمُونَةَ التغيير ، مخصوصةً بالتعبير ؛ ولينظر فى هذه الأوقاف علىٰ اختلافها من رُبوع ومَبَانى ، ومساكِنَ ومَغَانى ؛ وخاناتٍ مسبَّله ، وحوانيتَ مكمَّله ؛ ومُسقَّفات معمُوره ، وساحاتٍ مأجورةٍ غيرِ مهجُورَه . وليبدأ بالعمارة فإنَّها تحفظ العينَ وتكفِى البناءَ دُثورَه ، وليتَّبع شروط الواقفين ولا يعدلْ عنها فإنَّ فى ذلك سُرورَه ؛ ويندَرِج فى هذه

(1) بيض له فى الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقافِ ماهو علىٰ المساجد ومَوَاطِنِ الذِّكر : فليُقِمْ شِعارَها، وليحْفَظْ آثارَها، وليرفَعْ مَنَارَها ؛ والوصايا كثيرةٌ والتقوىٰ ظِلُّها المخطُوب ، ومراقبة الله أصلُها المطلُوب ووصلُها المحبوب، والله تعالىٰ يجمع علىٰ محبَّته القُلوب، بمنّه وكرمه ! .

ومنها ـ نظر البيمارَسْتان المنصوريّ بين القَصْرين لأرباب الأقلام ، وهو من أجلّ الأنظارِ وأرفعِها قَدْرا ، ما زال يَتولّاه الوزراءُ وكُتَّاب السرّ ومَنْ فى معناهم .

[وهذه نسخة توقيع] (١) من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبيّ ، وهى :

الحمدُ لله رافِع قدرِ من كان فى خدمتِنا الشريفة كريمَ الخِلَال، ومُعْلِي درجةِ من أضْفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليّة مديدَ الظِّلال، ومجدّدِ نِعَم من لم يخُصَّه آعتناؤنا بغاية إلا ورَقَّتْه همَّتُه فيها إلىٰ أسْنىٰ رُتَبِ الكمال، ومفوِّض النظر فى قُرَب سلَفِنا الطاهرِ إلىٰ من لم يلاحِظْ من خواصّنا امرا إلا سَرَّنا ما نُشَاهِدُ فيه من الأحْوال الحَوَال .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأولياء عوارِفُها، ومِنَنِه التى لاتبرَحُ تشمل الأصفياءَ عواطِفُها ، وآلائه التى تُسَدِّد آراءَنا فى تفويض قُرَبنا إلىٰ مَنْ إذا باشرها [سُرَّ] بسيرته السَّرِيّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة رَفَع الإخلاصُ لواءَها، وأفاض الإيمانُ علىٰ وُجُوه حَمَلتِها إشراقَها وضِياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائِها بمواقِف الحقّ و إبْداءَها ، ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ، المقصوصُ فى السنة ذِكْرُ حوضِه الذى من شَرِب منه شَربةً فإنه بعدَها لا يَظْما ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنَزّلة وبشَّرتْ به الهواتِفُ نَثْرا ونظْما، صلَّى الله

(١) تقدمت فى وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير واختصار .

عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته، بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاص فى محبَّته، سعادةَ الدنيا والآخره ، وأقبلُوا علىٰ حظهـم من رضا الله ورضاه فلم يُلْوُا علىٰ خِدَع الدنيا الساحره ؛ صلاةً دائمةَ الاتصال ، آمنـةً شمسُ دَوْلتها من الغُروب والزَّوال؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ أَوْلى الأمور بإنعـام النظَر فى مَصالِحها ، وأحقَّها بتوفير الفِكْر علىٰ آعتبار مَناهجها وآعتماد مَناجِحها ـ أمرُ جِهات البر التى تقرِّب والدُنا السلطان الشهيد ـ قدّس الله رُوحَه ـ بهـا إلىٰ مَنْ أفاض نِعَمه عليـه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليـه ، ورَغب بها فيما عندَ الله لعلْمه أنَّ ذٰلك من أنفس الذخائر التى أعدَّها بينَ يديْه؛ وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقـلَه اللهُ بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدق عنــد ربِّه ، وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يومِ سِـلْمه بعد أنْ عفَّى علىٰ مَعَاقل الكفر فى يوم حرْبِه ؛ وأقام بها مَنـارَ العلوم فعلا مَنالُهـا ، وأعدّ للضُّعفاء بها من مَوادّ البِر والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قصُرت عن التطاوُل إليه أموالُهـا ؛ وأن نَرتادَ لهـا مَنْ إذا فوّضنا إليــه أمرا تحقَّقنا صَلَاحه ، وتيقَّنَّا نجاحَه ؛ وآعتقدْنا تَمِيةَ أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفـاعه وآنتفاعِه علىٰ أقوالِه وأفعاله ؛ وعلمنا من ذٰلك مالا نحتاجُ فيه إلىٰ إخبار ولا آختِبار ، ولا يحتاج فى بيان الخِيرة فيه إلىٰ دليلٍ إلّا إذا آحتاجَ إليه النَّهار؛ لنكونَ فى هــذا بمَثابة مَنْ ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابِها ، أو جدّدَ لها وَقْفا لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد الأكفاءِ لها من أبوابها .

ولذٰلك لمـا كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّــنا ، وأبانَ عن يُمْن الآراء فى آستِئْثارنا به لمَصالحنا الخاصَّة وآختصاصِنا؛ وآعتدَدْنا بجميل نظره فى أسباب التدبير التى تملأ الخزائن ، وتدُلُّ علىٰ أنَّ من الأولياء من هو أوقعُ على المقاصــد من سهام

الكَائن ، وتُحَقِّق أنه كما فى العَنَاصر الأربعة معادِنُ فكذلك فى الرجال مَعَادِن ؛ وَنَبَّهت أوصافُه علىٰ أنه ما وَلِىَ أمْرًا إلا وكان فوق ذلك قَدْرا ، ولا ٱعتُمِد عليه فيما تَضِيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُب به صَدْرا ، ولا طَلَع فى أُفُق رتبةٍ هلالا إلا وتأمَّلتْه العيون فى أجَلِّ دَرَج الكمال بَدْرا ، يُدْرِك ما نأىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظر ، ويَسْبِق فى سَدَاد ما يباشره علىٰ ما يجب سَدَاد الآراء ومواقِعَ الفِكر ؛ فنحن نَزْداد كل يومٍ غبطةً بتدبيره ، ونتحقَّق أن كل ماعدقنا به إليه : من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلىٰ عارفه وفوَّضناه إلىٰ خَبِيره ـ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُعْدق بجميل نظره أمر هذا المُهِمِّ المقدّم لدَيْنا ، وأن نفوّض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظرُ فى مَصَالِحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال فضلُه عميما ، وبِرّه يقدِّم فى الرتب مَنْ كان من الأولياء كريما ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت .

فلْيَلِ هذه الرتبةَ التى أُرِيد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلماء ، والفُقراء ، والضُّعفاء ومراعاةُ ذلك من أخصِّ المصالح وأعمّ ؛ ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخصوصِها نظرا يَسُدّ خَلَلها ، ويزيح عِلَلَها ، ويُعَمِّر أصولها ، ويُثَمِّر محصولها ، ويحفظ فى أماكنها أموالَها ، ويُقيم معالم العلوم فى أرجائها ، ويستنزِل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرّائها ؛ ويستعيد صحَّة مَنْ بها من الضعفاء بإعداد الذَّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافِظُ علىٰ شُروط الواقف ـ قدّس الله رُوحَه ـ فى إقامة وظائفِها ، وٱعتبار مَصارِفها ؛ وتقديم ما قدّمَه مع مَلاءَة تدبيره باستكمال ذلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصِلها بما يستدعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودُها ويَجْتلب ؛ وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثقُ من أيدى

أمنائه وثقاته ، ولا مُودَع لها أوفقُ من أمانة من يتقِي الله حقَّ تُقاته ؛ وليفعل فى ذلك جميعِهِ ماعرَفْناه من تدبيره الجميل خُبْرا وخبرًا ، وحَمِدناه فى كل ماليليه وِرْدا فى المصالح وصَــدَرا ؛ فإنه ـ بحمد الله ـ الميمونُ نظرًا وتصرُّفا ، المأمونُ نزاهة وتعفُّفا ؛ الكريمُ سجيَّةً وطِباعا ، الرحيبُ فى تلقِّ المهمات الجليلة صَدْرا و باعا ؛ فلذلك وكَلْناه فى الوصايا إلىٰ حُسْن معرفته وآطِّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وآضْطِلاعه ؛ والله تعالىٰ يُسَدِّده فى قوله وعمــله ، ويحقِّق بالوقُوف مع مَرَاضى الله تعــالىٰ ومَرَاضينا غايَةَ أمله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✦
✦ ✦

ومنها ـ نظر الجامع الناصرى بقلعة الجَبَل .

وهــذه نسخةُ توقيع بنظره ، كُتِب به للقاضى جلالِ الدين القَزْوِينِيّ وهو يومئذ قاضى قُضاة الشافعيَّة بالديار المِصريَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى زادبنــا الدين رِفْعةً وجَلالا ، وجعل لنا علىٰ إعلاء مَنَار الإســلام إقْبالا ، وأحسن لنظَرِنا الشريف فى كلِّ آختيــارٍ مآلا ، ووَفَّق مَرامِى مَرَامِنا لمن أخلَصْنا عليه آتِّكالا .

نحمدُه حمدا يتواتَرُ ويتوالىٰ ، ويُقَرِّب من المُنىٰ مَنَالا ، وتُنِير به معاهدُ نِعَمه عندنا وتَتَلالَا ، ونُديمه إدامةً لا نَبْغِى عنها حِوَلًا ولا آنتِقالا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نصدِّقها نيَّةً ومَقَالا ، ونرجُو بالتَّغالى فيها القَبولَ منــه تعالىٰ ، ويترَاسَلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعترِى ذاك سهوٌ ولا يخاف هذا كَلَالا ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى كَرُم صَحابةً وآلا ، ودَلَّهم علىٰ الرُّشــد فورَّثوه من علماء الأمّة رجالا ، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً نَسترعى عليها

من الحَفَظة أكْفاءً أكْفالا ، ونستمدّ لرُقُمها المُذْهَبات بُكَرا وآصالا ، وتسمُو إليه الأنفاسُ سُمُوَّ حَبَاب المــاء حالًا فحالا ، ما مدّتِ الليالى علىٰ أيّامها ظِلَالا ، وما بلغ سوادُ شَبابها من بياضِ صُبْح اكْتِهالَا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ من بَنىٰ حقَّ عليه أن يُشِيد[1]، ومن أراد[أن]ستَّه الحُسْنىٰ تبقىٰ فليتخذ مُعينًا علىٰ مايُريد، ومن أنشأ بِرًّا فلا بُدّ من مباشِرعنــه يضْمَن له التجديد، ويُظَنّ به مع تأثيرِه التّخْليد ، ومَنْ تاجَرَلله بمعروف فمــا يَسْخُو بالمُشاركة فيه إلا لمن يَقُوم مَقَام نَفْسه أو يَزِيد ، ومن بَدَأ جميلا فشَرْطُ صَلاحه أن يُسْنِده إلىٰ مَنْ له بالمراقبة تَقْييد، فيما يُبْدِئُ ويُعيد، وأىُّ إشادةٍ أقوىٰ، من التأسيس علىٰ التقوىٰ، أومعينٍ أجلُّ من حاكم آستخلصناه لنا ولإخْوانِنا المسلمين، أومباشِرٍ أنفعُ، من سيدٍ آرتدىٰ بالمَجْد وتلفَّع ، وتروَّى بالعلوم وتضَلَّع ، أو مشاركٍ فى الخير أوْلىٰ من وَلِىٍّ قلَّدناه دِينَنا قبل الدُّنْيا ، وأعلَيْناه بالمنصبَيْنِ : الحُكْم والخَطَابة فتصرَّف منهما بينَ الكلمة العالية والدَّرجة العُلْيــا، أو أحسَنُ مراقبةً من حَبْرٍ يعبدُ اللهَ كأنّه يراه ، وإمامٍ يدعُو إليه دُعاءَ أوّابٍ أوّاه، قد آنفردَ بمجمُوع المحَاسن يَقِينا ، وأصبح قدْرُه الجلىّ الجليل يَعْنِينا وعن المــدائح يُغْنِينا ، فحسبُنا الوصفُ إيضاحًا وتبْيِينا، ولكن نُصَرِّح باسمه تَنْويهــا وتعيِينا ، وتحسينا لسيرة أيَّامنا الشريفةِ بعالِمِ زمانِها وتزيِينا، لا عُذْرَلفِكْرٍ لم يُنَضِّــد مناقِبَه وقدتمثلتْ مَعَالِيه جَواهِر، وقلمٍ لم يُوَشِّ الطُّروسَ بمَعانيه بعدَ مازانَ من فنُونها أنواعَ الأزاهِر، هو المجلسُ العالى القضائِىّ، الإمامِىّ، العالمِىّ، العامِلىّ، العَلَّامىّ، الكامِلىّ، الفاضلىّ، القُدْوىّ، المُفِيدىّ، الخاشعىّ، الناسِكىّ، الوَرَعىّ، الحاكِمىّ، الجَلَالىّ : حجةُ الإسلام والمسلمين، قُدوةُ العلماء العامِلِين فى العالَمِين، بركةُ الأمه،

---

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوّله . أنظر اللسان فى مادة ش و د — ج ٤ — .

عَلّامة الأئمه ، عِزُّ السنّه ، مؤيِّد الدّوله ، سيفُ الشريعه ، شمسُ النظر ، مُفتى الفِرَق ، خطيبُ الخُطَباء ، إمامُ البُلَغاء ، لسانُ المتكلّمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو المَعَالى محمدُ آبنُ قاضى القضاة سعد الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن عُمَر بن أحمد القَزْوِينى قاضى القُضاة الشافعية : أدام الله عِزّةَ الشرع الشريف بأحكامه ، وتَرْفِيهَ سُيوف الجِلاد وأَسَلِه بلسان جِدَاله وأقلامِه ؛ قاضٍ يُفَرِّق بين المهترِجين[(1)] برأيٍ لا يَطِيش حلمُه ولا يَزِلُّ حُكْمُه ، ويتّقِى الشُّبُهات بورَعٍ يَتْبَعه عملُه ويَهْديه علمُه ؛ ما لَحَظ جهةً إلا حَظِيَتْ ببركة دارّة مُزْنُها ، سارية مَناجِحُها سارٍّ يُمْنُها ؛ ولا أقبلَ علىٰ بيتٍ من بيوت الله إلا حَنّ منه إلىٰ سُبُحَات الجلال ، ولا تكلّم فى وَقْفٍ إلا أجْراه فى صالح الأعمال علىٰ أقومِ مِثَال ؛ ونحنُ لهذه المَزَايا نَرُدُّ إلىٰ نظره الكريم ما أهمّنا من عِمارةِ مسجدٍ وجامع ، ونُقَلّده من أوقافِنا ما يَخْلُفنا فيه خيرًا فإنّ الأوقافَ ودَائِع .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الناصرىّ ـ لا زال يُصيب الصّواب ، ولا يَعْدُو أولِى الألباب ـ أن يفوّض إليه نظرُ الجامع الناصرىّ المعمُور بذكر الله تعالىٰ ، بقَلْعة الجبل المحروسة ، وأوقافِه ، والنظرُ علىٰ التربة والمدرسة الأشرفيّتْين وأوقافِهما .

* * *

ومنها ـ نظرُ مَشْهد الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط القاهرة فى المقالة الثانية أنّ الصالحَ طلائِعَ آبنَ رُزِّيكَ حين قصد نقلَ رأسِ الإمام الحُسَين إلىٰ القاهرة ، بَنىٰ لذٰلك جامعَه

(1) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعثر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارجَ بابى زُوَيلة[1] ، فبلغ ذٰلك الخليفةَ فأفردَ لهـا هذه القاعةَ من قاعات القَصْر وأمر بنَقلها إليهـا .

وهذه نسخة توقيع بنظره ، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودِ الحلبىّ ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَواطنَ الشَّرف فى أيَّامنا الزاهرة ، محصُورةً فى أكفائهـا ، ومَشاهدَ السيادة فى دولتنا القاهرةِ ، مقصورةً علىٰ من حَبَتْه أوامِرُنا باعتنائها ، وخصَّتْه آلاؤنا باصطفائها ؛ الذى أجرىٰ حُسنَ النظر فى مَظَانِّ الآباء الطاهرةِ علىٰ يَدِ مَنْ طلع فى أُفُق العَلْياء من أبنائها ، وعَمَر معاهِدَ القُرُبات بتدبير مَنْ بدأَ بقَواعِد دِينِه - وأجاد إحكامَ تشييدِها و إتقانَ بِنائها .

نحمده علىٰ ماخُصَّت به أيامُنا من رَفْع أقدار ذَوِى السِّيادة والشَّرف ، وٱتَّصف به إنعامُنا من مَزِيد بِرٍّ عُلِم بحُسْن ظهُوره علىٰ الأولياء أنَّ الخيرَ فى السَّرف .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شـهادةً يُعَرَّف بهـا من ٱعترف ، ويُشَرَّف قدرُ من له بالمحافَظة عليها شَغَف ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى طهَّر الله بِضْـعتَه الزهراءَ وبَنِيها ، وخصَّهم بمزيَّة القُربىٰ التى نزَّهه أن يسأل علىٰ الهِدايةِ أجْرا إلا المَوَدّة فيها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم أجدَرُ بالكَرَم ، وأحقُّ بمحَاسن الشِّيَم ، ومامنهم إلا مَنْ (تَعرِف البَطْحاءُ وطْأتَه * والبَيْتُ يَعرِفُه والحِـلُّ والحَرَم) ؛ وعلىٰ آله وأصحـابه الذين أنعم الله به عليهم ، وٱتَّبعوه فى ساعةِ العُسْرة فمنهـم الذين أُخرِجُوا من دِيارهم والذين يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن زُيِّنت به مواطِنُ الشَّرف ، وعُقِدت به العِنايةُ بخِدْمة من دَرَج من بَيت النبوّة وسَلَف ، وعُمِرت به مشاهِدُ آثارِهم التى هى فى الحقيقة لهم غُرَف ،

(١) كجهينة وسفينة . انظر شرح القاموس فى مادة زول .

[ونالَتْ الدولةُ] منْ تدبيره الجميل بعض حظّها ، وخصَّت بُقعته المباركة من نظره بمـا ينُوب فى خدمةِ محلّه الشريف عن مواقع لحظها ، وجَعلتْ به لآبنِ رسول الله من خدمة أبيه معها نَصيبا ، وفعلَتْ ذلك إذ خبرَتْ خدمتـه أجنبيّا علمـا أنها تتضاعف له إذا كان نَسيبا ، وحكمتْ بمـا قام عنـدها مَقام الثُّبوت ، وأمرتْه أن يبدأَ بخدمة أهلِ البيت [فإن] لازمَها لديْها مقدّمٌ على البيوت ــ مَن طَلَع شِهابُ فضلِه من الشَّرَف السَّنىِّ فى أكرم أُفُق ، وأحاطتْ به أسـبابُ السُّؤْدَد من سـائر الوجُوه إحاطةَ الطَّوْق بالعُنُق ، وزانَ الشَّرفَ بالسُّؤْدَد والعـلمَ بالعَمَل ، والرياسـةَ باللطف فاختارتْه المناصِبُ وآختالتْ به الدُّوَل ، وتقـدّم بنَفْسه ونَفَاسـة أصله فكان شَوْطُ من تقدّمَه وراء خَطْوه وهو يمشى على مَهَل ، وآصـطفَتْه الدولةُ القاهرةُ لنَفْسـها فتمسَّك من المُوالاة بأوْثَقِ أسبابها ، وآعتمدَتْ عليه فى بَثِّ نِعَمِها ، وبَعْث كَرَمها ، فعرَف فى ذلك الأمورَ من وجهها وأتى البيوتَ من أبوابها ، وحَمِدَتْ وفُودُ أبوابنـا العاليةِ لحسن سَيْرته فى إكرامهم السُّرَى ، وآكتفَتْ [حتى] مع تَرْك الكرامة إليهم بَشاشةِ وجهه التى هى خَيْر من القِرَى ، وصان البُيوتَ عن الإقواء بتدبيره الذى هو من موادِّ الأرزاق ، وزاد الحواصلَ بتثميره مع كَثْرة الكُلَف التى لو حاكَتْهـا الغمائمُ لأمْسكَتْ خَشْيةَ الإنفاق .

ولمـا كان فلان هو الذى تُليت مناقبُ بيته الطاهر ، وجُليت مفـاخِرُ أصـله الزاهر ، وتجملت بشَرَف خِلاله خِلالُ الشَّرف التى تركها الأوّلُ للآخر ، وكان مشْهَد الإمام السيد الحسين آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بُقْعةً هى مُنْتَجَع الرحمه ، ومَظِنَّة إجابة الأُمَّه ، وروضةُ من شُرِّفت بانتقاله إليهـا ، وتربةُ شهيدِ الزهراء صلوات الله على أبيها وعليها ؛ وبه الآنَ [من] رواتبِ القُرُبات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يَحتاج إلى آختيار من يُجْمِل النظرَ فيه ،

ويسلك نَهْج سلَفه فى الإعراض عن عَرَض الدنيا ويَقْتفيه ـ رأينا أن نختار لذٰلك من آخترناه لأنفسنا فكان الكُفْءَ الكريم ، وآختبرناه لمصالحنا فخبرْنا منه الحفيظَ العليم ، وأن نُقدّم مُهِمَّ ذلك البيتِ علىٰ مُهِمِّ بيوتنا فإنَّ حقوق آل بيتِ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحَقُّ بالتعظيم .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مكارمُه بتقريب ذَوِى القُرْبىٰ جَديره ، ومراسيمه علىٰ إقدار ذَوِى الرُّتب علىٰ مايجب قَديره ، ـ أن يفوّض إليه النظرُ علىٰ مشهد الإمام الحسين آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة ، علىٰ قاعدة من تقدّمه فى ذٰلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقف : لما قدّمْناه من أسبابٍ رجّحته لذلك ، وبيّناه من أمور أوضَحتْ فى آختيارنا له المَسَالك ؛ ومَنْ أولىٰ منه بهذه الرتبة التى شهِدَتْ له باستحقاقها مناصِبهُ ومَنَاسِبُه ، أو أقدَرُ منه علىٰ أمثال هذه الوظيفة . . أتَتِتْ بكماله وكرمِ خِلاله مراتبُ الباب الشريف ورَواتِبُه .

فليُمْعن النظرَ فى مباشَرة أوقافِ هذه البُقعةِ المباركةِ مُظهِرا ثمرة تفويضها إليه ، مبيِّنا نتيجةَ تعرُّضها له وعَرْضها عليه ، منبِّها علىٰ سِرّ التوفيق فيما وضَع أمرُنا من مقاليد أمرِها فى يدَيْه ؛ مجتهدًا فى تميز أموال الوقف من كل كاتب [حديث] ، موضِّحًا من شفقة الولد [على] مانُسِب إلىٰ الوالد ما شهِدت به فى حقِّها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذٰلك المشهدِ ما يشهَد له به غدا عند جَدّه ، ناشرا من ... ...[1] لواءَ فضلٍ رفعُه فى الحقيقة رفعٌ لمجده ؛ وليلْحَظْ تلك المصالحَ بنظره الذى يَزِيد أموالَها تثميرا ، ورِباعَها تعميرا ، وحواصلَها تمييزا وتوفيرا ، وآرجُ أيُّها السيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عندَ الله تعالىٰ بذٰلك عن كل حسـنةٍ عشرا إن ذٰلك [كان] علىٰ الله يسيرا . وصُنْ مابيدك عن شوائب الأدناس : ﴿إنّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْت ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾ . وقد خبَرْنا من سيرتك وسريرتك مالا نَحتاج أن نَزْداد به خُبْرا، ولا أنْ نبلُوَه بعد ماسَلَف مرَّةً أخرىٰ؛ ولكن نُذَكِّرك بتقوىٰ الله التى أنت بها متَّصف، وبوُجودها فيك معروفٌ وبوُجوبها عليك تعترِف؛ فقدِّمْها بين يدَيْك، وٱجعَلْها العُمْدة فيما ٱعتمَدْنا فيه عليك، إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الثالثـــة

(من الوظائف الدينية ما يُكتب فى قطع العادة الصغير، مفتتحا بـ«رُسِم بالأمر الشريف»)

وهو لمن كانت رتبتُه مجلس القاضى، ورُبَّما كُتِب فيه بالسامى بغيرياء لمن قُصِد تعظيمُه وهو قليلٌ، وبه يُكتَب لأرباب الوظائف الصِّغار من الخُطَباء، والمدرِّسين، ونُظَّار الأوقاف، وغيرهم ممن لاينحصرُ كثرةً .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البِيمارَسْتَان العتيق الذى رتَّبه السلطانُ صَلاحُ الدين «يوسُف بن أيُّوب» فى بعض قاعات قَصْر الفاطميِّين، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَت أيَّامُهُ تُفيد عَلَاء، وتستخدِم أكْفاء، وتُضْفى ملابِسَ النَّعماء علىٰ كلِّ ملىٍّ فتكسُوه بَهْجَةً وبَهاء ـ أن يستقِرّ فلان فى نَظَر البيمارَسْتان الصَّلَاحىّ بالقاهرة المحروسة، بالمعلوم الشاهد به الدِّيوان المعمورُ إلىٰ آخر وقْت، لكَفاءته التى ٱشتهر ذكْرُها، وأمانته التى صدَّق خَبَرَها خُبْرُها، ونزاهتِه التى أضحىٰ بها

علىّ النفس فغدَا بكل ثناء مليًّا ، ورياستِه التى أحلَّتْ قدْرَه أسمىٰ رتبةٍ فلا غروَ أن يكون «عليًّا» .

فليباشِرْ نظرَ البِيمارَسْتان المذكورِ مباشرةً يظْهَر بها آنتفاعُه ، وتَمَيَّزْ بها أوضاعُه ؛ ويَضْحىٰ عامرَ الأرجاء والنَّواحى ، ويقول لسان حاله عند حُسْن نظره وجميل تصرُّفه : الآنَ كما بَدَا صَلَاحى ؛ وليجعلْ همَّته مصروفةً إلىٰ ضَبْط مقْبُوضه ومصْروفه ، ويُظهِرْ نهضَته المعروفةَ بتثمير رَبْعه حتى تتضاعَفَ موادُّ معروفه ؛ ويلاحِظْ أحوالَ مَنْ فيه ملاحظةً تُذْهب عنهم الباس، ويراعِ مصالحَ حالِه فى تمنيته وتزكيته حتّى لا يزالَ منه شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفَاء للناس؛ وليتناول المعلومَ الشاهدَ به الدِّيوانُ المعمور من آستقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

وآعلم أنَّ من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب فى هيئة أوراق الطريق، أو علىٰ ظهور القِصَص، وقد تقدّم .

وهذه نسخة توقيع بالتحدّث فى وقف :

رُسِمَ بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه، وأنفذه وصرَّفه ـ أن يستقرّ القاضى فلانُ الدين فلان فى التحدُّث فى الوقف الفلانىّ ، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به كتابُ الوقف . فليعتَمِدْ هذا المرسوم الشريف كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه وبمقتضاه ، بعد الخط الشريف ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية ــ الوظائفُ الديوانية)

وهى علىٰ طبقتيــن :

الطبقـــــة الأولىٰ

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يُكتب له «الجنابُ العالى»
وفيهـا وظيفتانـــ)

الوظيفـــــــة الأولىٰ

(الوزارة ، إذا كانـ متولِّيها من أرباب الأقلام، كما هو الغالِبُ)

وقد تقــدّم فى الكلامِ علىٰ ترتيب وظائِف الديار المصرية نَقْــلا عن "مَسَــالك الأبصار" أن رَبَّها ثانى السلطان لو أُنصِف وعُرِف حقُّه، إلا أنها لمــا حدَثَتْ عليها النيابة ، تأخَّرتْ وقعَدِبها مكانُها حتَّى صار المتحدِّثُ فيها كناظر المــال، لايتعــدَّى الحديثَ فيــه ولا يتَّسع له فى التصرُّف مَجَال ، ولا تمتدّ يدُه فى الولاية والعَزْل لتطلُّع السلطان إلىٰ الإحاطة بجَرَيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات فى الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل، والكلامُ علىٰ طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التقاليد .

وهذِه نسخة تقليــدٍ بالوزارة ، كُتِب بها للصاحب « بهاءِ الدين بن حَنَّا » . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى وهَبَ لهذه الدولة القاهرةِ من لدنْه وليًّا، وجعل مكانـ سرِّها وشَدَّ أَزْرها عليًّا، ورضِىَ لهــا من لم يزل عند ربِّه مَرْضيًّا .

نحمده علىٰ لُطْفه الذى أمسىٰ بِنَا حَفِيًا، ونشكُره علىٰ أن جعل دولتَنا جنَّـةً أورَث تدبيرَها من عبادِه مَنْ كان تَقِيًّا ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُسَبِّح بهـا بُكْرة وعشِيًا ، ونصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبيًّا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نتَّبِع بها صراطًا سويًّا .

وبعــدُ، فإنَّ أولىٰ ما تنَغَّمتْ ألسنةُ الأقلامِ بتلاوة سُوَره، وتنعَّمتْ أفواهُ المحابِر بالاَستمداد لتسطيرِ سِيَرِه، وتناجَتِ الكِرامُ الكاتبونَ بشُكْر مجملَه ومفصَّله ، وتناشَدتِ الرُّواة بحُسْن لَسَــنه وترنَّمت الحُداةُ بطِيبِ غزَله ؛ وتهـادتِ الأقاليمُ تُحَفَـه معجَّله ومؤجَّله، وعنَتْ وجوهُ المَهَارِق لصُعُودكَلِمه الطيِّب ورَفْع صالحِ عَمَلِه ــ ما كان فيه شكرٌ لنعمةٍ تَمُنُّها علىٰ الدولة سعادةُ جُدُودِها وحُظُوظِها ، وإفادةُ مَصُونها ومحفُوظِها ، وإزادةُ مرمُوقها بحُسْن الاَستيداع وملحُوظِها؛ وحمدٌ لمِنْحةٍ أفاءتْها بركاتٌ أحسنَتْ للمْلكة الشريفـة مآلا ، وقرَّبتْ لهـا مَنَالا ، وأصلحَتْ لهـا أحْوالا ، وكاثَرتْ مَـدَدَ البحر فكلَّما أجْرىٰ ذاكَ ماءً أجرت هى مالًا ؛ وإن ضَنَّت السُّحُب أنشأتْ هى سُحُبا ، وإن قيل ــ بشُحِّ سَيْحنا ــ : رَوْنَقُ الأرض ذهَبَ، عوّضتْ عنه ذَهَبا ، كَمْ لها فى الوجود من كَرَم وكرامَه ، وفى الوجوه من وُسوم ووَسَامه ؛ كم أحيَتْ مُهَجا ، وكم جعلَتْ للدولة من أمْرِها مَخْرَجا ؛ وكم وسَّعتْ أملا ، وكم تركَتْ صدْرَ الحَزْن سَهْلا ، وكم تركت صَــدْر الخزائنِ ضَيِّقا حَرَجا ؛ كم استخدمَتْ جَيش تَهجُّد فى بَطْن الليل ، وجيشَ جِهادٍ علىٰ ظُهور الخيل ؛ وكم أنفقَتْ فى واقِفٍ فى قَلْبٍ بين صفُوف الحروب ، وفى واقِفٍ فى صفُوف المساجد من أصحاب القُلُوب ؛ كم سبيلٍ يَسَّرت ، وسُــعودٍ كثَّرت ؛ وكم مخاوِفَ أدبرتْ حين دبَّرت ، وكم آثارٍ فى البلاد والعباد آثرَتْ وأثَّرت ، وكم وافتْ ووَفَّت ، وكم كفَتْ وكَفَّت ، وكم أعفَتْ وعَفَت وعَفَّت ، وكم بهـا موازِينُ للأولياءِ ثَقُلت وموازينُ للأعداء خَفَّت ، كم أجْرتْ من وُقُوف ،

وكم عُرِفَتْ بمعروف، كم بيوتِ عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو محرابُها. وسماءِ جُودٍ هو سحابُها ومدينـةِ علم هو بابُها؛ تُثْنِى الليالى علىٰ تغليسه إلىٰ المساجد فى الحَنادِس، والأيامُ علىٰ تهجيره لعيَادة الفُقَراء وحُضور الجنائز و زيارةِ القُبور الدَّوارِس؛ يكتَنُّ تحت جَناحِ عدْله الظاعنُ والمُقِيم، وتَشْـكُرُ مَبارَّه يثربُ و زمزَمُ ومكّةُ والحَطِيم؛ كم عمَّتْ سُنَن تفقّداته ونوافِلُه، وكم مرَّتْ صـدَقاتُه بالوادى ــ فَسَّح الله فى مُدّته ــ فأثنَتْ عليه رِمَالُه و بالنادى فأثنت عليه أرامِلُه؛ ما زار الشامَ إلا أغناه عن مِنّة المطر، ولا صَحِب سلطانَه فى سفر إلا قال: نِعْم الصاحبُ فى السَّفَر والحضَر.

ولمـا كان المنفردُ بهـذه البركاتِ هو واحدُ الوجُود، ومَنْ لا يُشـاركه فى المَزَايا شريكٌ و إنَّ الليـالىَ بإيجاد مثْـله غيرُ وَلُود؛ وهو الذى لو لم نُسَمِّه قال سامع هذه المناقب: هذا الموصُوف، عنْد الله وعند خلقِه معْروف؛ وهذا الممدُوح، بأكثَرَ من هذه المدائح والمحامد من ربه ممْدُوح ومَمْنُوح؛ وهذا المنعوتُ بذٰلك، قد نعتَتْه بأكثر من هذه النُّعوت الملائك؛ و إنمـا نذكُرُ نعوتَه ٱلتِذاذا، فلا يعتقد خاطبٌ ولا كاتب أنه وفَّى جلالَته بعضَ حقِّها فإنه أشرف من هذا؛ و إذا كان ولا بدّ للمَادح أن تجول، وللقلم أن يقُول؛ فتلك بركاتُ المجلس العـالى، الصاحبىّ، السـيِّدىّ، الوَرَعىّ، الزاهـدىّ، العـابِدىّ، الوالِدىّ، الذُّخرىّ، الكَفِيلىّ، المُهَّدىّ، المشـيِّدىّ، العونىّ، القِوَامىّ، النِّظامىّ، الأفضَلىّ، الأشرَفىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، البهَائىّ؛ سيد الوُزَراء فى العالمين، كهف العابدين، ملجأ الصالحين، شرف الأولياء المتّقين، مدبِّر الدول، سِدَّاد الثُّغور، صلاح الممالك، قُدوة الملوك والسلاطين، يمين أمير المؤمنين، علىّ بن محمد: أدام الله جلاله. من تَشْرُف الأقاليمُ بحياطة قَلَمه المبارك، والتقاليدُ بتجديد تنفيذه الذى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك. فمـا جُدِّد منها إنمـا هو بمَثابة آياتِ

فتُردَّد، أو بمنزلة سجلات فى كل حين بها يُحكم وفيها يُشْهَد؛ حتى تتناقل ثبوتَه الأيامُ والليالى، ولا يخلو جيدُ دولة من أنه يكون الحالى بما لَهُ من فاخر اللآلى.

فلذلك خرج الأمرُ العالى - لا برِح يُكسِب بهاءَ الدين المحمدىّ أتمَّ الأنوار، ولا برِحت مراسِمُه تزهُو من قلم منفِّذه بذى الفِقَر وذى الفَقَار - أن يضمَّن هـذا التقليـدُ الشريف بالوزارة التـامة، العامّة، الشاملة، الكاملة: من المآثر الشريفة الصاحبية، البهائية، أحسنَ التضمين، وأن يُنْشر منها مايَتلقَّ رايتَه كلُّ ربِّ سيف وقلَم باليمين؛ وأن يُعْلِم كافّةُ الناس ومن تضُمّه طاعةُ هـذه الدولة ومُلْكُها وسِلْكُها من مَلك وأمير، وكلّ مدينـةٍ ذاتِ مِنْبر وسرير؛ وكلّ من جمَعَتْه الأقاليمُ من نُوّاب سـلطنه، وذى طاعةٍ مُذْعنـه؛ وأصحابِ عقْد وحَلّ، وظَعْنٍ وحَلّ؛ وذى جُنود وحُشود، ورافِعى أعلامٍ وبُنُود؛ وكلّ راعٍ ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعيه؛ وكلّ صاحب علم وتدْريس، وتهليـلٍ وتقديس؛ وكلّ من يدخُل فى حكم هذه الدولة الغالية من شُمُوسها المضيئة، وبُدُورها المُنيرة وشُهُبها الثاقبة، فى الممالك المصريَّة، والنُّوبِيَّـة، والساحليَّة، والكَرَكيَّة، والشَّوْبَكيَّة، والشاميَّـة، والحَلَبية، وما يتداخَلُ بينَ ذٰلك، من ثُغُور وحُصُون وممـالك - أنَّ القلَمَ المبارَك الصاحبىّ البَهائىّ فى جميع هذه الممـالك مَبْسوط، وأمْرَ تدبيرها به مَنُوط، ورِعايةَ شفقَته لها تَحُوط؛ وله النظرُ فى أحوالها، وأموالهـا؛ وإليه أمرُ قَوانينها، ودواوينها، وكُتّابها، وحُسّابها، ومَراتبها، ورَوَاتبها؛ وتصريفها، ومَصْروفها؛ وإليه التولية والصَّرْف، وإلىٰ تقدُّمه البدلُ والنعتُ والتوكيـدُ والعَطْف؛ فهو صاحبُ الرُّتبـة التى لا يَحُلُّها سواه وسوىٰ من هو مرتَضيـه، من السادة الوزراء بَنيـه، وما سمَّينا غيْرَه وغيرَهم

بالصُّحُوبيــة(١) فليحذر من يُخـاطِبُ غيْرَه [و] غيرهم بها أو يُسمِّيه ؛ فكما كان والدُنا الشهيدُ رحمه الله يخـاطبه بالوالد قد خاطَبْناه بذٰلك وخَطَبْناه . وما عدَلْنـا عن ذٰلك بل عَدَلْنا لأنه ما ظَلَم مَنْ أشـبَهَ أباه ، فمنزلتُه لا تُسامىٰ ولا تُسام ، ومكانتُــه لا تُرامىٰ ولا تُرام ؛ فمن قَدَح فى سِـيادته من حُسَّاده زِنادَ قَدْحٍ أُحْرِق بشَرَرِ شرِّه ، ومَنْ رِكب إلىٰ جَلَالته ،ثَبَجَ سُوء أُغرِق فى بحْره ، ومن فَتَل لسعادته ، حَبْل كيدٍ فإنما فَتَلَه مُبْرِمُه لنَحْره ؛ فلتلزَمِ الألســنةُ والأقلامُ والأقدامُ فى خِدْمتِه أحسنَ الآداب ، وليقُل المتردّدون : حِطَّةٌ إذا دخلُوا الباب ، ولا يغرّنهم فرطُ تواضُعه لدينه وتَقْواه ، فمن تأدّب معه تأدّب مَعَنا ومن تأدّب مَعَنا تأدّبَ مع الله . ولْيُتْلَ هــذا التقليدُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، وتُنْسَخ نُسَخُه حتّى تتناقلها الأمصارُ والبِلاد ، فهو حجّتنا علىٰ من سمَّيناه خصُوصا ومن يدْخُل فى ذٰلك بطريق العُمُوم ، فليعملُوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يَزِيد المجلس الصاحبىّ الوزيرىّ البهائىّ سـيدَ الوزراء من فضله ، ويُبْقِيه لغاب هذه الدولة يصُونُه لشِبْله كما صانه لأسَده من قَبْله ، ويمتّع بنيتِــه الصالحة التى يحسُنُ بها ـ إن شاء الله ـ نَمـاءُ الفرع كما حَسُن نمـاءُ أصلِه ، بمنّه وكرمه ! .

✦
✦ ✦

وهذه نسـخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين ابن الصاحب بَهاءِ الدين علىّ بن حَنّا ، فى ربيع الأوّل سنَةَ ثلاث وتسعين وستّمائة ، من إنشاء المولىٰ شِهاب الدين محمود الحلَبىّ ، تغمده الله برحمته ، وهى :

---

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمـد لله مكمّل شرف الوزارة بطَلْعة تاجها . ومشرِّف قَدْرهـ بمَنْ تُشْرِق عليها أشعّة سعده إشراقَ الكواكب علىٰ أبراجِها . ورافع لواءِ مجدها بمن تلقّته بعد الجفاء فى حُلَل سُرورها وحُلِيّ ٱبتهاجها ، وتحلّتْ بعدَ العطَل من جواهر مَفاخره بمـا تتزيّنُ عقُود السُّعود بازْدواجها ، وترفُل من ٱنتِسابها إلىٰ أبّهة بهائه بمـا يَودُّ ذهَبُ الأصيل لوٱمتَزج بسُلُوك ٱنتِساجها ، الذي شيَّد قواعدَ هذه المرتبة السنيَّة فى أيَّامنا وجدّدَها ، وبعثَ لهـا علىٰ فَتْرة من الأكْفاء مَنْ حَسم الأدْواءَ فكان مَسيحَها وشَرَعَ المَعْدَلةَ فكان محمَّدَها ، وردَّها بحكم الآستحقاقِ إلىٰ من لا يُختَلَف فى أنه صاحبُها ، ورجَعها إلىٰ من خطَبَتْه لنفسِها بعد أن أحجَم لشَرَف قَدْرها خاطِبُها .

نحمدُه علىٰ أن شَـدّ أَزْر مُلْكنا بأكْرمِ وزير ، وأيمَنِ مشير ، وأجلِّ مَنْ ينتهى إلىٰ بيتٍ كريم ، وحسَبٍ صَميم ، ومن إذا قال لسانُ مُلْكنا : ﴿ ٱئْتُونى به أسْـتَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ قالتْ كفايتُه : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُقرّبها سِرًّا وعَلنا ، ونُقرُّبها هذه العقيلةَ الجليلةَ عند من يكسُوها مجْدُه رفعةً وسَـنا ، ويُلبِسُ جَفْنَ الدَّهر عنها وسَنَا ، ونشهد أن محمَّدا عبدُه ورسوله المخصوصُ بكل صاحبٍ شهد الكتابُ والسنّةُ بفضله ، وقام بعضُهم بحُسن مُؤازَرتِه مَقامَ من شدّ اللهُ [به] عضدَ مَن سَألَه وزيراً من أهْله ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحْبه صـلاةً لاتَغْرُب شمسها ، ولا يعزب أُنْسُها ، ولا يَتفاوتُ فى المحافظة عليها غَدُها وأمْسُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من خَطَبَت بحمده الأقلام ، وٱفتَتحت به الدولةُ التى ابتَسمت بنسيمها ثُغُورُ الأيام ، وودَّت مسكةُ الليل لو مازَجتْ أنفاسَـه ، وأمّل بياضُ النهار لوأخذ من غير سمة عوضَ ورق الوَرق قِرطاسَه ، وتحاشدت النجوم لتنْتَسق فى سلك

معانيــه وطارتْ بذكره فى الآفاق أنباء السُّــعود، وحكَمت الجُــدُود بأنه فى اقتبال إقباله نهايةُ الآباءِ وغايةُ الجُدُود ؛ وٱفترّت به ثغور الممالك عن أحسَن الدُّرّ النَّضيد ، وسَرتْ بذكره رِفاقُ الآفاقِ ففِى كلّ نادٍ مُنادٍ وفى كلّ بَرٍّ بَرِيد ، وٱختالتْ به أعطافُ الدولة القاهرة فأوتْ من الرأى السَّديد إلىٰ كلّ ركنٍ شديد، ونطق به العدلُ والحقُّ فخَرِس الظُّلم وما يُبــدئُ الباطلُ وما يُعيد، وجرتْ به أقدارُ ذَوِى الرُّتَب علىٰ أجمــل مَناهِجِها فأمَّا أهــل العدل فيُقَرَّبون نجيًّا وأما أهــل الظُّلم فأُولَئِــكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ، وبدَتْ به وجوهُ المصالح ســافرةً بعد الحِجَاب ، بارزةً بعد طُول الاْنتِقال إلىٰ الاْنتِقاب ، داخلةً بوفُود المحامد من كلّ باب ، إلا الظُّلمَ فإنه بحمد الله قد سُدّ ذٰلك الباب . وأقرّ منصِبُ الوزارة الشريفة أنّا أعَدْنا به الحقَّ إلىٰ نِصابه ،ورَدَدْناه إلىٰ من هو أَوْلىٰ به بعد ٱغتصــابِه ، وألبَسْــناه من بَهْجة أيّامنا تاجًا رَدَّ عليــه عِزًّا لاتطْمَع يَدُ الذَّهَب فى ٱنتزاعه عنه ولا ٱستلابِه ؛ وتقليدَه لمن يودُّ الفرقَدُ لو عُقِد به إكليلُه ، ويتمَنّى الطَّرْفُ لو أدرَكَ غاية مَجْــده وإن رجع وهو حسِيرُ البصر كَلِيلُه ؛ وتفويضَ ذٰلك إلىٰ من كان له وهو فى يَد غيره، ومَنْ به وببيتِه تمهّدت قواعِدُه فمــا كان فيه من خيرٍ فهو من سَيرتِهم وما كان من شَرٍّ فمن قِبَل المُقَصِّر من عِثَارهم فى سَيْره ؛ وما أُحدِث فيــه من ظُلْمٍ فهو منه بُرَاء إذْ إثم ذٰلك علىٰ من ٱجترأ عليه ، وما أُجْرِى به من معروف فإلىٰ طريقهم منسوبٌ وإن تلبَّس منه بمــا لم يُعْطَ مَنْ نُسِب إليه ؛ وما خلا منهم هذا الدَّستُ الكريم إلا وهم بالأولَويَّة فى صَدْره الجلوس، ولا تصدّىٰ غيرُهم لتعاطيه إلا وأقبلَتْ عليه فى أيّامه الجُسوم وعِلْية النُّفُوس .

ولذٰلك لمّــا كانتْ هــذه الدولةُ القاهرة مفتَتَحة بالبركات أيّامُها، ماضيةً بكَفِّ الظلم ونَشْر العدل سُيُوفها وأقلامُها، مســتهِلّةً بالأرزاق سُحُبُ فضــلها التى لايقْلِــع

غمائمها ـ اقتضت الآراء الشريفة اختيار خير صاحب يعين على الحق بآرائه، ويجمل الدست ببهجته ورُوائه، ويجرى الأرزاق بوجه لو تأمله امرؤ ظامئ الجوانح لارتوى من مائه ؛ وكان المجلس العالى، الصاحبى، الوزيرى، التاجى : أدام الله تعالى نعمته ، ورحم سلفه، هو المخطوب لفضله ، والمطلوب لهذا الدست الذى تعين له دون الأكفاء وإن لم يكن غير أهله من أهله ؛ ومازال يتشوف إليه تشوف البروج إلى نجوم السعود، ويتطلع إلى محيَّاه الذى هو كنور الشمس فى الدنو وكمحلها فى الصعود، وما زالت الأدعية الصالحة ترتفع فى أيامه لمالك عصره، والآراء تقام منها جنود لتأييده وحشود لنصره، والأموال تحمل منها إلى خزائنه بأشبه بموج البحر فى الحضر دون حصره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ ضاعف الله مواهبه العميمه ، وكمل جلال دولته بتفويض أمورها إلى ذوى الأصول العريقة والبيوت القديمه ـ أن تحلى منه هذه الرتبة العلية بما حلى به الدين ، وتعقد له راية فضلها المتين؛ ليتلقاها شرقا وغربا، وبعدا وقربا ، وبرا وبحرا ، وشاما ومصرا، ويحلى حلاه علم وعلم، وسيف وقلم؛ ومنبر وسرير، ومأمور وأمير .

فليتلق أمره بالطاعة كل مؤتمر بأمرنا الشريف، جار فى طاعتنا المفروضة بين بنان التقليد وعنان التصريف ؛ وليبادر إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركه ، ويمض القواعد على ماتراه آراؤه المنزهة عن المنازعة فى الأمر والمشاركه ؛ ولينشر كلمة العدل التى أمر الله بإضافة الإحسان إليها، ويمت بدع الظلم فإن الله يشكره على تلك الإماتة ويحمده عليها ؛ ويسهل رزق الصدقات، ووظائف القربات، فإن ذلك من أجل ما قدمته [الطائفة] الصالحة بين يديها ، وليكثر بذلك جنود الليل فإنها لا تطيش سهامها، ويتوق من محاربتها بظلم فإنه لا يداوى بالرقى سمامها، وليعوذ بتمائم التيسير

مواهبنا فإنّ تمام النعمة تمائمها، وليطلق قلمه فى البسط والقبض وليُعدْ بتدبيره على هذا المنصب الشريف بهجته ، ويتدارك بآرائه ذَمَاءه وبدوائه مُهجته ؛ ويصُن عن شوائب الظُّلم حرمتــه، ويخلِّص ذمّتنا من المآثم وذمّته ؛ وليعلم أنّ أمور المملكة الشريفة منوطةٌ بآرائه وأحكامه، مضــبوطةٌ بأقواله وأقلامه؛ فليجعل فكره مرآةً تجلو عليه صُوَرَها ، ويُقِم آراءه صُحُفا تتلو لديه سُوَرَها ؛ ويأمر النوّاب بمـا يراه من مصالحنا ليُلَبُّوه سامعين، ويُسْهِر جفنه فى مصالح البلاد والعباد لترقُد الرّعايا فى مِهاد الأمن وادعين ؛ ويعضّــد الشريعــةَ المطهّرة بتنفيذ أحكامها ، وإعلاء أعلامها ؛ وإظهار أنوارها ، وإقامة مارفعه الله من منارها ؛ ولا يَعدل فى أمور مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه ، ولا يُمضى فيها عزلا ولا ولايةً إلا بعد تتبّعه الواجبَ فى ذلك وآستقرائه ، وهو أعلم بمـا يجب لهذه الرُّتبــة من قواعدَ إليــه يُرْجَع فى أوضاعها ، وعليــه يُعوّل فى آصطلاحها لأنفرادها فيه وآجتماعها ؛ فليفعل فى ذلك ما هو عليــه بحُسن الثناء جدير، وليعتصم بالله فى أموره فإنّه نِعْمَ المولى ونِعْم النصير؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

وهــذه نسخة تقليد بالوزارة، كُتِب به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة، . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ :

الحمد لله الذى شدّ أَزْر مُلْكنا الشريف، بمن أضاء فى أُفق الدِّين علْمُه ، وشيّد قواعدَ عدْلنا المُنيف، بمن أعلَتْ منارَ الحق آياتُه فى أحكام الممالك وحِلْمُه، ووطّد أركانَ دولتنا القاهرة بمن يفعل فى نِكاية أعداء الله فعلَ الحربِ العَوان سِلْمُه ،

وأجرىٰ الأرزاقَ فى أيَّامنا الزاهرةِ علىٰ يَد من كَفَّت أقلامُه كَفَّ الحوادث فلا عُدْوانَ تغشَىٰ ظَلَمه ولا عادٍ يُخْشىٰ ظُلْمُه ، وصانَ ممالكنا المحروسةَ بآراء مَنْ إن صَرَف إلىٰ نكاية أعداء الله حَدَّ يراعه لم يَنْبُ موقعُه ولم يَعْفُ كَلْمُه ، و إن صرفه فى حماية ثغر لم يُشَمْ برقُه ولم يَدِقّ بالوهم ظُلْمُه ، و إن حمىٰ جانبَ إقليم عزّ على الأيام ثَلُّ عُروش ما حَمَاه وَسْمُه ، و إن أرهفَه لذَبٍّ عن دين الله راعتْ عدوَّ الدين منه يقظتُه وسلَّه عليه حُلْمُه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى زانتْ أسنىٰ مناصب الدنيا فى أيّامنا الزاهرة بضياء الدّين ، وأعلَتْ أقدارَ الرُّتَب العُلْيا بتصرُّفها بآراء من أصبح عِلْمُه عَلَمًا للتقين وعملُه سَنَنًا للمقتدين، وفُجِّرت ينابيعُ الأرزاق فى دولتنا القاهرة بيَد من أغنىٰ بيدنا المعتفين وقمَع بمهابتنا المعتدين .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أعاد يُمْنُها علىٰ سَمْع المنابر من نُعوتنا ما فَقَد ، وأطفأ إعلانُها عن حَمَلتها لهَبَ العناد وقد وَقَد ، وفوّضَ آعتناؤُنا بمصالح أهلها أمورَهم إلىٰ أكمل من آنتقىٰ لنا التأييدُ من ذخائر العلماء وأفضل من آنتقَد ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أقامنا الله للذَّبّ عن أمّته ، وجلا بنُور جهادنا لأعدائه عن قَلْب كل مؤمن ما أظَلَّه من غَمِّه ورانَ عليه من غُمَّته ، وعضَّدنا من أئمة مِلَّته بمن أردْنا مصالحَ العباد والبلاد فى إلقاء كلِّ أمر إليه بأزمَّته ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من فاز بسَبْقه ، وحاز بتصديقه قدمَ صِدْقه ، وآختصَّه الله بمؤازرة نبيِّه دُونَ مَنِ آجتباه من خَلْقه ؛ ومنهم مَن كان الشيطان يُنَكِّب عن طُرْقه ، ونَطقَ من الصواب بما نزل الذِّكْرُ الحكيمُ علىٰ وَفْقه ، وسُمِّى الفارُوقَ لتمييزه بين الحقِّ والباطل وفَرْقه ؛ ومنهم من قابَل المعتدين

برِفقه وقُتِل شهيدًا علىٰ حَقّه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستحيى من خُلُقه الكريم وكرم خُلُقه ، ومنهم من طلَع [لا]معُ نُور الإيمان من أُفُقه ، وكان سيفُه من كل مُلْحد فى دين الله بمثابة قِلَادة عُنُقه ، وطلّق الدنيا تورّعا عنها وبيده مفاتيحُ ما بَسَط الله للأمّة من رِزْقه ، صلاةً يُقيم الإيمانُ فرضَها ، ويملأ بها الإيقانُ طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وتُزَيِّن كواكبُ ذِكرها ومواكبُ نَصْرها سماءَ الدنيا وأرضَها ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ أولىٰ من رُقِمت لأعطافِ فَضْله حُلَل الكلام ، ونُظِمت لأجياد ذِكره فرائدُ المَعانِى المستخرجةُ من بِحار الفِكْر علىٰ ألْسنة الأقلام ، ووُشّحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسنُ من ٱتِّساق الدّرارىِّ علىٰ هالاتِ البُدور ، وجُلّى علىٰ المَسامع مفاخرُه بما هو أبهىٰ من النُّور فى العيون ! وأحلىٰ من الأمن فى القُلُوب ! وأوقعُ من الشِّفاء فى الصُّدُور ، وأُطلعَ فى أُفُق الطروس من أوصافه شمسٌ أسفَر بأنواع العلوم ضياؤُها ، وأُنشئت فى أثناء السطور من نعت مآثره سُحُبٌ إذا قابلتْها وجُوه الحَيَا سترها بحُمْرة البَرْق حَياؤُها ، وأودعتِ المَهارِق من ذِكْر خلاله لُطْفا يَوَدُّ ذهبُ الأصيل لو ناب عن أنْفاسِها ، ومُنِحت صدُورُ المعانِى من معاليه طُرَفًا تتمنّى الرياضُ العواطرُ لو تلَقّتْ عن أنفاسِها ــ مَن سَمَت الوزارةُ بٱستقرارها منه فى مَعْدن الفضائل ، وٱتّسمت منه بالصاحبِ الذى أعادَتْ أيّامُه ما فُقِد من مَحاسن السِّيَر الأوائل ، وٱبتَسمتْ من علومه بالعلّامة الذى تتفرّعُ من أحكامه أحكامُ للفروع وتتفجّر من تواقيعه عُيون المسائل ، وٱتّصفت من مَعْدَلته بالمُنْصف الذى هَجَر فى أيّامه هَجيرَ الحَيْف والظُّلْم فالأوقاتُ فى أيامه المباركة كلُّها أسحارٌ وأصائل ؛ وٱبتهجتْ من إنْصافه بالعادل الذى سَهّل علىٰ ذَوِى المطالب حِجابَ بابه فلا يحتاجُ أن يُطْرَق بالشّفاعات ولا أن يُستفتَح بالوسائل ، وأشرقتْ من مفاخره بالكامل الذى حسُنتْ به حُلَل

الثناء فكأنها آبتسامُ ثُغور النَّوْر فى أثناء الخمائل ، فالعدْل فى أيّامه كالإحسان شامل ، والمعروف بأقلامه كالسُّحُب المتكفِّلة برِىّ الأرض الماحِل ، والظلمُ والإنصاف مفترقان منه بين العَدَم والوجود فلا يُرى بهذا آمرا ولا يُرَدّ عن هذا آمِل ؛ قد أعطى دَسْتَ الوزارة الشريفة حَقّه : فالأقدار بآياته مَرْفوعه ، والمضارّ بعَدْلته مَدْفوعه ، وكلمةُ المظلوم بإنصاف إنصاته مسمُوعه ، وأسبابُ الخيرات بحُسْن نيّته لنيّته الحسنة مجُموعه ؛ والأقاليمُ بِكَلاءة أقلامه محُوطـه ، وأحوال المملكة بآرائه المشتملة على مصالحها مَنُوطه ؛ والثُّغور بحُسْن تفقُّده مفتَرَّةُ المَبـاسِم ، مَصُونة بإزاحة الأعذار عن مَرّ الرِّياح النَّواسم ؛ آهِلةُ النَّواحى بموالاة الحُمُول التى لا تَزال عِيسُها بِدامِيَة السُّرى دامِيَةَ المَنـاسِم ؛ والبلادُ بما نَشَرتْ أقلامُه من العَـدْل معمُوره ، ورَعاياها بما بسطَتْ [يدُ] إحسانهِ من الإحسان مَغْموره ، وأربابُ التصرُّف بما تقتضيه أقلامُه عن الحَيْف منهيَّـةٌ وبالرِّفق مأموره ، والأيدى بالأدعيَـة الصالحة لأيّامنا الزاهرة مرتَفعه ، والرعيَّـةُ لتقلُّبها فى مِهاد الأمْن والدَّعَة بالعَيْش منتفعه ؛ وبيوتُ الأموال آهلةٌ ، على كَثْرة الإنفاق ، والغَلال متواصلَة ، مع التوفُّر على عِمَارة البلاد ، والحُمولُ متواليةٌ مع أَمْن من صدَرتْ عنهم على ما فى أيْديهم من الطَّوارِف والتِّلاد ؛ والأمورُ بالتيقُّظ لهـا على سَعة الممـالك مضْبُوطه ، والنُّفوس بالأمْن على ما هِىَ عليه من التمـلِّى بالنِّعَم مغْبُوطه ؛ والمنـاصبُ مَصُونة بأكفائها ، والمراتبُ آهلةٌ بالأعيان الذين تنبَّهت لهم فى أيَّامه عيُونُ الحظِّ بعد إغْفائها ؛ ومجالسُ المَعْدَلة حاليةٌ ، بأحكام سِـيرتِه المُنْصفه ، ومواطِنُ العـلم عاليةٌ ، بما يُملِى فيها من فوائده التى أتعَبَ ألسِـنة الأقلام ما فيها من صِفَه .

ولمـا كان الجنابُ العـالى ، الصاحبِىّ ، الوزيرىّ ، الضِّيائىّ ، وزيرُ الممـالك الشريفة ، هو الذى كَرُمت به مناسِبُها ، وعظُمَت بالانتمـاء إليه مَناصبُها ، وتحلَّت

بعلمه معاطفها . ونزلت على حكم حلمه عوارف برها العميمة وعواطفها ، وزهت بجواهر فضائله أجيادها . واستوت فى ملابس حلل المسرة به أيامها الزاهية وأعيادها . وأنارت بعدلته لياليها . وأشرقت بالانتظام فى سخاب[1] إيالته لآليها . فكم من أقاليم صان قلمه أموالها . وممالك حلى عدله أحوالها . وبلاد أعان تدبيره السحب على ريها . وأعمال أبان عن استغنائها بتأثيره عن منة الحيا حسن مسموعها ومرئيها . وأرزاق أدرها . ورزق أجراها على قواعد الإحسان وأقرها . وجهات بر أعان واقفيها عليها . وأسباب خير جعل أيامنا بإدامة فتحها السابقة إليها . وقدم سعاية أزالها وأزلها ، وكلمة حادثة أذالها وأذلها . ووجوه مضرة ردها بيد المعدلة وصدها . وأبواب ظلم لا طاقة للرعية بسلوكها أغلقها بيمنى يمنه وسدها . فدأبه أن يسدد إلى مقاتل العدا باتخاذ اليد عند الفقراء سهام الليل التى لا تصدها الدروع . وأن يجدد لأوليائنا من عوارف آلائنا أخلاف بر تروى الآمال وهى حافلة الضروع ــ اقتصت آراؤنا الشريفة أن نزين بجده غرر التقاليد . ونجدد إليه فى أمور وزارتنا الشريفة إلقاء المقاليد . وأن نوشى الطروس من أوصافه بما يجدد على أعطافها الحبر . ونردد على ألسنة الأقاليم من نعوته ما لا تمل المسامع إيراد الخبر منه بعد الخبر .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ــ لازال الدين فى أيامه الشريفة مشرقا ضياؤه ، آهلة باعتلائه مرابع الوجود وأحياؤه . ممدودة على الامة ظلاله الوارفة وأفياؤه ــ أن يجدد هذا التقليد باستقراره تجديدا لا يبلى الدهر حلله ، ولا تقوض الأيام حلله[2] . بل يشرق فى أفق الممالك إشراق

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالخاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومحلب بلا جوهر جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهى مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثوابت ، ويتفرّعُ فى مصالح المُلْك تفرّع الأفنان الناشئة فى الأُصول الثوابت ؛ وتحلُّ به مناصبُ الدولة القاهرة فى أسنىٰ ملابسها ، وتضيء به مواطنُ العلوم إضاءةَ صَباحة المصباح فى يد قابسها ؛ وتُسترفَعُ لنا به الأدعيةُ الصالحة من كلّ لسان ، وتُجتلىٰ به لأيامنا الزاهرة من كل أُفق وجوهُ الشُّكر الحسان .

فلتَجْر أقلامُه فى مَصالح دولتنا الشريفة علىٰ أفضل عادتها ، ويُرسِلْها فى نَشْر العدْل علىٰ سجيَّتها وفى إجراء الجُود علىٰ جادّتها ، ويَكُفّ بها أكُفّ الحوادث فإنما تُزال أسبابُ الظلم بحَسْم مادّتها ؛ ولِيُنْطِقها فى مَصالح الأموال بما تظَلُّ له مسامعُ الحُمول مُصْغيه . ويُطْلِقْها فى عِمارة البلاد بما تغْدو له ألسِنةُ الخِصْب حافظةً ولما عَداه مُلْغيه ؛ وكذلك الخزائن التى هى معاقلُ الإسلام وحُصونُه ، وحِمَاه الذى لا يُبتَذَلُ بغير أمرنا الشريف فى مصالح المُلْك والمِلّة مَصُونُه ؛ فليجعلها بتدبيره كالبحار التى لا تَنْقُص بكثْرة الوُرّاد جِمامُها ، ولاتَنزَحُها السُّحُب لكثْرة ما تحمِلُ الى الآفاق غَمامُها ؛ ولتَكُنْ كلمةُ العدل من أهمّ ما تُفتتَح به مجالسُه ، وآكَدِ ما يؤمَرُ به مُحاضِرُه من الأولياء ومُجالسُه ؛ وأزكىٰ ما يَستجيدُ [به] لاستثمار الدعاء الصالح مَغارِسَه ، وأوثقِ ما يَحُوط به حِمىٰ الملك الذى إذا غَفَا جَفْنُ عينه كان حارسَه . وأوّلِ ما ينبغى أن يُنافس عليه حاضِرَ دَسْته وغائبَه ، وأوْلىٰ ما يُعِدّ علىٰ إهماله نَكالَه ويُعِدّ علىٰ إقامته رغائبَه .

ولْيلاحظْ من مَصالح كلّ إقليم ما كأنّه ينظر إليه بعين قلبه ، ويمثّل صورتَه فى مرآة لُبّه ؛ فيُقتِرْ كلّ أمر علىٰ ما يَراه من سَداده ، ويُقرّر حال كلّ ثغر علىٰ ما يحصُل به المراد فى سَداده ؛ فيغدو لأعذاره بموالاة الحُمول إليه مُزيحا ، ويُمسى بسَدّ خَلَله لخواطر أهل الكفر مُتعِباً ولخواطرنا الشريفة مُريحا ؛ وينظر فى أحوال

من به من الجُنْد والرجال بما يؤكِّد الطاعةَ عليهم . ويجدّد الاستطاعةَ لديهم ؛ ويُزيل أعذارهم واعتِذارَهم [بوصول حقوقهم اليهم . ويُوفِّرهم علىٰ إعداد الأهبة للأعداءِ] (١) إذا أتَوْهم من فَوْرِهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم علىٰ الرعايا وجَوْرِهم . ويتفقّد من أحوال مباشريها وولاة الحكم والتحكّم فيما ما يعلمون به أنه مناقِشُهم علىٰ الأمور اليَسيره ، والهَفَوات التى يَرَوْنها قليلة وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرَّعايا كثيره ؛ ويتعاهدُ أمور الرتب الدينيَّة فلا تؤخَذُ مناصِبُها بالمَناسِب ، ولا تَغدُو أوقافُها المُعَدّة لإكتساب العلوم فى المَكاسب ؛ بل يتعين أن يرتادَ لها العلماءَ الأعيان حيثُ حَلُّوا ، ويُقرِّر فى رتَبها الأئمَّةَ الأكفاءَ وإلا اتخذ النـاسُ رُءُوسا جُهّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا . ولتكنْ أقلامُه علىٰ كلِّ ما جرتْ به العوائدُ فى ذلك محتَوِيه ، وأيامُه علىٰ أكمل القواعد فى ذلك وغيره منطَوِيه . فما ثَمَّ شيءٌ من قواعد الوِزارة الشريفة خارجٌ عن حكمه فلْيكتُبْ يُمتَثل . وليقُلْ فى مصالح دولتنا القاهرة يكُن قولُه أمضَىٰ من الظُّبَا وأسْرىٰ من الصَّبا وأسيَرَ من المَثَل ؛ فلا تُمضَىٰ فى ذلك ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدُوق بآرائه ، متوقِّف علىٰ تنفيذه وإمضائِه ، متلَقٍّ ما يقرّر فيه من تِلْقائه ، وفى الاكتفاء بِسيرته ما يُغنِى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نُسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شَدَّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزْرا ، وخصَّ أيّامَنا الزاهرةَ باجتباء مَنْ حماها عدْلُه أن تَضيع أو تحمِل وِزْرا ، وأفاض إنعامَنا علىٰ مَنْ طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فى أُفُق خدمتنا هلالًا وٱستقلَّ بحسن السَّيْر والسِّيرة بَدْرا، وضاعفَ إحسانَنا لمن [لا] نرفعه إلىٰ رتبة شرف إلا وكان أجلَّ الأكفاء علىٰ ذٰلك قُدْرةً وقَدْرا ، و جمَّل مُلْكَنا بمن إذا ٱفتخرت الدُّول ببعض مناقبه كَفَاها ذٰلك جَلَالا ونخْرا، و إذا ٱدَّخرت تدبيره وبذلَتْ ما عداه فحَسْبُها ما أبقتــه وقايةً للملك وذُخْرا، و بسط عدْلَنا فى الأقاليم بيــد مَنْ حينَ أمرْنا القلمَ بتقليده ذٰلك سجَد فى الطِّرس شكْرا ، وٱفتتح بحمد الله يُذكِّر النعمةَ به علىٰ آلائه إنَّ فى ذٰلك لَذِكْرىٰ ، وأخذ فى وصف دُرَرِ مَفَاخره التى تمثَّلت له فنضَّدها دُون أن يستدعِىَ رَوِيَّةً أو يُعْمِل فِكْرا .

نحمــده حَمْدَ من والىٰ إلىٰ أوليائه ، مَوادَّ النِّعم ، وأضفىٰ علىٰ أصــفيائه ، ملابِسَ الكَرَم ، وحفِظ لمن أخلَص فى طاعته مَعارِفَ معروفِه التى هى فى أهل النُّهىٰ ذِمَم ، ونَبَّه لمصالح رعاياه مَنْ عَمَّ عدْلُه و إن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنَمْ .

ونشهد أن لا إِلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نُعلِنُها ونُعلِيها ، ونُرْخِص أرواحَ جاحديها ونُغْليها ، ونُوالى النِّعَمَ علىٰ المتمسِّك بها ونُوليها ، ونقرِّب بيُمْنها رُتَبَ الأولياء من إحساننا ونُدْنيها ، ونجدِّد لهم بتأييدها ملابِسَ المِنَن نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعَم السنية فيها ، ونرفعُهم بحسن عنايتنا إلىٰ أشرف غايةٍ كانوا يُسِرُّون أهليَّتهم لها والله يُبْديها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أقامنا لنصر دينــه فقمْنا به كما أمَرْ ، وأبقىٰ علىٰ أيَّامنا حكْمَ أيَّامه فاستمَرَّ الحالُ علىٰ ماسبقَتْ به دعوتُه من تأييد الدين بعُمَر، وخَصَّنا بمن ينتمى إلىٰ أصحابه بأجلِّ صاحبٍ ينُوب عن شمس عَدْلنا فى محو ظُلْمة الظُّلْم مَنابَ القَمَر، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الزُّهْر الغُرَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

و بعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ من اختِيرت جواهرُ الكلام لوَصْف مفاخره، وٱنتُخِبت غُرَرُ المعانى لوَصْف آثاره فى مصالح الإسلام ومآثِره ؛ وقامتْ خطباءُ الاقلام علىٰ مَنابِر

الأنامل بشيرةً بيُمن أيامه ، وتطلّعت مُقَل الكواكب مشيرةً إلىٰ ما أقبل علىٰ الأقاليم من إقبـاله وتحت سُحُبُ أقلامه ؛ وتبرّجت زُهْر النجوم لينتظِم فى عُقُود منـاقبه سعودُها ، وتأرّجت أرجاءُ المَهَارق إذ تبلّج من ليـلِ عن فجرٍ عمودُها ؛ وسارت به أنباءُ السُّعود والقلمِ الناطقِ بذكره وهو المحلّق الميمُون طائِره، والطِّرسِ الموشّع بشُكْره وهو المَخلق الذى تملأ الدنيا بَشَائِره ــ من أستخلصته الدولةُ القاهرة لنفسها فتملّأها عينا وسُرّ بها قلْبا ، وٱختصّته بخواصها الشريفة فرَحُب بها صَدْرا ولبّاها لُبّا ، وكَلِف بمؤازرتها بذاتها حتّى قيل : هـذه ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ؛ وأحلّته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسْنىٰ والحرَمِ الحريز، وأثنَتْ علىٰ فضله الأسمىٰ بلسان الكَرَم البسيط الوجيز، وٱعتمدَتْ فى أمور رعاياها علىٰ ما فيه من عَدْل ووَرَع لا يُنْكَر وُجودُهما من مثله وهو فى الحقيقة عُمَرُ بنُ عبد العزيز، وأدنَتْـه عنايتُنا منّا لمـا فيه من فضـلٍ عميم، وحسَبٍ صميم، ونَسَبٍ حديثُ مجْده قديم، وأصالة إذا ٱفتخرت يوما تميمٌ بقومها قالت أين تميمُك من جدّه صاحبِ رسول الله صـلى الله عليه وسلم تميم ؛ وغرسـتْه لنفسها وطال ذلك الغـرسُ وطابَ الثَّمر ، واعتضـدَتْ بتـدبيره فكان له عنـد أطرافِ العَوَالى فى مكانه الأعزِّ أظْرَف سَمَر، ووثِقَتْ بمـا فيه من عَدْل ومعرفة لا يُنْكَرُ من نحا الصوابَ ٱجتماعهما فى عُمَر ؛ وٱشتقّت له بإحسانِنا من نِسْبته وَصْفا جميلا ونعتا جَليـلا، وخصّته لمزيّة ذٰلك الاشتقاق بمزيد قُرْبنا فأمسىٰ فى خدمتنا جَليلا وأصبـح خَليلا ؛ ورعَتْ له ما قد تمّ من تدبير أتىٰ عليه بنفسـه ، وسَـدَادٍ ظهَرتْ مزيّةُ كل يومٍ منه علىٰ أمسِـه ؛ وسعْيٍ جميل ما بَرِح فى مصـالح الإسلام رائحا وغاديا، واجتهادٍ فى أمور أهل الجهاد ما بَرِح يَدْأبُ فيه علما بمـا أعَدّ اللهُ لمن جهّز غازيا ؛ ودانَ له من حُسْـن ملاحظته الأمورَ ما ليس للوصف به من

قبل، وتأملت ما يكشف له علىٰ البعـد من المصالح التى يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعُمرُ الذى شاهد السَّريّة علىٰ البُعد من سارية الجبـل؛ وأيقنتْ ببَسْـط العدل فى الرَّعايا إذ هو مؤتمِر والعادل آمر، وتحقّقت عمـارةَ البلاد علىٰ يديْه لأنّ عُمَرَ بُحكم العَدْل عند الحقيقة عامر .

ولذلك لمـا كان المجلس العالى الفَخْرىّ ـ ضاعف الله نعمته ـ هو الذى قَرَّبتْه طاعَتُنا نجيًّا، ورفعَتْه ولايتُنا مكانًا عليًّا، وحقّق له آجتهادُه فى مصالح الإسلام الأَمَلَ من رِضَانا وكان عندَ ربِّه مَرْضِيّا، وأخلص فى خدمة دولتنـا الشريفة فاتّخذتْه لخاصّ الأمور وعامَّتها صفيًا، وأظهر مابطَن من جميل اجتهاده فجعلتْه لمصالح المُلْك وزيرا وصاحبًا ووَلِيًا، وأنجزتْ منه لتدبير أمور الممـالك ما كان الزَّمنُ به ماطِلا ، وأجرَتْ علىٰ يده التى هى مليّة بتصريف الأرزاق ما لا يَبْرَح غمامُه هاطِلا ، وقلَّدته رعايةَ الأمور وأمورَ الرعايا علمًا أنه لا يترُك لله حقًّا ولا يأخذُ باطِلا ، وقلّدتْ جِيدَه بأسنىٰ حلَىٰ هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منهـا بحُكْم قُربه منا عاطِلا، ورفعتْ له لواء عدل ما زال له بالمُنَىٰ فى أيّامنا الشريفة حامِلا ، وكَمَّتْ له ببلوغ الغاية من أُفُق العُلُوّ رفعةَ قدره وما زال المُؤَهَّلُ للكمال باعتبار ما يَئُول إليه كامِلا، ونوَّهتْ بذِكره وما كان لظهور مَخايِل هذا المنصب الجليـل عليه فى وقتٍ خامِلا ، ونظرَت الرعايا فما عدلتْ بهم عن بَرٍّ رفيق ، وصاحبٍ شفيق، ووزيرٍ عُمَرىّ السيرة ماسلكَ طريقا إلا وعدلَ شيطانُ الظلم عن ذٰلك الطريق ؛ وكان هـذا المنصب الجليل غايةً مدارِ الممـالك عليها، وقبلـةً تَوَجَّهُ وجوهُ أهل الطاعة فيما يُفاض عليهـم من نِعمنا إليها ؛ وهو الذى يتدرَّع صاحبُه من أنواع الطاعات لَبُوسا ، ويعالجُ من أدواء المَهامّ ما بغير عزائمه لأيُوسىٰ ، ويتردّد فى المخالَصـة والمناصَحة من مالكِ أمره بمـنزلة هـارُون من مُوسىٰ ـ اقتضت آراؤُنا الشريفـة ان نُفوّض ذٰلك إلىٰ مَنْ نهض فى طاعتنـا

الشريفة بما يجب ، وعلمنا تحرّزه لدينه ولنا فيما يأتى ويجتنب ؛ ومن تُزاد به مع فخره أيامُنا الشريفة فخرا ، ويُصبح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رُتَبُ جلالةٍ أُخرىٰ .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولَوِى، السلطانى، الملكى ، الفلانى : — لا زال يُصرِّف الأقدار بيمين أيامه، ويُشرِّف الأقدارَ ببرّه وإنعامه، ويُدِرّ علىٰ الأولياء وابِلَ جُوده الذى تَخجل الدِّيَمُ من دَوامه — أن تفوض إليه الوزارةُ الشريفة الكاملةُ علىٰ جميع الممالك الإسلامية : شرقا وغربا، وبُعْدا وقربا ، وبرًّا وبحرا ، وشاما ومصرا ، علىٰ أجمل القواعد فى ذلك وأكملها ، وأسنىٰ الفوائد وأفضلها ، وأتمّ الأحوالِ التى يُستغنىٰ بمجملها عن مفصّلها .

فليُعْطِ هذه الرتبةَ من جلالته حظًّا كانتْ من إبطائه علىٰ وَجَل ، ويُجارِ الغمائمَ بوابلِ إنعامنا الذى يُعْلَم به أن حُمْرة البَرْقِ فى أثنائه خَجَل ، ويُطلِقْ قلمه فى مصالح الدولة القاهرة بَسْطا وقَبْضا ، وإبراما ونَقْضا ، وتدبيرًا يُعين النِّيلَ والغَمام علىٰ تتبّع المَحْل ماوجَدَ كلٌّ منهما أرْضا ، ويُعْمِلْ آراءه المباركَةَ تدبيرا للناجح وتَدْريبا ، وتقريرًا للقواعد وتَقْريبا ، ونظرًا يجعل لكلّ عملٍ من ملاحظته نَصيبا ، وفِكرا يحاسبُ به علىٰ حقوق الله وحقوق خَلْقه فإنّ الله هو المناقِشُ علىٰ ذلك ﴿وكَفَى بِاللهِ حَسِيبا﴾ .

وليبدأْ بالعَدْل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلْكنا الشريف ، ويُخفِّفُ — مع الجمع بين المصالح — عن خَلْق الله الوطأةَ فإنّ الإنسانَ ضعيف ، ويُنجِزْ لأولياء دولتنا موادَّ الارزاق فإنّ سيْفَ المنع الذى تُحاشى أيامُنا عن تجريده أقلُّ نِكايةً من التسويف ، ويمنعُ الوُلاة من ظُلم الرعايا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنّ منهم من يدَّعى العدل ويجُور ويُظْهر الرِّفق ويَحيف ؛ وليتتبّعْ أدواءَ المَحْل تتبّعَ طبيبٍ خبير ،

ويُصَرِّف الأمورَ بجميل تدبيره فإنّ البركة معقودةٌ بحُسْن التدبير، ويستقبِلْ رَيَّ البلاد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بسَدَاد حَزْم يُغتفر به هـذا القليـل لذٰلك الكثير، ويستَخلِف بالرِّفق والعدْل أضعافَ مافاتَ فى أمْسِه فإنَّ ذٰلك على الله يَسير. وليهتمّ ببُيوت الأموال فيُوالى إتيانَ الحُمول إليها من أبوابها، ويضاعِفُ بها الحواصلَ التى لايُطَّلَع بغير حُسْن التدبير علىٰ أسبابها، فإنّها مَعادنُ الذخائر ومَوارِدُ الرجال، وإذا أعدّ منها جِبالًا شوامِخَ تَلا إنفاقُنا فى سبيل الله: ﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ ﴾.

وكذٰلك الخزائنُ التى هى مَعاقِلُ الإســلام وحُصُونُه، وحِمَاهُ الذى لايُبتذل بغير أمرِنا الشريف فى مَصَالح الملك والمِلة مَصُونُه، فيجعلها بتدبيره الجميلِ كالبِحار التى لاتنقُص بكَثْرة الورّاد جِمامُها، ولا تَنْزَحها السُّحُب علىٰ كثرة ماتَحمِـل إلىٰ الآفاق غَمامُها؛ ولْيُـلاحِظْ من مصالح كلِّ إقليم بمـا تُمثِّله له على البُعْـد أفكارُه، ويأمر فى أحوال مَنْ به من الجند بمايُؤكِّد الطاعةَ عليهم، ويجدِّد الاستطاعة لدَيْهم، ويُزِيح أعذارَهم واعتِذارَهم بوصُول حقُوقهم إليهم؛ ويُوفِّرُهم علىٰ إعداد الأُهْبة للأعداء إذا أتَوْهم من فَورهم، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرهم؛ ويجعلُ ثغورَ كل جانبٍ ـ بتيسير محصُولها، وتثميرِ ذخائرِها التى هى من مَوارِد رجالها ـ مُصَفَّحة بالصِّفاح، مُشْرِقةً بأسنَّة الرِّماح، مســدُودةً من جهـة العدُوِّ عنها مسالكُ الرياح؛ ويتفقَّد من أحوال مباشِريه، ووُلاةِ الحكم والتحكُّم فيه؛ مايعلمُون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسـيره، والهفَواتِ التى يرَوْنَهـا قليلةً وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرعايا كثيره، والأحوالِ التى إذا عدَّدها الكُتّاب عليهـم قالوا: ﴿ يا وَيْلَتَنا ما لِهـذَا الكِتابِ لايُغادِرُ صغيرةً ولا كبيره ﴾، ويتعاهدُ أمورَ الرُّتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمَنَاسب، ولا تُعَدّ رِزَقُها المعدّةُ لاكتساب العِلم فى المَكاسب؛ بل يتعيَّن أن يَرْتادَ

لذلك العلماءَ الأعلام حيث حلّوا ، ويقرّر فى مراتبها الأكفاءَ وإلا اتخذ الناس رءوسا جُهّالا فضلّوا وأضلّوا؛ وقد جعلنا [أمره] فى ذلك جميعه من أمرنا، فليقُلْ يُمتثَل، وينشُر كلمةَ عدلنا التى يَسير بطريقتها المُثْلى المَثَل؛ ولا تُمضى ولايةٌ ولاعَزْل، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقد ولا حَلّ؛ الا وهو معدوق بآرائه، متلقّ من تِلقائه، متوقّف على تنفيذه وإمضائه ؛ وقد اختصرنا الوصايا، اكتفاءً بما فيه من حُسْن الشِّيَم، واقتصرنا على ذكر بعض المَزايا، إذ مثله لايُدَلُّ على صواب ولا يُزاد مافيه من كَرَم ؛ لكنّ تقوى الله أولى ماذُكّر به من لم يزل لربّه ذاكرا، وأحقُّ ماشكر على التوفيق مَنْ لم يبرح له به شاكرا؛ والله يَزيد قَدْره اعتلاء، ويضاعِفُ للدولة الشريفة احتفالا بشُكْره واعتناء .

* * *

وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمدُ لله الذى شدّ أزْر المَلك من الوزراء بالمَكين الأمين، وأشرك فى أمر مُلْكه من هو على صَلاح الجمهور خيرُ مُعين، وألقى مقاليدَ حُسْن تدبيره لمن دلّت عليه بركةُ الاستخاره، وصوّب أمر دَقيقه وجليله لمن هو لجميل الثناء المعنىُّ وإليه ببَنَان الأجتباء الإشاره ، وناول كتابها لمن هو أحقّ بتحمل أعبائه ، ورقّى منصبها لمن لاشُبْهة بأنه الحقيقُ باستعلائه؛ وناول قلمَ إعطائها ومنْعها المواضع الإشارة فى محلّها، وعلّق تمير أموالها بمن لايأخُذُها بمقتضى يُبْديه الا من حلّها .

نحمدُه على حُسْن إلهامه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ عبدٍ مخلِص فى أدائها، محقّ فى إعادتها وإبْدائها؛ ونشهد أن محمدا

عبده ورسوله خيرُ مَنْ هو بالحق مبْعُوث و بالصــدق منْعوت ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتزال مستمرّةً فى كل وقت موْقُوت، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ يدَ الوزارة هى اليدُ الباسطةُ فيما قَلَّ وجلّ، والمتحكِّمة فيما عُدِق بالمَلِك من كلِّ عَقْد وحَلّ، والموقوفُ عند إشارةِ بَنانها و إليها التحكُّم فى كل إعطاء ومَنْع، وتفريقٍ و جمْـع، وعزْلٍ ووِلَايه ، ونِهايةُ كل نَهْى وأمْر وما لهــا من غايه، وربَّما من المَلِك كالرُّوح الباصرةِ من العيْن، واللسانِ المعبِّر عن كلِّ زيْن وشَيْن، وحَسْبُه أنه فى المحلِّ من ذاتِ اليمين ، ومن مكانَة التمكُّن فى الحِرْز الحَصين، ولهذا لا يؤهَّل لها إلا من آنعقد علىٰ سُؤْدَده الإجماع ، وآنقطعتْ دُون لَحَاق شَرَفه الأطماع ، وتأصَّل فى نَجَــارها وتفرّع ، وقام بفُروض كِفــايةِ كَفَالتها وتَطوّع، وسار حديثُ مناقِبــه فى الآفاق ، وجاءَ بالآختيار والآختبار بالوِفَاق ، وحَسُن صورةً ومعنىً، وتعــدّدَتْ مناقبُــه فدلّت علىٰ أنه الفرْد إذا آتّسقَت عقُوده مَثْنىٰ مثنىٰ . وكان المجلس العــالى الفلانىّ رَبَّ حَوْزتها وسريرها ، ورُوحَ بَصَرِ مرتَّبِق هــذه المحامِد وإليه [أمر] مَصــيرِها ، والذى حكَمتْ له السيادةُ بمَنَالهــا وحَكَّمتــه ، وأوضحَتْ بأصالتها وَجْه الصواب فى آختياره لهــا وأحكَمَتْــه ، وقد حازَ من متفرّق لوازمهــا ما تفرّقَ فيمن سِوَاه ، وحَوىٰ من أدواتها [مادل] علىٰ أنَّ الله خلقــه فسوّاه ، إن قال فالصوابُ موكَّل بمَنْطِقــه ، أو صَمَت فعظَمُ مَهابته قائم مقامه بجميل الخُلُق لا تَخَلُّقِه، قد جمع إلىٰ التواضُع فرطَ المَهَــابه ، وإلىٰ الآبتــداء بالمعروف حُسْنَ الإجابه ، إن ذُكِرت الصَّــدارة فهو مالِكُ زِمَامها ، أو الرِّياسة فهو غُرَّة لِثَامها ، أو الكَفالة فهو مُصَرِّف عِنانهــا ، أو الوِزارةُ فهو عيْن أعيانها ، لم تزَلْ رتبتُهــا متشوّقةً لحلوله ، ممهِّــدة لشريف تأهيله .

ولما تحلى منها بهذه الحلى ، وسار حديث ملائه بتخويلها فى الملاء ، وتلا لسان القلم سُوَرَ هذه المحاسن وتلا الثانى بالأول منها إذا تلا ؛ رُسِم بالأمر العالى - أجمعه الله بما وُهِبه من حُسْن مؤازرته ، وشدّ عضُدَ مملكته بالإمتاع برِبْح حُسْن معاملته لله وله ولمتاجرته - أن تُفوّض الوزارةُ المفخّمه ، المكرّمة المبجّلة المعظّمه ؛ للشار إليه : تفويضًا عامًّا للقريب من مصالحها والبعيد، والطارف والتليد ؛ والمقيم والنازح ، والغادى والرائح ؛ والسانح والبارح ، والباغم والصادح .

فليباشر ما فُوّض إليه منها مباشرةَ مثله لمثلها ، وليُعطها من نَيْله مُناسب نَيْلها ؛ وليأخذ أمرها بكلتا يديه ، وليُعرها جانبًا من احتفاله ليَظْهَر عليها آثارُ سُؤدده كما ظهر شريفُ تخويلها عليه ؛ وليُطْلِق فيها لسان نَهْيه وأمره ، وليُعْمِل فى مصالحها صالحَ فكره ؛ فقد عُدِقت به مهامُّها : جليلُها وحقيرُها ، وقليلُها وكثيرُها ؛ وأميرُها ومأمورُها، وخليلُها وضريرُها؛ وناعقُها وناعبُها، وكاسيها وكاسبُها؛ ودانيها وقاصيها، وطائعُها وعاصيها، ومستقبلُها وحالُها وماضيها، وواليها وقاضيها؛ ثقةً بتمام تدبيره، وحميد تأثيره، وأنّه إن حَكَم فصَل،وإن قطَع أو وصَل كان الحزم فيما قطع ووصَل؛ إذ هو الوزيرُ الذى قد صُرِف عن عمل الأوزار وسار، إلا أنه فى كل مَنْهج سارٍ؛ تقطُف السيادةُ من معاطفه، وتجتنى ثمرَ المُنىٰ من أغصان قلمه يدُ قاطفه؛ لاشىءَ يخرُج عن حُكْمه، ولا مصلحةَ تعزُب عن عِلْمه ؛ فولايةُ الحُكّام معدوقةٌ بإشارته، موقوفةٌ علىٰ مايُثْبته ببليغ عِبارته . ومع جَلالة قدْره لايَحتاج إلىٰ التأكيد فى الأموال واستدرار أخلافها ، والرِّعاية والاستدامة بالإحسان وُدَّ أحلافها ؛ وبيوت الأموال واستيداء حقوقها ، ومُراعاة جانبها إذ هى الأمّ الحَنُونة بتجنّب عقُوقها . والخزائن فهو أدرىٰ بما يجب من تضييق صدرها بالمناقيص عن الانشراح ، والاهتمام بحواصل تشريفها المستجلبة إفاضةُ ملابسها قلبَ مَنْ غدا وراح ؛ وثَمّ دقائقُ ، هو أدرىٰ بما لما من

طرائِق ؛ وحقائقُ ، هو أعرَفُ إذ كان فيها الفاتِقَ الراتِق ؛ فهو ـ أجلَّه الله ـ غنىٌّ عن تفصيلها، وذهنُـه أشرفُ عن الوصايا المنـدوبة لتوصيلها؛ والله تعالىٰ يقدّر له وبه الخَـيْر، ويمتّع بحسن تدبيره المقرونِ بجميـل السريرة والسِّيَر؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه وصية وزير أوردها فى " التعريف " وهى :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله فإنَّه عليـه رقيب ، وإليـه أقربُ من كلِّ قريب ؛ فليجعَلْه أمامَه، وليطْلُبْ منه لكل ماشَرَع فيه تمَـامَه؛ وليُجِلْ رأيَه فى كلِّ ماتَشُدّ به الدولةُ أَزْرها، وتُسنِد إليه ظهْرَها؛ وليجعلِ العدْلَ أصلا ينْبِى علىٰ أُسِّه، والعملَ فى أموره كلِّها لسلطانه لا لنَفْسه ؛ وليَـدَعْ منه الغرضَ جانبا ، وحظَّ النفس الذى لا يبْـدُو إلا من العَـدُوِّ ليُصْدِق من دَعَاه صاحِبا ؛ وليُبصِرْ كيف يُثَمِّر الأموالَ من جهاتهـا ، وكيف يخلِّص بيوت الأموال بالاقتصار على الدَّراهمِ الحلال من شُبُهاتها ؛ وليتَرِّه مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحَرَام فإنه لايُسْـمِن ولا يُغْنِى من جُوع ، ولا يُرىٰ به من العيْن إلا مايُحرِّم الهُجُوع ؛ وليحذَرْ من هذا فإن المُفاجئَ به كالمخاتِل ، وليتجنَّب إطعام الجُنْد منه فإن [آكل] الدرهمِ الحرام مايُقاتِل؛ وليُحْسِنْ كيف يُولِّى ويَعْزِل، ويُسَمِّن ويَهْزِل ؛وعليه بالكُفَاة الأُمَناء،وتجنُّب الخَوَنة وإن كانوا ذَوِى غَنَاء،وإيَّاه والعاجِزَ، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عيْنَيْه ألفىٰ بينه وبينها ألف حاجِز؛ وليطَهِّرْ بابه، ويُسَهِّل حجابَه ؛ ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثرَ ممـا قَرُب : مقدِّمًا للأهمِّ فالأهمِّ من المصالح ، وينظر إلىٰ ماغابَ عنـه وحضَر نظرَ المُـاسِى والمُصابِح ؛ ولا يستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتَت عنده خيانتُه ، ولا يَدعْ من جميل نظره مَنْ صحّت لديه كفايَته ،

أو تحققتْ عنده أمانتُه، وليسلكْ أقصدَ الطُّرُق فى أمر الرواتب التى هى من صدقاتنا الشريفة وصَـدَقات مَن تقـدّمَ من الملوك، وهى إمَّا لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًّا أو عُرِف صلاحُه وهو صُعْلوك؛ وكذٰلك ما هو لأيتامِ الجُنْـد الذين ماتُوا علىٰ الطاعه، وأمثالِهم ممن خَدَم دولتنا القاهرة بمـا آستطاعَهْ؛ فإن غالبَ مَن مات منهم لم يُخلِّف لهم إلاما نَسمَح لهم به من معروف، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلِّفه الآباء للأبناء من المـال المتملَّك والوقْف الموقُوف؛ وليصْرِف اهتمامَه إلىٰ آستخلاص مالِ الله الذى نحن أُمَناؤه، وبه يَشْغَل أوقاتَه وتَمتلئ كالإناء آناؤه؛ فلايدَعْ شيئا يجب لبيت المـال المعمور من مستحقه، ولا يتسمَّح فى تخلية شيءٍ منه كما أننا نُوصيه أنه لا يأخذُ شيئا إلا بحقّـه؛ وليُبْق لأيامنـا الزاهرةِ بتواقيعه ذِكْرا لا يَفْنىٰ، وبِرّا لا يزال ثمرُه الطيِّب من قلمه يُجْنىٰ؛ ليكونَ من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُثيره من سَحَابها المَطير، وحسَناتِ أيّامنا التى ماذُكرنا وذُكر معنا إلا وقيـل: نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير.

الوظيفـــــة الثـانية

(كتابةُ السِّرّ، ويُقال لصاحبها "صاحبُ دَواوين الإنشاء")

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ موضُوعها قراءةُ الكتُب الواردةِ على السلطان، وكتابةُ أجْوبتِها، وأخذُ خطِّ السـلطان عليهـا وتسفيرُها، وتصريفُ المراسيم وُرُودا وصُـدُورا، والجلوسُ لقراءة القصَص بدار العدل، وأنّه صار يُوَقِّع فيما كان يُوقَّع فيه بقلم الوزارة .

قلت : وقد كان فيما تقدّم يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النصف بلقب «المجلس العالى» ثم ٱستقرّ أن يُكتَب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بلقب «الجناب العالى» . وقد تقدّم الكلامُ على تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهـذه نسخةُ تقليدٍ بكتابة السرّ ، كُتِب بها للمَقَر المُحْيَوِىّ «مُحيِى الدين بن فضل الله» عند عَوْده إلىٰ كتابة السرّ بالديار المصرية، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث ... ...(١) من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين، أحد كُتّاب الدَّرْج الشريف، وهى :

الحمدُ لله المـانِّ بفضله ، المستعانِ به فى الأمر كلِّه، الذى رفَع أوّل الأولياءِ من العَلْياء إلىٰ محلِّه ، ووضَـع النِّعَم عند من ينُصّ الاستحقاقُ علىٰ تقديمه بمنصبه ويجَلُّ مافُوِّض إليـه من أجْله ، وأبدَعَ نظام السُّؤدَد بأجمل حالٍ ما دام يَحْيىٰ جامعَ شَمْله ، وأودَع سِرّ مُلْكنا الشريف عند الحفيظَيْن منه ومن نجْـله ؛ وأرجعَ الرياسةَ إلىٰ من سَمـا نَباتًا ، ونمـا نباتًا، وعلا عَزْما ، ووَفىٰ حَزْما ؛ فبِيُمْن آثاره تُضرَب الأمثـالُ ولا تجد فى يُمْن سجاياه كمِثْله .

نحمده علىٰ أن أعاد بنـا الحقَّ إلىٰ أهله ، ونشكُره علىٰ أن جادَ روضَ الآمال بواكِف سَحـاب كَرمنا ووَبْله؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مَن وُفِّق للصواب فى قوله وفعْـله ، وتُحقِّق منه جميلُ الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبْله ؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه المُؤْوِى يومَ الجزاء إلىٰ سابِـغ ظِلّه ، والمُرْوِى يوم العطش الأكبر بسائغ نَهْله ، والنبىُّ الذى بعثه خاتِمَ رُسُـله ، وآتاه من الكرامة مالم يؤتِ أحدًا من الأنبياء من قَبْله ، والمجتبِى من علماء صَحابته من أهَّله لإيداع سِرّه وصَوْنه وإبلاغ أمْره وحَمْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين سبَقُوا إلىٰ غايات الفخار

(١) بياض بالأصل .

وخُصُّوا بِخَصْله ، ورضى الله عن أصحابه المجاهدين فى حُبِّه المعتصمين بحَبْله ، خُصوصًا الصدِّيق الذى أحسنَ الخلافةَ من بعده وقاتل مَن آرتدّ بقتْلِه ، ومَنْ فرّق بين الحق والباطل بحُسْن سيرته ومَحْض عَدْله ؛ ومن تلقّ عنه آيات الكتاب فا ... ...(1) فى ترتيبه وجمعه وأدائه ونقْله ؛ ومَنْ كان فارسَ حَرْبه ، وحارسَ سَرْبه ، وكاتبَ وحْيه وخاطبَ كفْله ؛ وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين آنفردُوا بأكمل الفضل وأجلِّه ، صلاةً ورِضوانا وضَحِ بهما نورُ الهدىٰ لمستدلِّه ، ماشفىٰ كرُمنا الصُّدورَ بصُدور إقباله إلىٰ مَنْ قام بفرض وَلَائه ونَفْله ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فنِعمُنا لاتزال للعُهود حافظه ، وبالجُود متْحِفةً وبالسُّعود ملاحِظَه ، وعلى المعهود من كَرم شِيَمِها محافِظَه ؛ وللخِدَم مكافِيه ، وللقِسَم مُوفِيَة وبالنِّعم مُوافِيَه ، وبألُوف الكَرَم مُلافِيه ؛ آتّباعا لسبيل الصَّواب ، وإيداعًا للِنْحة عند من حَقَّه فى آستحقاقها إيجاب ، فلمَحَلِّه آقترانٌ بالآقتراب ، ولِفعله إنجازٌ لوعُود الصُّعود وإنجاب ، ولِفَيض الله تعالىٰ عليه من القَبُول أبهىٰ جِلْباب ، وله سَبْق ولاءٍ لمُلْكنا بعد جفاء فيه السنين والأحقاب ، وصِدْقُ وُدٍّ ماضاع لدينا ولا خَاب ، وقِدَمُ هجْرة كَمْ لها فى تأييد الدِّين آنتصار وآنتصاب ، وتعدُّدُ مناقبَ هى فى الإشراق والرِّفعة كالنُّجوم وفى الكَثْرة عَدَد الرمل والحَصىٰ والتُّراب ؛ فما دَعاه سلطانُنا إلا آستجاب ، ولا آستَوْعاه سِرّه إلا غدَا به يُصان ولا يُصاب ، ولا آستنطَقْنا قلمه إلا كفىٰ الخَطْب بأملَح خِطاب ، ولا آستَثَرْنا رأيَه إلا حضر الرُّشْدُ وما غاب ؛ فكَمْ فرّق للأعداء من كتِيبة بكِتاب ، وقرّب من ظَفَرٍ والسيفُ فى القِرَاب ؛ فبدَعَواته يُسْتَنْزَل من النَّعماء أهمَرُ سَحَاب ، وببركاته جاء نصرُ الله والفتحُ وكان كيدُ الكافرين فى تَبَاب ، وبأقلامه إنعامنا يَهَبُ وآنتقامنا يُهَاب ؛ فهى على المَمالك أمنعُ سِيَاج ، ولها فى مَسَالك الخير

(1) بياض بالأصل ولعله فأحسن فى ترتيبه الخ .

أبدعُ منهاج، وللدولة به وبولده استغناء وإليهما احتياج، فكم ضمّنا دُرَرَ كلامِهما الأدراج، وأطلعا زُهْر أقلامهما من المهارِق فى أبراج، وكم واصلتْ فى ليل النِّقْس السُّرَىٰ والإدلاج، حتى أبدتْ صَباح النجاح ذا ابتلاج، فلا عَجَب أن كان للنِّعم إليهما مَعادٌ ومَعَاج، ولضيق الخطب عند باعِهما الرَّحْبِ فُسحةٌ وانفراج .

ولما كان المجلس العالى المحيوى هو أَسْرىٰ من تُلْقىٰ إليه الأسرار، وتَبْقىٰ منه عند أحرىٰ الأحرار، فكم لها صانَ أينَ صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سارّ حيثُ سار، وكم له من كَرَمنا دارٌّ فى كل دار، فمنّا لقُربه إيثار، ولأثنيتنا عليه إكثار، ولنا بفضائله إقرار، يُوجِب للنِّعم عندَه الإقرار ــ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُعيد إليه مَنصِبَه، ونَزِيد لدَيْه المَوْهِبه، ونجعلَ وُجودَ تفضيله لدولتنا أعظمَ مَزيّة ومنقبه، ونَراه أجلَّ كُفْء لاستجلاء عقائل الأسرار المحجّبه، وإن كان لنزاهته لا يَخْطُبها فهى لوَجاهته ترغَبُ أن تخْطُبَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، المَلَكى الفلانى ــ لا بَرِح بفضل الله يحيي الدّين، وبتأييده يَبِين أنّه الحقُّ المبين، وبتسديده يُصيب عينَ الصواب فى التعيين ــ أن نفوّض للشار إليه صحَابةَ ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرّفها الله وعظّمها : علىٰ أجمل عوائده، وأكمل قواعده، وأحسن حالاته فى حُسْن مقاصده، ونُفوذ ما يُبلِّغه من رسائل عَدْلنا فى مصادر كل أمر وموارده، وليستقرّ باسمه من المعلوم كذا وكذا .

فليتلقّ منصبَه المباركَ بأمَل فى كَرَمنا مبْسوط، ورتبتَه التى يَحمى حِماها ويَحُوط، مُمْضيًا للمهمّات والمَرَاسم، مبقيا من يُمْن آثاره ما تضحىٰ به ثغور الثغور بَواسم، مُعيدا لمن عنده من كُتّابنا أوقاتَ الأُنس فأيّامُهم [به] كلُّها مَواسم، وبها لهم من الخيرات

أجزلُ المَقَاسم، وقد وَفَّروا دواعيَهم إلى الخدمة إذ وَفَّر علىٰ نفقتِهم دَواعِيَه، وهو لسانُ الدولة وهم أذُنُ صونٍ لما يُلقِيه إليهم واعِيَه، فحَقٌّ لهم إلىٰ وِدَاده أن يجنحُوا، وبإسعاده أن يَنْجَحُوا، وعن وَلَائه لن يبْرَحُوا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِه فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، فلِسَرِيرِ المُلْك به سُرور، وللدولةِ من أشعَّة إيَابِه وطَلعة شِهابِه نُورٌ علىٰ نور، وبهما عمادُ الشرف الأعلىٰ مرفوعٌ وبيتُ الفضل الأوفىٰ معْمُور، وهو وَبْل هـذا الغيث الغَمْر وشِبْل هذا الليث المَصُور، طالما هَزَم الصُّفوفَ من كُتُبنا بالسُّطور، وجَهَّز بُرُدًا سِرُّها بالصون مكتُوم وعَلَمُها بالنصر مَنْشور، وهو كنز الفضائل وكِتَابهُ الذَّهب شُذُور، ومن هذه الأُسْرة العُمَرية بأُفُق العلياء نجومٌ وأهِلَّة وبُدُور، وللنَّيِّر الأكبَرِ إشراقٌ وأئتلاقٌ وسُفُور، وغيرُه بالوصايا المأمُور، وسواه نُبَيِّن له قصدَ السبيل حتَّى لا يَضِلَّ ولا يجُور، ولا نحتاجُ أن نُذَكِّره بما هو من عِلْمه مَذْكور، وفى صحائفه مسْطُور، ولا نعَلِّمه سَدَادا إذ هو عليه مَجْبُول ومفْطُور، بل الهُدىٰ منه ملتَمَس، ومقتفًى ومقتَبَس، ومأْثُور، وبحمد الله مافى حَزْمه قُصُور، ولا فى عَزْمه فُتُور، وهو بحرُ العِلْم المحيطُ وثَبِير الحِلْم الموفُور، وليس التقديمُ له بمستغْرَب بل فَضلهُ المعروفُ المشْهور، والله تعالىٰ يَرْعىٰ له فى خدمتنا عَهْدا قديما، ويُبْقِيه للدعاء مُواصِلا ومُدِيما، ويُوزِعُه شكْرَ فضلِ اللهِ علىٰ ذلك ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عليْكَ عظِيما﴾ إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخةُ تقليد بكتابة السِّر، كُتِب بها للقاضى شهاب الدِّين بن فضل الله، وهى:

الحمدُ لله علىٰ عنايةٍ حَفظت مُلْكَنا الشريف بمعقِّباتها، وصانتْه بصاحبِ تصريف تَقُوم كُتُبه وآراؤُه مَقَامَ الكتائبِ ورَاياتِها، وسَنَّتْ لنا الخِيَرةَ لمن نجتنى بقلمه النصر

من ثمراتها ، وبينت الحُسنىٰ فى طريقته المُثلىٰ حتّى انقسم الصُّبح من قَسَماتها ، واقتُسم النُّجح من عاداتها ، واتّسم فكرُه بالنُّصح وقد ضلّت الأفكارُ عن إصاباتها فظلّت فى غفلاتها .

نحمدُه حمدًا يَهُبُّ مع الأنفاس فى هَبّاتها ، ويَهَبُ من اللطائف الحِسان أفضلَ هِباتها ، ويُنبِّه القلوبَ لتقييد شَوارِد النِّعم بِصدق نيّاتها، ويُنافِس الكِرامَ الكاتبين علىٰ نفائس الثّناء فى تسبيح لُغاتها بصَفيح سَمٰواتها .

ونشهد أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تملأ الصُّحفَ بحَسناتها ، وتُمَلِّي الوُجوهَ بالأنوار فى توجُّهاتها ، وتلُوح من سِماتها سِيمَاءُ لا تَشُقُّ على الأبصار فى تَوسُّماتها ، وتفْخَر برَقْها الأقلامُ بأنه لا طَعْن فى اعتدال حَركاتها، على الرِّماح فى اعتِدال قاماتها، ونشهد أنّ سيدنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أدّى الرسالةَ بما تحمّله من أماناتها، ورَعَى العهودَ لمن أخلَص فى مُراعاتها ، ودعَا الأُمّةَ بإذْن الله إلىٰ سبِيل نجاتها، واستأْمَن على الوَحْى كُتّابًا سبقُوا فى السَّعادة إلىٰ غاياتها، وبلَّغوا عنه السُّنّة بإباناتها والسُّورَ وآياتها ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه فُرْسان البلاغة ورُواتها ، وحفظةِ الأسْرار وثِقاتها ، وصاغةِ المَعانى فى الألفاظ الغُرّ بنَفَثاتها ، وأُولى الأحلام التى لا تُطيشُها وقائعُ الدهر برَوْعاتها ، ولا تُذْهِلُها عن الأوْراد فى أوقاتها ، وتلَقِّى الوفُود بأقواتها ، والأخلاقِ التى اتّسع نِطاقُها فى تصرُّفاتها ، وامتنع حِجابُها أن تتخطّاه الخِدَعُ بهفَواتِها ، صلاةً تَزِيدُ الأعمارَ بزكاتها ، وتُزيّن الأعمالَ ببركاتها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ المُلْك عمودٌ بِناؤُه بِسرِّه ، وارتفاعُه بالتأسيس لمستَقرّه ، وامتناعُه بعد العساكر المنصورة بكاتب يُخاتِل العدُوّ فى مَكْره قبل مَكْره ، ويقاتل فى الحرْب

والسَّلم بنَفّاذ رأيه ونَفّاث سِحْره ، ويقابل كلَّ حال بما يحسُن موقعُه من صَنيعه بصَدْره أو صَدّه بصَبْره ، وينظُر فى العواقب نظَر البصير بأمْره ، الواعى لاَحتيال عُذْره قبل آختيالِ الباغى فى غَدْره ؛ إذا جادلَ فبالحُجّة البالغه ، وإذا جاوبَ أبطل الأهوالَ الزّائغه ، وإذا أمرْنا بالعدل والإحسان سيرّهُما عنّا كالشمس البازغه ، ومَلَأَ بهما حُبًّا لنا القلوبَ الفارغَه ؛ وقد جرَّبْنا علىٰ طُول المَدىٰ كُتّابا ، وآنتخبْنا منهم كثيرًا آرتضَيْناهم أصْحابا ، ومارَسْنا جماعةً آزدَدْنا بهم إعجابا ، ورأينا طوائفَ فيهم مَنْ إنْ أجاد آجتناءً لزَهَرات القول حادَ عن الجادّة آجتنابا ، وإن كلَّف نفْسه مذاهبَ الكُتّاب أخلَّ بمقاصد الملوك إن كتَب عنهم كتابا .

ولم نظفَر بمن تمّت فيه الشروطُ المشرُوطه ، ومتَّ بالدائرة المحيطة إلى الفضائل المبْسوطَه ، وآمتاز بفَهم لايُقْبِل على الفسادِ ولا يَقْبَل الأُغْلوطه ؛ إن أملَيْناه إملاءً ذَكَره ، وإن حُمْنا حولَ معنًى لا تُؤدّى إليه العبارة فَسره[(١)] ، وإن سرَدْنا عليه فصْلا مُطوّلا خَبَره ، وربما رأى المصلحةَ فى آختصاره فاختَصَره ، وإن أودعْناه سِرًّا ستَره ، وصانه بمحوِ غيْب أثَره ، وكتمه إمّا بخَطّه عن قلبه فلم يُدْرِكْه أو بقَلْبه عن لحظه فلم يَرَه ، وإن خَلّينا بينه وبينَ غرَض من أغراضنا الشريفة آستخرجَه كما فى خواطرنا وأظهَره ــ كالمجلس العالى ، القضائىّ ، الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، العلّامىّ ، القِوامىّ ، النِّظامىّ ، المدَبّرىّ ، المُشِيرىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الأوْحدىّ ، المُفَوّهِىّ ، الخاشعىّ ، السفيرىّ ، الشّهابىّ : صلاح الإسلام والمسلمين ، سيِّد الرؤساء فى العالَمِين ، قُدوة العلماء العاملين ، إمام الفضلاء والمتكلّمين ، رئيس الأصحاب ، مَلاذِ الكُتّاب ، سفيرِ الأمّة ، عمادِ الملّة ، لسان السلطنة ، مدَبِّر الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، مُشير الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه وبينه والتثقيل مبالغة .

«أحمدَ بن فضلِ الله» ضاعف الله نعمتَه . فإنَّا خطَبْناه لهذه الوظيفه، وآستخلَصْناه علىٰ كثرة المتعيِّنين لأنفُسنا الشريفه ، وآمتحَنَّاه فى الأمور الجليلةِ واللطيفه، وحمَّلْناه الأعباءَ الثقيـلةَ والخفيفَـه ، وأوقفْناه مرَّة وأخرىٰ أطلقنا تَصْريفه، وأنعمْنا النظرَ فى حاله حتى تحقَّقنا تثقيفَه ، وكتَب وآستُكْتِب عنـا سرًّا وجهرًا فلا قَلَّبا وتَمَّما ، وباشرَ مراسمَنا العاليةَ مصرًا وشامًا وصْلا وقطعا فعزَّ رفعةً وعَمَّ نَفْعا ، وأنشأ التقاليدَ وقلَّدها ، ونَفَّذ المُهِمَّاتِ وسَـدَّدها ، ووَقَّع التواقيعَ وأطلق بها وقد قَيَّدها ، ومَشَّى المصالحَ باحترازٍ ما بَدَّدها وآحتراسٍ ما عَقَّدها، وجهَّز البُرُدَ بهمَّة ما قَيَّدها طلبُ الراحة ولا أقعَدَها . وهو كاتبُ مُلُوك ، وصانِـعُ سُلوك ، وشارِعُ سُلُوك ، وصائغُ ذهبٍ مسْبُوك ، وناسِجُ وَشْيٍ محُوك، وجامعُ صفاتٍ ماسواها هو المتْروك؛ لا يَعْدُو بالكلمة محلَّها، ولا يُؤاخى بالقرينة إلا شَكْلَها، ولا يسمَح بمخاطبةٍ إلا لمن تعيَّن لهـا ، ولا يعاملُ بالغِلْظة إلا من آستوجبَها ولا يخُصّ بالحُسنىٰ إلا أهلَها؛ تأمُره بالتَّهويل فيُزلزِل قواعدَ العَـدُوّ، ونُشير إليه بالتهوين فيُفِيد مع بقاء المَهابة الهُدُوّ؛ وقد رَضيناه حقَّ الرضا ، وأضرَبْنا به عمَّن بقِىَ من أكابِر الكُتَّاب ونَسِينا من مضىٰ ، وتعيَّن علينا أن نحكمَ له بهذا الآعتبار ونحملَه علىٰ هذا المقتضَىٰ ، وأن نُطْلِعه فى سَماء دَسْتِنا الشريف شِهابًا أضا ؛ وأن نقلِّده مُهِمًّا مازال هو القائمَ بتنفيذ أشـغالِه ، والساعِىَ بين أيدينا الشريفة فى تدبيرِ مقاصِـدِه وجملةِ أحواله ؛ إلىٰ مالَهُ من بَيْتٍ أثَّلوا مَجْده ، وأثَّروا سعْدَه، وأرَّثوا عنـدنا وُدّه؛ وبنىٰ كما بنَوْا، وآجتنىٰ من السُّؤدَد ما آجتنَوْا، ورمىٰ فى خدمة الدُّوَل إلىٰ مارَمَوْا ، إلا أنَّ مذهبَه فى البيان أحلىٰ ، وأسلُوبَه أجلىٰ، وقيمةَ كلامِه أغلىٰ، وقِدْحَه فى الكمال هو المُعَـلَّى، وأدبَهُ بحمد الله قد لحظَتْه سـعادةُ أيَّامنا الزاهرةِ فمـا فيه لَوٌّ ولا لَوْلا ؛ سوىٰ أنه آتّفق مُعارِضٌ آعتَرض بين السَّهم والهَدَف، وسَفِه نفْسَه فوقَف فى مَواقف التَّلَف، ودَقَّ عنه شأنُ كاتب السر فسَقَط من حيثُ

طمع فى الشُّقُوط وما عَرَف ، ورام الدُّخولَ بيْنَ الملك و بين يَده ، وبينَ اللِّسان وما يُحدِّثه به الضميرُ من حقيقة معتقَدِه ، والإطلاعَ علىٰ ما لو لم يكن للإنسان لما أداره فى خَلَده ، والتعدّىَ بما ليس له من لَفْظه متوقِّع ، وسرىٰ فى مَسْرًى لو طَمَح إليه طَرْف السُّها لتقطَّع ، وما علم أنَّ كاتب السر هو مستَوْدَع الخَبايا ، ومستَطْلَع الخَفَايا ، وقلمه (آبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا) ، وفى آستِمْداده يُعْرَف بالمُنَى ويُرْعَف بالمَنَايا ، وله الكتابةُ والتوقيع ، والتصرّفُ فيما للتنفيذ من التحسين والتَّنْويع ، وغير ذلك من التفريق والتجْميع ، والتأصيل والتفْريع ، والترغيب والترهيب والتأمين والتَّرويع .

ولما دَلّ ذلك المعترِض بإكْباره ، وأطالَ المَطَارَ فى غير مَطَاره ، وقال الناس إنَّ أبوابَنا العاليةَ جَنَّة حُفَّت من سُوء أخلاقه بالمَكَاره ، رمَيْنا به من شاهق ، وأبعدْناه لآخرته أزهَدَ ما هَدَر من تِلْك الشقاشق ، وتقدّمنا بإنشاء هذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سِرِّنا الشريف فى تَصْريفه ، وبيَّنَّا أنه لا يُقاس به أحدٌ فإنّه لسان السلطان ويَدُه وكفىٰ بذلك دلالةً علىٰ تشريفه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ـ لازال إذا عَزَم صَمَّم ، وإذا بَدَأ المعروف تَمَّم ، وإذا آستخار اللهَ فى شىء رَضِى بخيرَته وسلَّم ـ أن يستقِلّ المجلس العالى ، القضائىّ ، الشِّهابىّ « أحمدُ بنُ فضل الله » المشارُ إليه بصَحَابة دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميّة المحروسة : رفيقًا لأبيه المجلس العالى ، القضائىّ ، المُحْيوىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه و بركتَه فى المباشرة ، وشريكًا بل منفردًا ليقوم معه ودُونَه بما قام به من كتابة باطنة وظاهرَة ، آستقلّ كلٌّ منهما بها فيما بَعُد وقَرُب مما يضُمُّه نطاقُ الدولة القاهرَة ، مع ما هو مستقِرٌّ فيه من كتابة

السر الشريف ، والتصرّف فى المهمّات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعَرْضه ، ومباشرة خَتْمه وفَضِّه ، وقراءته بين أيدينا ، وٱستخراج مراسمنا الشريفة فى كل مَنَاب ، ومُشافَهة وخِطَاب ، وٱبتداء وجواب ، ومَلَطَّف ومكبَّر ، ومقدَّم ومؤخَّر ، ومكمَّل ومشطَّر ؛ وإليه أمرُ البَرِيد والقُصَّاد والنُّجَّابه ، ومن ٱشتمل من الدُّجىٰ جِلْبَابَه ، أو ألقته إلىٰ مُلَاءة الصَّباح المنشورة يَدُ ليلة مُنْجابه ؛ وتعيينُ مَنْ يَرىٰ تعيينه منهم فى المهمّات الشريفة السلطانيّه ، والمصالح المقدّسة الإسلاميّه ؛ وإليه الحمَامُ الرسائلىّ وتزجيته ، وزَجَّالته ومَدْرجته ؛ ومن يصل من رُسُل الملوك إلىٰ أبوابنا العاليـة ، وجميعُ من يُكاتِب الدولةَ الشريفة من كل منتَسِب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءةُ القِصَص لدينـا ، والكتابةُ علىٰ ما يَسُوغ كتابةُ مثله ، وأخذُ العلامة الشريفة من يَده .

وأما من نَستكتِبُهم عنّا فى ممالكنا الشريفة فهو المقلَّد لأعبائهم ، والمخلَّى بينه وبين ما يراه فى ٱجتبائهم ؛ يستكتِبُ كلَّ أحد فيما يراه ، ويرفَعُ بعضَهم فوقَ بعض درجاتٍ منهم مستيقِظٌ ومنهم نائم فى غَمَرات كَرَاه ؛ كلُّ هذا من غير معارَضَةٍ له فيه ، ولا ٱعتراض عليه فى شىء منه ؛ يبلِّغنا مهمّاتنا الشريفةَ ويتلقّ عنا ، ومنه إلينا وإليه منّـا .

وأما ما يَرِد عليه من الرسائل عنّا بمـا يكْتَب به فيمَشّى منـه مالا يمكن وقوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجعتنا تصريفُه ؛ فليَمْشِ علىٰ هذه القـاعده ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة ٱستقلالا هو كالخبر محلُّ الفائده ، ولينتظر من إقبالنا الشريف عليه بالصِّلات العائده ؛ ونحن نختصر [له] الوصايا لأنّه الذى يمْلِيها ، ونقتصر منها على التقوى فإنهـا الذخيرة النافعـة لمن يُعانيها ، والباقيـةُ الصالحة خيرٌ لمن يَتّقى

والله تعالىٰ يقوّى أسبابَه ، ويُنير شهابَه ، ويَزيد من المعالى ٱكتسابه ، ويُغْنينا بقلمه عن سِنانٍ يتقدّم عاملَهُ ، وبلسانه عن سيفٍ يُفارق قرابَه ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

⁂

وهذه نسخة تقليد بعوْد القاضى شِهاب الدّين بن فضل الله إلىٰ كتابة السر . من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمدُ لله الذى أحمَدَ العُقبىٰ بفضله ، وأكّد النُّعمىٰ بوَصْله ، وأودَع سِرّ مُلْكنا الشريف عند أهْله ، وأطلع شِهابَ الدين من أُفُق العلياء فى محلّ شرفه وشَرَف محلّه ، ورفع قَدْره فى سيْره إلىٰ بُروج السُّعود وحُلُوله بدرجات الصُّعود ونَقْله ، وأرتجع المَوْهبةَ منه إلىٰ مَنْ يشكُرها بقوله وفعله ، وأينع الفرْعَ الزاكِى الذى يحيَا أصلُه بواكِف سَحاب كَرَمنا ووَبْله ، وأتمّ النِّعمة عليه كما أتمّها علىٰ أبَوَيْه من قبْله ، وضَمّ له أطرافَ الرياسة وجمع شَمْلها بشَمْله ، وعمّ بفضلِه وفضلِنا أهلَ هذا البيت الذين فُطِروا على السُّؤدَد وبَصُروا من رِضانا باتّباع سُبْله .

نحمده علىٰ إضفاء ظِلِّه ، ونشكُره علىٰ إصْفَاء نَهَله ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً أشرق نورُ هُداها ، بمستدلِّه ، وأغدَق نَوْءُ نَداها ، بمستَهِلّه ؛ ونشهد أن سيدنا محمّدًا عبدُه ورسولُه أرسله خاتَم رُسُله ، وجعلَ له الفضلَ على الخلق كُلِّه ، وألهم به سُبُل هديه وسَنَن عَدْله ، وأرشدَه إلىٰ فَرْض دينه ونَفْله ، وأودَعه السِّرّ الذى لم يُودَعْه سواه وحمّله من أعباءِ الرِّسالة ما لم يَنْهَض غيرُه بحَمْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أغصانِ الشجرة الزّهْراء التى هى بَضْعةٌ منه ونَبْعة من أصْله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجلّهم من أجْله ، خصوصا مَنْ بادر إلىٰ الإيمان فخُصّ من السّبْق بفَضْله ، ومَنْ أيّد به الدينَ وفرّ الشيطانُ من ظِلّه ، ومَنْ جهّز جيشَ العُسرَة حتّى غزَا العِدا بخَيْله ورَجْله ، ومَن كان بابَ مدينةِ العلم ومانِعَ جَزْله وفاتِح قُفْله ؛ وعن بقيّة المهاجرين والأنصارِ الذين ما منْهم إلا مَنْ جاهد حتّى قام الدينُ بنَصْره ونَصْله ، صلاةً دائمةً يجعلها اللسان أهمَّ شُغْله ، ويُتلقّ قادمُها فى مواطن القَبُول بأكْرم نُزُله ، ما رَمىٰ قوسُ العزم بصائِب نَبْله ، وحَمىٰ حِمىٰ الملك بلَيْثه وشِبْله ، وفوّض أجَلّ المناصب إلىٰ فاضل العصر وأجَلّه .

أما بعــدُ ، فإنّ آراءنا لا تزالُ لمصالح مُراعِيَه ، ولا تبرحُ بالإسعاد إلى الأوليــاء ساعِيه ، فتدعُو إلىٰ مَقامها من وَفَر على الإخلاص دواعِيَه ، وتُدْنِى من مُلْكِها مَنْ له بالخَفَايا أعظَمُ بصــيرةٍ وفى جميل القضَايا أجملُ طواعِيَــه ، وتُلْقِى أسرارَها إلىٰ مَنْ له لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأُذُنُ خيرٍ واعِيَه ، وتُقدّمُ مَنْ له قَدَمُ صِدْق ثابِتةٌ ويدٌ بيضاءُ طُولىٰ فى المهمّات عاليــه ، لتغدُوَ سهام أقلامه إلىٰ الأغراض رامِيَــه ، وصوائِبُ أفكارِه عن حِمىٰ المُلْك محامِيَه ، وتكونَ عبارتُه للمقاصــد مُوفيةً وإشارتُه لمَوْعد اليُمْن مُوافِيه ، وتُضْحِى دِيمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابق خِدَمه مُكافِيه ؛ لما يتّصل بذلك من المَصالح ، وتُناجِى خواطِرُنا الشريفةُ به المَناجِح ، ويقْبِل عليه وجهُ الإقبال ، فى كل حال ، ويَغدو إليه طَرْف الإجلال ، وهو طامِح ؛ فنتجمّل به ممالكَنا مِصْرا وشاما ، ونُسَدِّد به مَرْمًى ونُصيب مَرَاما ، ونحفَظ له ولأبيه فى خدمتنا حقًّا وذِمَاما ، ونكونُ له فى الحــالتين بِرًّا وإكراما ، ونُعلِى محلّه إعلانا بعُلُوّ مكانه وإعلاما ؛ فيؤلّف للرياســة نِظاما ، ويُضاعف للرُّتبة إعظاما ، ويُعْمِل يَرَاعًا بل حُسَاما ، ويجلو وجْهَ المُنىٰ طَلْقا ويبدو بعَــدَ البِشْر بَسّاما ، ويُحْسِن بأعباء المهمّات قِياما ؛ وحيث نقلتْــه أوطانُه هِضابَ المجدوقلّته ، وأينَ وجّهتْه أعلتْ قدْره ونوّهتْه ، وكلمــا أوفدتْه أفاضَتْ عليــه مَلْبَس

العزّ وجدّدته، وآختصّته بالتصرف وأفردته، وآنتضت ماضىَ آجتهـاده وجرّدته، وأجرته من إجراء فضلها على ما عوّدته، وآستقلّت له منائحها من كثير المواهب ماخوّلته، ومن كبير المناصب ماقلّدته .

ولمـا كان فلان هو الذى أودع الأسرارَ فحفظها، وآطّلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها، وباشر مهمّاتنا فأمضاها، وسرّ خواطرنا وأرضاها، وظهرت منه بين أيدينـا كفايةٌ لا تُضاهى، وقلّد أجيادَ أوليائنا من تقاليـده عقودا، وأدنى من المقاصـد بلُطف عبارته بعيـدا، وأغنى الدولةَ أن تجهّز جيشا وجهّز بريدا، وأبان بمقاله عمّا فى أنفسنا فلم يُبْقِ مزيدا، وصان الأسرارَ فجعلَ لها فى خَلَده خُلودا، وجمع أشتاتَ المحاسن فأضحى فريدا، كم لعمّه فى خدمتنا من هجرةٍ قديمه، ولأبيه من موالاةٍ هى للمُخالصة مواصلةٌ ومُديمه، وكم لهما أسبابٌ فى الرياسة قويّة وطرائق فى الهداية قويمه، وكم كاتبٍ يسّر الله بهُداهمـا تعليمَه وتفهيمَه، وقدّر على يديهما وصُولَه إلى رُتَب العَلْياء وتقـديمَه، فمنفعتُهـما عميمَه، ونَبْعتهما صَميمه، ولهما فى الشام ومصر أجمـلُ شيمه، وكم له هو أيضا من تقـدُّمات آقتضتْ تكريمَه، وكفايةٍ عند علومنا الشريفة معلومه، وكتابةٍ حُلَلُ المَهارق بوَشْيها مرقومه، فلو قابله الفاضلُ «عبدُ الرحيم» لبادَر إلى فضـله إقرارَه وتسليمَه، أو «عبدُ الحميد» لكانت مَناهجُه الحميدةُ بالنسبة إلى مذاهبـه ذَميمه، أو سمع «عبدُ الرحمن» مقاله لضمّن ألفاظَه معانيَـه العَقيمه، أو أدركه «قُدامةُ» لعرَف تقديمه، وآقتدى بسُبْله المستقيمه، أو حوى «الجوهرىّ» فرائد ألفاظه لعرَف أنّ صحاحه إذا قُرنت بها سَقيمه، أو رأى «آبنُ العَـديم» خطّه لآستغنَت منه بسَلاسل الذّهب نفسُه العَديمه، أو «الولىّ» لآستجدى من صَوب إجادته أغزرَ ديمه، أو نظر «آبنُ مُقلةَ» لوجدَتْ مُقلتُـه نُضرةَ خطّه ونَعيمه،

أو «ٱبنُ البوّاب» لكان خَدِينَ بابه وخديمَه؛ فهم صدُورٌ صُدُورهم سليمه، وأماثِلُ معدودةٌ وأمثالهم معْدُومه .

ٱقتضى حسنُ رأينا الشريف أن نُلْقِيَ إليه منصباً هو أَوْلىٰ به، وتُقِرّ عينَه بدُنُوّه منّا وٱقترابِه، ونمتِّع البصر والسمع بخَطِّه وخِطابِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المولَوىّ، السلطانىّ، الملَكىّ، الفلانىّ - لا بَرِح يُعيد نِعمَه كما بدَأها أوّلَ مرّه، ويَسُرّ القلوبَ بِكافٍ أَوْدَعه سِرّه؛ ويحمَد لأحَدِ الأولياء عوْدَه ومستقَرّه - (١) .

فليتلقَّ هذه النِّعمةَ بشُكْرها وليَترَقَّ منصبا رفيعا يناسِب رِفعة قدْره، وليبْسُط قلَمه فى تنفيذ مُهِمِّ الممالك من نَهْيه وأمره، وليحفَظْ ماأُودِعَهُ من خَفِىّ سِرّه، وليُلاحِظ المهِمّاتِ بفكره، وليحافظ علىٰ مايَعْرِفه من رضانا طُولَ دَهْرِه؛ ونحن نعلَمُ من صوابِ أفعاله وتسديدها، ما لا نحتاجُ معه إلىٰ تكثير الوصايا وتعْديدها، ولا إلىٰ تكرِيرها وترديدِها، لاسيَّما وقد سلفَتْ له بها خِبْرة لا نَفتقر إلى ٱستيعابِ ذِكراها ولا إلىٰ تجْديدها، وتقدّمتْ له مباشرةٌ ٱستبشَرْنا بيمُونها وأثنينا علىٰ حميدها، وٱستدْنَيْنا سَنَاها وٱستغنينا عن سِواها بوجُودها؛ وله بحمد الله توَفّر التوفيق، وهو الحقيق بما فوّضنا إليه على التحقيق، وفضْلُه من الشوائِنِ عرِىٌّ وفى المجانِبين عريق، وقدْره بتجديد النِّعَم جدير وبخلائق الكرَم خليق، والله تعالىٰ يُوضِّح به من الخير أبيَنَ طريق، ويسُرّ بمَقْدَمه الولىَّ والصديق، ويَفْرُق به بينَ الحقِّ والباطل بحَدِّه الفاروقُ وهو من أكرم فَرِيق؛ بمحمد وآله ! .

---

(١) حذف المرسوم به اختصارا فى الكتابة واتكالا على فهمه من نظائره المتقدّمة فهو ملحوظ له ومراد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمدُ لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شِهَابا يعلو على فَرْقَد الفَراقِد، وكمّل به عقودَ المَمالك فسَمَتْ جواهرُ فرائدها على الدَّرارِىّ إذ كان واسطةَ تلك القَرائد، ومُعيدِ إحساننا إلى خَيْر ولىٍّ أغنَى تدبيرُه عمَّن سواه فكان بالألف ذلك الواحد، ومُخوِّلِ موادِّ كرمنا لمن هو صدر أسرارنا ويمينُ مملكتنا فى كلِّ صادرٍ عنها ووارِد، ومنَقّلِ الأكفاء إلى مراتبِ سعودهم فتُصبح ألويةُ مَحامدهم فى معاقل العزّ أنفَرَ معاقِد، ومُحلِّى مُلكنا الشريف بأكمل كافٍ ما أمَّ مصرا إلا تلقَّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أسفَتْ عليه تلك الربوعُ والمعاهد .

نحمَده على نِعَم أقرّتْ عُيونَ الأولياء لَمَّا أقرتْهم من موادّ جُودنا على أكمل القَواعد، ونشكره على ما بَلَّغنا من جميل المآرِب وبلُوغ المقاصد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريك له شهادة تُنجِّى قائلَها من جميع الشدائد، ونشهد أنَّ سيد[نا محمدا سيد] البَشَر عبده ورسولُه الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائد، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته خصوصًا على أوّل الخلفاء أبى بكر الصدّيق الذى لا فخر كفَخَاره، وعلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب حاملِ أسرارِه وفاتح أمصارِه، وعلى أمير المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ مُبَدّل عُسْره بيَسَاره، وعلى آبن عمّه علىّ بن أبى طالب أعزّ نُسَبائه وأخصّ أصهاره، وعلى بقيّة مهاجِريه وأنصاره، صلاةً سَهْلةَ المَشَارع عَذْبةَ المَوارد .

وبعد فإنَّ من سجيّتنا إذا تيمَّنَّا بولىّ لا نَزَال نَلحظُه، ونَرْعى حقُوق خِدَمه فى القُرْب والبُعْد ونَحفظُه، ونُقابل ماأسلفه لدينا بنفائس النِّعم، ونُفيض عليه مَلابِس الجُود والكرم، لا سيَّما من لم يزل يُظْهِر لنا كل يوم تعبُّدا جديدا، ومن أصبح

فى الفَصاحة والبَلاغة وَحيـدا ، ومن جمع أطرافَ السؤدَد والرياسـة فلم يَبْرَح بهما فريدا ؛ ومن تَحْسُن النعم بإفاضتها عليـه ، وتكْمُلُ المِنَنُ بإضافة محاسِنها إليـه ؛ وتزهو فرائدُ البلاغة بانتظامها فى سِلْك مَجْده ، وتُشْرِق كواكبُ البَراعة فى اتّساقها فى فَلَك سَـعْده ؛ وكان لِلبَابتِه فى الاختصاص بنا اليـدُ الطُّولىٰ ، وتَلَا عليـه لسانُ اعتنائنا فى الحـالين : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ ﴾ .

ولـمّـا كنتَ أيها الصدرُ «شهابُ الدين» أحقَّ الناس بهذا المَنْصب لـمـا لِوالِدك ـ أبقاه الله تعـالىٰ ـ ولعَمِّك ـ رحمـه الله تعالىٰ ـ من الحقُوق ، ولـمـا أسلَفاه من الخِـدَم التى لا يحسُن التناسِى لهـا ولا العُقُوق ؛ ولأنك جمعتَ فى المجد بَيْن طارِف وتالِد ، وفُقْت بأزكىٰ نَفَر وعَمٍّ وإخوةٍ ووالِد ؛ وجلالَهْ ، ما وَرِثْتها عن كَلَالَه ؛ وخِلال ، مالها فى السِّيادة من إخْلال ؛ ومَفَاخر ، تُكاثِر البحرَ الزَّاخر ؛ ومآثِر ، يَعْجِزُ عن وصفها الناظِمُ والناثِر ؛ ولـمـا نعلَمه من فضائلك التى لاتُجْحَد ، رعيناك فى عَوْدك لوظيفتك وعودُ « أحمَدَ » أحْمَد .

ولـمـا كان فلانٌ (١) هو الذى تَقْطُر الفَصاحةُ من أعطاف قَلَمـه ، وتَخْطِر البـلاغةُ فى أثواب حِكَمه ؛ وتنزِل المعانى المُمتنِعةُ من مَعَاقل القَرائح علىٰ حُكْمه ، وتقِف جِيادُ البَدَاهة المتَسَرِّعة حَيْرىٰ قبل التوسُّط فى علمه ؛ إن وَشَّى الطِّرْس فرِياض ، أو أجرىٰ النِّقْس فحِياض ؛ أو نَظَم فقَلائد ، أو نَثَر ففَرائد . لا يتجـاسَرُ المعنىٰ المطرُوقُ أن يُلِمّ بفِكره ، ولا يُقْـدِم المعنىٰ المتخيَّلُ المسـبوقُ للمُرور بذِكْره ؛ ولا يجوزُ زَيْف الكلام علىٰ ذِهْنـه المتَقِـد ، ولا يَثْبُت غُثاء الكلام لدىٰ خاطره المنتَقِد ؛ فـ«عبدُ الحميـد»

(١) هذه عبارة أخرىٰ تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير فى تصدير مقاله باحداهما كما لا يخفى .

كـ«عبد الرحيم» فى العجز عن لحاق علومه التى يجد «الراغبُ» علىٰ نورها هُـدىٰ ، والأصمعىُّ لو أدركه لتـلا عليه : ﴿هَـلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ مِمَّـا عُلِّمْتَ رُشْدا﴾ «والطُّغرائىّ» لو عاصره لزاد نظمه وآزداد علىٰ نوره هدىٰ، و«الحريرىّ» لو رافقه لأمِن فى "مقاماته" من التجريح والرَّدىٰ؛ قد قصَّرتْ عن غاية كماله جيادُ القرائح ، وعجزت عن وصف صفاته جميع المدائح ؛ وشرُف منصبُه بآنتسابه إليه ، ورُفع قدرُه بمثوله لديه ؛ مع ما تميَّز به من نزاهةٍ صرَف بها عن الدنيا طَرْفه ، وزهادةٍ زانتْ بالسَّعْد صَدْره وملاءةٍ ملأتْ بالعفَّة كفَّه ؛ فهو واحدُ زمانه ، وأوحدُ أوانه ؛ والبحرُ الذى يُحدَّث عن فضـله ولا حَرج ، والروضُ الذى يُنقَل عن فضله إلى الأسمـاع أطيَبُ الأرَج ؛ وكان قد مال عن منصـبه وهو يذكُره ؛ وفارقه وهو يَشكُره ، ونادىٰ غيره وبقوله يلبِّى ، وشُـغل بغيره وهو يقول حَسْـبِى « شهابُ الدين » حَسْـبِى : ﴿فَلَمَّـا رءاه مستقِرًّا عندَهُ قال هَذَا مِنْ فَضْل رَبِّى﴾ . فلما حصَل له الاستئناس ، وزال عنـه القلق والالتباس، قال : ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ علَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاس﴾ ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نخُصَّـه بآستقرار رُتْبته لديْه ، وأن نستمرّ به علىٰ وظيفته السـنية آستمرارَ السُّعود المقبِل عليه .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال شِهابُ سـعده لامعا ، وسَحابُ كرمه هامعا ، ومُطاعُ أمره لمصالح الدِّين والدنيا جامعًا ؛ ــ لمَناقبه (١) التى وَفَرت ميَامنها ، وأسفَرت بوصْف آثاره الحسنةِ كوامنُها ؛ وأن يُعادَ إليها كما يُعادُ السِّوارُ إلىٰ الزَّند ، أوكما يعود نسيمُ الصَّـبا إلىٰ الرَّند. فليُؤنِسْ منصبًا كان إليه مشتاقا، ومجلسًا كانَ منتظرًا أن يَزُرّ من ملابس جلاله علىٰ عُنقه أطْواقا ؛ وليجمِّل هالةً كانت متشوِّقةً إلىٰ عقُود دُرَره. فآحمد الله علىٰ ما خصصْناك به من مَزيد الاعتناء ، وأن السـعادةَ فى أيامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه ... ... وأن يعاد .

متصلةٌ فتشمَل الآباءَ والأبناء ، ويكْفيك بهـذا التوقيع الشريف إذ بلغتَ به جميعَ الأماني ، وتوجْناه بيمينا الشريفة لقرب عهدها بمصافحة الركن اليماني ، وآصطفيناك بقلمٍ عظُم شأناً بتلك السُّتُور ، وغدا معموراً بالهداية ببركة البيت المعمُور ، وآزداد بمشافهـة الحرم الشريف نُوراً على نُور . فليُحْسِنْ نظرَه المبـاركَ في ذلك كلّه ، وليُبْدِ ما يحسُنُ في هـذه الوظيفة من مثله ؛ وفي تقـدُّم مباشرته في هذه الوظيفـة وعلمه ما يُغـني عن كثرة الوصايا ، وملاكُها تقوى الله تعـالى وهي أكمل المـزايا ؛ وليُحْمِـدْ أفعالَه ويصِـلْ أسـبابَ آعتماده بسببها ؛ والله تعـالى يُجَمِّـل له مواهبَ تخويله ، ويجعل له الخيرَ في تنقُّله وتحويله ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .

***

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمـد لله الذي جعل خَواطرَ أوليائنا بإقرار نِعَمنا مستقرّه ، ومَواطِرَ آلائنا على ذَوى الإخلاص في ولائنا دائمةَ الدِّيَم مستمرّه ، وبشائرَ رضانا تجدِّد لكلٍّ من ذَوى الآختصاص آبتهاجَه وبِشْرَه ، وسـوافرَ أوجه إقبالنا لأُولى الآصطفاء والوفاءِ مُشْرقة الأوضاح متهلِّلةَ الأسرّه ، مُودِعِ أسرارِ مُلْكنا الشريف من آل «فضـل الله» عند أكرم أُسْره ، ومُمتِّع دولتنا بخير كافٍ دقَّق في مصالحنا فِكرَه ، وأنفق في مناجحنا عمرَه ، ومُجْمِـعِ آرائنا على أعلى عليٍّ حلَّ من بَهْرِ بيته بمعرفه وبَهَرَ خيْره ، ومُطْلِـعِ أنجمهم بأفُقِ تقريبنا مرّةً بعـد مرّه ، فنحيي نيرهم الأكبر وقد شيَّدنا بإرتقائهم بيتَه وشدَدْنا بعلائهم أزْرَه .

نحمده على أنْ جبَلَ سجايَانا ، على الإحسان والمَبرّه ، ونشكُره على أنْ أجزل عَطايَانَا ، لمن لم يزلْ يَعرِف حقَّه ويألف خَيْره ، ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له

شهادةً تشْرَح لمُؤْمنها صدْره ، وتُصلِح لمُوقِنها أمْرَه ، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أسمىٰ علىٰ الخلائق قَدْرَه ، وتولّى فى المَضايِق نَصْره ، وأعلىٰ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرَه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله أعزّ عِتْره ، ورضى الله عن أصحابه الذين أسْدَوُا المِنّة وسَدُّوا الثُّغره ، صلاةً ورضوانا متواصلَيْنِ فى كلّ أصيل ومكرَّرَيْن فى كلّ بُكْره ، ماوُهِب فضلُ الله مستحقًّا فسَرَّ بالعواطف والعَوارف سِرَّه ، وعقّب فى سماء الإسعاد كوكَبٌ كوكبًا فحَلَّ محلَّه وقرّ مقرَّه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ فشِيَمُنا ترعىٰ لأوليائها حُقُوقا ، ونعمُنا الغامرةُ تُسْنِى صدَقاتِها لمن لم يزَلْ فى وَلائها صَدُوقا ، وتَزِيد هباتِها توفيرًا لمن عَهِدتْ منه لمَراضيها توفيقا ، وتُجدِّد بتعاهدها مَعْهَد الفضل فلا يُمْسِى خليًّا بل يُضْحِى بإكرامها خليقا ، وتُشيِّد بإحسانها بيتا أُسِّس علىٰ تقوىٰ الله وطاعة سلطانها فغدَا بالحِفْظ حقيقا ، وتحْمِى بآعتنائها جوانبَه من الغير فلا يَرْهَب حِماه لها طُرُوقا ، ولا تجِدُ بفضل الله لها عليه طَرِيقا ، وتُطْلِعُ فى بروج سُعودها زُهْرا تَرُوق شُروقا ، وتجْمَع علىٰ مُهمَّاتِها مَن عَظُموا فَضْلا وكَرُموا فرِيقًا ، وتُودِع أسرارَها عند سَرَاتِهم رُكُونًا إليهم وسُكونا ورِضًا بهم ووُثُوقا ، وتشفَعُ منائحَها بمنائحَ تزِيدُ آمالَهم نَجاحا وتُفِيد أمانيَّهم تحقيقا ، وترْفَعُ مكانًا عليًّا إلىٰ حيث آتّسع السِّرار من مُلْكها من كان بالمَيَامن مَلِيًّا وفى المحاسن عَرِيقا ، ويَخْلُف فى خِدَمها شقِيق منهم شَقِيقا ، ويُصرِّف أوامرَها ونواهيَها من أعيانهم من تأْمَن المصالحُ مع آجتهادِه ، تفويتًا وتخافُ الأعداءُ لسداده ، تعويقا ، طالمَا آئتمنَّاهم علىٰ إيداع أسرارِنا فلَّت من سرائرهم مستَوْدَعا وثيقا ، وعُيِّنوا للمعالى فصادفَتْ طويّتُنا من يقَظتِهم ونهضتِهم تَصْدِيقا ، فهمْ أَوْلىٰ أن نجعل لأجيادهم بعُقُود جُودنا تطوِيقا ، وأحقُّ أن نرفع بنِعَمنا محلَّهم ، ونجمعَ فى خِدْمتنا شَمْلَهم ، فلا يخشَوْن نقْصًا ولا تفْرِيقا .

ولما كان المجلس العالى الفلانى هو الذى لحظته عنايتنا، فَعَلَا فعلا، وأيقظته إشارتُنا، فغدا فى الحكم كَهْلا، وحفظته رعايتُنا، فعمرت بيته العمرى الذى مازال بالعوارف ملموحًا وللقبول أهْلا ، وأحظته سعادتُنا ، فى إقامته مُقام أبيه فى حفظ أسرارنا التى هو أحقُّ بإيداعها وأوْلىٰ ـ ٱقتضى حُسْن الرأى الشريف أن نُجْرى بمراسمنا أقلامَه ، ونوفّر من إنعامنا أقسامَه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحتْ سحائبُه عامّه ، ومواهبه لها مزيد وإدامَهْ، ورعايتُه إذا ٱبتدأتْ فضلا رأتْ إتمـامَه، وكواكبُه تَسير فى منازل عِزِّها ولنيِّرها الأكبرِ الإرشادُ والإمامَهْ ـ أن يُفوّض إليه كذا وكذا ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد، نظير ما كان مستقرّا لأخيه .

فلْيُباشرْ هـذه الوظيفةَ التى لها به و بأهـله أعظمُ فَخَار، وليحُلّ هذه الرتبةَ التى ما منهم إلا مَنْ لها يُجتبىٰ ويُستخار ، وليُجمِّلْ هـذا المنصبَ الذى إليهم مصيرُه فى جميع الأمصار ، وليَحُلَّ المَهَارق بانشاآته التى شانَ مُطاولَها عن شأْوِها الإقْصار ، وليتوقَّل هذه الهضبةَ التى لها علىٰ عَلْيائهم ٱقتِصار، وفى آبائهم وأبنائهم لها تعيينٌ وٱنحصار ؛ وليـدَبِّج الطُّروس من خَطِّه بالوَشْى الرقيم ، وليُبْهِج النفوسَ من خِطابه بالدُّرِّ النظيم ، وليُسْرِج الشُّموس من أوضاع كتابته التى تَبْرُز من إبريز كُنُوزها «ٱبنَ العَديم» ، وليُجهِّز البُرُد التى تقدَمُها مهابَتُنا فلم يكْبِتْها من كتائب الأعداء هَزِيم ، وليُزيِّن مقاصِدَها التى قُرِن بها الفتحُ القريب والنصرُ العزيزُ والفضلُ العظيم ؛ وهو بحمد الله غنىٌّ عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم ، علىٌّ القَدْر لا يحتاج مع ألمعيَّته إلىٰ تنبيه ولا إلىٰ تعليم ؛ وهم أئمةُ هذه الصناعة ولهم الفضل القديم، وسبيلُهم السَّوِىُّ وصراطُهم القويم ؛ والله تعالىٰ يُوفِّر لهم فضلَنا العميم، ويُظْفِر أقدارَهم من لدُنَّا

بتكريرِ التكريم، ويُسْنِي أمرَهم في آفاق العلياء يُسعِدُ ويُقْعِد ويُقيم، ويديمُ لكلٍّ منهم في ظلِّ نعمنا المزيدَ والتأكيدَ والتقديم؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالى.

* * *

وهذه وصيةٌ لكاتب السرّ، أوردها في "التعريف" وهي :

وليأمرْ عنّا بما يُقابَل بالامتثال، ويقابَل به : السيوفُ لأقلامه مِثَال؛ ويبلِّغ [من] ملوك العدا مالاتبلُغه الأسنَّه، ولاتصل إليه المراكبُ المُشْرَعة القلوع والخيولُ المطلَقةُ الأعنَّه؛ وليُوقِّعْ عنّا بما تَذْهَب الأيامُ ويَبْقى، ويُخَلِّدْ من الحسنات ما يُلْقَى آخرةً ويُلْقَى؛ ويُمْلِ من لدُنْه من غُرَر الإنشاء مايُطرِّز كلَّ تقليد، وتُلْقَى إليه المَقاليد؛ ولينفِّذْ من المهمّات مالَحْجَب دُونَه الرِّماح، وتُحْجِم عن مجاراة خَيل البريد بِهِ الرِّياح؛ وليلَقَّ مايَرِد إلينا من أخبار الممالك على اتّساع أطرافها، وما تضُمُّه مُلاءة النَّهار مِلْءَ أطرافها؛ وليُحسِن لدينا عَرْضَها، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمة وليُتِمَّ فرضَها؛ وليُجِبْ عنّا بما استخرَجَ فيه مراسمَنا المُطاعه، وبما وُكل إلى رأيه فسمِع له الصوابُ وأطاعَه؛ ويُمْضِ ما يَصْدُر عنّا مما يجُوبُ الآفاق، ويزكُو على الإنْفاق، ويجُول ما بينَ مصرَ والعِراق؛ ويطيرُ به الحمامُ الرسائلِيُّ وتجرى الخيلُ العتاق؛ ولْيُرِ النوّابَ ما أَبْهَم عليهم بما يُرِيهم من ضَوْء آرائنا، وليؤكِّد عندهم أسبابَ الوَلاء بما يُوالِي إليهم من عَميم آلائنا؛ وليأمُرِ الوُلاةَ بما يقِف به كلٌّ منهم عندَ حَدِّه ولا يتجاوَزُه في عمله، ولا يَقِف بعده على سِواه بأمَله؛ وليتولَّ تجهيزَ البَريد، واستطْلاعَ كلِّ خبرٍ قريبٍ وبعيد؛ والنَّجَّابة وما تَسير فيه من المصالح، وتأخُذ منه بأطراف الأحاديث إذا سالتْ بهنه بأعناق المَطِيِّ الأباطح؛ وأمورَ النُّصحاء والقُصّاد،

ومن يَظَلُّ سِرُّهم عنده إلى صَخرة أعيا الرجالَ انصداعُها وهُمْ شَتَّى فى البِلَاد؛ وليعرِف حقوقَ ذوى الخِدْمة منهم، وأهلِ النصيحةِ الذين رضى الله عنهم ، ولا يَنْسَ عوائدَهم من رُسوم إحساننا الموظَّف ، وكرمنا الذى يَسْتَميلُ به القلوبَ ويتألَّف ؛ وليصُنِ السرَّ بجُهْده وهيهات أن يختفى ، وليحجُبْهُ حتّى عن مِسْمَعيْه فسرُّ الثلاثة غير الخفى؛ والكَشَّافةَ الذين هم ربيئة النظر ، وجَلَّابة كل خَبَر؛ ومن هم أسرَعُ طرُوقا من الطيف ، وأدخَلُ فى نُحور الأعداء من ذُبابِ السَّيْف؛ وهم أهلُ الرِّباط للخيل ، وما منهم إلا من هو مُقبِل ومُدْرِك كالَّليل ؛ والدَّيادبُ والنُّظّاره ، ومن يَعلمُ به العِلْمَ اليقينَ إذا رفَع دُخَانه أو نارَه ؛ وهم فى جنَباتٍ حيثُ لا يخفى لأحد منهم مَنَار ، ولا يزال كلُّ نبإٍ بتنويرهم كأنه جَبَل فى رأسه نار ؛ والحمامَ الرسائلَ وما يحمِل من بَطائق ، ويتحمَّل من الأنباء ما ليس سواه [له] بطائق ؛ ويخوضُ من قطع الأنهار ، ويقطع إلينا ما بَعُد مسافةَ شهر وأكثر منه فى ساعةٍ من نَهَار ؛ ويَعزِم السُّرى لا يَلْوى على الرِّباع ، ويعلم أنها من ملائكةِ النصر لأنها رُسُل ولها أجنحةٌ مَثْنىٰ وثُلاثَ ورُباع ؛ وغير هذا مما هو به معْدُوق ، وإليه تُحْدىٰ به النُّوق ؛ من رُسُلَ الملوك الوارده ، وطوائف المستأمنين الوافده ؛ وكلُّ هؤلاء [هو لا] مالهم المترجِم ، والمصرِّح عن حالهم المُجَمْجِم ، فليعامِلْهم بالكرامه ، وليُوسِعْ لهم من راتب المُضَيِّف ما يحبِّب إليهم فى أبوابنا العاليةِ الإقامَه ؛ وليعلَمْ أنه هو لدينا المستشارُ المؤتَمن ، والسفيرُ الذى كلُّ أحدٍ بسفارته مرتهِن ؛ وهو إذا كتب بَنانُنا ، وإذا نطق لسانُنا ؛ وإذا خاطب مَلِكا بعيدَ المدىٰ عُنْوانُنا . وإذا سدّد رأيه فى نُحور الأعداء سهمُنا المرسَلُ وسِنَانُنا ؛ فليُنْزِل نفسَه مكانها ، ولينظر لدينا رتبته العليَّة إذا رأى مثل النجوم عِيانَها .

فليراقِب اللهَ فى هذه الرتبه ، وليتوَقَّ لدِينه فإنّ الله لا يَضيع عنده مِثقالُ حَبّه ، وليخَفْ سُوءَ الحساب وليتّق الله ربَّه ؛ وجماعة الكُتّاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيّته، وهداهم بما تُمِدّهم به من الآلاء المَعيشَة؛ فلا تستكتِبْ إلا من لا تَجِدُ عليه عاتبا، ولا يجِدُ إلا إذا قعد بين يديْه كاتبا، والوصايا منه تُستملَى.

الطبقة الثانيـــــة

(من أرباب الوظائف الديوانيـة بالحضرة السـلطانية أصحابُ التواقيـع، وهم على ثلاث درجات)

الدرجـــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» وكلُّها مفتتحة بـ«الحمدُ لله»)

وتشتمل على ثلاثِ وظائفَ سوى ماتقدّم أنه نقل إلى رتبة التقاليد، وهو كتابة السرّ

الوظيفـــة الأولى

(نظرُ الخاصّ)

وقد تقـدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنّها وظيفة محـدَثةٌ، أحدثها السلطانُ الملك الناصر «محمدُ بن قلاوون» حينَ أبطل الوزارةَ؛ وأنّ أصل موضوعها التحدثُ فيما هو خاصٌّ بمـال السلطان؛ وأنّ صاحبها صار كالوزير لقُرْبه من السلطان وتصرُّفه فى تدبير جُملةِ الأمور، وتعيينِ المباشرين، إلا أنّه لا يقدر على الاستقلال بأمر، بل لابدّ له من مراجعة السلطان. وقد تقدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام على مقدّمة الولايات من هذا الفصل، وعلى طُرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع.

وهـذه نسخة توقيع بنظر الخاصّ، كُتِب به للقاضى شمس الدين موسى بن عبد الوهّاب فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى:

الحمدُ لله الذى جعـل كلَّ جُرْح بنـا يُوسىٰ، وعجَّل كلَّ نعمة تُبدِّل بُوسا، وتغيِّر بالسُّرور من المَساءة لَبُوسا .

نحمَدُه حمْـدا يشْرَح صدُورا ويسرّ نفُوسا ، ونشهد أنـ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترْفَع لقائليها رُءُوسا ، وتُطلِـع فى آفاق ممالِكنا الشريفة شُمُوسا ، وتُنْشِئ فى أيَّامنا الزاهرة غُرُوسا، ونشهد أن محمَّدا عبدُه ورسوله الذى بَشَّر به مُوسىٰ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً تملأ طُرُوسا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن العمل بالسنَّة أَوْلىٰ ما يَتَمسك به المتمَسِّك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «آبْدَأْ بنَفْسِك» ، وكانت الخواصُّ الشريفةُ هى المصلحةُ الخاصَّةُ بنا، المتعلِّقةُ دُونَ كل شىء بأنفُسنا ؛ لأن من خزائنها العالية تتفرّقُ مَواهبُنا الشريفةُ فى الوُجود، وتُحلِّى مَعاطِف الأمراء والجُنُود ؛ وكان فيها مَن لم يَزَلْ هو وبَنُوه قائمين بها أحسَن قيام، [و]فيها من ممـالكنا الشريفةِ مايُضاهى بمَدَده الغَمام ؛ مَنْ حضَر منهم لايتَفَقَّد معه مَنْ غاب، ومن كتب منهم فى شىء من مصالحها قال الذى عِنْده عِلْمٌ من الكتاب ؛ كم أجرتْ صدَقاتُنا الشريفةُ بأقلامهم من إنعام، وتقَسَّموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العَامّ ؛ طالمـا آنقطع والدُهم رحمه الله تعالىٰ بعُذْر فمَشُّوا الأمور علىٰ أكمل سَـدَاد، وأجمل آعتِماد، وأتمّ مالو حضَر أبُوهم وكان هو المتولِّىَ لمـا زاد ؛ فمـا خلَتْ فى وقتٍ منه ، أو من أحد منهم لَمَّـا غاب منْ بقِىَ يسُـدّ عنه ؛ فلم يزل منهم ربعُها مأنُوسا، ولا سُئِل فيها عن قصَّة إلا وأنبأت بها صُحُفُ إبراهيم ومُوسىٰ .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخرًا بهذه الوظيفه ، وآستقَلَّ فيهـا بين أيدينا الشريفه ؛ وسافر فيهـا إلىٰ ثَغر الإسكندرية ــ حرسها الله تعالىٰ ــ فآفترَ بيُمْن تصرُّفه، وحسن تعفُّفه ، وعَدم فيها المضاهىَ لأنه لاشىء يُضاهى الشمسَ إذا حلَّ ،

سِرُّها فى مَنازِل شَرَفه ؛ كَمْ كفَتْ له كِفَايه ، وبدَتْ بِدايه ، وكم بلَغ من غايَة ؛ كَمْ له من هِمَم ، وكَمْ تقدمتْ له قَدَم ، وكَمْ آعترف السيفُ بِبِزّ القَلَم ؛ كَمْ له فى خِدْمةِ المقامات العالية أولادنا أثَرٌ جميل ، وفعلٌ جَلِىّ جليل ، وسلُوكٌ فلا يُحتاج فى الشمس إلىٰ دليل ؛ كم أحسَنَ فى مَرّه ، كم ردَدْناه إلىٰ الكرك كَرّه ؛ كم غَلَب علىٰ السحاب فرَقىٰ إليها ، وبلَغ النُّجومَ وله قُـدُوم عليها ؛ فلما آنتقل والدُه القاضى تاجُ الدين عبدُ الوهاب إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، آحتاج إلىٰ توقيع شريف بالآستقلال فى وظيفة نظر الخاصّ الشريف التى خلَتْ عن أبيه ؛ ليعلم كلُّ متطاول إليها أنه لا يَصِل إليها مع وُجود بَنِيه ؛ فما عادَ إلا وعادَ بعين العِناية محرُوسا ، ولا أقبلَ علىٰ كرمنا إلا قالَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ زاد الله شرَفَه ، ومكّن فى الأرض تصَرُّفَه ــ أن يفوّض إليه نظرُ الخاصّ الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة ، علىٰ عادةِ والده رحمه الله فى هذه الوظيفه ، وقاعدته فى رُتْبتها المُنِيفه ؛ ليقضىَ ما كانَ فى خاطرِ أبيه من الوَطَر ، ولأنه فى أمثالِه عينُ الأعيانِ والعينُ أَوْلىٰ بالنظَر .

فليُباشِر ماأنعمَتْ به صدَقاتُنا العميمةُ عليه علىٰ ماعُهِد [منه] بالأمس ، وعُرِف به من حُسْن السلوك كمَن يَمْشِى فى ضَوء الشمس ؛ وليقـدّم تقوى الله والأمانةَ فهما أفضلُ ما يُقدّم ، وأجملُ ما يَعمَل به من تقدّم ؛ والنهضةَ فإنها هى التى تقُوم بها المصالح ، والتصدّىَ لما هو بصَـدَده فإن به يتمُّ كلُّ عمـل صالح ؛ وليَحتفِظْ علىٰ الخزائن العالية ، وليكُنْ فيها كواحد من رُفْقته عملا بالعادة [فيها] ، و إلا فنحن نعلَم من كفايته [أنه] يكفيها ، وليُثْمر الجهات التى إليه مرجعُها ، والأموالَ التى يدُوم إليه من العين تطلّعها ؛ وليستجلِبْ خواطرَ التُّجّار بإيصال حقُوقهم إليهم ، والقائمين فى خدْمة

أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تُنعِم به صدقَاتُنا الشريفةُ عليهم ؛ وليَكُنْ إلىٰ ما تبرُز به مراسمنا الشريفة مُسَارِعا ، ولها فى كلِّ ما أشكَل عليه من الأمور مُراجِعا ؛ وبقيَّة هذا من كلِّ ما يَحتاجُ أن نُوصِيَه بتعلُّمه فقد عُلِم مما جرتْ به عادتُنا الشريفةُ بأن تقولَه فى مثله ، ولهذا نختصِر فى الوصايَا التى تُشْرَح آكتفاءً بما آتاه الله بنا من فضله ؛ والله تعالىٰ يأْخُذ به إلىٰ النَّجاح ، ويفتَح له بنا أحسَن الآفتِتاح ؛ والآعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمدُ لله الذى جعل خَواصَّ النِّعَم لمُلْكنا الشريف لأجَلِّها ، ونفائِسَ الذخائرِ من دولتنا القاهرة بمحَلِّها ، وأخَايِرَ المَفاخِر مبسوطا فى أيَّامِنا ظِلُّها .

نحمَدُه بمحامِده التى لانَمَلُّها ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً أشرَقَ مستَهَلُّها ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى خُتِمت به أنبياؤُها ورُسُلُها ، وبعثه الله للأرحام يَبُلُّها ، وللأولياء يُجِلُّها ، وللأعداء يُذِلُّها ، ولسُيوف النصر من الغُمُود يَسُلُّها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ماشُدَّ علىٰ مطِيَّة رَحْلُها ، ووَلِيَ المراتبَ أهلُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ خزائنَ مُلْكنا الشريف مستَوْدَعُ كلِّ ثَمِين ، وممالكَنَا المعظَّمةَ لاتُعْدَق إلَّا بالثِّقة الأمين ، ومتاجِرَ خواصِّنا الشريفة لايُثَمِّرها إلا مَنْ رأيُه يعضُد قَلَمه فى اليمين ، والمَتْجَر المحروس لا يقُوم بنَماءِ محصُوله إلا مَنْ له حَزْمٌ سديدٌ وعَزْم متين ، ونَظَر الخواصِّ هو الذِّروة العالية فمرتَقيها علىٰ كل ما يعترِضه مُعِين .

ولمـا كان فلان هو المختارَ علىٰ يقين، والمخطوبَ لهذا المنْصِبِ ليزيده فى التحسين والتَّحصين ، والذى إن نَظَر فى القليـل عادَ كثيرا بالأُلوف والمِئين، فإنْ دبَّر تدبيرا حُفِظ وحُرِس وصِين، وضـبط فى حُسْن الاعْتماد بَلَغ إلىٰ الصِّـين؛ وإن توجَّه إلىٰ الثغر المحروسِ تفجَّر له عن أمواله الجَمَّـه ، وأخرجَ له من فاخرِ الحُلَل ما حَسَّن راقِمُه رَقْمَه؛ وصدَر عنه إلىٰ أبوابنا الشريفةِ بالتُّحَف المُثْمَنه، والحُمُول التى أوقَرتِ السُّفُن فى النِّيل، والإبِلَ فى السبيل، فأزال الغُمَّـه ، وأنارَ الأمورَ المُدْلَهِمَّه، ونشَرَ ما طواه لدَيْنا فشكَرْنا له ما تقدّم به ممـا أَتَمَّه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ... ... فلْيُباشِرْ هذا المنصِبَ الكريمَ بتدبيرٍ يُصْلِح الفاسد، ويُنَفِّق الكاسِد، ويَكْبِت الحاسِد ؛ ويُكَثِّر الأموال، ويُسْعِد الأحوال ؛ ويُثَمِّـر الذَّخائر، ويَسُرّ السَّرائر ؛ ويُوَفِّر حاصِـلَ الجواهر، ويُكَثِّر التُّحَف من كل صِنْف فاخر؛ ويُوفِى المهِمَّاتِ الشريفةَ حقَّها فى الأوّل والآخر، ويَنْشُرُ التشاريفَ كالأزَاهِر . ولْيختَرِ الأُمناءَ الثِّقات، ولْيُحَرِّرْ كلٌّ منهـم المِيقَات ، ولْيَبِـعْ لخـاصّنا الشريف ويَشْتَرِ بالأرباح فى سائِر الأوْقات ؛ ولْيتلَقَّ تجارَ الكارمِ الواردين من عَدَن ، بآستجلاب الخواطر وبَسْـطِ المِنَن ، ونَشْرِ المَعْـدَلةِ عليهم ليَجِدُوا من اليُمْن ما لم يجِـدُوه فى اليَمَن ؛ وكذٰلك تِجار الجهةِ الغربيَّة الواردين إلىٰ الثغر المحروس من أصناف المسـلمين والفَرَنْج : فلْيُحْسِنْ لهم الوِفَاده، ولْيُعامِلْهم بالمعـدلة المستفَاده، فإنَّ مكاسبَ الثغر منهـم ومِنَ الله الحُسْنىٰ وزِياده . والوصايا كثيرةٌ وهو غَنِيّ عن الإعادَه، و [ملاكها] تقوىٰ الله فليَقْتنِف رَشـادَه ، ولْيُصْلِـح مآبَه ومَعـادَه ، ولا يتدَنَّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جَمْرة وَقَّادَهْ ، والله تعالىٰ يحرُس إرفاقَه وإرفادَه، بمنّه وكرمه ! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانيـــــة
(نظر الجَيْش)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضُوعَها التحدّثُ فى الإقطاعات بمِصْرَ والشام، والكتابةُ بالكَشْف عنها، ومشاورةُ السلطان عليها، وأخْذُ خطِّه . وقد تقــدّم ذكْرُ ألقابه فى جملة الألقاب فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات من هذا الفصل، وتقدّم ذكْرُ مايُكتَب فى طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمــدُ لله الذى عَدَق[1] بالأكْفاء مصالحَ الجُنود ، وصرَّف أقلامَهم فيما نُقْطعه من الجُود، وآجتَبىٰ لمراتب السيادة من تحمَدُه الأقلامُ فى العطايا البِيض والسُّيوفُ فى الخُطوب السُّود .

نحمــدُه وهو المحمُود، ونشكُره شكرا مُشْرِقَ المَيَــامن والسُّعود، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَذْبةَ الوُرُود ، يجــدُ المخلِص بركتَها يومَ العَرْض ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أضحَتْ به جيوشُ الإســلام منشُورةَ الألْوية والبُنُود ، منصورةَ السَّرايا فى التَّهــائم والنُّجود، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أورَقَ عُود، وأُولِج نَهارُ السيوف فى لَيْل الغُمُود، وسلَّم تسليما .

وبعــد ، فإنَّ أجلَّ رُتَب هذه الدولة الشريفة مُرْتقىٰ، وأجملَها منتَقىٰ ، وأكرَمَها هاديًا حَلَّى بعقد الســيادة مَفْرِقا، رتبةٌ حكَمْنـا مرتقِيَها فى أرزاق الجُيوش الذين هم حُماةُ الدين وأنصارُه ، ولهم رَواحُ الظّفَر وآبتِكارُه، ولهــذا لايَحْظىٰ بتسنّمها إلا من علَا مِقْدارا ، وشكرت الدولةُ الشريفــةُ له آثارًا ، وجبَتْ عليــه السعادةُ أثوابَها ،

(١) (عدق) جمع .

وأوكفَتْ عليـه سحَابها، وأنزلتْـه ساحاتِها ورِحابها، وغدَتْ لأحاديثِ علْيائه تروى، وحديه الميسور والمنْشور والمَطْوى .

ولما كان فلان هو الذى نَمَتْ مآثِرُه، وكرُمت مفاخِرُه، وآستوتْ على العلْيـاء مَظاهِرُه، وشُكِر آستبصارُه وحياطتُه، وكُمل سلوكُه منهجَ الفخَار وجادّته، وأحصىٰ الجُنود عدَدا، وإن كاثَروا النجُومَ مدَدا، وأحَاط بالأرض المُقْطَعه، فلم تكنْ نواحِيها عنه ممتَنعه، ولم يُغادِرْ منها شيئا إلا أحصاه، وآتّبع سببَ مَرَاضينا حتّى بلَغ أقصاه، فالعلم يُثْنِي عليـه والعَلَم، والحربُ والسِّلْم يشكرانِه لمناسـبة نظرِه القرطاسَ والقلَم ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نرقِّيـه هَضْبةً ساميـةَ العُلىٰ، فاخرةَ الحِلىٰ، ومنبعَ أرزاق أئمة الفضل وأبطالِهـا، ورتبةً شهِد منالُهـا بعدَمِ مِثالهـا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هـذه الوظيفةَ المبـاركه، وليُحلّ ذَرَاها الأسْمىٰ، وليجمل آطّلاعه علىٰ الجيوش المنصورة حتّى لا يُغادِرَ منها آسما، لتغدُوَ مصالحُها وَرِيقةَ الغِراس باسِقه، وعقُودُها نفيسةَ الفرائد متناسِقه، وليُجْرِ نظرَه المبارك فيما صرّفناه فيـه، آخذًا بيُمْن السَّداد من فعله وحُسْنِ التنفيذ مِنْ فيه، مُلْزِما مَنْ تحت نظَره بإتقان ماهمْ بصدَده من العُروض والأمثله، حتّى تغدُوَ لديه ممثَّـله، محُرِّرا للإقطاعات وعِلْم خفَاياها فيما تهبُه وتقْطعه، ونصله وتقْطَعُه، والمقايَضات وإن آختلفت، والإفراجات وإن آكتنفَتْ، والمُغَلّات الآتية والأُخرىٰ التى سلَفَتْ، وما يخصُّ المتّصل، من فعل المنفصل، والمتحصل والعِبْره، والخاص والعُدّة لذوى الإمره، ومنها مصرىّ لاغنىً عن تحريره، وشامىّ يفْتقِر إلى الإتقان فى قليـله وكثيره، ولينظُرْ فيمن له جامكيّة أو إقطاع مُجْزَل، وكلاهما فى دولتنا سِمَـاك : هذا رامحٌ وهذا أعزَل .

هذه وصايا جمّة، وأنت غنيّ عن أن يستقصي القلمُ ذكرها أو يُتِمَّه؛ والله تعالى يجمّل به رُتَبه، ويبلّغه أرَبَه، ويرفع عليه لواءَ المجد وعَذَبه؛ بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالى أعلاه، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش:

الحمدُ لله الذى أعزّ الجيوشَ المنصوره، وجزّ أعناقَ العِدَا بالسُّيوف المشهُوره، وهزّ ألويةَ التأييدِ المنشُوره، وجعل الجحافِل مُشْرِفةً وأجنحتَها خافِقةً وساقتَها مُحدِقةً وقلوبَها مسْروره.

نحمده بمَحَامده المذكوره، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مأثُوره، موصولةً غيرَ مهجُوره، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أبطل من الشيطانِ غُرُورَه، وصان للإسلام حَوْزتَه وثُغُوره، وسنّ لأمّته الاستخارةَ والمَشُوره، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تورت من الليل دَيجُوره، وكثّرتْ لقائلها أُجُورَه، وسلم تسليما كثيرا.

وبعدُ، فإنّ أحوال جُيوشِنا يتعيّن حُسْنُ النظر فى أمْرها، والقيامُ بموادّ نَصْرها، وإسعافُها بناظر يحرّر جهات أرزاقِها، ويضبِطُها مخافةَ افتراقِها، ويأمُر بنَظْم جرائد أسمائهم واتّفاقِها، ويُتقِن الحِلىٰ، ويبيّن يومَ العَرْض محلّه فى ارتقاء العُلىٰ؛ ويصُون المحاسَباتِ لكل منفَصِل ومتّصِل من الخَلَل، ويُسْرع فى الدخول والخُروج مايَصل به لكلٍّ حقُّه عند استحقاقِ الأجَل.

ولما كان فلان هو الممْدُوحَ بألسِنة الأقلام، والرئيسَ بينَ الأنام، والمشكورَ بين أرباب السُّيوف وذَوى الأقلام، والمأمونَ فيما يُعْدَق به من مَهامّ؛ والعزيزَ المثَال،

والسائرَ بَحمْده الأمثال، والمنشورَ فضلُهُ فى كل منشُور، والظاهرَ أثَره تجريده[(١)] فى الديوان المعمور، والذى شكرتْه المملكةُ الشريفة فهو من صُدُورها فى الصُّدُور .

فلذلك رسم ... ...[(٢)] فليباشِرْ نظرَ هذا المنْصب السعيدِ بأمانةٍ تحفَظُ أرزاقَ العساكر، وتجلُو الظَّلامَ العاكر ، وليُحرِّر جرائدَ التجريد ، وليصُنِ العُدَّةَ الكاملةَ من التَّبديد ، ولتكن أوراقُ البياكر نُصْبَ عينيه حتَّى إذا طُلِبت منه أحضَرها محرَّره ، وإذا وقع فيهم حركةٌ كانت أقلامُه غير مقصِّره ؛ وليرغَّب فى اَقتناء الثناء حتَّى يُصْبح عنده منه جملةٌ من الألُوف ، وليكن للأمانةِ والنُّصْح نِعم الألُوف ؛ وليتَّقِ الله معَ أصحاب السُّيوف ، وليستجْلِب خواطِرَ أرباب الصُّفوف ، وليجعلْ له برًّا فى كل أرض يطوف؛ وتقوى الله فهى السبيلُ المعروف، فلْيَنْعَمْ بجنَّتها الدانيةِ القُطوف ، وليلْبَسْ بُرْدتَها الضافيةَ السُّجوف ، والله تعالىٰ يُنجِّيه من المَخُوف ، بمنّه وكرمه ! .

⁂

وهذه وصية ناظر جيش أوردها فى "التعريف" قال :

وليأخُذْ أمرَ هذا الديوان بكُلِّيته ،ويستحضِرْ كلَّ مسمًّى فيه إذا دُعى باسمه وقُوبِل عليه بحِلْيته؛ وليَقُمْ [فيه] قياما بغيره لم يُرضَ، وليُقدِّم من يجب تقديمُهُ فى العَرَض؛ وليَقِفْ علىٰ معالم هذه المُباشره، وجرائد جُنودِنا وما تضحى له من الأعلام ناشِره؛ وليقتصِدْ فى كل مُحاسَبه ، ويحرِّرْها علىٰ ما يجب أو ما قارَبَه وناسَبه، وليستصِحَّ أمرَ كلِّ ميت تأتِى إليه من ديوان المَوارِيث الحَشْريَّة ورقةُ وفاته ، أو يخبره به مقدَّمه أو نقيبُه إذا مات معه فى البِيكار عند مُوافاتِه؛ وليحرِّر ما تضمنتْه الكشُوف،

---

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ .

ويحقّق ما يقابل به من إخراج كلّ حال علىٰ ما هو معروف، حتى إذا سُئِل عن أمر كان عنه لم يَخْف ، وإذا كَشَف علىٰ كَشْف أظهر ما هو عليه ولا يُنْكَرهذا لأهل الكَشْف؛ وليحترزْ فى أمر كل مَرْبَعه، وما فيها من الجهات المُقْطَعه؛ وكلّ منشور يُكتب، ومثالٍ عليه جميعُ الأمر يترتَّب؛ وما يَثْبُت عنده ويتزل فى تعليقه، ويُرجَع فيه إلىٰ تحقيقه ؛ وليعلم أنّ وراءَه من ديوان الاستيفاء من يُساوِقه فى تحـرير كل إقطاع ، وفى كل زيادة وأقطاع ، وفى كل ما يُنْسَب إليـه وإن كان إنمـا فعله بأمرنا المُطاع ؛ فليتبصَّرْ بمن وَراءَه ، وليتوقَّ اختلاق كلّ مبطل وافتراءَه؛ وليتحقَّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقته والمُوكَل به النظر ، والمحقَّق به جمـلةُ جندنا المنصـور من البَدْو والحضَر. وإليه مَدارج الأمراء فيما تَنْزِل ، وأمرُ كلّ جندىٍ له ممّن فارق أو نُزِّل ؛ وكذلك مُساوَقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشورِ أو على السِّـياقه ، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطَّليعة أو فى السّاقه . وطوائف العَرَب والتُّركُمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدمةٌ أو يلزمهم رَوك بلاد، أوغير ذلك مما لايفوت إحصاؤُه القلم، وأقصاه أو أدْناه تحتَ كل لواءٍ يُنْشَر أو عَلَم؛ فلا يزال لهـذا كله مستحضِرا، وعلىٰ خاطره مُحْضَرا ؛ لتكون لَفَتات نظرنا إليه دُونَ رُفْقته فى السؤال راجعه ، وحافظتُه الحاضرةُ غنيةً عن التذْكار والمُراجَعه .

الوظيفـــــة الثـالثة

(نظرُ الدواوين المعبَّرُ عنهـا بنظر الدَّوْلة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضوعَها التحدّثُ فى كل ما يَتَحدّثُ فيـه الوزيرُ، وأن كلّ ما كتَب فيه الوزيرُ« يُكْشَف » مثلا ، كَتَب فيـه « يُكْشَف عمّـا رُسم به » ونحوذلك . وتقـدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام

علىٰ مقدّمات الولايات من هـذا الفصل ، وتقدّم ذكرُ ما يُكتب فى طُرّة توقيعـه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين، كُتب به لتاج الدّين بن سعيد الدولة، وهى:

الحمـدُ لله الذى خصّ من أخلص فى الطاعة من آلائنـا بحُسْن النظر، وأجنىٰ من غَرَس فى قلبه أصلَ الإيمـان من عَوَارف أيّامنا الزاهرةِ يانِـعَ الثّمَر، ورفَع مَن آستضاءَ فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من خُمُول الرُّتَب إلىٰ مَكان الغُرَر، وأظهر لَوَامِعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ مَنْ أضاء له الرُّشدُ فرآه بعين البَصيرة قبْل البَصَر.

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتنىٰ وأنفَـعُ ما يُدّخر، وأفضَـلُ ما نجَتْ به الفِرقة الموحِّدة وهلكَتْ به الفِرق الأُخَر؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشر، وأرْأفُ البَدْو والحَضَر، والمبعوثُ إلىٰ الأُمم كافّةً لـمـا قضاه الله تعالىٰ من سعادةِ من آمَنَ وشَقاوةِ مَنْ كفَر؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المَيامين الغُرَر، صلاةً دائمـةَ الوِرْد والصَّدَر، باقيةَ العيْن والأَثَر؛ وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أَوْلىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن، وشمِله كرَمُنا من الرُّتَب بما يُهْجَر فى بلوغ مثله الوَسَن، وآشتمَل عليه معروفُنا بمـا يجعل يَراعَه فى مصالح الدولة القاهرة جميلَ العبارة حسَنَ اللَّسَن؛ مَنْ سمَتْ به نفْسُه إلىٰ سعادة الآخرة فأتتْه سعادةُ الدنيا تابعـه، وسلَك فى مَراضى الدولة القـاهرةِ طريقَ الإخلاص فغـدَتْ لكلِّ خيرٍ حاويةً ولكُلّ يُمْن جامعَه؛ مع كفاءةٍ جاءت المناصبَ علىٰ قَدَر، ومعرفةٍ مالَحظتِ المَصالحَ بأقرب نَظَر، إلا نَمّت الأموالَ وبدَرَت البِـدَر، وخِبرةٍ ما آعتَـبرت فيهـا محاسنُ سـيرته فى كل مايباشره إلا صَغّر خُبْرُها الخـبَرْ؛ ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل

ما يليه أحسنَ المَسالك، وعِفَّةٍ رفعتْه من الرتب الديوانيّة إلىٰ مَفَارِقِها ولا رُتْبةَ للتَّاج إلا ذٰلك .

ولـمّا كان فلان هو الذى ٱجتنىٰ من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المُخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهما أنْخَرُ ما يُدَّخر للرُّتب الجليلة وأنفس ما يُقْتنىٰ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقه المناصبَ بما ٱقتضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتنىٰ .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّض إليه نظرُ الدواوين المعمُورة : فليُباشرْ ذٰلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل ، ومجلّيا فى هذه الحَلْبة بسبق معرفته الذى لا يَحتاجُ إلىٰ دليل؛ ومبيِّنا من نتائج قلَمِه ما يُبَرْهن علىٰ أنه موضِعُ الٱختيار، ومن كوامِن ٱطّلاعه ما لا يَحتاجُ إلىٰ بُرهانٍ إلا إذا ٱحتاجَ إليه النّهار؛ فلا يَزالَنَّ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثمِرا ، وليلُ نِقْسِه فى ليل الأعمال مُقمِرا؛ وحُسن نظَره إلىٰ ماقرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قلمه لما دَقَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمُورةِ مُثْبِتا ، ووَسْم تحريره لما يُجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلافِ الأعمال بحُسْن الٱطّلاع محتَلِبا، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجه إلىٰ تثميرها إن أقبلت مجتَلِيا وإن أعرضَتْ مختَلِبا ؛ فإنّ الأمور معادنُ يستثِيرُها التّصرّفُ الجميل ، ومنابتُ يُنَمّيها النظر الجليّ والإتقانُ الجليل ؛ ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فليجعلْها إمامَه ، ويتخيَّلْها فى كلِّ حالٍ أمَامه ؛ والله تعالىٰ يوفّقه بمنه وكرمه! .

قلت : ورُبّما أضيف إلىٰ نظر الدواوين المعمُورةِ نظرُ الصُّحبة الشريفة الآتى ذِكْرُها، وكُتِب بهما جميعا لشخص واحد .

وهـذه نسخة توقيع بهما جميعًا(١)، كُتب بها لتاج الدّين بن سـعيد الدولة علىٰ أثَر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى، وهى :

الحمدُ لله الذى خصّ مَنْ أخلص فى الطاعة من آلائنا بحُسْن النظَر، وأجنىٰ من غَرَس فى قلبه أصلَ الإيمانِ من عَوارف أيّامنا الزاهرة يانِـعَ الثمر، ورفَع من ٱستضاء فى دولتنـا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من حُجُول الرُّتب إلىٰ مكان الغُرَر، وأظهر لوامِعَ السـعادة من نِعَمِنا علىٰ من أضاء له الرُّشد فرآه بعين البصيرة قبْل البَصر .

نحمَدُه علىٰ إحسانِه الذى غَمَر، وٱمتنانه الذى بَهَر، وفضلِه الذى عَمّ كلَّ من ظَهَر له الهُدىٰ فلم يُعارِض الحقَّ إذا ظَهَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتَنىٰ وأنفَـع ما يُدَّخر، وأوضَحُ ما نجتْ به الفِرقةُ الموحِّدة وهلَكت به الفِرقُ الأُخَر؛ ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشر، وأرأفُ البَدْو والحضَرْ، والمبعوثُ إلىٰ الأمم كافّة لمـا قضاه الله من سَعادةِ من آمنَ وشَقاوةِ من كفر؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الميامِينِ الغُرَر، صلاةً دائمةَ الوِرْد والصدَر، باقيةَ العيْن والأثَر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من خصَّه برُّنا بالنظر الحسَن، وشمله كرَمُنا من الرُّتب بمـا يُهْجَر فى بلوغ مثـلِه الوَسَن، وٱشتمَل عليـه معرُوفُنا بمـا يجعل يَراعه فى مَصـالح الدولة القاهرةِ جميـلَ العِبارة حَسَن اللَّسَن؛ مَن سَمَتْ به نفْســه إلىٰ سعادة الآخرة فأتته [سعادة] الدنيا تابِعه، وسلك فى مَراضِى الدولة القاهرةِ طريقَ الإخلاص فغدَتْ لكل خيْرٍ حاويةً ولكل يُمْن جامعَه؛ مع كفاءةٍ جاءتِ المناصِبَ علىٰ قدَر، ومعرفةٍ مالَحظتِ المصالح بأقرَبِ نظرٍ إلا نَمّت الأموالَ وبدَرتِ البِدَر، وخِبْرةٍ ما ٱعتُبِرت فيها

(١) هى عين سابقتها خلا أن فيها ضم الصحبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسنُ سَيْرته في مباشرةِ إلا صَغَّر خُبْرها الخبرَ، ونزاهةٍ سلكَتْ به في كل ما يليه أحسنَ المَسالك، وعفّةٍ رفعته من الرتب الديوانية إلىٰ غُرَرِها ولا رُتْبةَ للتّاج إلا ذٰلك .

ولما كان فلان هو الذى آجتنَىٰ من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضلَ الجنَىٰ، وفازَ من عَوارفها العميمةِ بجميل المخالَصة مازادَ علىٰ المُنَىٰ، وآنتمَىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمالِ المعرفةِ والعِفّة وهما أنْخَرُ ما يُدّخَر للرتب الجليلةِ وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وعُنِي من أسباب آستحقاقه المناصبَ والرتبَ بما آقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنَىٰ - فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه نظر الدواوين المعمورة ونَظَر الصُّحبة الشريفة .

فليباشِرْ ذٰلك محلِّيا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل، ومجلِّيا في هذه الحَلْبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاج إلىٰ دَليل؛ ومبيِّنا من نتائج قلمه مايُبرهِن علىٰ أنه موضِعُ الاختيار، ومن كَوامِن آطّلاعه ما لايحتاج إلىٰ بُرْهان إلا إذا آحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يراعه في روض المصالح مُثْمِرا، وليلُ نِقْسه في ليل الأعمال مُقْمِرا؛ وحُسنُ نظَره إلىٰ ماقَرُب ونأَىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قلَمه لما دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لما يستقِرُّ في الدواوين المعمورة مُثْبِتا، ووَسْم تحريره لما يجتنىٰ من غُروس المَصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلاف الأعمال، بحُسْن الاطّلاع محتَلِبا؛ ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلتْ مجتلِيًا وإن أعرضَتْ مُختلِبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يَستَثيرُها التصرفُ الجميل، ومنابِتُ يُنَمِّيها النظرُ الجلِيّ والإتقانُ الجليل؛ ومِلاكُ كلِّ أمر تقوَى الله تعالىٰ فليجعلْها إمامَه، وليتخيَّلْها في كل وقتٍ أمَامه؛ والله تعالىٰ يوفّقه بمَنّه وكرمه! . والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الرابعـــــــة
(نظر الصُّحبة)[1]

[وهـذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِب به للشريف شهـاب الدين ناظر الصُّحبة ، من إنشاء الشهاب محمودٍ الحلبيّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل الشرَفَ حيثُ حلَّ ركابُنا مُصاحِبا ، وأطلَع للفضل فى أُفُق خدمتنا من أولياء دولتنا شِهابًا ثاقبا ، وعَدَق النظرَ فى صُحْبتنا بمَنْ لم يزَلْ لمصالحنا ملاحِظًا ولأوامرِنا مُراقِبا ، وفوّض أمورَ مباشرةِ حالِ من آجتهد أو قصَّر فى خدمتنا إلىٰ مَنْ لم يزَلْ بنفسه فى واجبِ الطاعةِ مُنافسا وعلىٰ فرضِ المُوالاةِ مُحاسِبا .

نحمَـدُه حمدَ مَنْ أجملَ فى أوليائنـا نَظَرا ، وخَصَّ بالنظر فى صُحْبتنا من آختِيرتْ خدمتُـه فتساوَتْ فى الطاعة والمناصحة سَفَرا وحضَرا ، وآعتمد فى ملاحظة مباشِرى مايمرّ عليه من ممالكه علىٰ مَنْ لايُهْمِل له حقًّا ولا يُحدِث له ضَرَرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لاتزال جيوشُنا لإعلاء منَارِها مُجهَّزه ، وسَراياناَ إلىٰ مَقاتِل جاحِديها البارزةِ مبرِّزه ، ووُعودُ النصرِ علىٰ مَنْ ألحَدَ فيها لنـا معَجَّلةً وعلىٰ أيدينا منجَّزه ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنهضَنا الله من جهاد أعداءِ دينه بمـا فَرَض ، وأيقظَنا لرفع أقدارِ أهل بيتِه فلم يُقصِّر بأحد منهم فى أيّامنا أملٌ ولا بعُدَ عليه غَرَض ، وخَصَّنا منهم بمن تمسَّك بجوهره الأعلىٰ فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سـقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يحدّث مع الوزير فى كل مايحدّث ويشاركه فى الكتابة فى كل مايكتب فيـه ويوقع فى كل مايكتب فيه الوزير تبعا له » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرّض من هذا الأدْنىٰ إلىٰ عَرَض ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن (يكادُ يُمْسِكُه عِرْفانَ راحتِه)، وإلّا المؤْثِرُ طاعةَ الله ورسولِه وأُولى الأمرِ علىٰ راحتِه ؛ صلاةً دائمـةَ الاتّصال، آمنـةً شمسُ خُلودِها من الغُروب والزّوال ؛ وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أَوْلىٰ من آخترْناه لصُحْبتنا الشريفةِ علىٰ عِلْمٍ، وأعدَدْناه لمهمّاتنا الكريمةِ لمـا فيه من تَسَرُّعِ إدراكٍ وتثبُّتٍ فى حُكْمٍ، وبَسَطْنا له فيما عدَقْناه به من ذٰلك لسانًا ويَدًا، وحفِظْنا به الأحوالَ من [وصول] مستَرِقِ السَّمعِ إليها ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَـدًا﴾ وآدّخرْنا أقلامَه لمصالحِ كلِّ إقليمٍ يمرّ ركابُنا الشريفُ عليه، وفوّضنـا مناقشةَ مباشِرِيه علىٰ ما أهملُوه من حقوق الله تعـالىٰ وحقُوق الرّعايا إليـه ؛ وأقمناه لتصفّحِ ذٰلك بنفسه، وتلمّحِ زيادةِ كلِّ يومٍ علىٰ أمْسه ؛ وآنتزاعِ الحقِّ ممن مدّ يَدَه إلىٰ ظُلْمٍ بكفِّ كفِّه عنه ورفعِ يَدِه ، وآرتجاعِ الواجبِ ممّن أقدم عليه بالباطل فى يومِه وآطّرحِ المؤاخذَةَ به فى غَدِه ؛ وغيرِ ذٰلك مما أحصاه الله ونَسُوه ، وآعتمدُوا فيه علىٰ المصلحة فآجتنَوْا ثمرةَ ما غرَسُوه ـ مَنْ كان له فى المناصحـة قَدَمُ صدقٍ عنـد ربّه ، وفى خدمـة الدولةِ القاهرةِ قِدَمُ هجـرة تقتضِى مَزِيدَ قُرْبه ؛ فكان أبدا بمرأًى من عنايتنا ومَسْمَع، ومن إحساننا بالمكانِ الذى ليس لأحدٍ من الأكفاءِ فى بلوغ غايتِه أملٌ ولا مَطْمَع ، وتفرّد بآجتماع الدِّين والمنْصِب والأصالةِ والعِـلْمِ والكرم وهـذه خِلَالُ الشرف أجمَع .

ولمـّا كان فلان هو الذى آجْتنىٰ من إحسانِ الدولةِ القاهرة بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفازَ من عوارفِها العميمة بجميل المخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ ؛ وآنتمىٰ من أدَوات نفسِه ونَسَـبِه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفّة وهمـا أنخـرُ ما يُدّخَر للرُّتَب الجليلة وأنفَسُ

ما يُقتنىٰ ، وغُنِي من أسباب آستحقاقه المناصبَ والرتب بما آقتضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتنىٰ . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين[1] المعمورة .

فليباشر ذٰلك محلِّيًا هذه الرتبةَ بعقود تصرُّفه الجميل ، ومجلِّيا فى هذه الحلبة بسَبْق معرفتـه التى لاتحتاجُ إلىٰ دليـل ، ومبيِّنا من نتائج قلمه مايُبَرْهِن علىٰ أنه موضعُ الآختيار ، ومن كوامِن آطِّلاعه مالا يحتاج إلىٰ برهان إلا إذا آحتـاجَ إليـه النَّهار ؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثمِرا ، وليـل نِقْسِه فى ليل الأعمـال مُقْمِرا ؛ وحُسنُ نظره إلىٰ ما قَرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا ، ولسانُ قلَمه لمـا دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا ؛ ورسمُ خطِّه لمـا يسـتقر فى الدواوين المعمورة مثبِتا ، ووسم تحريره لمـا يجتنىٰ من غُروس المصالح مُنبِتا ، ولدَرّ أخلاف الأعمال بحُسن الآطلاع محتلِبا ، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلَتْ مجتليًـا وإن أعرضَتْ مختَلِبـا ؛ فإنَّ الأمور معادِنُ يَستثيرُها التصرُّفُ الجميـل ، ومنابِتُ يَنمِّيها النظرُ الجلىّ والآتقانُ الجليل ؛ ومِلاكُ كل أمرٍ تقوى الله تعالىٰ فليجعلها إمامَه ، ويخيِّلْها فى كل حال أمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدِّده ويوفِّقه بمنِّه وكرمه ! ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وربَّمـا أُضيف إلىٰ نظر الصُّحبة نظرُ الدواوين الشريفة ، وحينئذ فيَحتاج الكاتبُ أن يأتِى فى براعة الآستهلال بمـا يقتضِى الجمعَ بينهما ، ويوردَ من الوصايا ما يختصُّ بكل منهما . والكاتبُ البليغ يتصرَّف فى ذٰلك علىٰ وَفْق ما يحدُث له من المعانى ويسنَحُ له من الألفاظ .

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجـــــة الثـانية

(من تواقيـع أرباب الوظائف الدِّيوانية بالحَضْرة بالديار المصرية ما يُكتَب في قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، مفتتَحا بـ«الحمدُ لله» إن قُصِد تعظيمُ المكتوب له علىٰ ما هو الأكثر، أو بـ«أما بعدَ حمد الله» جَرْيا على الأصل لمـا يُكتَب في قطع الثلث، علىٰ ماتقف عليه في النُّسَخ)

وتشتمل علىٰ وظائف :

الوظيفـــــة الأولىٰ

(كتابة الدَّسْت)

والمراد دَسْت السلطنة . وقد تقدّم الكلامُ عليها في مقدّمة الكِتَاب في الكلام علىٰ ديوان الإنشاء ، وتقدّم في الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضُوعَها أن يجلِس أصحابُها بدار العدل أيّامَ المواكب خَلْف كاتب السرّ، ويقرءُون القِصصَ على السلطان بعد قراءة كاتب السرّ، ويكتُبون عليها بمـا تقتضيه الحالُ، بعدَ إشارة السـلطان بالكتابة ؛ ثم يحمَلُ ما يكتُبون عليه من القِصص إلىٰ كاتب السرّ فيُعيِّنُها . وأنّ هذه الوظيفة كانتْ من أجَلّ الوظائف وأرفعها قَدْرا ، منحصرةً في عددٍ قليـل نحو الثلاثة فمـا حوْلَهـا ؛ ثم وقع التساهُل في أمرها ، ودخَل فيها العددُ الكثير حتّى جاوز عددُهم العشرين ، وبقيت الرياسةُ فيهم لعَدَد مخصوص منهم ، وقَنِـع الباقون بالإسم . وقد تقدّم ذكر طرّة توقيعه في الكلام على التواقيع .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّسْت ، وهي :

الحمدُ لله الذي فَضّل الكِرامَ الكاتبين ، وأحيا بفضائل الآخِرين الأوّلين الذاهبين ، وأنزل في القَصَص : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

نحمَـدُه وهو المحمودُ المُبين ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ قومٍ مخلِصين ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله خاتمُ النبيين ، ورسولُ ربِّ العالمين ، والشافعُ فى المُذْنِبين من المؤمنين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدِّين ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ العدْل الشريفَ دارٌ جُدْرانُها الأمْرُ المُطاع ، وأبوابُها الخيرُ الذى لا يُضَاع ، وسَقْفُها الرحمةُ والاتِّضاع ، وصدْرُها الإحسانُ المديدُ الباع ، وصحْنُها الأمْنُ والسُّرور فلا يُخافُ أحدٌ فيه ولا يُرَاع ، وجلساؤُها الكاتبُون عارِضُو الرِّقاع ، هم مَعْدِن الصَّداره ، وموْطِن الكِتابة والكِنَاية والإشاره ، وأقلامُهم تأتى بحُسْن التشبيـه والاسـتِعاره ، وتُطرِّز حواشىَ الرِّقاع بوَشْىٍ بادِى الإناره ، ما اختِيرَ أحدُهم للجلوس فى دَسْته إلا وقد أرضَىٰ مَنِ اختاره ، وتميَّز بحُسن السَّمْت والوَفاء والوَقار والشَّاره .

ولمـا كان فلان هو الذى له فى السُّؤدَد أصلٌ عرِيق ، وفى الفضائل له قلَمٌ مُطيق ، وفى البلاغة له لسانٌ منْطِيق ، وإذا دبَّج قرطاسَه فهو للروض شَقِيق ، ونباتُه الجوهرُ لا الآسُ والشَّقِيق ، وأصبح للجُلوس فى الدَّسْت الشريف أهلًا على التحقيق .

فلذٰلك رُسِم أن يستقر... ... ... فليحُلَّ هذا الدَّسْتَ الشريف مُبهجا ببَيانه ، مُثلِجا للصُّدور بعِرْفانه ، متَبلِّجا بنُور يدِه ولسانه ، قارئا من قصَص الناس وظُلاماتهم فى إيوانِه كلَّ شىْءٍ فى أوانِه ؛ لا يكتُمُ ظُلامةً مكتوبةً فى رُقْعه ، بل يعرِّف مَلِكَه بها ويبلِّغُها سَمْعَه ، فإنه فى هذا المحلِّ أمينٌ والأمينُ محـلُّ النُّصح والخير والرِّفعه ، وإذا وقَّع فهو مأمُور ، فليأتِ بمـا يُبهِج الصُّدُور ، ويَشْفى غليلَ الشاكِى ، بلفظِه الزاكِى ، والوصايا كثيرة لكن السلِيم لبعضها الحـاكى[1] ، وتقوىٰ الله فهى تاجُها الجَوْهَر ،

(١) لعله لكن سلِّم بعضها الحاكى ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدرُها المنوَّر، وكوكبُها الأزهر، والله تعالى يمتّعه بالفضل الذى لا يُحول ولا يتغيّر، بمنّه وكرمه! إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى أفاض على الأولياء من فضله، وأهمى عليهم من مواهبه ما يقصُر عنه الغَمامُ فى وَبْله وطَلّه ؛ ومنح دَسْتَ المُلْك الشريف من الألفاظ المجيده، والفضائل المُفيده .

نحمده على نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجملت آمتنانَها ، وبزغَتْ مُزْهِرةً فقدّمَتْ من الدولة أعيانَها ؛ ونشكره على عوارفه التى ألقى لأهل الثناء عِنانُها ، ورَحُب لذَوى البيوت صدرُها وفُضَّ عُنوانُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تشهَد القلوبُ إيمانَها ويدّخر القائلُ لها ليوم المَخاف أمانَها ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أظهر الله به الشريعة المطهّرة وأبانَها، وشرّف [به] هذه الأمّةَ ورفع على جميع الأمم شانَها، وبعثه رحمةً إلى كافّة الخلق فأقام بمُعجزاته دليلَ الهداية وبُرهانَها، وأطفأ بنُور إرشاده شرَرَ الضّلالة ونيرانَها ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من نَزّه نفْسَه النفيسةَ وصانَها ، وسلَكَ فى خِدْمته وصُحْبته الطريقةَ المُثْلى فأحسنَ إسرارَ أمورِه وإعلانَها ، صلاةً دائمةً باقيةً تُجمِّل بالأجور آقترانَها ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فانه لمّا كانتْ وظيفةُ توقيع الدَّسْت الشريف من أجلّ الوظائف وأسْناها، وأنفَسِها وأعْلاها ، وأجَلِّها وأبْهاها ؛ القائمُ بها سفيرُ الرعيّة إلى المَلِك

فى حاجتهم ، وتَرجُمانٌ مُعْرِب عن شِكاياتهم ، وكاشِفٌ أحسنُ ناشرٍ عن ظُلاماتهم ؛ جالسٌ علىٰ بِساط الأُنْس بقُرْب الحضره ، منفِّذٌ نَهْىَ مليكه وأمْرَه ، مبلِّغ ذا الحاجة من إنعامه جُودَه وبِرَّه ـ تعين أن يُندَب رئيسٌ وٱبنُ رئيس ، وجوهرُ بحرٍ نفيس ؛ ذو أصل فى السُّؤدَد عَريق ، ولسانٍ فى الفضائل طَليق ، وقلمٍ حَلَّ الطُّروس بما يفوق زَهَر الرياض وهو لها شَقيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضلُ على التحقيق ؛ وكان المقرُّ العالى الفلانىّ هو المشارَ إليه بهذه الأولويَّه ، والمرادَ من سطور هذه المحامد اللُّؤلُؤيَّة . فلذلك رُسِم بالأمر العالى أن يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة توقيع الدَّسْت الشريف عِوضًا عن فلان بحُكم وَفاته .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً تُشْكَر مدى الزمان ، وتُحمَد فى كلِّ وقتٍ وأوان ، وليُدَبِّج المَهارِقَ بوَشْىٍ يفوق قلائدَ العِقْيان ، وليَمْلَأْ بالأجور لنا صُحُفا بما يوحيه عنا من خيراتٍ حِسان . ونحن فلا نُطيل له الوصايا ، ولا نُحلِّيه بها فهى له سَجايا ؛ مع ما أدّبه به علمُه الجَمّ ، وعمَلُه الذى ما ٱنصرف إلىٰ شىء إلا تَمّ ؛ ويجمعها تقوىٰ الله تعالىٰ وهى عَقْد ضميره ، ومِلاكُ أُموره ؛ وما بَرِح هو وبيتُه الكريم مصابيحَ أُفُقِها ومفاتيحَ مُغْلَقها ، ولهم جُدُد ملابِسها وللناس فواضلُ مُخْلَقها ، والله تعالىٰ يزيدُه من إحسانه الجزيل ، ونِعَمه التى يرتدى منها كلَّ رداءٍ جميل ، ويمتِّعه بإمارته التى ما شُكِر بها إلا قال أدبًا : حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ؛ والاعتمادُ فى مَسْعاه ، على الخط الكريم أعلاه .

الوظيفـــة الثـانيـــة

(نظر الخزانة الكُبرىٰ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ هذه الوظيفةَ كانتْ كبيرةَ الموضع من حيثُ إنها مستودَع أموال المملكة ، إلىٰ أن حدثَتْ عليها خزانةُ

الخاصّ فانحطّت رتبتها حينئذ، وسمّيت الخزانةُ الكُبرىٰ باسمٍ هو أعلىٰ منهـا ، وأنه لم يبقَ فيها سوىٰ خِلَع تُخْلَع وتُصْرف أوّلًا فأوّلا . وقد تقدّم ما يكتب فى طُرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الخزانة :

الحمدُ لله الذى جعل الخزائنَ لذخائرنا كُهُوفا ، وملابِس إقبالنا شُنوفا ، ومَواهِبَنا تُجْزِل عطـاءً ومعْروفا . و إقبالَنـا علىٰ مُحسِن التدبير ومجمِـل التأثير عَطُوفا ، وأيادِيَنا فى إسكان جَنّتها قُطُوفا .

نحمَدُه حمدًا مألوفا . ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أوضحتْ معْروفا، ونشهد أنّ سـيدنا محمّدًا عبـدُه و رسوله الذى أزال مَخُوفا، وأقام الصـلاةَ والجهادَ صُفُوفا، وشهَر علىٰ العِدا عنـد تأبِيد الهُدَىٰ سُيُوفا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما سدَل الليلُ سُجُوفا، وسلَّم تسليما .

و بعـد، فإنّ المُلْك الشريف له تُحَف مَصُونه، وذخائرُ مكْنونه، وأصنافٌ حِسانٌ فى خزائننا مخزُونَه ، وجواهِرُ عالية القِيمة ثمينـة [لا يقوم عليها إلا من] لا يَمُـدُّ عينَ عَفافه إلىٰ المـال و إن كثُرتْ آلافُه ، ووَلَجَ لُجَّـةَ هذه الذخائرولم تُلِمّ بالبَلَل أطرافُه ، وهو فلان : العريقُ فى انتسابه ، الوثيـقُ انتمـاؤُه إلىٰ فضـل الله وجَنابِه ، النقىّ ثوبُ عِرْضه، التَّقىّ بتمسّكه بسُنَّته وفَرْضـه، الوفىّ نظره بغضّـه، المستمسك بجميع الخـيْر دُون بعضـه، من بيتِ السيادة ومَنْ هو من بَيت السِّيادة فالسُّؤدَد نجمُ سَمائه وطَودُ أرضه . فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقرّ . ...

فليباشر هـذه الوظيفة بعمَلٍ ونيّه ، متسَلّما ذخائرهذه الخزانة العليّه ، وأمورَها وأحوالَهـا ، وتفصيلَها و إجمالَهـا ، وحُمولَها وأحمالَهـا ، وحُلَلَها المرقُومه، وذَخائرَها

المعلومه، وجواهرها المنظومه، وأكياسها المختومه، وصناديقها المركومه؛ ما عن علمه فيها شىءٌ خاف، وصونُه لها كاف، وأمرُ الله بينَ النون والكاف .

وليَعْلَمْ أن خزائننا تُصَبُّ فيها سحائبُ التُّحَف والأموال والأصناف، من سائر الممالك والمُدُن والثغور والأطراف؛ ومنها يُخرج بجهاز مواهبنا وإنعامنا للأولياء الأشراف، وإنما هى لمصالح المسلمين فى الجمع والائتلاف، وتقوية أهل الطاعة على أهل الاختلاف، فليَضْبِطْ ما تُطلقُه وإن كانت الأقلامُ لا تستطيع ذلك لكثرة الإسعاف؛ ولْتكن التشاريفُ المثمنة الكامله، حاصلةً بمناطقها المجوهَرة الحائله، وطُرُزها الطائله، وتعابيها الفاضلَه، حتَّى إذا أنعمْنا منها على أحدٍ بشىءٍ يأتى بحُوله وقد حَمِد فاعلَه . والوَصايا كثيرةٌ وتقوى الله نِظام عقدها، وغَمَام رِفْدها، وزِمام مَجْدها، وتَمامُ سَعْدها؛ فليكُنْ متلفِّعًا ببُرْدِها، متضوِّعا بنَدِّها، وهو غنىٌّ عن الوصايا ومَدِّها، والله تعالى يؤيِّد حركاته فى قصدها؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه وصية لناظر الخزانة، أوردها فى "التعريف" :

وليَملأْ بنظره صُدُور الخزائن، وليجمَعْ فيها أشتاتَ المحاسن؛ وليُعِدَّ فيها كلَّ ما يُدَّخر للإنفاق، ويحتفِظ به للإطلاق؛ ويحصِّل ما يضاهى البحرَ بالتفريع والتأصيل، والجُمَل والتفاصيل، وما لا يُوزَن إلا بالقناطير، ولا يُحصى منه ملْءُ الأساطير؛ وما يُهيَّأُ من التشاريف الشريفة التى تُباهى أشعَّةَ الشموس بلَمْعها، وتُحاسِن وشائعَ الروض بخِلَعها؛ وما فيها من مخلَّقات ألوانٍ لا تُماثَل بتصوير، ولا يظُنُّها الأولياءُ إلا الجنةَ ولِبَاسُهم فيها حَرير؛ وما تحتوى عليه من عتَّابىٍّ وأطلس، ومُشَرْبَش ومُقَنْدس؛ وكلِّ طِراز مُذْهب وباهى، وما هو من ذهَب أوله يتناهى؛ وكُلِّ

ما يتشرّفُ به صاحبُ سيف وقلَم، ويُعطىٰ إنعاما أو عند أوّلِ آستِخدامٍ فى خِدَم؛ وماهو مع هذا من أنواع المستعْمَلات ، والنواقِص والمُكمّلات؛ ومايُحمَــل من دار الطّراز ، ويحمد ممــا يأتى من المُبتاع من بَزّ وبزاز؛ وما هو مُرْصَدٌ للخزانة العالية من الجهات؛ التى يحمَلُ إليها متحصِّلها: لينفق فى أثمانِ المَبيعات، ومايُستعمل،وما يُعمَّم منه بالطّرْز ويُعْمَل، وبقية مايُدَّخر فى حواصلها من مال بيت المــالِ الذى يُحمَــل؛ وذٰلك كلُّه فهو الناظرُ عليه، والمناظِرُ عنه ممــا خرج من عِنده ووصل إليه، والمحاجِجُ عنه بالمراسيم التى تُسَك للحِفظ وتُنْزَل لديه؛ فليراعِ ذٰلك جميعَه حقَّ المراعاة، وليحترِزْ قدر مايُنفَق من الأثمــان وقِيمةِ المَبيعات، وليحتَرِزْ فيما يُزَكَّى بعضُه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحُمول وما يُكتَب بها من الرَّجعَات؛ ولْيُعِر المعامَلِين من نظره مالا يجِدُون معه سبيلا، ولا يقدِرُون معه علىٰ أن يأخذُوا فوقَ قَدْر آستحقاقهم كثيرا ولا قَليلا؛ وليُقدِّم تحصيلَ كل شيءٍ قبل الآحتياج إليه ويَدَعْه لوقته، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذى متىٰ تأخَّر أُخِّرَ لوقتِه(؟)؛والأمانةَ الأمانَه ، والعَفاف العفافَ فمــا كان منهما واحدٌ رداءَ آمرِئٍ إلّا زانَه ، ولولاهما لمــا قال له الملك إنّك اليوْمَ لَدَيْنا مكين أمين وسَلَّمَ إليه الخِزَانَة .

الوظيفـــــة الثـالثــــة

(نظر خزانةِ الخــاصّ)

وهى الخِزانة التى آســتُحدِثَتْ فى الدولة النــاصرية «محمــد بن قلاوون» عنــد آستِحْداث وظيفةِ « نَظَر الخــاصّ » وقد آنتقَل ما كان يحمل إلى الخِزانة الكُبْرىٰ ويُصْرف منها إلىٰ هذه الخِزانة ، سوى الخِلَع ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ توقيع ناظر الخزانة الكُبْرىٰ .

وهـذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِب به للقـاضى شرف الدين محمد آبن علاء الدين الجَوْجَرِى[1] ، فى مستَهَلّ شهر رجب الفَرْد ، سـنةَ تِسع وثلاثين وسَبْعِمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد بنظرِنا الشريف شَرَف مَنْ لَحَه من أوليائنا [و]لَحَظَه ، وأفاد المستأنَفَ من بِرِّنا مَنْ عَهِدْنا له الفِطرةَ السليمةَ وتيقَّناً منـه الفِكْرة واليَقَظَه . وأعاد للخَلَف الكريم ، من المشائخ ما كان للسَّلَف القديم الصالح من التقديم ، الذى شَمِلهم بالتكريم ، وجعلَهم علىٰ خزائن جُودِنا العمِيم : لأنهم العلمـاءُ الحفَظَه . وجاد بالطُّرَف من خاصِّ إنعامنا العامِّ لَمنْ لقلمه عنـد الإدْناء من سَرِير المُلْك إنجـازُ عِدَة ولِلسانه عند آرتقاء مِنبر النُّسْك إبرازُ عِظَه .

نحمَـدُه علىٰ أن أجزَلَ لمن عَوّل علىٰ شامِل كَرَمِنا جزاءَه وعِوضَه ، ونشكُره علىٰ أن تطوّل بنَوافِل نِعَمِنا لمن قام بعدَ أبيه بلوازم خدْمتِنا المفترَضَه ، وعكف أعمالنا علىٰ بيتٍ مبارَكٍ مامنهم إلا من شُمِل من إحساننا بالمِنَح لـما بذلَ لسلطاننا من النُّصْح ومَحَضَه .

ونشهد أنْ لا إِلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُودَع مَصُونُهـا فى الأرائك المتعلِّيَة ويَقطَع يقِينُها الشكوكَ المعترِضه ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى عظُمتْ عطايا بَذْله ، فالبحار المرتفِعةُ عنها منخَفِضه ، وكَرُمتْ سَجَايا فضله ، فليست بمنتقِلة وأُبْرِمت قضايا عدْله ، فليست بمنتَقِضه ، وعَمَّتْ البرايا يَدُه البيضاءُ التى هى بالأرزاقِ فى الآفاقِ مُنبسِطةٌ وليسَتْ عن الإنفاق خشيةَ الإملاقِ منقبِضَه ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهـم إلا من أقرضَ الله قَرْضا حسناً فضَاعفَ له ما أقرضَه ، صلاةً تُدْنِى لقائلها فى الأُولىٰ من النِّعمة والأمانِ أملَه وتُؤْتيه فى الأُخْرىٰ من الرحمة والرضوان غَرَضَه ، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين و راء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢

وبعـد، فإن أولىٰ مَنْ رُفع بإكرامنا إلىٰ رُتْبة عَلائه، وٱنتَفَع من مقامنا الشريف باختصاص خدْمته وإخلاص وَلَائه ـ مَنْ شفَع مزاياه بجَمْع أشتات العُلوم فى أبكاره وآنائه، وٱستُودِع ذَخائرَ مُلْكنا المصونةَ فكان حفيظًا عليما عند ٱقترابه منّا وإدنائه، وصَدَع القلوب بإبْداع وَعْظه وإبْدائه، وٱتبعَ سبيلَ والدِه القويم، فى الشّدّة فى الحق والتّصميم، وسلَك طريقته التى هـداه الله إليها بتوفيقه فأدْرك غايتَه فى ٱبتـدائه، وقَنِـع بمـا آتاه اللهُ تعالىٰ فآثَرتْ مكارمُنا رِفعةَ محلِّه وتَوْسعةَ حِبائه، وبَرَع فى إتقانِ الفضائلِ التى آذنَتْ باصطفائه وٱجتبائه، ووَقَع عليه ٱختيارُنا الذى نستخير اللهَ تعالىٰ له فى إبْرام كلِّ أمرٍ وإمضائه، وأجمعَ عليه رأيُنا الذى كم أصابَ الصوابَ فى تعيين العُلَمـاء الأنجاب فنَصَّ عليه الأستحقاقُ بإيجابِ الترجيح وٱقتضائه.

وكان المجلس السامى الشَّرَفىّ هـو الذى قدّمْناه بعد أبيه لشهادة خَزائننا الشريفة فشاهَدْنا من حُسْن سَيْره ماأبْهج، ونظَمْناه فى سِلك أولياء المُلْك فسَلك من الخَيْر أقومَ مَنْهج، ثم أردْنا الآنَ أنَّ هلالَه يَنتقل إلىٰ رُتْبة الكمال لَمّـا تدرّبَ وتدرّج، وأعدْنا له تامَّ الإقبال حيثُ شَرفُ دولتِنا الأعلىٰ ـ زاد الله تعالىٰ تأبيدَه ـ بذكره لديْنا وبشُكْره عندنا يُلْهَج ـ فٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أنَّ هـذا النظرَ الجميلَ عنه لا يُخْرَج، وهذا الوِقْرَ الجليل لا يُعـدَل به عن فرعٍ مُنْجب لأصلٍ طيِّب أثمـرَ الوَلَاءَ والدُّعاءَ لأيّامنا الشريفة وأنْتج.

فلذلك رُسم ... ... لا زالتِ الصدُور بصُدُور أحكامه تَثْلَج، والأمورُ بمرُور إنعامه تفْضُل علىٰ الحقِّ الأبْلَج ـ أن يستقر ... ... فلْيَنْطِقْ لسانَ كَلمـه بالإخلاص فى حمـد الخاصّ والعامِّ من هـذا الإكرام الذى بمَطارِفه تَسَربل وبعَوارِفه تتوّج، ولْيُطلِق سنانَ قلَمِه فى تبييض المَصَاحف بذكر إنعام المَقَام الذى هو كالبَحر ويُفْصِح

غِنى حمده فهو بحمد الله لا يتلجلج ، وليُحقِّق ببيان حُكْمه ضبطَ الأصل والخصم والواصِل والحاصِل والمُحْضَر والمُخْرَج ، ولْيُنفِق فى أوليائنا من عوائد صِلات نَعْمائنا التى تَقْبِضُها أيدى ملوك المدائن بَسْطٍ ومن بَعْضها صُدُور الخزائن تَحْرَج ؛ ولْيسْلُك سُنَن أبيه التى بها يستظهر ويفتخر ويستدلّ ويحتجّ ، ويَستمسِك بسببه الأقوى من الدِّيانة التى بابُها من النجاة فى الدارين غير مُرْتَج ؛ ونترك له تفصيلَ الوصايا لأنه قرينُ كفيلٍ مُلْكنا القوىّ الأمينِ ذِى الإرشاد والسَّداد فمع مراقبته فى الإصدار والإيراد والتَّكرار والتَّعداد لم يَحْتَجْ ، والله تعالىٰ يجعل الطُّروس بذِكْر تقديمه تحبَّر وتُدبَّج ، والدروس تُنْشَر وعلومه تَعطَّرُ وتتأرَّج ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــــة الرابعــــة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّمَ أنّ موضُوعَها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه أستاد الدار ، وتقدّم الكلامُ علىٰ ما يُكتَب فى طرّة تقليدِ ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البيُوت والحاشيةِ :

الحمدُ لله الذى عَمَّر البيوتَ بنَواله ، وكَثَّر فيها أصنافَ النِّعم بإفْضاله ، وجعلَ فيها الخيرَ يتضاعفُ مع كلِّ يوم بتَجدُّدِه ومع كلِّ شهرٍ بإقْباله .

نحمَده علىٰ مَديد ظِلاله ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ صادق فى مَقَاله ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولهُ الذى رَحِم الله العالَمِين بإرْساله ، وسَقَىٰ الجيْشَ من كَفِّه بنَبْع زُلاله ؛ وأوَىٰ إلىٰ المدينة دار هجرته وانتقاله ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الناصِرِين لهذا الدين فى كل حاله ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنّ طراز المُلك الشريف البيوتُ الكريمة : فمنها يتفجّر ينبُوع الرِّزق الجارى ، ومنها يُضيء سَقْط الزّند الوارى ؛ ومنها تُبْسَط الخوَانات ، وتُمَدّ الأسْمِطة فى المهمّات ؛ ومنها يقومُ للسعد نُصْبات(١) وأىّ نُصْبات ، ومنها تُقَسَّم ألوانُ الطيّبات علىٰ مقْتَرَح الشهوات ؛ وعمادُ أمرِها علىٰ ناظر يقُوم بتأصيلها وتفريعها ، وتجنيسها وتنويعها ؛ وتكثير حاصلها ، وآستدْعاءِ واصلها ؛ وجَمْع كلّ مافيه مَرْغُوب ، وآدِّخار كلّ ماهو محْبُوب ؛ وتأليف القلوبِ علىٰ شكره وجُلّ مافيها عملُ القُلُوب .

ولمّا كان فلان هو الرشيدَ فى فِعله ، المأمونَ فى فضْله ؛ الأمينَ فى عَقْده وحَلّه ، المسدَّدَ فى الحال كلّه ، المُعطِىَ المباشرةِ حقَّها علىٰ ما ينبغى فى الشهر مِنْ مستَهَلّه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقرّ ... ... فليباشِرْ هذه الوظيفةَ الكريمةَ مستجْلِبا المَنَافع ، مشَنِّفا بحُسْن سِيرتِه المسامع ، طالعًا من العَفَاف فى أبْهىٰ المَطَالع ؛ مستَدْعيًا ما جرتِ العادةُ بآستدعائه من أصناف المَتْجَر(٢) السعيد من أصنافٍ متعدِّده ، وأنواعٍ منَضَّدَه . وليُزِحْ أعْذَار المصالح السعيدةِ من كلّ صِنْف علىٰ حِدَه ، وليستجْلِبْ خواطر المُعامَلِين بوفَائهم وإنجازهم كلَّ عِدَه ؛ والرواتبَ اليوميّةَ ليَصْرِفْها لمستحِقّها ، والبُيوتات فليسدّ خَلَلَها حتّى لا يظهر نقصٌ فيها ، ومرتَّبات الآدُر(٣) الشريفة فلتَكُنْ نُصْبَ عينيه علىٰ مايُرضيها ؛ وما آختَرْناه لهذه الوظيفة إلا أنّه أنسَبُ من يليها ، والوصايا كثيرةٌ وتقوىٰ الله فلتكُنْ أطيبَ ثمراتٍ يجتَنيها ، وأحسَنَ مِنَحاتٍ يجتَليها ، وأزينَ زينةٍ يحْتَليها ، وهو غنىٌّ عما تُشافِهُه [به] الأقلام منْ فِيها ، والله تعالىٰ يَصُون هِمَمَه ويُعْليها ، بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ .

(٣) جمع دار على القلب .

❖

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر البيوت :

الحمــدُ لله الذى جدّد لأَوْليائنا مَلابِسَ السُّعود، وشَــيَّد لهم مَبانِيَ العِزّ وضاعَف لِقَدْرهم الترقِّيَ والصُّعُود، ووالَىٰ إلىٰ أوليائِهم (١) سَحائِبَ الفضل المستهِلّةَ بالكَرَم والجُود.

نحمده علىٰ نِعَمِه الضافيةِ البُرُود، ومِنَنه الصافيةِ الوُرُود، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُرْغِمُ بهــا أنْفَ الجَحُود ، ونشهد أنَّ محمدا عبــدُه ورسوله صاحبُ الحوضِ المَوْرُود واللِّواء المعقُود ؛ صــلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين جادَ كلٌّ منهم بمــالِه ونَفْسه فى رضــاه والجُودُ بالنَّفيسَيْنِ أقصىٰ غايةِ الجودُ ؛ صلاةً دائمةَ الإقامة فى التهائم والنُّجُود، مستمرَّةَ الإدامةِ ماتعاقب السَّحابُ روْضًا بجود ؛ وسلَّم تسليما كثيرا

وبعــدُ، فإن أوْلىٰ من غدَتِ البيوتُ آهلةً بوُفُود نَظَره، عامرةً بسَــداده وجميلِ فِكْره، مشيَّدةً بمــا يُبْديه من أوْضاح التقرير وغُرَرِه ـ مَن سَمَــا هِمَّةً وحَسُن سَمْتا ، وسلكَ فى الأمانة طريقًا لا عِوَج فيها ولا أَمْتَا ؛ وحَلَّ فى الرُّتب فخَلَّاها، وتنَقَّل فيها فمــا قالتْ له إيهِ إلا وقال الذى فارَقَها آهَا ؛ وكان فلان هو الذى آستحَقَّ بكفايَته حُسنَ التنقُّل، وآستوجبَ الصِّلَةَ والعائدَ لمــا فيه من جميل التأنِّى والتوصُّل ـ آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نَنْقُله إلىٰ رُتَب السعاده ، وأن نخُصَّه كلَّ حِينٍ من نِعَمِنا بالحُسنىٰ وزِيادَه . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرّ ...

فليَضْبِط أصُولَها وفُروعَها، ومُفْرَدَها ومجموعَها، وليُؤْنِس بحياطةِ آجتهاده رُبُوعَها، وليَكْفُلْها بأمانةٍ تضُمُّ أطرافَها، ونزاهةٍ تُحَلِّىٰ أعطافَها، وكتابةٍ تحصُر جليلَها ودقيقَها ،

(١) لعل الصواب ووالى إليهم سحائب . تأمل .

ونَباهةٍ تُوفِّي شُروطَها وحُقوقَها، وليحَرِّرْ وارِدَها ومصْروفَها، ليغدُوَ مشكورَ الهِمَم موصُوفَها، ولْيلاحِظْ جرائدَ حِسابها، ويحفَظْ من الزيغ قَلَمَ كُتَّابها، حتَّى يَنْمِيَ تصرُّفه فيها علىٰ الأوائل، ويُشْكرَ تعرُّفه وتعطُّفه علىٰ كل عامِل ومُعامل، والله تعالىٰ يبلِّغه من الخير ما هو آمِل، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السِّلاح)

وقد تقدّم أنّ موضوعَها التحدُّث فيما يستعمَل ويُبْتاع من أنواع السِّلاح الذى يحمل للزَّرَدْخاناه السلطانية . وقد جرَتِ العادة أن يحمَلَ ما يَتحصَّل من ذٰلك فى كل سنةٍ إلىٰ الزَّرَدْخاناه مرّةً واحدة . وقد تقدّم ما يُكتب فى طرّة توقيع ناظِرِها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المَوْلىٰ « شمسِ الدين بن القَيْسَرانِىّ » كُتب به « لفخر الدين » أخى جمال الدين ناظر الخاصّ، وهى :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ الذى ضاعفَ فخرَ المناصب، بمتوَلِّيها، ورفَع قدرَ المراتب، بمن يُكبِّرها بقدْره العلى ويُعْليها، وأمدّ المَقانبَ[1] بنظر ذى المَناقب الذى يُزيِّن بمرهَف حَزْمه أساحِتَهم ويُحَنِّيها، ويمضِى بماضى عَزْمه كلَّ فِرِنْدٍ فرِيدٍ يُسعِّر نارَصَليله بنظره السعيد ويجلّيها، جاعلِ أيّامنا الشريفةِ تقدِّم لخدَمها كلَّ سَرِىٍّ تسرى به هِمَمُه إلىٰ العلياء، وتَنتخِبُ لحسن نظرها من يعْلُو بكَرَم الذات وجَمال الإخاء، وتُولِّى من الأولياء من يُعِدّ للأعداء خزائنَ سلاحٍ تُبيدهم بها جيوشُنا المؤيّدةُ فى فَيافى البَيْداء، إذا دارَتْ رحىٰ الحرب الزَّبُون وثارتْ وَغىٰ الغارة الشَّعْواء. والشهادةِ له بالوحْدانية

---

(١) جمع مقنب "كمنبر" وهو جماعة الخيل والفرسان .

التى آتّسق بدرُها، فى سماء الإخلاص، وأشرق فجرُها، بضياء القُرْب والآختصاص، وسَما فخرُها، بجلال الجَمَال فأصبح بحمد الله آخذًا فى المَزِيد آمنًا من الآنتقاص، وعلا ذكرُها، بما دَرَّعَنا به من دُروع التوحيد وأسبَغَ علينا منه كلَّ سابغة دِلَاص. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى خصَّه الله بالتكريم والتعظيم، وختَم به الرسُلَ الكِرام بما منَحه من الأصطفاء والتقديم، وأوحى إليه فى الكتاب الحكيم: ﴿أنِ آتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ﴾. وعلى آله وصَحْبه الذين هم أشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحَماءُ بينهم، وقرّب قُرْبهم لديْه صلى الله عليه وأذهَبَ بيْنَهم ـ فإنَّ من شِيَم أيَّامنا الشريفة أن تُبلِّغ أولياءَها مَراما، وتَرعى لأصفيائها ذِماما، وتصطفِيَ لولاية الرُّتَب من أضحى ثغرُ وَلائه بَسَّاما، وتُجرِّدَ لحسن النظر من يُجرّد بهِمَمه حُسَاما حَسَّاما، لا سيَّما من آقتفى سَنَن أخيه ـ أجلَّه الله ـ فيما يأتى ويَذَر، وآهتدى بَهدْيه فى كلِّ وِرْد وصَدَر، وحذا حَذْوه السديدَ الأثَر، السعيدَ النظر، وآتّبع رُشْدَه الساطعَ البَلَج اللامعَ الغُرَر، وسار سيْرَه الذى تتأرّجُ به أرجاءُ الممالك فحيثُ سارَ سَرّ؛ إذ هو جمالُ الجُود، جَلَال الوجُود، مُقيل عِثار الملهُوف والمجهُود، موئِلُ التهَائم والنُّجُود، مستجْلِب الدعاء لنا من الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود، ذُو المآثِر التى ذِكْرُها أعطَرُ من الروض المَجُود المَوْجُود، والمناقب التى يُساوِى فيها الكواكبَ ويسامِتُها فى السُّعود والصُّعُود.

ولما كان المجلسُ العالى الفخْرِىّ قد أصبح فخْرُه بأُخُوته ناميا، وقدْرُه بأبُوته ساميا؛ وأصبحتْ مَفاخِرُه به خالِدَه، وجمع مَزَايَا وسَجايَا جَمعتْ له طارفَ السَّعد وتالِدَه ـ آقتضى رأينا الشريف أن نُشدّدَ له بأخيه[(1)] أزْرا، ونُجدّدَ له فى إصلاح السلاح نَظَرا؛ ليكون لأخيه ـ أعزه الله تعالى ـ النظرُ على الخاصِّ والعام، وبيده مقاليدُ خزائننا التى يشْمَل منها البرايا بصُنوف الإنعام؛ وتدبيرُ خواصِّنا الشريفة وجيوشنا

(١) لعله «أن نشدّد به لأخيه».

المؤيّده، وله النظرُ علىٰ اعمال لَبُوس، تقِى من الجيوش البُوسَ : البَيْض [ذَات] القَوَانِس ، واليَلَب المُدار والسُّمْرِ المَدَاعِس، والبِيض المُهَنَّده .

فلذٰلك رُسِم ... ... لا زال يجمع لأوليائه علىٰ آلائه شَمْلا ، ويرفَع أقدارَ أهلِ الكَرَم باستقرار النِّعم إذْ كانُوا لها أهْلا وبها أَوْلىٰ ــ أن يستقِرَّ فلان فى نظر خزائن السِّـــلاح المنصورةِ علىٰ عادةِ من تقدُّمه وقاعدته ، و بمعلومِه الشاهدِ به الدِّيوانُ المعمورُ لهــذه المآثر التى بثَّها القَلَم ، والمَفاخر التى آشتهرت كالنار على العَلَم ؛ فلْيكْشِفْ مابهذه الخزائن من عُدّة الحرب ، والآلات المُعَدّة فى الهيجاء للطَّعْن والضَّرْب ؛ ويشمِّرْ فى تكثيرها عن ساعدِ آجتهادِه ، ويعزِّزْ موادَّ الإمداد بها بحُسن نظره ويُمْن آعتمادِه ؛ ويستعْمِلْ بِرَسْم جهاد الأعداء كلَّ نصلٍ صقيل ، وصَمْصامٍ له فى الهامِ صَليل ؛ وصفيحةٍ بيضاءَ تبيَضُّ بها بين أيدينا الصَّحيفه ، ولبوسٍ تُرهِبُ عدوّ الله وتُضاعف تخويفَه ؛ وزاعِبِيّ يُرْعِب ، وسَمْهَرِيّ يُزهِق بلسان سِنانه النُّفوسَ ويُذْهِب ؛ وخِرْصانٍ تُكلِّم الأبطالَ بأَسَلِ ألسِـــنَتها فى الحروب ، وقَواضِبَ لهـــا فى سمــاء العَجاج شُروق وفى تَحَلِّي[1] الكفّـــار غروب ؛ وبَدنٍ يقُدّ الأبدان ، ولأمةٍ لم تُبارَ فى تحصينها وتخييرها ولم تُدان ؛ وفَضْفاضةٍ علىٰ جُنود الإسلام تُفَاض ، وسابغةٍ تُسْبَغ علىٰ كل راجلٍ من أهل الإيمــان ليَقْضِيَ من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفَظْ ما يُنْفَق علىٰ هــذا العَدَد من الضِّياع ، ويأتِ بمــا تأتى به الضِّياع علىٰ أحسن الوجُوه وأجمــل الأوضاع ؛ وليَضْبِطْ ما يُصرفُ عليها من الأموال ، ويعتمِدْ فى نظرها ما تُحمَد عاقبةُ أمره فى سائر الأحْوال ؛ ويتيمَّنْ فى سائر أفعاله بَميامِن كماله ، ويسترشِدْ بمَراشِده فى أموره باليُمْن والرُّشد من خِلال جَمــاله ؛ ويسْلُكْ بحُسْن نظره لهــذه الخزائن ما يُنتظَر به أن يفُوقَ أنظار الأنظار ويرتَقِب ، ويعلَم أنَّ هــذا أوّلُ

(١) التحلى الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأوّلُ الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسَكِب) ؛ والله تعالىٰ يجعل خزائنَ الإسلام بجمال نظره آهِلَه ، ويُورِدُها مواردَ العزّ الدائم ويُصَفّى من أكدار الأقذار لها مَناهِلَه ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الوظيفــــة السـادسة

(آستيفاء الصُّحْبة)

وصاحبها يَتحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه ناظرُ الصُّحْبة المقدّم ذكرُه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك ، من إنشاء القاضى «ناصرِ الدِّين بن النَّشائى» وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ فخارَ أوليائنا رِفعةَ المِقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خيرَكافٍ آستوجب منّا بجميل خِدْمتِه جزيلَ الإيثار ، وجاد بالجُود وآبتدأ السعود لمن حسُن فيه الآختِيار وحُمِد الآختيار ، وآرتاد للمَناصِب العليّة كلَّ "مستوفٍ" للمحاسن له حقُوقُ وفاءٍ لا تُضاع وقدَمُ ولاء أجملَ فيه الإيرادَ والإصْدار .

نحمده علىٰ نعمٍ أجزلت الآثار ، ونشكُره علىٰ مِنَن أجملت المَسارّ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخلِص يترشّف ساحَ ثوابها الدارّ فى تلكَ الدار ؛ ونشهد أنَّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أيّد الله به المؤمنين وأخمدَ نارَ الكُفّار ، وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناءَ الإسلام بعدَ ما كاد يَنْهار ، وأسرىٰ به إلىٰ السَّبْع الطِّبـاق فطبّق نبأُ معجزاتِه الأرضَ وملأَ الأقطار ، صـلاةً باقيةً لا تزال أغصـانُ أجُورها دانيةَ القُطوف زاكيةَ الثِّمـار ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ أجلَّ النِّعم ما علَتْ ملابِسُها ، وأجملَ المِنَن ما غلَتْ نفائسُها ، وأكملَ المَنح ما زكَتْ فى رياض الإقبال غرائِسُها ، وأجزلَ العطايا ما جُلِّيتْ فى حُلَل الفخار

عرائسُها ، وأولى الأوليـاء بتحويل ذلك لديْه ، وتخويل هـذه المواهب إليـه ، وإسباغ أثواب الآمتنان عليه، وآجتبائه لرُتَب علتْ محَلّا ، وآختياره لمنصب يُصْبح به جيدُه من عقود العناية مُحَلّى - من شُكِرت أوصافُه ، وآشتهر عفافُه ، وحَسُن منّا إسعادُه و إسعافُه ، وحُمدت خلالُه ومآثِرُه، وحاز فخـرَ نعْته ونَفْرَ ذاته فلا غَرْوَ أن تعدّدت مفاخِرُه ، وأسلفنا من خِدْمتـه ما آستوجَبَ أن يجنِيَ به ثمـارَ الإحسان ، وقدّم بيْن أيدينا الشريفةِ من يُمْن تصرُّفه ما أنتج له مضاعفةَ الآلاءِ الحِسان .

ولـمـا كان فلان هو الذى تحلَّىٰ من هـذه الأوصاف بعقُودها ، وتجلَّىٰ فى مَطارِف بُرُودها ، وأثنَتْ علىٰ خِصاله ألســنةُ الأقلام ، وأثبتَتْ جميـلَ خِلالِه فى صُحُف أوراقها وصحائف الأيَّام ، وحازَ من الأمانة والنَّزاهـة كلَّ ما يُشكَر به على الدَّوام ، وآمتاز بحُسْن الكتابة التى تَقَرُّ النواظر وتَسُرُّ الخواطر وتُزْرى بالروض البسّام . ما باشرَ رُتْبـة إلا وَفَى بها ، وحفِظ أموالَـها وغلالَها وضَـبط أمورها وكَفَى بهـا - آقتضىٰ رأْيُنا الشريفُ أن نَنْقُـله إلىٰ درجات الســعاده ، ونَمْنَحه مِن إقبالنا الشريف زيادةَ الحُســنىٰ وحُسْن الزِّياده ، ونخُصَّـه بوظيفة تُدْنيه منّا قُرْبا لنكون قد أجمَلْنا له الآبتداءَ والإعادهْ .

ولذٰلك رُسِم بالأمر الشريف - لا زالَ فخرُ أوليـائه بمَزِيد آلائه ساميا، وقَـدْرُ أصفيائه بمديد عطائه ناميَا - أن يستقرّ فى كذا .

فلْيتلَقّ هذا الإحسانَ ، بيدِ الآستحقاق ، وليتقلَّدْ عقُودَ الآمتنان ، الذى طالمَـا قلّد جُودُهُ الأعناق ، ولْيباشرْ ذٰلك مباشَرةً يَسُرُّ خُبْرُها ، ويسير خَبَرُها ، ويشنِّف الأسماعَ تأثيرُها وأثرُها ، وليَسلُكْ فيها من السَّداد ، ما يؤكّد حمْدَه ، ومن حُسن الآعتماد ، ما يؤيّد سَعْدَه ، وليعتمِدْ فيها من الأمانة ما هو المشهورُ من آعتماده ، ومن العَفاف ما صَحَّ عنه نقلُ إسناده ، وليدبِّج المراسيمَ الشريفةَ بقلَمه السعيد، وليوشِّها بكتابته التى بها الحسن

مبدئ ومُعيد؛ وليَضبِطْ جميعَ أموال الديوان المعمُور وغلاله ، وسائر أموره وأحواله ، وليستوْفِ بقَلَمه علىٰ مُباشِريه وعُمَّاله ، وليُحِطْ عِلْما بخَراج بِلاده وأعماله ؛ وليستَرفع الحساب شامًا ومصرا ، وليتصَفَّح الرِّقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليَحْوِىَ بجميعها خُبْرا ، وليتعَيَّنْ جُمَلها وتفصيلَها ليكون بمُخرَجِها أدرَبَ وبمَرْدُودها أدْرىٰ ؛ وليَحْصُرْ متحصَّلَها ومصْرُوفَها ، ومعَجَّلَها وموقُوفَها ؛ حتّى لا يخْرُجَ شىءٌ عن علمه ، ولتكُنْ جُملةُ هـذا الأمر محرّرة فى ذهْنـه ليجيب عنها عنـد السؤال بتحقُّق فهمه ؛ والوصايَا كثيرة وهو بهـا خبـير عليم ، حائزٌ منها أوفىٰ وأوفر تقسيم ، ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ فليجعَلْها عُمدتَه ، وليتَّخذْها فى كل الأمور ذَخيرتَه ؛ والله تعـالىٰ يُضاعف له من لَدُنَّا إحسانا ، ويرفَع له قدرًا وشانا ؛ والاعتمادُ على الخطّ أعلاه .

* * *

وهذه وصية لمستوفِى الصحبة أورَدَها فى "التعريف" وهى :

فهو المُهَيْمن على الأقلام ، والمؤتَمن علىٰ مصرَ والشام ، والمؤمَّل لمـا يَكْتُب بخَطِّه من كل ترتيبٍ وإنعام ، والملازِمُ لصُحْبة سلطانه فى كل سفَرٍ ومُقَام ؛ وهو مستوفى الصُّحْبه ، والمستَوْلِى بالهِمَم علىٰ كل رُتْبه ؛ والمعوّلُ علىٰ تحريره ، والمعمُولُ بتقريره ، والمرجوعُ فى كل الأمور إلىٰ تَقْـديره ؛ به يتحرّر كلُّ كشف ، وبكَفِّه يُكَفُّ كلُّ كَفّ ، وبتنزيله وإلّا ما يكْمُل آستخدامٌ ولا صَرْف ؛ وهو المتصفِّح عنّـا لكلِّ حساب ، والمتطَلِّع لكلِّ ما حضَر وغاب ؛ والمناقِشُ لأقـلام الكُتّاب ، والمحقِّق الذى إذا قال قال الَّذِى عِنْـدَهُ عِلْمٌ من الْكِتاب ؛ والمُظْهِر لخبَـايَا ، والمُطْلِـع لخفَايا ؛ والمتَّفَق علىٰ صحّـة ماعنده إذا حصـل الخلاف ، ووصـل الأمرُ فيه إلى التّلاف ؛ وليُلْزِم الكُتَّاب بمـا يلزَمُهم من الأعمال ، ويحررها بمستقرّ إطلاقه وضرائب رءُوس

المـال ؛ وعَمَلِ المكلفات وأن يُكلَّفُوا عمَلَها ، وتقديرِ المِسـاحاتِ وليتَتَبَّع خَلَلَها ؛ وليُلْزِمهمْ بتمييز قِيَمِها بعض عن بعض، وتَفاوتِ ما بين [تسجيل](١) الفُدُن فى كل بلد بحَسَب ما تصلُح له زراعةُ كلِّ أرض ؛ و بمسـتَجِدّ الجرائد وما يقابل عليـه ديوانُ الإقطاع والأحباس، وغير ذلك ممـا لا يحصل فيه ٱلتباس .

ومثلُك لا يُزَوَّد بالتعليم، ولا يُنازَع فكلُّ شيء يؤخَذُ منه بالتسليم؛ وما ثَمَّ مايُوصىٰ به رَبُّ وظيفةٍ إلا وعنـده يتَنَزَّل علمُهُ ، وفيـه يتَنَزَّه فهمُهُ؛ ومِلاكُ الكل تقوى الله والأمانة فهما الجُنَّتان الواقيتان ، والجَنَّتان الباقِيَتان ؛ وقد عُرِف منهما بمـا يُفاض منه عليه أسبَغُ جِلْباب، وأسبَلُ سِترٍ يُصان به هو ومن يتخِذُهم من مُعِينينَ ونُوّاب؛ والله تعالىٰ يبلِّغـه من الرتَب أقصاها ، ويُجرِى قلمَـه الذى لا يَدَع فى مال ممـالكنا الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثـالثـــــــة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية

ما يُكتَب فى قطع العادة : إما فى المنصورىّ، مفتَتَحا بـ«أما بعد حمد الله»

أو علىٰ قَدْر المكتوب له فى القطع الصغير، مفتَتَحا بـ «رسم بالأمر الشريف »

إن ٱنحط قَـــدْره عن ذلك)

وفيهـا وظائف :

منها ــ كتابةُ الدَّرْج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهـذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّرْج الشريف ، كُتِب به للقـاضى تاج الدين ، عبد الرحيم بن الصاحبِ فخر الدين بن أبى شاكر، وهى :

(١) الزيادة من التعريف ص ١١٥ .

رُسِم .... — لا زالت صدقاتُه الشريفةُ تشمل نُجَباءَ الأبناء، ومبرّاتُه الجسيمةُ تُجزِل للولد البارّ حُسْنَ الزيادة وزيادةَ الحُسنىٰ. وهباتُه الكريمةُ تُقبِل بوجه الإحسان علىٰ فَرْع الأصل الأسمىٰ وتُرصِّع تاجَه بجوهر نحره الأسنىٰ، وسِماتُه الوسيمةُ، تجمّل شَدَّ أزر الوزارة الفخيمة، بأكْفَإ نجل تثنىٰ الزمانُ عنانَ الرياسة إليه وعليه أثنىٰ — أن يستقرّ فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبّى فى حَجْرِ الرياسه، واجتنىٰ من الروض المجدَ الذى أعلىٰ السعدُ غراسَه ؛ ونشأ من محلّ السُّؤدَد والفَخار، ونزَغ من بيتٍ حقَّت له رفعةُ الأقدار ؛ وبَسَق غُصنُ فرعه من أصلٍ ثابت، وسَما بدَوح عِزٍّ فى مواطن المَعالى نابتْ، وهمىٰ ندىٰ قلمه بانتسابه إلىٰ سَراة الكُتَّاب فناهيك من كاتبٍ لأبى الخَلَل كابتْ ؛ تعترفُ الدولةُ لسَلَفه بسالف العُهُود، وتغترف من مَنْهَل تدبيرهم المَوْرُود ؛ وتحلّىٰ من تاجهم بأسنىٰ العقُود، وتسمُو من فخر وزارتهم ووزارة فخرهم بمـا يملأ الوُجُود بالجُود؛ وتختال من تصريف أقلامهم وأقلام تصريفهم فى روض التنفيذ المَجُود فإنْ ذُكِرت مآثِرُ جَدّه قَصَّرتْ عن إدراكها الحُـدُود، وإن شُكِرت مناقبُ والده — أجله الله — ففَخْرها البـاذِخُ مشهُود؛ وهو بلسان العـامّ والخاصّ ممْدُوح محمُود، وإلىٰ معانى خطّه تنتهى درجاتُ الصُّعود والسُّعود؛ فلا غَرْوَ لهـذا الفَرْع الناجب أن يتّبع أصْـلَه، وأن يَسْلُك فضائلَه وفَضْـلَه ؛ وأن يقفُوَ مَنْهَجَه، ويحْذُوَ فى الكتابة طريقتَه المُبْهِجه ؛ ويأتِىَ من البَراعة بسَنَنها القويم، ويبْرُز من اليراعة وشْىَ خَطّه الرقيم؛ وأن يُحلّىَ أجيادَ المَهارق بجوهر تاجه النَّضيد النَّظيم، وأن تحلُوَ ألفاظُه فى الإنشاء حينَ تمُرّ علىٰ الأسماع مُرورَ النسيم ؛ [لا] سيّما وقد ظهَرتْ عليه من مَخايل الرآسـة دَلائل ، وشُرعتْ له مناهلُ الأدَب والفضائل ؛ وحازَ من حُسْن النشأة ما سار بشُكره المَثَل ، وحصّل من الاشتغال علىٰ كَنْز المعرفة واشتمل ؛ وغدا جديراً بكل مرتبةٍ سنيَّه، وكل رِفْعة هى بأعدائها مبنيه .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج ع م
تليفون ٩٠٠١١٨ ص ب ٢٤٦٣

